مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم
MOHAMMED BIN RASHID
AL MAKTOUM FOUNDATION



عبد اللّه إبراهيم

موسوعة السرد العربيّ

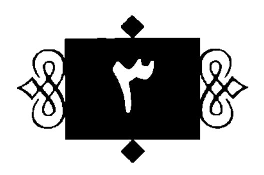






عبد اللّه إبراهيم

موسوعة السرد العربيّ



عبدالله إبراهيم

موسوعة السرد العربيّ

٣



ABDULLAH IBRAHIM

ENCYCLOPEDIA OF ARABIC NARRATIVE

عبدالله إبراهيم

موسوعة السرد العربيّ

موافقة «المجلس الوطني للإعلام» بدولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: (142180) تاريخ (2016/9/21).

ISBN:978-9948-02-419-4

الطبعة الأولى: تشرين أول / أكتوبر 2016م / 1438هـ

توزيع:



قنديل للطباعة والنشر والتوزيع
Qindeel for printing, publishing & distribution

ص. ب. : 71474 شارع الشيخ زايد - دبي - دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae - الموقع الالكتروني: www.qindeel.ae

مقدّمة

اقترنت فكرة الارتحال بالآداب منذ القدم ، فبالارتحال يمكن معرفة عالم مغاير ، وكشف أنظمته : الاجتماعية ، والدينية ، والثقافية ، وتقصّي أطباع أهله ، وتتبُّع سجاياهم . وغالبًا ما تطوف الشخصيات المترحّلة في أماكن نائية ، فتعود محمّلةً بتجارب جديدة ، وتخيُّلات مبتكرة . وفي الآداب الخرافية ، والملحمية ، والشعبية ، تدفع الصدف بالشخصيات إلى الارتحال ، فتتهيّأ لها ظروف مساعدة للوصول إلى بلاد بعيدة ، وتُمدّ لها يد العون في العودة إلى أوطانها ، وذلك مرتبط بحقبة التفكير السحري القائم على مبدأ الغموض والصدفة . وكل سرد إنما هو تعيين لتوازن في الأحداث ، ثم فقدانه ، والعودة ثانيةً إليه . ولا تحتمل الشخصية في أدب الارتحال غيابًا مطلقًا للتوازن ، وأمر استكشافها للمكان الذي ترحل إليه لا يقع بداعي الرغبة ، واستجابةً لدافع المعرفة فحسب ، بل -أيضًا- بسبب أحداث خارجية تسهّل ذلك ، وترغّب فيه ، كالابتعاث ، وطلب العلم ، والتجارة ، والسفارة .

بعد أن يتحقّق ميثاق السرد ، ومضمونه الارتحال والاكتشاف ، تعود الشخصية إلى عالمها الأول ، مؤْثرةً الاستقرار ، فتشرع في رواية ما وقع لها ، وما شاهدت من أحوال الأمم الأخرى ، وتتوسّع بذكريات الأسفار ، ثم تستخلص القيم الاعتبارية للتجارب التي تعرّفتها ، فوجود الشخصية المترحّلة مرتبط بما ترويه من تجارب غير مألوفة في المكان الذي عاشت فيه . وتُجري غزارة السرد تعديلاً على مغامرتها الذاتية ، فتعيّن مسارها ، منذ البداية إلى النهاية ، وترسم الإطار الناظم لقيمها ، وأخلاقيّاتها ، ورؤيتها ، وتفصح عن مضمون التأكيدات ، والتأويلات ، حول العالم الذي طافت فيه .

ويخلّف انتقال الشخصية من المعلوم إلى المجهول تَرِكة من التجارب ينبغي أن تروى، فتفيض الشخصية بالسرد بوصفه معادلاً موضوعيًا لانقضاء المغامرة التي أصبحت ذكرى مستعادة. وبالارتحال لا تغادر الشخصية عالمها المألوف، فقط، بل تغادر جزءاً مدركًا من ذاتها، فالمغامرة تترك أثرها في الشخصية، فتبدّل جانبًا من طِباعها، ورؤيتها للعالم. والارتحال هو اختبار القدرة على الجَلد، والمُكنة من التتبّع، وسردُه سعي في معرفة المجهول، وبوح بما لا يُكتم.

احتل أدب الارتحال موقعًا أساسيًا في السرد العربي القديم، واقترن بـ«مغامرة فردية»، خاضها الرحّالة في عوالم مختلفة عن عوالمهم، فخلّف ذلك سردًا ثقافيًا، عُني بوصف تجارب التطواف مشتبكةً بأحوال تلك العوالم، وقد نزع التمثيل السرديّ إلى التقريرية؛ إذ غادرت اللغة كونها وسيلة إيحاء، وترميز، وبناء حكاية متخيَّلة، كما هو الأمر في كثير من الأنواع السرديّة، وأصبحت أداة بحث في القضايا: الدينية، والتاريخية، والاجتماعية، وفي رسم صور الأمم التي عاشرها الرحّالة؛ فتجربة الارتحال تورث الشغف، والإثارة، والفضول، لأنها تشبع نزوعًا راسخًا، هو الأكثر شيوعًا عند بني البشر، تمثّله الرغبة في معرفة الأحداث: الطريفة، والنادرة، وغير المألوفة، ثم متعة التوغل في عوالم مجهولة، والسير في هدي الاحتمالات، وخوض مغامرة، دون اكتراث بالعواقب.

نُدرج مرويّات الارتحال ضمن «السرد الثقافي» لأنها تطوي، في تضاعيفها، ضروبًا متنوِّعة من التمثيلات: التاريخية، والجغرافية، والدينية، والاجتماعية، وجميعها تضافرت لتشكيل هويّة أدب الرحلة العربية، وهذه التنوُّعات الغزيرة حالت دون اختزال تلك المرويّات بنوع سرديّ صافٍ، فأدب الرحلة، في الثقافة العربية القديمة، إطار ناظم لجملة من التنوُّعات الأسلوبية، والرؤى الذاتية، والمواقف الثقافية، والأحكام القيمية، والاكتشافات الجديدة، ومغالبة الشعور بالاغتراب، والانقطاع عن منابت الطفولة، والغوص في مناطق نائية، ثم العودة المظفَّرة بذخيرة عجائب حقيقية.

انبثق كلّ ذلك المزيج السردي من خضم ثقافة جماعية ، وتغذّى بمرجعيّات دينيـة ، تشرّب بهـا الرحّالة ، فتناوبت فـيه صيغ الإخبار ، والوصف ، والحكم ، فرسم ، في المخيال العربي-الإسلامي ، هويات الأمم الأخرى ، بخَليطٍ من الوقائع والتخيُّلات ، واختصّ بتمثيل سرديّ موسّع لمعظم أرجاء العالم القديم ، وبذلك كشف طبيعة الرؤية التي صدر عنها الرحّالة للآخر في طوافهم ، شرقًا وغربًا ، شمالاً وجنوبًا ، وقدّموا عنه صورًا متنوعة لا نظير لها في الأنواع السرديّة العربية . وبسرود الارتحال ، فُتح الأفق أمام المتلقّي لمشاركة الرحّالة ، وبعضهم من كبار الجغرافيين والمؤرخين ، في تجوالهم بين الأمم خارج دار الإسلام ، ومعرفة عاداتها ، وتقاليدها ، وأساطيرها ، وعقائدها ، وعلاقاتها الاجتماعية ، وطقوسها الدينية ، ورفع الإبهام والغموض عنها .

ونُدرج سرود الارتحال ، أيضًا ، في سياق المرويّات الكبرى التي رسّخت ، في الأدب القديم ، تخيُّلات شبه ثابتة للأعراق ، والثقافات ، والعقائد . ولطالما أسهمت تلك المرويّات في اختزال صور كثير من الأمم الأخرى إلى كتل صمّاء على خلفية النزاعات الدينية ، والصراعات السياسية ، وتباين الأنساق الثقافية ، فأهل دار الحرب وُضِعوا في تعارض مفترض مع أهل دار الإسلام ، وهو تعارض كرّسته الرؤية اللاهوتية للتاريخ والواقع ، وطبقًا لتلك الرؤية انقسم العالم إلى عالمين متضادين : دار الإسلام ، حيث صهرت القيمُ الإسلامية جوهرَ الجماعة المؤمنة بها ، وصاغت رؤيتها لنفسها ، ولغيرها ، ودار الحرب التي افتُرض أنها تعيش فوضى بدائية ، واضطرابًا دائمًا ، وقد التبست طقوسها الوثنية بتقاليدها الاجتماعية ، وتخيُّلاتها بعقائدها ، فأصبحت الحاجة ملحّة لإزالة الجهل المخيِّم فيها ، وتصحيح الأخطاء التي ورثتها عن الأمم الغابرة ، وتشبّعت بها ، وتوهّمتها حقائق كاملة .

وما دامت المرويّات السردية الكبرى قد وجّهت أفكار الرحّالة ، والمؤرّخين ، والجغرافيين ، والفقهاء ، وكل مَنْ أسهم في صوغ الصور الذهنية للآخر ، فمن المنتظر الحصول على سلسلة من الأحكام غير المنصفة بحقّ الأمم خارج دارَ

الإسـلام ، وذلك يُظهـر أن المخيـال الإسـلامي ، المعبّـر ، رمـزيًا ، عن تصـوُّرات المسلمين للعالم ، أنتج صورًا منتقصة للآخر ، لكونه صدر عن رؤية دينية في تفسيره للظواهر البشرية والطبيعية ؛ فالعالم خارج دار الإسلام ، كما قامت سرود الارتحال بتمثيله ، غُفل ، ومبهم ، وبعيد عن الحقّ ، وبانتظار عقيدة صحيحة تنقذه من ضلاله . وقد تراكم سرد غزير حول معظم الأمم خارج دار الإسلام ، قام في معظمه ، على الاستغراق المتواصل بمرويّات متشابكة امتزج فيها الخيال بالواقع . ومعلوم أن دار الإسلام كانت تشكّل قلب العالم في القارات الثلاث القديمة ، قبل الكشوفات الجغرافية في العصر الحديث ، وعلى الحواشي المحيطة بهذه الدار ظهرت الممالك الكافرة ، تترقّب أن يصل إليها نور الحقيقة السماوية .

وفي ضوء ذلك قامت سرود الارتحال بتمثيل الذات والآخر استنادًا إلى آلية مزدوجة أخذت شكلين متعارضين : ففيما يخص الذات ، أنتج التمثيل «ذاتاً» نقيّة ، وحيويّة ، ومتضمّنة الصواب المطلق ، والقيم الرفيعة ، والحق الدائم ؛ فضخّ جملة من المعاني الأخلاقية المنتقاة على كل الأفعال الخاصّة بها . وفيما يخصّ الآخر ، أنتج التمثيل «آخر» يشوبه التوتر ، والالتباس ، والانفعال أحيانًا ، والخمول والكسل أحيانًا أخرى ، وذهب بالنسبة إلى الجماعات النائية ، إلى ما هو أكثر من ذلك ، حينما وصفها بالضلال ، والتوحُّش ، والبهيمية ، فأقصى عنها المعاني الأخلاقية المقبولة ، وحمّلها بقيم دنيوية صيغت لتكون في تعارض مع القيم الإسلامية ، فاصطنع التمثيل السرديّ بذلك تمايزًا بين الذات والآخر ، أفضى إلى متوالية من التعارضات التي تسهّل إمكانية أن يقوم الطرف الأول بإنقاذ الثاني ، وتخليصه من خموله ، وضلاله ، ووحشيته ، وإدراجه في عالم الحقّ .

لم تنقطع سرود الارتحال عن مرجعيّاتها الثقافية العامة ، فهي سرود شاملة لا تعرف البراءة في التمثيل ، وليست شفّافة ، إنما اشتبكت مع تلك المرجعيّات في نوع من التمثيل الكثيف الذي تداخلت فيه أحكام القيمة ، بالمواقف الثقافية . وقد كرّست هذه الآلية اعتصامًا بالذات ، وتحصّنًا وراء أسوارها المنيعة ، وإقصاءً للآخر ، وتشويهًا لحالته الإنسانية ، وذلك من نتائج ثقافة التمركز حول

الذات داخل دار الإسلام . والتمركز نمط من التخيُّل المترفِّع الذي يحبس نفسه ضمن رؤية مقرَّرة سلفًا ، فلا يقارب الأشياء إلاّ عبرها ، ويوظِّف المعطيات كافة من أجل تأكيد صحة فرضيّاته . ويحتاج هذا النمط من التخيل اللاهوتي إلى نقد متحرّر من أية مرجعيّة ثابتة ، سواء أكانت عرقية ، أم كانت دينية أو كانت ثقافية ، فالمرجعيّة التي يمكن اعتبارها الموجّه لعملية النقد هي الممارسة التحليلية الجريئة التي تتعرّض لفكّ التداخل بين الظواهر التي تلازمت فأوجدت هذا الضرب من التخيُّل القائم على الرغبة .

وكانت صورة الآخر الدونيّة مثار قبول واحتفاء ، في كثير من الأحيان ، لدى كثير من المؤرِّخين والجغرافيين ، ولم يجرِ ، في حدود علمنا ، نقد معمّق لها . ولم يكن الأمر مقتصرًا على المرويّات الكبرى في دار الإسلام وحدها ؛ فالقرون الوسطى (مفهوم تختلف حدوده الزمنية بين الثقافتين : الإسلامية ، والغربية ، وسوف نستخدمه في الموسوعة آخذين في الحسبان المرونة الافتراضية لبداياته ونهاياته ، وبخاصّة الثقافة الإسلامية) كرّست ثبات المعايير وتكرارها ، والنظام الفكري الشائع خلالها نظر إلى الظواهر : الطبيعية ، والبشرية ، والثقافية ، نظرة ساكنة ، وكان الإحساس بالتغيّر محدودًا ، وثمة ثقة كاملة بضرورة إخضاع الجميع لتفسيرات مركزية مطلقة ، وغير خاضعة للتغيُّرات الزمنية .

كان النموذج اللاهوتي مهيمنًا خلال القرون الوسطى ، وقد تغلغل في تضاعيف التخيلات العامّة ، وتوارى في طيّاتها ، واستبطن التصوُّرات الجماعية ، فتحكّم في توجيه المواقف تجاه الآخر ، ثم ركد مطمورًا تحت أكداس المرويّات والمدوّنات ، فحجبَ ، ولمدة طويلة ، إمكانية البحث في أمر تعديلها بما يناسب الرؤية التاريخية التي تُدرج كل شيء في سياق متحوّل ومتغيّر . وذلك يفرض علينا إعادة النظر في كثير ممّا عُدَّ من المسلّمات الثقافية في ذلك العصر ، لكشف فداحة الأوهام ، وخطورة المصادرات ، ثم طرح رؤية نقدية تتعرض للإشكالية الملتبسة ، إشكالية «الأنا» و«الآخر» ليس بوصفها مسألة تاريخية انقضى عصرها ، وانتفت أهميتها ، وتلاشى تأثيرها ، بل بوصفها ممارسة نقدية تروم عِتْقَ

الذات من أوهام التمركز حول الذات ، وهَوَس التفوّق ، والأفضلية المفترضة ، وذلك بنقدها من أصولها ، وتحريرها من تخيُّلاتها ، وفكّ الالتباس القائم على علاقة غير سليمة مع الآخر .

كشفت سرود الارتحال أن الأصول الدينية هي التي حدّدت مسار الأفكار ، ورسمت المواقف ، وركّبت التصوُّرات ، وصاغت المنظورات ، تجاه العالم ، خارج دار الإسلام ، والبحث في الصور الجاهزة التي شكّلها المخيال العربي- الإسلامي للأمم الأخرى ، ليس موضوعًا أغلق عليه سِجلّ الماضي ، إنما هو قضية مفتوحة تتصاعد دلالاتها بفعل الظروف المعاصرة ، ويجري استخدامها لإعادة التوازن ، إذ يُدفع بالماضي ليكون جزءاً من رهانات الحاضر .

إن إعادة قراءة سرود الارتحال القديمة ، في ضوء هذه الحاجات المتصاعدة ، تسهم في كبح صراعات الهوية ، وتعديل مسارها ، بل اقتراح التفاعل فيما بينها ؛ لأنها تبطل مفعول المرويّات العائمة على ثقافة الكراهية ، والمغذّية لها ، فالأمم تتساجل فيما بينها-أيضًا-عبر الصور التي تشكّلها ، بوساطة السرود ، لغيرها . وقوامها نسيج متشابك من التصوُّرات والتخيُّلات ، وغالبًا ما تحمل كل ذلك مدوّنات تتوارى فيها الصور الكلّيّة للمشاعر ، والتطلُّعات ، والتجارب ، والقيم : الدينية ، والنفسية ، والأخلاقية . وفي هذه السرود ذخائر من مواقف الإدانة ، وأحكام القيمة ، والمصادرات ، والاختزالات ، وتعوم على ثنائية الخير والشر ، وهي ثنائية راسخة في الفكر القديم .

وينبغي أن نؤكِّد أن كل مركزية ثقافية أو عرقية أو دينية تقوم على فكرة الاختلاق السرديّ الخاصّ لماضٍ يُشبِع تطلُّعات آنيّة ، ويوافق رغبات قائمة ، فهذه سُنن المركزيات ، وبمواجهة الحاجة إلى توازن ما تُصطنع ذاكرات توافق تلك التطلُّعات . ويمور التاريخ الإنساني بذاكرات مختلقة ، أو فيها كثير من عناصر الاختلاق ، ويعود ذلك إلى الرغبة شبه المَرَضيّة عند الأمم في الانتساب إلى ماضٍ عريق ، أو لانتزاع شرعية في عالم محتدم بصراع الهويات ، والأدوار الكبرى ، ويضخّ هذا التوتُّر رغبات متوسّعة تريد استخدام الماضي استخدامًا

متحيّزًا لخدمة الحاضر، بما يضفي على الأنا سموّاً ورفعة، وعلى الآخر خفضًا ودونيّة.

إن استنطاق سرود الارتحال هو استنطاق لذاكرة، تحوم فيها شكوك مبهمة في قيمة الآخرين، وارتياب بهم، ونقدها هو محاولة لوقف استخدامها الأيديولوجي في نزاعات معاصرة. ولم يكن تشويه الآخر قد أثمر عن فائدة حقيقية، ولن يكون ممكنًا وقف ذلك إلاّ استنادًا إلى رؤية نقدية تجلي ذلك النسغ المتصاعد، في الفكر والسلوك المعاصرَيْن، وتفضح عيوبه، وتزيلها، وتكشف صورة الآخر في أعين المسلمين، كما مثّلته السرود الارتحالية استنادًا إلى رؤية غير تاريخية، يراد منها تفريغ الأوهام المستبدّة بهم، والتأكيد على أن النظر النقدي إلى الماضي، ونقد مسلمّاته المترسّبة في الأذهان، يسهم في منع انخراط الفكر القديم في عمل يؤدي إلى تعميق سوء التفاهم بين الجماعات الكبرى في العالم، فهو يردّه عن إفساد العلاقات الإنسانية القائمة على التفاعل، والتوافق، والتسامح.

يطمح هذا الجزء من «موسوعة السرد العربي» إلى عرض رواية المسلمين عن الآخر اعتمادًا على سرود الارتحال التي دوّنها رحّالة طافوا في معظم أرجاء العالم القديم، وجغرافيون شغفوا بوصف المسالك والممالك. وهو يحرص على كشف الموقف المنهجي الذي شكّل خلفية لعرض تلك الرواية. ويقوم التحليل النقدي فيه على تصوّر يرى أن المركزيات الكبرى تصاغ استنادًا إلى نوع من التمثيل الذي تقدّمه المرويّات الثقافية: الدينية، والأدبية، والتاريخية، والجغرافية للذات المعتصمة بوهم النقاء الكامل، والآخر المدنّس بالدونيّة الأبدية؛ فالنظر إلى المركزيات في التاريخ الإنساني من زاوية كونها نتاج مرويّات ثقافية متنافسة يوسّع المجال أمام الدراسات المخيالية التي استُبعِدت بتأثير من فكرة الحداثة الغربية. وهذه النظرة إلى المركزيات تسعى لإعادة الاعتبار إلى المرويّات الثقافية التي تتوارى أحيانًا وراء الستار السميك للمفاهيم والمناهج، فتأخذ شكل تحليلات موضوعية، وتتجرّد، غالبًا عن ذلك فتكون مرويّات سرديّة، فيما هيَ

تخفي درجات من التمثيل السرديّ الذي يتدخّل في صوغ العلاقات الإنسانية ، والمفاهيم الفكرية ، والتصوُّرات الخاصّة بالأنا والآخر .

وقفنا في الكتاب الثاني من هذه الموسوعة على الأنواع السرديّة الكبرى داخل «دار الإسلام» فظهرت لنا صيغ من التمثيل السرديّ للذات من خلال الخرافات ، والسَير ، والمقامات ، وذلك هو الوجه الأول ، من وجوه التمثيل ، في الأدب العربي القديم ، أمّا الثاني ، الذي خصصنا له هذا الكتاب ، فيكشف تصوُّرات تلك الذات عن العالم خارج دار الإسلام ، وكيفية تشكّل صوره في المخيال العربي-الإسلامي ، مع وقفة ختامية مكثَّفة عن الآخر ، المختلف دينياً في داخلها ، بوصفه مثالا ، يكشف تحيّزات السرد في رسم الصور النمطية ، فاقتضى ذلك الوقوف على المفهوم المركزي في الثقافة العربية القديمة ؛ قصدتُ مفهوم «دار الإسلام» ؛ لأنه مثّل الإطار الناظم للتصوُّرات التي كوَّنها المسلمون عن العالم القديم ، وضمن تلك التصوُّرات ترتَّبت المقاصد الدلالية لأدب الرحلة في الأدب العربي القديم .

ولعلّ أهمّ ما حرص هذا الجزء من الموسوعة على صونه هو إيراد قِطع وافية من نصوص ، دوّنها كبار الرحّالة ، كشفت مختلف الأوجه للعالم خارج دار الإسلام ، لتكون خلفية ثقافية داعمة للتحليلات التي يقوم عليها الكتاب ، فهي نصوص رديفة للمادّة النقدية . وكان ذلك العالم يحيط بدار الإسلام من جميع الجهات تقريبًا ، وقد استأثرت أقوام الشرق ، والشمال ، والجنوب باهتمام خاصّ ، وتباينت نظرة المسلمين لتلك الأقوام ، في الدرجة لا في النوع ، تبعًا لتباين المنظومات القيمية التي تنتمي إليها ، وتبعًا لأقاليمها ، وأعراقها ، وعلاقاتها مع أهل دار الإسلام .

الفصل الأول

انبثاق المرويّات الكبرى عن العالم القديم

١. تخوم مبهمة:

ظهر الحديث عن دار الإسلام وعن دار الحرب، في أدبيات الفقه الإسلامي، خلال القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي)، وما لبث أن انخرط في ذلك المؤرِّخون، والأدباء، والجغرافيون، والرحّالة، خلال القرون اللاحقة، فتوسّع الجدل حول ذلك، وأصبح موضوعًا عامًا؛ إذ انشطر العالم، حسب تصوّر المسلمين، إلى قسمين: دار الإسلام التي شملت الفضاء الثقافي للجماعة الإسلامية، بغضّ النظر عن أعراقها، وأقاليمها، ومعها الفئات من أصحاب الديانات الأخرى التي رضخت لسيادتها، أو قبلت بها. ودار الحرب، وشملت سائر الأمم الأخرى غير الخاضعة لسيطرة المسلمين، ونُظِر إليها، بإطلاق، على أنها دار كفر، فجرى بذلك تفريق عامّ بينهما.

ضمّت دار الإسلام المؤمنين بالإسلام معتقدًا، ثم أهل الكتاب ممن آثروا البقاء على ديانتهم مقابل دفع الجزية، ولهم حقّ الحماية في الداخل، وحقّ الدفاع عنهم في حال اعتداء خارجي. وعُدّ أهل دار الإسلام، أجمعهم، رعايا الخليفة. وكانت دار الحرب هي الهدف الذي سعى الشرع الإسلامي إلى ضمّه إلى دار الإسلام، ومن واجب كلّ حاكم مسلم أن يعمل على إخضاع دار الحرب لسيادة المسلمين عندما تتوافر القوّة الضرورية لذلك. وعُدّ أهل دار الحرب أقوامًا على سجيّتهم الأولى البدائية[١].

لم ينظر إلى أهل دار الحرب على أنهم مساوون لأهل دار الإسلام، فثمّة نقص في تأهيلهم القيمي، والأخلاقي، والإنساني؛ بسبب غياب المعتقد

---

(١) مجيد خدوري، القانون الإسلامي، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ١٩٧٥، ص٢٢.

الصحيح الناظم للعلاقات فيما بينهم، إلى ذلك، تنقصهم «الكفاءة الشرعية» لكونهم يعيشون فوضى دنيوية، لم تتدخَّل بعدُ الإرادة الإلهية في ترتيبها. فهم بحاجة إلى تأهيل روحي يرتقي بهم إلى الرتبة السامية التي تحقَّقت للإنسان في ظلّ العقيدة الإسلامية. وسرعان ما استقرّت معايير ثقافية ثبّتت نوع التفاضل بين هاتين الدارين، فوقع إعلاء لشأن دار الإسلام وأهلها، وانتقاص لحال دار الحرب وأهلها الذين أُنكر عليهم التدبير الدقيق في شؤون دنياهم وآخرتهم، ولم يَعتَدّ بما لديهم من عقائد وطقوس.

نشب خلاف ثانوي بين الفقهاء المسلمين حول هذا التقسيم للعالم، فقد قبلته الغالبية أمرًا واقعًا، لكن فقهاء المذهب الشافعي افترضوا وجود عالم آخر هو دار الصلح، أو دار العهد، وطبقًا لهؤلاء، فإن الإسلام اعترف بالجماعات غير الإسلامية التي أبرمت صلحًا مع المسلمين على أن تدفع الجزية، لكن فقهاء الحنفية لم يقبلوا بهذا، وما اعترفوا أبدًا بالصلح، وحجّتهم أنه متى عقدت أية جماعة معاهدة سلام، ودفعت الجزية؛ فإنها تصبح، بذلك، ضمن دار الإسلام، وينبغي على المسلمين أن يضمنوا لها الحماية. ولم تُرتَهَن دار الإسلام لمعنى جغرافي محدّد، إذ كانت تتوسّع وتنحسر على وفق درجة حرارة البعد الثقافي للإسلام، بوصفه منظومة ثقافية، توجّهها رؤية دينية لتفسير العالم. وحدة دار الإسلام كانت ثقافية بالدرجة الأولى، وجرى تهميش العوامل العرقية والعوامل الجغرافية. ولم تكن دار الإسلام، في أيّ وقت من الأوقات، أرضًا تحتكر السيطرة عليها سلطة واحدة. وثمّة تعارض شبه ثابت بين المفهومين السياسي والثقافي لدار الإسلام.

كانت دار الإسلام- من ناحية نظرية- في حالة نزاع مع دار الحرب، لأن الهدف الأخير للإسلام هو أن يكون العالم بأسره مسلمًا، وإذا أفلح المسلمون في ذلك، فإن حالة السلم التي يفرضها الإسلام تحلّ محلّ كل تدبير سلمي آخر، وتصبح الشعوب غير المسلمة: إمّا جزءًا من الدولة الإسلامية، أو خاضعة لسيادتها كأقليّات دينية معترف بها، أو وحدات ذات استقلال ذاتي تربطها

بالدولة الإسلامية معاهدات تنظّم العلاقات بينهما[١] .

طبقًا لهذا التصوُّر فإن الفكر السياسي الإسلامي أوجد دولة بمقتضى عقد مقدَّس قائم على الشريعة ، ولا انفصال بين الدولة والمجتمع ، ولا بين الدولة والدين[٢] . فالشريعة ، كما يقول «شاخت» : هي أنموذج للقانون الديني[٣] . والخليفة هو الشخص الأعلى المسؤول عن حماية الشريعة ، ثم أن مسؤوليته لا تقتصر على صون حدود دار الإسلام ، إنما توسيعها لتهيئة العالم لقبول الشريعة بما يجعله كله معتنقًا للإسلام ؛ فالله هو المصدر النهائي للسلطة ، والجماعة الإسلامية أمّة الله ، وممتلكاتها مال الله ، بما في ذلك الغنائم ، وأعداؤها هم -أيضًا- أعداء الله[٤] .

وضع ابن فضل الله العمري لدار الإسلام تخومًا مبهمة أخذت بالحسبان العقائد أكثر من أيّ شيء آخر ، فقال : «ممالك الإسلام واقعة ، بحمد الله ، في أحْسَن المعمور شرقًا وغربًا وجنوبًا وَشمالاً ، لأنها لا تنتهي إلى غاية الحَرارَة المفرطة ، ولا إلى غاية البَرد المفرط ، إلاّ فيما قلّ ، ولا يخرجُ عن حدّ المُستَطاب . . فغاية معمور الجنوب مساكن السودان من عُبَّاد النيران والأصنام ، بما تغلغل من جزاير الهند وأطرافه ، والنصارى بأطراف الحبشة ، وعُبَّاد الحيَّات ، والهمج في سودان المغرب جنوب غانة . وغاية معمور الشمال من النصارى والهمج ببلاد الصقلب ، في شماليها أحد قسمي إيران المسَّماة ببلاد القبجاق ، وما سامت ذلك الخطّ من القسطنطينية ، وما وراءها إلى جليقية والأرض

---

(١) القانون الإسلامي ، ص٢٣ .

(٢) شاخت ، الفكر السياسي عند المسلمين ، انظر كتاب «تراث الإسلام» ، ترجمة : حسين مؤنس وإحسان صدقي ، الكويت ، عالم المعرفة ، ١٩٧٨ ق٣ ، ص٣٣ .

(٣) شاخت ، الشريعة الإسلامية ، م . ن ، ص٩ .

(٤) برنارد لويس ، السياسة والحرب ، انظر كتاب «تراث الإسلام» ، ترجمة محمد زهير السمهوري ، الكويت ، عالم المعرفة ، ١٩٧٨ ، ق١ ، ص٢٣٣ وص٢٣٥ .

الكبيرة وجزاير البحر الرومي . وغاية معمور الشرق من عُبَّاد النيران والأصنام بثالث أقسام توران من بلاد الصين إلى المحيط ، وأمّا الغرب فانتهى فيه الإسلام إلى البحر المحيط»[1] .

أفصحت دار الإسلام بنفسها عن قيمتها وأهميتها ، فهي في أحسن المعمور من الأرض ، فمن الجنوب والشرق عبّاد النيران والأصنام ، ومن الشمال الهمج ، ومن الغرب محيط الظلمات ؛ وبهذا نُظِر إلى الشعوب خارج دار الإسلام على أنها قبائل ضالّة ينبغي أن تمتثل للشريعة الإلهية ، وينبغي أن يبسط الإسلام قيمه في ربوعها لترتقي إلى مستوى الأهلية البشرية الحقيقية ؛ وعلى هذا فهناك حرب معلنة أو مضمرة ، بين دار الإسلام ودار الحرب ، لا تنتهي إلاّ حينما يدخل الجميع الإسلام ، أو يخضعون له ؛ فالسلام ، بين الدارين ، غير ممكن شرعًا ؛ لأنه مصالحة بين نقيضين : حقّ وباطل ، وهدى وضلالة ، وإيمان وكفر . ووجود هدنة لا يعني أن تضع الحرب أوزارها إلى الأبد ، فهي مؤقّتة لا تزيد على عشر سنوات ، وللمسلمين حقّ نقضها ، من طرف واحد ، ومواصلة الجهاد ، متى وجدوا ذلك ممكنًا وضروريًا[2] . وشمل هذا كلّ الممالك المتاخمة لدار الإسلام ، باستثناء الحبشة التي استُثنِيت من ذلك لأسباب تتَّصل بموقفها من الإسلام في مرحلته الأولى .

تشكّلت نظرة المسلمين للآخر في دار الحرب على أسس دينية ، فالدين هو المانح النهائي للمعاني ، والقيم ، وللبشر أيضًا ، وعلى ذلك فالبحث عن ملامح الآخر يفترض العودة إلى النصّ المرجعيّ الأوّل ، إلى القرآن الذي جهّز النظر بعناصر الإدراك والوعي ، وطعّم المتخيّل بما يحتاج إليه من صور وأشكال ورموز ، وما دام الإسلام يحمل تصوّرًا للعالم وللإنسان ، ويمثل النصّ القرآني تكثيفًا للكلام الربّاني ، وتعبيرًا عن تجلّيات المقدّس ، فهو يشكّل مصدرًا للرؤية ،

---

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، القاهرة ، ص٢ .

(٢) م . ن ، ص٢٥٥ .

وقاعدة معيارية للجماعة الإسلامية[1] . وعلى أساس هذه القاعدة جرى دفع الآخرين غير المؤمنين به خارج مجال الاهتمام والتقدير ، واكتفى المسلمون بجعلهم موضوعًا لجهادهم ، فبه يمكن أن يدرَجوا في مسالك الحقّ .

أخفق المسلمون في الحفاظ على وحدة دار الإسلام ، إذ سرعان ما تفكّكت أواصرها من الداخل ، وانحلّت الروابط الرمزية التي تصل أطرافها ، وظهرت مراكز سياسية ، ادّعى كل منها احتكار الإسلام الحقيقي ، وتصارعت تحت ستار امتلاك الشريعة بصورتها الصحيحة ، وقُسِّمت دار الإسلام سياسيًا ، وإن ظلت موحَّدة عقائديًا ؛ ولهذا فدار الإسلام كانت ذات طابع ثقافي أكثر ممّا هو سياسي ، ومع الزمن ، تمّ قبول الجوار المغاير كأمر واقع لا بدَّ منه ، فما دام التنوُّع قُبل داخل دار الإسلام ، فقد امتدّ ليشمل العالم كلّه .

لم تتثبّت حدود جغرافية لدار الإسلام ، ولم يجرِ ، طوال القرون الوسطى ، في أي مكان من العالم الاتّفاق النهائي على حدود ثابتة ومعترَف بها بصورة كاملة . والقول بحدود شرعية فكرة تمخّضت عن النزاعات الدائمة بين الدول الأوربية في القرن السابع عشر ، وظلّ الشكّ يلازم تطبيقها إلى الآن . فلم يحدث أن أخذت دولة قويّة أمر سيادة الدول الضعيفة المتاخمة لها بعين الجدّ ، فعنصر القوّة ، لا الحقّ ، هو المهيمن في العلاقات السياسية بين الدول ، وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على مجموعة القوى التي تنازعت فيما بينها ضمن دار الإسلام ، أو مع الدول والإمبراطوريات المصاقبة لها ، وذلك يفسّر ظهور مجال فاصل بين دار الإسلام ودار الحرب ، فرضه التنازع بينهما ، وشكّلَ دارًا ثالثة ، هي «دار العهد» أو «دار الصلح» .

وكانت دار العهد مزدوجة الولاء ، ومخترقة من إحدى القوتين المجاورتين لها ، وفي كثير من الأحيان قامت بدور التخوم الفاصلة بينهما عند غياب المعالم الطبيعية المانعة لتقدّم هذا الطرف أو ذاك ، إلى ذلك كانت دار العهد سهلة

---

(١) نور الدين أفاية ، الغرب والمتخيّل ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ،٢٠٠٠ ، ص : ٢٨٨ و٢٨٩ .

الاختراق ، فنسيجها الاجتماعي والثقافي ، والعقائدي ، خليط مستعار من دار الإسلام ودار الحرب ، وهي في حال زحزحة دائمة ، لا تعرف الثبات ، وكثيرًا ما كان وجودها يتوارى ، فلا يحامي عنها أحد .

ومنذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) ، كانت العلاقة بين المجال السياسي والمجال الثقافي ، في «دار الإسلام» ، عكسية ؛ فكلما تراجعت السيطرة السياسية ، تقدمت الهيمنة الثقافية ، إذ حالت التنازعات الداخلية ، في دار الإسلام ، دون القدرة على إبقاء قوة دفاعية فاعلة على تخومها ، تؤمِّنها بشكل دائم ، فامتصت المنازعات القوة المطلوبة ، وظلّت حدود دار الإسلام غير ثابتة ، تتحكّم بها القوّة التي تنبثق هنا أو هناك ، بسبب سلطان طموح ، أو إمارة قوية ، ثم يعيدها الضعف إلى سابق عهدها ، ولكن المسلمين المجاورين لدار الحرب مِمّن تلاعبت بهم رهانات القوّة والظفر ، فأُلحِقوا مرّة بدار الإسلام ، وأخرى بدار العهد ، وثالثة بدار الحرب ، نجحوا ، على نحو منقطع النظير ، في تشكيل هويتهم الثقافية الإسلامية كيفما كان وجودهم داخل هذه الدار أو تلك ، وكيفما كانت قراءتهم للإسلام .

كانت الحدود السياسية لدار الإسلام تتغيَّر ، ولكن الحدود الثقافية-الدينية ظلّت شبه ثابتة ، إن لم نقل إنها كانت تتوسَّع (ظهر هذا في جنوب آسيا ، ووسط إفريقية ، حيث تمدّدت دار الإسلام بوسائل غير عسكرية في كثير من الأحيان) ، ومع التراجع المطّرد للحدود السياسة ، نشأ وضع جديد في ظلّ هذا التوتُّر المستمر ، فظهرت إمارات غير خاضعة للمركز التقليدي السياسي لدار الإسلام ، وكانت تمثله بغداد ، لكنها تدين بالعقيدة نفسها . والحال هذه ، فالكيانات السياسية في أطراف دار الإسلام لعبت الدور الرئيس في ترسيخ مفهوم التنوُّع الخلاق للإسلام الذي لا يتعارض مع وحدته العامّة . وعلى هذا ، لم تكن دار الإسلام كتلة ثقافية متطابقة التصوُّرات تمامًا ، ومتماثلة التفسيرات على نحو مطلق ، إنما اتَّصفت بالتعدُّد الذي رسم خصبًا ثقافيًا لا يجوز إنكاره . كان الإسلام يمثِّل هويّة ثقافية أكثر منه كيانًا سياسيًا ناظمًا للجماعة الإسلامية .

٢. تضارب في أنظمة القيم:

فرضت المفاهيم الدينية تباينًا في التصورات، وفي التخيُّلات، وظهر كل ذلك في المرويّات الكبرى التي مثّلتها الآداب، والتواريخ، والمذاهب، فأدّت إلى تركيب صور إكراهية للآخر، بسبب تباين أنظمة القيم، فالآخر، بالدرجة الأولى، هو المختلف في عقيدته الدينية. واستمدّ التصوُّر الشائع عن الذات والآخر حيويَّته من المركزية الدينية، أي من تلك البؤرة التي كانت تنبثق منها قيم الحقّ المطلق، إلى الأبد، وبما أن التصوُّر الديني عدّ الله مصدرًا لقيم الحق، وأن الحقّ قد حلّ في دار الإسلام، ولم يحلّ في دار الحرب، فقِيَم دار الإسلام هي الصائبة، أمّا قيم دار الحرب فمحقّرة، ومدنّسة، ويلزم تطهير أهلها من النجاسة الوثنية، أو تخليصهم من الضلال الذي يرتعون فيه نتيجة جهلهم الإسلام.

وفي عصر، تصدَّر فيه الشعور الديني أيَّ شعور آخر، لا مكان للمصالحة بين القيم والأخلاقيات المتباينة، فلكي يظلّ الشعور بتفُّوق قيم دار الإسلام حيًا، ومتّقدًا، فلا بدَّ من تفريق يقوم على ثنائية الحقّ والباطل، بين قيم(نا)وقيم(هم). وصاغت هذه الثنائية وعيَ الجماعة الإسلامية، ولا وعْيَها، وجعلتها تبني تخيُّلاتها، ومواقفها، وأحكامها، واختياراتها، على أساس فكرة التراتب التي تقود إلى الإعلاء من شأن الذات، وخفض قيمة الآخر، فجرى تخطّي الإنسان بوصفه كينونة بشريّة مستقلة، وصار التركيز عليه بوصفه مستودعًا للقيم الدينية، فأهمّيّته لا تتحدّد في كونه بشرًا، إنما في اعتناقه ضربًا من القيم، دون غيره.

وتحوّل سُلّم القيم الذي صاغه المسلمون إلى جزء مكمّل من العقيدة، بحسب الفهم الشائع لها، وتدخّل في تركيب صور مشوّهة للآخر في المرويّات الكبرى، وشمل ذلك القيم الشائعة لديه، وامتدّ فخَصّ حامل تلك القيم. هنالك تشويه لحقيقة الآخر ذهنيًا، وجسديًا، وعقائديًا، ففضلاً عن البلادة، والجهل، والضلال، والسفه، والبهيمية، تذبذب الآخر بين تصغير شوّش

إنسانيته ، وعتّم عليها ، كما هو الأمر بالنسبة إلى الأقوام الساكنة في أقصى الشمال ، حيث يفترض أن تكون بلاد يأجوج ومأجوج ، أو تضخيم مقصود إلى حدّ المبالغة ، كما هو الأمر في حالة الزنوج ، والصقالبة . وقد غزت هذه التصوُّرات الآدابَ الجغرافية ، وفي مقدِّمتها سرديّات الارتحال .

وما لبث أن تدخّل اللاهوت ، فأعاد صوغ القيم الدينية صوغًا اتَّصف بالثبات والديمومة ، وأصبح الفهم الديني للحياة يقوم بمراجعات دقيقة كيلا يخرم الزمنُ ثباتَ القيم ، فتُصابَ بالفساد بسبب التحوّل ، فالقيم الدينية ، بمظهرها اللاهوتي تتخطّى البعد التاريخي ، ولها قدرتا الشمول ، والثبات ؛ لأنها قيم مكانية ، لا زمانية . فهي لا تقرّ بالتغيير ، ولا تقبل به . إنها ساكنة ، ودائمة الصحة ، وتُلزم المرء أن يتكيّف معها ، بدل أن تتكيَّف هي معه ، تبعًا للسياقات الاجتماعية والتاريخية التي يعيش فيها ، فيظل في حالة تصحيح دائم لمساره ، لكي يمتثل لها ، لكونها المركز المشعّ الدائم ، وهو يدور في فلكها ، قربه أو بعده عنها هو الذي يحدّد أهميته . وما دامت القيم الدينية هي التي تحدِّد أهمية الإنسان ، فمن الطبيعي أن تجرّد قواها لتضمّه إلى عالم الحقّ . فحيثما تكُن حقيقة مطلقة الصواب ، ينبغي نشرها في أرجاء العالم كافّة ، وقد يُتبنّى العنف وسيلة لتحقيق ذلك ، تصبح القيم جوهرًا ، ويصير الإنسان عَرَضًا .

تُستمَدّ القيم من المجتمع الذي شكّله الإسلام ، وهي المعيار الوحيد لصواب المسار الذي ينبغي على المجتمعات الأخرى أن تسلكه ، وذلك سيفضي ، لا محالة ، إلى وجود نقيض يسوّغ صيانة القيم من جهة ، ويعمل على نشرها لتشمل العالم من جهة ثانية ، ففي المجتمع النصّي القرآني تمثل الثنائيات الضدّية دورًا حاسمًا في شطر العالم إلى عالمين ، وامتد تأثير ذلك إلى المرويّات الكبرى في الثقافة الإسلامية . ثمّة تعارض دائم بين : الحق والباطل ، والخير والشر ، والإيمان والكفر .

لا يمكن أن يظلّ الصراع منحبسًا في المصحف ، واستنادًا إلى مركزية كلام الله ، فإن العالم بتناقضاته قد صيغ على غرار العالم النصّي القرآني ، فالمجتمع

الأرضي المنشود إنما هو محاكاة للمجتمع النصّي . وفي النهاية ، لا بدّ من ظَفَر ، فأهل الشرّ من الكفار ، والمشركين ، والمنافقين ، وغير المؤمنين ، يتآكلون ؛ لأنهم تمسّكوا بالباطل ، وانتحَوا ركن الضلال ، وأشاحوا بوجوههم عن الحقّ المطلق ، وسيكون النصر للمؤمنين بالله ، ممن تشبّثوا بدينه ، وبقيمه السامية ؛ فأنيطت بهم مهمّة خالدة ، وعُهِد إليهم بدور نادر : نشر كلمة الله في أرجاء الأرض بكاملها ، إذ ليس هنالك موانع نهائية تحول دون ذلك . وبالنظر إلى اختلاف العقائد ، والثقافات ، والمِلَل ، فمن المنتظر أن يتعثّر أهل الحقّ في مهمتهم ، لكن ينبغي عليهم الالتفاف حول كلمة الله ، والتمسّك بها ، ونشرها ؛ وذلك هو الجهاد ، فالجهاد وسيلة لحسم التناقض العقائدي ، وإحلال الوحدة محلّ التعدّد .

وما دام نسق الثنائيات الضدّية قائمًا في صلب التفكير الديني ، فإن الجهاد لن يتوقّف أبدًا ؛ لأنه محكوم بنظام لاهوتي عامّ . يهدف الجهاد إلى تحويل البشر قاطبة إلى عقيدة واحدة ، ولكنه يتعارض مع فرضية انشطار العالم إلى عالمين : دار الإسلام ، ودار الحرب . ولمّا كان الصراع يُعبّر عنه بتجلّيات مباشرة ، فالمؤمنون يوضعون ، دائمًا ، في تضاد مع الكافرين ، وبينهم يتحرّك المنافقون حركة مكّوكية خادعة ؛ أي أن الجماعة المؤمنة في تعارض بديهي مع الجماعات الوثنية والكافرة .

أشار «جاك بيرك» إلى هذا النوع من التضادّ الذي يحكم هذه الأطراف بالصورة الآتية : المؤمنون يتعارضون مع مختلف أجناس الخصوم ، ويتعارضون بحسب أنماط الغيرية . ويقف المؤمنون إزاء الوثنيين والمشركين موقف التضاد المنطقي ، وتنخفض درجة هذا التناقض إلى تعاكس بسيط في حال المنافقين الذين يظهرون وكأنهم مؤمنون ، لكنهم ليسوا كذلك في الحقيقة ، وتتحرك سلوكياتهم المراوِغة بين جميع اللايقينيات والتقسيمات الناجمة عن ازدواج الوجود والفعل والكلام ، وفي النهاية هم ينضمّون إلى جانب الباطل . غير أن هنالك خصومًا آخرين سبق أن لمسهم الحقّ وبُلّغوا به ، لكنهم يرفضونه

ويخفونه : إنهم الكفّار ، وهؤلاء الكفّار لا يقدّمون أنفسهم ، إذًا ، بوصفهم منافقين ، وإنما باعتبارهم تضميناً للاعتقاد من ناحية الباطل»[1] .

يحتاج العالم ، طبقًا للتصوُّر اللاهوتي ، إلى الانقسام ، أولاً ، من أجل أن تكون الوحدة هي الهدف المنشود ، فيما بعد . وما دام الحقّ ينبثق من دار الإسلام فلا بدَّ أن تكون هي المركز ، بكل المعاني : الثقافية ، والدينية ، والجغرافية ، والأخلاقية ، وينبغي على أهلها نَكْءُ جراح الشرك أينما كانت ، وتطهيرها من الفساد ؛ لبسط الحقّ حيثما كان الإنسان .

٣. دار الإسلام: تأسيس نسق ثقافي

ظهرت تجلّيات المركزية الدينية في التواريخ ، والأفكار ، وعلوم الدين ، لكن من الواضح أن الأدب الجغرافي ، وفي اللبّ منه سرود الارتحال ، هو الوسيلة الأكثر فاعلية في تحديد الأطر العامّة لتلك المركزية ، إذ سَكَّ ذلك الأدب مصطلح «دار الإسلام» ، وصاغ دلالته الكبرى . وقد سلّم الجغرافيون والرحّالة بحقيقة كون دار الإسلام هي مركز العالم ، ومكمن الحق الدائم ، وجعلوا من هذه الفكرة موجّهًا لتصوُّراتهم عن الآخر . ولم ينجُ أحد من ضغطها الواعي وضغطها غير الواعي في بناء فرضيّاته ، وتحديد منطلقاته في النظر إلى الذات وإلى الآخر .

تُعَدّ صورة الأرض عند ابن حوقل (ق٤هـ=١٠م) أول محاولة جادة للتعبير عن شكل الأرض في الثقافة العربية-الإسلامية . فالأرض كرة تتربّع في وسطها دار الإسلام ، وفي قلبها تقع ديار العرب ، وفي المحيط الضيق للإطار المائي حول الأرض ، تظهر ، بصعوبة بالغة ، من ناحيتي المشرق والمغرب ، ممالك الكفار بأشكال مشوَّهة . ثمة تضخيم متعمَّد للصورة خاصّ فقط بدار الإسلام ، وتصغير مقصود لكلّ ما عداها . وقد خُصِّص كتاب ابن حوقل بكامله لدار

---

(١) جاك بيرك ، حينما كنت أعيد قراءة القرآن ، ترجمة : وائل غالي ، مجلّة ، «القاهرة» ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب ، ع ١٥٤ ، لسنة ١٩٩٥ ، ص٢٩ .

الإسلام ، وكأنها هي الأرض كلها .

لم يبذل هذا الجغرافي المشغول بالتفاصيل الكثيرة أيّ جهد وصفي لكشف معالم دار الحرب ، فحصرها بين عالم هو المركز ، ومياه مظلمة . وقد ظهرت في خريطته متقطّعة الأوصال ، هلامية ، وهامشية ، ولا تجتذب اهتمام أحد ، ولا توحي بأنها مكان مناسب لعيش الإنسان ، فهي ملاذات ضيّقة تجاور البحار ، وتقع في أقاليم نائية جداً ، وقد حالت الظروف الطبيعية ، من برد وحرّ مفرطَيْن ، إلى إعاقة الكائنات البشرية فيها ، فأهلها ، في حياتهم وعلاقاتهم ، أشبه بالبهائم . وهذا وصف تكراري نجده في سائر المدوّنات والمرويّات الجغرافية عن الأقوام البعيدة .

عزف ابن حوقل عن الاهتمام بالعوالم الخارجة عن مجال العقيدة الإسلامية ، فمدوّنته الضخمة لم تتطرّق إلى غير أقاليم دار الإسلام . بدأها بديار العرب ، ثم توسَّعَ إلى الغرب أوّلاً ، فذكر المغرب ، والأندلس ، وصقلية ، ومصر ، ثم إلى الشمال ، فذكر الشام ، والجزيرة ، والعراق ، ثم اتجه شرقًا ، فأشار إلى خورستان ، وفارس ، وكرمان ، والسند ، وأرمينية ، وأذربيجان ، والران ، والجبال ، والديلم ، وطبرستان ، ومفازة خراسان ، وسجستان ، وخراسان ، وما وراء النهر . ولم يهمل البحار التي تربط أطراف هذا العالم ، فذكر بحر فارس ، وبحر الروم ، وبحر الخزر . وما سوى ذلك لا وجود له ، ولا يستحقّ الذكر ، إن وجد . في الصفحة الأخيرة من كتابه ، أشار إلى آخر المدن في منطقة ما وراء النهر ، وذكر مدينتين ، هما «شلاث» و«استياكند» ، وأوضح أنهما «ثغران ، وإنما يذكران لمحلّهما في الجهاد ، وأنهما آخر الإسلام»[1] . لا قيمة لهاتين المدينتين إلاّ في كونهما من ثغور الجهاد ، وبهما تنتهي دار الإسلام في الشرق ، خلال القرن الهجري الرابع .

سرعان ما اتَّخَذ هذا التصوُّر طابعًا ثقافيًا ، فلا قيمة ترتجى لأيّ شيء خارج

---

(١) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٣٩ ، ص ٥٢٥ .

دار الإسلام ، وليس ينبغي على المسلم بذل جهد فيما لا قيمة له . أكّد المقدسيّ ذلك صراحة في كتابه : «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ، بقوله : إنه معنيّ بدار الإسلام ، وأهل هذه الدار غير معنيّين بدار الكفر ، وإنه لن يكلّف نفسه عناء البحث في ممالك الكفار ، ولا يرى فائدة من ذكرها[1] . وقد حافظ كثير من الجغرافيين على هذا الميثاق الضمني ، لكنّ بعض الرحّالة خرقوا بنود ذلك الميثاق ، فطافوا في دار الحرب ، وعهدوا إلى أنفسهم أمر التعريف بها .

أظهر ابن حوقل معلومات غزيرة جداً فيما يخص أقاليم دار الإسلام ، لكنه فاخر ، بجهل لا يُقبل ، في كلّ ما له صلة بالأقاليم الأخرى خارجها ، وإذا كان معياره يقوم على أساس أن «انتظام الممالك بالديانات ، والآداب ، والحكم ، وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة»[2] ، فقد رأى انعدام هذه الركائز إلاّ في دار الإسلام ؛ وذلك أدى به إلى استبعاد كل ما يتّصل بالعوالم : الرومية ، والصينية ، والهندية ، والإفريقية جنوب الصحراء ، والأقوام الشمالية ، من إفرنجة ، وصقالبة ، وبلغار ، وأتراك ، وغيرهم . تسبّب البصيرة العقائدية الضيقة خطأً ثقافيًا لا يُغتَفر ، وينبغي ، طبقًا لمنظور ابن حوقل ، طمس الآخر واستبعاده ، فكلّ مَنْ لا يتنفس رحيق العقيدة الإسلامية يُعَدّ فاقدًا للخصال الإنسانية التي تجعله مقبولاً في «أرض» ابن حوقل .

تأسّست على هذا التصوُّر نظرة مشوبة بالتبخيس إلى الآخر المفتقر إلى المقومات الأساسية : الديانات ، والآداب ، والحكم ، والسياسة المستقيمة . هذه الركائز التي اقترحها ابن حوقل استنادًا إلى موروث ديني وقيمي لعبت دورًا حاسمًا في التفريق بين البشر ، فأضفت على أهل دار الإسلام قيمة سامية ، وسلبت ممّن سواهم ذلك الامتياز ؛ فبها كثّف ابن حوقل رؤية عرقية- دينية- ثقافية-جغرافية جاعلاً منها أساسًا لقانون صارم ، ورتّب في ضوئه أهمية أقاليم

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غويه ، ليدن ، ص٩ .

(٢) صورة الأرض ، ص ١٥ .

الأرض ، وأنزل «ديار العرب» في قلب الدائرة ، فهي المركز المشع بالنسبة إلى الأطراف النائية .

قال ابن حوقل : «بدأت بذكر ديار العرب ، فجعلتها إقليمًا واحدًا ؛ لأن الكعبة فيها ، ومكة أمّ القرى ، وهي واسطة هذه الأقاليم عندي ، واتبعت ديار العرب بعد أن رسمت فيها جميع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق ، وما يجاورها من الأنهار المنصبّة إلى بحر فارس ؛ لأنه يحفُّ بأكثر ديارها ، ولأن بحر فارس يعطف من جزيرة مسقط مغرّبًا إلى مكة ، وإلى القلزم ، عن خمسين فرسخًا من عُمان ، ويُدعى ذلك رأس الجمجمة»[١] ، ثم توسّع في أوصافه ، غربًا وشرقًا ، فالأقاليم المجاورة لديار العرب ، إنما هي تخوم لها ، أمّا ممالك الكفار فتتاخم دار الإسلام في الأرض ، وتنأى عنها بكل شيء آخر . وتلازمه فكرة المركزية الدينية-العرقية : «ابتدأت بديار العرب لأن القبلة بها ، ومكة فيها ، وهي أمّ القرى ، وبلد العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكناها غيرهم»[٢] .

ثم انتقى الهمداني ما وجده مناسبًا من آراء «بطليموس»بخصوص الأقاليم وعُمرانها ، فانتهى إلى تقرير ما كان يرغب في قوله ، ومفاده أن ديار العرب هي أفضل المعمور في الأرض ، فلمّا «كانت الكواكب مشتركة التدبير في بقاع الأرض ، خالطة بين الوسط والطرف ؛ كان من حسن التأليف وانسياق النظام أن نذكر الكلّ ليُعرف ما لجزيرة العرب من الطبائع : الخاصيَّة والعاميَّة ، وأن يظهر ما وسَمها به الحكماءُ ممّا في أهلها موجود ومعاين» . فمن يسكنون من البشر على خطّ الاستواء أو بجواره «تكون أبدانهم سودًا ، وشعورهم سودًا جعدة كثيفة ، ووجوههم قحلة ، وجثثهم قصيفة ، وطبائعهم حارة ، وأخلاقهم ، في أكثر الأمر ، وحشية ، لدوام الحرّ في موضع مسكنهم واتّصاله بهم» .

وأمّا أقوام أقاصي الشمال ، فإنهم «لبعدهم عن حرارة الشمس بعدًا كثيرًا

---

(١) صورة الأرض ، ص ٦ .

(٢)م .ن ، ص١٨ .

صار البرد عليهم أغلب ، ولمّا كان ما يصل إليهم من الرطوبة شيء كثير غزير الغذاء ، ولم يكن هناك حرارة تنشّفها ، صارت ألوانهم بيضاء ، وشعورهم سبطا ، وأبدانهم عظيمة مخصبة ، وطبائعهم مائلة إلى البرد ، وأخلاق هؤلاء القوم -أيضًا- وحشية لدوام البرد في مواضع مساكنهم ، واتصاله» . وأمّا الذين يسكنون في الوسط «فإن الشمس لمّا كانت لا تصل إلى موضع سمت رؤوسهم ، صارت ألوان هؤلاء متوسطة ، ومقادير أبدانهم معتدلة ، وطبائعهم حسنة المزاج ، ومساكنهم متّصلة ، وأخلاقهم أنيسة» .

وبعد هذا التقسيم العامّ ، انتقل الهمداني إلى تفصيل خصائص «جماعة الوسط» ، فقال : «ومن كان من هؤلاء يميل إلى ناحية الجنوب فهو ، في أكثر الأمر ، أذكى ، وأحيل ، وأقوى على العلم بأمور الآلهة ؛ لقرب فلك البروج والكواكب المتحيرة ، من موضع سمت رؤوسهم ، وحركات أنفسهم تليق بحركات الكواكب في سرعة وقوفها على الشيء ، وإنها ذوات فحص ونظر في العلوم التي تسمّى التعليمية . . ومن كانوا منهم ، بالجملة ، مائلين إلى ناحية المشرق فهم أكثر تذكّرا ، وأقوى أنفسًا ، ويظهرون جميع أمورهم ؛ لأن ناحية المشرق من طباع الشمس ، وهي ناحية نهارية مذكرة ومتيامنة .

وأمّا الذين يميلون إلى ناحية المغرب فهم أكثر تأنيثًا وأنفسهم أَلْيَن ، ويخفون أمورهم في أكثر الأمر ، ويسترونها ؛ لأن هذه الناحية قمرية ، ومن شأن القمر ، أبدًا ، أن يكون أوّل طلوعه وظهوره ، بعد الاجتماع ، من ناحية مهبّ الرياح الغربية المسمّاة بالدبور ؛ ولذلك يظنّ بهذه الناحية أنها ليلية مؤنثة متياسرة ضدّ الناحية الشرقية . وكلّ واحدة من هذه النواحي الكلّيّة يلزم أن يكون فيها أحوال جزئية من أحوال الأخلاق والسنن الطبيعية» .

وضمن هذه «الوسطية المشرقية» توجد أفضل البلاد المعمورة ، وهي جزيرة العرب ، لوقوعها في المكان المناسب الذي أراده الهمداني طبقًا لحسابات بطليموس الفلكية ، فهي تقع في «الوسط»من كلّ شيء ، كما أنها تتميَّز بكونها شرقية يغلب عليها التذكير المضادّ للصفة الأنثوية التي يتميَّز بها الغرب ، وعلى

هذا ، يكون أهلها قد حازوا الخصال الأولى في مملكة الإنسانية ، لكن لا بدَّ من دعم ذلك بفرضية أخرى ، فرضية خاصّة بالجزيرة نفسها ، فهي ، إلى ذلك ، الأفضل بين البلاد المعمورة في العالم ، لأن «بها البيت الحرام ، والبيت الذي جعله الله مثابةً للناس ، وأمنًا ، ومقام إبراهيم عليه السلام ، وأمّ القرى ، ومخرج النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومتبوَّأ إبراهيم ، ومنشأ إسماعيل ، ومولد محمد ، صلّى الله ، تعالى ، عليهم أجمعين ، ومقطن آل الله ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم – لعتّاب بن أُسَيْد : «إني مستخلفك على آل الله» ، وإليها كان يسير آدم ، وبها كان قطونه ، وبها أرض يثرب مُهاجر النبي عليه السلام ، وحرمه ، ومركز الإسلام ، ومقام الإمامة ، وقطب الخلافة ، ودار العزّ ، ومحلّ الإمرة ، وبها الوادي المقدّس طوى ، وطور سينا ، ومسجد إيلياء ، وآثار الأنبياء ، ومنابت الأتقياء ، ومحافد الأصفياء ، وعرَصة المحشر ، وجبال الرحمة ، ومتعلّق السّياحة ، والعبادة ، والسراة القاطعة من أعلى اليمن إلى أسفل الشام ، وبها بقاع الفصاحة والصباحة ، واعتدال المزاج ، وحسن الألوان ، لا الصهبة ولا الزرقة ، ومتوسّط النبات في الشّعر ، لا القطط ، ولا السّبط ، واسوداد الأحداق ، واحورار المقَل ، مع الحَميّة ، والأريحيّة ، والسخاء ، والكرم ، والجود بما تشح به الأنفس ، والصبر بساعة البأس ، وبها أفرس من رَكِب الخيل ، فهم لها حزم وحلاس ، وأحسن من امتطى الإبل ؛ فهم لها أرباب وأقباس ، وأوفى من تقلّد ذمّةً ، وأبرع من نطق بحكمة»(١) .

تخصيص ديار العرب بالأسباب المذكورة دون غيرها من الأقاليم ، أضفى عليها رفعة ذات مستويات متعدِّدة ومتراكبة : التلازم الشديد بين مركزية دينية وعرقية وجغرافية وبين عوالم إنْ هي إلاّ امتداد لممارسة النفوذ المركزي بوجوهه المتنوّعة تلك . فالاتّصال بين ديار العرب من جهة ، والأقاليم الأخرى المكوِّنة لدار الإسلام من جهة ، والانفصال بين دار الإسلام ، ودار الكفر ، يقوم على

---

(١) الهمذاني ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق : محمد بن الأكوع ، صنعاء ، ١٩٩٠ ، ص٢ .

سلسلة معقَّدة من التبعية والاختزال والاستبعاد . فثمّة مركز يضيء بأنواره عالمًا محاذياً ، يظلّ ممتداً إلى أن تضعف شدّة النور في تخومه ، فيسقط كلّ ما وراء ذلك في ظلام دامس . هنالك تدفّق دائم للقيم العليا ، من بؤرة ما إلى أطراف محيطة ، اكتسبت قيمتها من تيار القيم النابع من ديار العرب ، فدار الإسلام مدينة للعرب ، ودار الحرب مدينة للمسلمين .

من المعلوم أن ابن حوقل نسخ الإصطخري في كتابه «المسالك الممالك» ، واحتذاه بألفاظه وتراكيبه ، والتوسّعات البسيطة التي وردت كإضافات محدودة للغاية ، هنا وهناك ، لا تؤكد إلاّ أن الكتابين كتاب واحد . ومَن يطّلع على مقدّمة كتاب «صورة الأرض» يصاب بالعجب ، لأن صاحبه تخطّى الإصطخري ، وأغفله ، ولم يأتِ على ذكر له .

لم يستمدّ ابن حوقل كتابه ، بكامله ، من كتاب الإصطخري ، فحسب ، إنما استعار الرؤية ذاتها التي ترتِّب شؤون الأقاليم لتحقيق فكرة التمركز حول الذات ، فديار العرب هي «واسطة الأقاليم» . ومن سمائها انبثقت ، أول مرة ، الحقيقة الإلهية ، وبالنسبة إلى المسلم ، فكل الأشياء تتوارى خلف هذه الحقيقة . كان الوعي ، بأشكاله البسيطة الأولى ، يتدفّق عارمًا في تيار ، ينطلق من المكان الذي لمست فيه كلمة الله وجه الأرض . والحجج التي أوردها ابن حوقل لتقديم العرب وديارهم ، أخذها ، بالحرف ، من الإصطخري[1] ، فاستأثر لنفسه بذخيرة المعلومات التي جهزها له الآخرون . فكرة الأقاليم بذاتها كانت شائعة من قبل ، كما سنبيّن ، بعد قليل .

ومنح ابن خرداذبه ، وهو من المؤسِّسين الأُوَل للجغرافيا الإسلامية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أهمية استثنائية للبعد الديني في رؤيته للعالم المسكون ، جاعلاً من مكّة مركز الأرض ، فإلى الكعبة تتّجه قلوب المؤمنين ووجوههم عدّة مرات كلّ يوم . إنه لا يذكر كلمة «مركز»أو «وسط» ،

---

(١) الإصطخري ، مسالك الممالك ، ليدن ، بريل ، ١٩٢٧ ، ص٣ ، وص١٢ .

ولكنه يركّز فهمًا مجازيًا ، غايته الإعلاء من شأن التمركز ؛ فالكعبة قلب مكة ، ومكة قلب ديار العرب ، وديار العرب قلب دار الإسلام ، ودار الإسلام قلب العالم القديم .

استقطبت الكعبة اهتمام المسلمين حيثما كانوا ، فهي «القبلة» التي تكثّفت فيها كل أدعية الخلاص والتطهُّر والرغبة في نيل رضا الخالق . إنها شمس تجذب إليها الكواكب ، وترسل بأشعتها إلى العوالم المجاورة ، يقول ابن خرداذبه : «قِبلة أهل أرمينية ، وأذربيجان ، وبغداد ، وواسط ، والكوفة ، والمدائن ، والبصرة ، وحلوان ، والدينور ، ونهاوند ، وهمذان ، وأصبهان ، والريّ ، وطبرستان ، وخراسان كلها ، وبلاد الخزر ، وقشمير الهند ، إلى حائط الكعبة الذي فيه بابها ، وهو من القطب الشمالي عن يساره إلى وسط المشرق . وأمّا التبت ، وبلاد الترك ، والصين ، والمنصورة ، فخلف وسط المشرق بثمانية أجزاء لقرب قِبلتهم من الحجر الأسود .

وأمّا قِبلة أهل اليمن فصَلاتهم إلى الركن اليماني ، ووجوههم إلى وجوه أهل أرمينية إذا صلّوا . وأمّا قِبلة أهل المغرب ، وإفريقية ، ومصر ، والشام ، والجزيرة ، فوسط المغرب ، وصلاتهم إلى الركن الشامي ، ووجوههم ، إذا صلّوا إلى وجوه أهل المنصورة (تقع في شمال غرب الهند أعلى مدينة الديبل) إذا صلّوا . فهذه قِبل القوم والنحو الذي يصلون إليه»[1] . تتقاطع على أركان الكعبة تطلُّعات المؤمنين من المشرق ومن المغرب ومن الشمال ومن الجنوب . هي مركز جذب ، وإشعاع .

٤. الآخر: نظرة ساكنة:

صاغت الآداب الجغرافية وعي المسلمين بعالمهم وعالم غيرهم ، فهي مستندات على غاية من الأهمية في ترسيخ صورة (الأنا) وصورة (الآخر) . ومع أن الجغرافيا الوصفية ، مثل كتب البلدان ، والمسالك والممالك ، وكتب الأقاليم ، قدّمت معلومات

---

(١) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ليدن ، بريل ، ١٨٨٩ ، ص٥ .

ثمينة عن دار الإسلام ، ومرّتْ ، أحيانًا ، معلومات مختزلة عن دار الحرب ؛ فإن المعلومات الأكثر أهمية ، عن العالمين ، قدمتها كتب الرحلات التي خصّت العالم القديم بملاحظات ثمينة ، ففيها يكمن التمثيل السرديّ الشامل للعالم القديم ، بتنوُّعاته الثقافية ، والعرقية ، والدينية ، وفي تضاعيفها ترسّبت صور الآخر .

انتقد أبو الفداء الموروث الجغرافي الذي تراكم إلى زمنه في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) بادئًا بابن حوقل الذي سجّل عليه عدم ضبطه للأسماء والأطوال والعروض ؛ الأمر الذي قاد إلى جهل بمواقع الأقاليم . ومع أنه لم يكتشف أن كتاب ابن حوقل استنساخ لكتاب الإصطخري ، فقد أشار إلى أن الإدريسي ، وابن خرداذبه ، وغيرهما ، حذوا حذو ابن حوقل في عدم التعرّض لتحقيق أسماء المدن والأماكن والأشخاص ، وإلى ذلك ، لم يلاحظ أن ابن خرداذبه متقدّم على ابن حوقل بحوالي قرن من الزمان ، فانتقل إلى نقطة جديرة بالاهتمام ، وهي اقتصار أولئك الجغرافيين على وصف دار الإسلام «إن جميع الكتب المؤلَّفة في هذا الفن لا تشتمل إلاّ على القليل من الغاية ، فإن إقليم الصين ، مع عظمته وكثرة مدنه ، لم يقع إلينا من أخباره إلاّ الشاذّ النادر ، وهو ، مع ذلك ، غير محقّق . وكذلك إقليم الهند ، فإن الذي وصل إلينا من أخباره مضطرب ، وهو غير محقّق ، وكذلك بلاد البلغار ، وبلاد الجركس ، وبلاد الروس ، وبلاد السرب (الصرب) وبلاد الأولق ، وبلاد الفرنج ، من الخليج القسطنطيني إلى المحيط الغربي ، فإنها بلاد كثيرة ، وممالك عظيمة متسعة إلى الغاية ، ومع ذلك فإن أسماء مدنها وأحوالها مجهولة عندنا ، لم يذكر منها إلاّ القليل النادر ، وكذلك بلاد السودان في جهة الجنوب ، فإنها ، أيضًا ، بلاد كثيرة لجنوس مختلفة من الحبش ، والزنج ، والنوبة ، والتكرور ، والزيلع ، وغيرهم ، فإنه لم يقع إلينا من أخبار بلادهم إلاّ القليل النادر ، وغالب كتب المسالك والممالك ، إنما حقّقوا بلاد الإسلام»(١) .

---

(١) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، باريس ، دار الطبعة السلطانية ١٨٨٠ ، ص٢ .

مهّد هذا النوع من النقد للمدوّنات الجغرافية القديمة إلى أن أبا الفداء سيتخطّى عثرة أسلافه، ويستدرك عليهم، بأن يسدّ ذلك النقص المريع الذي أصبح ظاهرة لافتة للنظر، خاصّة أن دار الإسلام تمزّقت إلى أشلاء سياسية متناثرة في عصره، وقد سعى، فعلاً، لتحقيق ذلك، لكنه ما أن فرغ من ذكر المعلومات الشائعة في أجزاء الأرض، وأقاليمها، ومقاساتها، وبحارها، وأنهارها، وجبالها، حتى وجد نفسه حائرًا في كيفية ترتيب الأماكن، فما عثر على حلّ لاختيار البداية المناسبة إلاّ باللجوء إلى ابن حوقل نفسه: «أمّا ترتيب الأماكن وتقديم بعضها على بعض في الذكر، فإنه لم يتهيّأ لنا فيه ترتيب يرضينا، فتبعنا فيه ابن حوقل، وابتدأنا بجزيرة العرب؛ لكون بيت الله الحرام، وقبر نبيّه، عليه أفضل الصلاة والسلام، فيها[١]».

تبنّى أبو الفداء ترتيب ابن حوقل القائم على ترتيب الإصطخري، وهو الترتيب المستند إلى أسس دينية، وعرقية، وثقافية، لكنه وسّع المجال في التفاصيل الداخلية للترتيب، فما أن فرغ من ذكر جزيرة العرب، واتجه غربًا للحديث عن مصر والمغرب والأندلس، كما فعل أسلافه، حتى أفرد صفحات قليلة جدًا لـ«الجانب الجنوبي من الأرض، وهو بلاد السودان»، ثم مثلها لـ«جزائر بحر الروم والمحيط الغربي»، ثم مرّ بسرعة بـ«الجانب الشمالي من الأرض» قبل أن يتابع ترتيب الأوائل في المشرق، فاختصر القول في «الهند» و«الصين» و«جزائر بحر الشرق»، ثم «بلاد الروم».

يلاحَظ أن أبا الفداء زاد في تفاصيل البلاد الإسلامية المشرقية، فأضاف إلى قائمته «زابلستان، والغور» و«طخارستان، وبذخشان» و«خوارزم»؛ وبذلك كشف التفكُّك السياسي الذي لحق بدار الإسلام؛ فالأقاليم الثلاثة الأخيرة كانت تُدرَج من قَبلُ ضمن «خراسان». ولا تظهر في مدوّنات السابقين عليه. فمن بلاد ما وراء النهر، وهي آخر الأقاليم الإسلامية المشرقية، انبثق بلد هو

---

(١) م.ن، ص٧٣.

«تركستان» . فأبو الفداء المتأخِّر بأكثر من أربعة قرون عن اللحظة التي صيغت فيها مركزية دار الإسلام ، وجد نفسه أمام واقع مختلف ، فقد ذابت تخوم الدار القديمة ، واختفى ذكر تلك الثغور التي كان جهادها كافيًا لإدراجها في تلك الدار ، كما هو الأمر عند الإصطخري وابن حوقل ، وثمّة قوى أخرى فرضت حضورها في دار الحرب ، لم تُعدْ دار العقيدة الإسلامية عالمًا مقفلاً محاطًا بالأعداء ، فقط ، إنما انتقل العداء إلى الداخل .

لم يمتلك أبو الفداء الجرأة الكافية لنقض سنّة القدماء ، فمضى يعمل في هديها ، على أنه كان يصطدم بحقائق جديدة ، لم تكن ظهرت من قبل ، وذلك دفعه إلى تعديل قوائم السابقين ، بإضافات طفيفة شملت معظم البلاد التي كان يُحذّر ، من قبل ، الخوض في تفاصيلها ، بوصفها دار حرب ، ينبغي للمسلم ألاّ يهتم بها ، فاختزلها إلى أقاليم شبه مهجورة تكاد تكون خالية من بني الإنسان ، ففي كتابه الكبير الذي يربو على خمسمئة صفحة ، لم تستأثر دار الحرب ، إلاّ بإشارات مقتضبة لا تزيد على نسبة خمسة في المئة من حجم الكتاب ، وقد خُصّص معظمها لتقويم الأسماء والقياسات ، وكل ذلك النقص الفادح سيتكفّل بإكماله الرحّالة ، بتوغلهم الجريء في عمق تلك الديار .

٥ . حنين ، وتخيُّلات ، وأوهام :

تحدّثنا عن دار الإسلام بوصفها مجالاً شعوريًا للقيم الدينية ثبتت حدودها الآداب الجغرافية ، ولكن ليس من الصواب إهمال المؤثرات السياسية ، فحيثما يكُن المركز السياسي لدار الإسلام تكُن البلاد هي البؤرة المركزية لتلك الدار ، وهكذا فإن الوجود العباسي في بغداد سرعان ما جعل من العراق البؤرة الأكثر أهمّيّة داخل دار الإسلام ، وقامت الآداب الجغرافية بتسويغ ذلك . لقد تدخَّل العامل السياسي ، وهو أحد تجليات المنظومة القيمية ، في جعل العراق قلب العالم القديم ؛ الأمر الذي يكشف أن الجغرافيين يدمجون بالمعطيات الدينية أخرى سياسية . سنرى فيما يأتي كيف تتم إعادة تكييف المرويّات السرديّة من

أجل تسويغ فكرة التمركز .

نُظر إلى العراق ، طوال العصر العباسي ، على أنه مركز العالم ، وأفضل الأقاليم . ولا تخفى الأسباب : السياسية ، والثقافية ، والأيدلوجية ، الكامنة وراء موقف الجغرافيين ، والرحّالة ، والمؤرّخين ، فلم يكن موقفهم من مركزية العراق قد ظهر بمنأى عن التأثيرات النافذة في ذلك العصر ، فثمّة أسباب وجّهت عمل هؤلاء ، وأثّرت في رؤاهم ، ومواقفهم ، ومنها التحيزات الإقليمية التي ذهبت إلى أن العراق هو بؤرة الإقليم الرابع الذي هو أفضل أقاليم الأرض من الناحيتين : الطبيعية ، والبشرية ، على أن القول بمركزية الإقليم الرابع هو ، في الأصل ، إيراني المنشأ[1] .

لا يخالط يقينَ ابن خرداذبه أيُّ شكٍّ في اعتبار بغداد المركز السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي ، للعالم القديم ، لأنها عاصمة دار الإسلام في عصره ، فهي مركز استقطاب لكلّ الموارد : البشرية ، والاقتصادية ، والأدبية ، والفكرية ، والدينية ، لكن الآداب الجغرافية كانت تمارس إكراها مقصودًا ، فتُرَتّب أقاليم الأرض ليكون العراق في أفضلها ، ولتكون بغداد في أفضل الأقسام من تلك الأقاليم ؛ وهذا دفع ابن خرداذبه للحديث عن سواد العراق ، قبل أن ينتقل إلى تثبيت بغداد ، بوصفها العِقد الناظم للعالم القديم ، والنقطة التي تجتذب إليها كل شيء . بدأ ، أولاً ، بتقدير المسافات بينها وبين أقاليم المشرق إلى خراسان ، بما في ذلك الوقوف على المدن المهمّة الواقعة على الطريق الموصل إلى بغداد ، ثم انصرف ، بعد ذلك ، إلى الحديث عن الطريق الذي يصلها بالمغرب ، وكان من الطبيعي أن يهتمّ بالطريق الذي يربطها بمكة ، ثم بسواها من مدن وأقاليم دار الإسلام .

---

(١) شاكر خصباك ، في الجغرافية العربية ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٨ ، ص٢٨ . وانظر -أيضًا- : شاكر خصباك ، الجغرافيا عند العرب ، ضمن «موسوعة الحضارة العربية الإسلامية» ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٩٥ ، ص٤٨٨ .

بغداد واسطة عِقد دار الإسلام ، وهي المركز الذي كان يستقطب اهتمام الجميع ، إنها البؤرة المشعّة على الأطراف كلّها ، وقد جعلها كتاب «المسالك والممالك» المكان الذي منه يتجه ، وإليه يصل كل ما له علاقة بدار الإسلام . يصلح الكتاب لأن يكون دليل سفر للرحّالة ، والمسافرين ، والجند ، والتجّار ، والسفراء ، والحجّاج ، والجباة ، وكل من يرهن حياته بالأسفار والارتحال ، ففيه معلومات دقيقة عن المسافات ، والطرق ، والاتّجاهات ، والمدن ، وجميعها تقود إلى بغداد في نهاية المطاف ، فمن يبتغِ المجد فعليه بدار السلام .

ليس من المصادفة أن يُلحق بكتَاب ابن خرداذبة كتاب «الخراج وصنعة الكتابة» لـ«قدامة بن جعفر» لأنه مكمِّل له ؛ ففضلاً عن اهتمامه بالطرق والمسافات ، هو يُعنى بـ«الخراج» ، أي خراج البلاد المكوّنة لدار الإسلام ، وهو ينطلق -أيضًا- من اعتبار مركزية بغداد «نبدأ بالطريق المأخوذ فيه من مدينة السلام إلى مكة ، وهو المنسك الأعظم وبيت الله الأقدم» . ويحتلّ الأمر أهمية استثنائية «لأن قصبة مملكة الإسلام بلد العراق»[1] . ولهذا فإن قدامة بن جعفر ، بعد أن انتهى من ذكر الطرق والمسافات ، أبدى حرصًا شديدًا على إدراج الكميات المتحصّلة من خراج كل إقليم ، ومدينة ، وقصبة ، وقدّم إحصاءات دقيقة بالدينار والدرهم بيّنت الموارد المالية لدار الإسلام ، وكلها كانت تصبّ في بغداد ، وبعد أن فرغ من ذاك عرّج على ذكر «ثغور الإسلام ، والأمم ، والأجيال ، المطيفة بها»[2] . ومقدار ما تدفعه لدار الإسلام .

ارتسمت بغداد ، لدى كلٍّ من ابن خرداذبه ، وقدامة بن جعفر ، بوصفها مركز الاستقطاب ، والاتّصال ، والتداول المالي ، في القرن الثالث ، ولم يقتصر ذلك عليهما ، فقد أفرد ابن حوقل مكانة لبغداد ، في كتابه «صورة الأرض» ، وركّب للعراق صورة مضخّمة ، مؤكِّدًا موقعه الاستثنائي في أذهان الكتّاب

---

(١) قدامة بن جعفر ، نبذ من كتاب الخراج ، ملحق بكتاب المسالك والممالك ، ص١٨٥ .

(٢) م . ن ، ص٢٣٤ .

والمؤرخين والجغرافيين القدامى ، فالعراق «أعظم أقاليم الأرض منزلةً ، وأجلّها صفةً ، وأغزرها جبايةً ، وأكثرها دخلاً ، وأجملها أهلاً ، وأكثرها أموالاً ، وأحسنها محاسنَ ، وأفخرها صنائَع ، وأهله فأوفرهم عقولاً ، وأوسعهم حلوماً ، وأفسحهم فطنة في سالف الزمان ، والأمم الخالية ، وبمثله تجري أمور أمّة الآخرة ، يقرّ بذلك لهم أهل الطاعة والفضائل ، ولا يمتري فيه أهل الدراية والحصائل»(١) .

قدّم كثير من الجغرافيين تفصيلات شاملة عن العراق تضمّنت ضروبًا كثيرة من الإعجاب ، والدهشة ، ولتخفيف حدّة التحيزات ، كانوا يدرجون ، في كتبهم ، اعتذارات متكرِّرة تدرأ عنهم شبهة الانحياز ، وبأنهم لم يكونوا مبالغين فيما أوردوه ، فكلّ ما في العراق شائع ، يعرفه الداني ، ويعلم به القاصي ، ولا ضرورة تلزمهم لإدراج كلّ التفاصيل ، فلا حاجة إلى التعريف بالمعروف . وهو أمر يظهر ، بوضوح ، عند الإصطخري ، وعند ابن حوقل(٢) .

وحظيت بغداد بعناية الأدب الجغرافي لكونها عاصمة دار الإسلام . وما كان ينطبق على العراق ، ينطبق على بغداد ، وقد تذرّع الإصطخري ببعض الحجج ، وكشف حرجًا لا يخفى ، وهو يعرّف بها ، فمثلها لا يقع التعريف به ، لأنها المدينة التي لا يجهل أحد أمرها ، ولا يمكن لكتاب أن يستوفي ذكرها كلها «لم نُكثر من وصف بغداد لاشتهار وصفها عند الخواص والعوامّ ، فاكتفينا من وصف بغداد بجملة يسيرة ذكرناها لئلا يطول به الكتاب»(٣) .

حشد اليعقوبي في كتاب «البلدان» جملة من الأسباب التي جعلته يرى في العراق ، وفي بغداد ، المركز الأول للعالم المعمور في عصره ، فغمر قولَه فيهما إعجابٌ لا يخفى ، وحفاوةٌ لا تُنكَر ، «وإنما ابتدأتُ بالعراق لأنها وسط الدنيا ، وسرّة الأرض ، وذكرت بغداد لأنها وسط العراق ، والمدينة العظمى التي ليس

---

(١) صورة الأرض ، ص ٢٣٤ .

(٢) مسالك الممالك ، ص ٨٨ ، وصورة الأرض ، ص ٣٤٧ .

(٣) مسالك الممالك ، ص ٨٩ .

لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعةً ، وكبراً ، وعمارةً ، وكثرة مياه ، وصحّة هواء ، ولأنه سكنها من أصناف الناس ، وأهل الأمصار والكور ، وانتقل إليها من جميع البلدان : القاصية ، والدانية ، وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم ، فليس من أهل بلد إلاّ ولهم فيها محلّة ، ومتجر ، ومتصرّف ، فاجتمع بها ما ليس في مدينة في الدنيا .

ثم يجري في حافّتيها النهران الأعظمان : دجلة ، والفرات ، فيأتيها التجارات والمير ، براً وبحراً ، بأيسر السعي ، حتى تكامل بها كل مُتَّجَر ، يحمل من المشرق والمغرب ، من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام ، فإنه يُحمَل إليها من الهند ، والسند ، والصين ، والتبت ، والترك ، والديلم ، والخزر ، والحبشة ، وسائر البلدان ؛ حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر ممّا في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها ؛ ويكون ، مع ذلك ، أوجد وأمكن حتى كأنما سيقت إليها خيرات الأرض ؛ وجمعت فيها ذخائر الدنيا ؛ وتكاملت بها بركات العالم . وهي ، مع هذا ، مدينة بني هاشم ، ودار مُلكهم ، ومحل سلطانهم ، لم يبتدئ بها أحد قبلهم ، ولم يسكنها ملوك سواهم ، ولأن سلفي كانوا القائمين بها ، وأحدهم تولى أمرها ، ولها الاسم المشهور والذكر الذائع» .

واستطرد إثر هذه المقدمة في إيراد أدلة الطبيعة على أن مركز دار الإسلام هي الأفضل «ثم هي وسط الدنيا ، لأنها على ما أجمع عليه قول الحساب ، وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء في الإقليم الرابع ، وهو الإقليم الأوسط ، الذي يعتدل فيه الهواء ، في جميع الأزمان والفصول ؛ فيكون الحرّ بها شديدًا في أيام القيظ ، والبرد شديدًا في أيام الشتاء ، ويعتدل الفصلان الخريف والربيع في أوقاتهما ، ويكون دخول الخريف إلى الشتاء ، غير متباين الهواء ؛ ودخول الربيع إلى الصيف غير متباين الهواء ، وكذلك كل فصل ينتقل من هواء إلى هواء ، ومن زمان إلى زمان ؛ فلذلك اعتدل الهواء ، وطاب الثرى ، وعذب الماء ، وزكت الأشجار ، وطابت الثمار ، وأخصبت الزروع ، وكثرت الخيرات ، وقَرُب مستنبط معينها وباعتدال الهواء ، وطيب الثرى ، وعذوبة الماء ، حسنت أخلاق

أهلها ، ونضُرت وجوههم ، وانفتقت أذهانهم ، حتى فَضُلوا الناس ، في العلم ، والفهم ، والأدب ، والنظر ، والتمييز ، والتجارات ، والصناعات ، والمكاسب ، والحذق بكل مناظرة ، وإحكام كل مهنة ، وإتقان كل صناعة . فليس عالِم أعلم من عالِمهم ؛ ولا أروى من راويتهم ؛ ولا أجدل من متكلمهم ؛ ولا أعربَ من نَحْويِّهم ؛ ولا أصحّ من قارئهم ؛ ولا أمهر من متطبِّبهم ؛ ولا أحذق من مغنّيهم ؛ ولا ألطف من صانعهم ؛ ولا أكْتَب من كاتبهم ؛ ولا أبْيَن من منطقهم ؛ ولا أعبد من عابدهم ؛ ولا أروع من زاهدهم ؛ ولا أفقه من حاكمهم ؛ ولا أخطَب من خطيبهم ، ولا أشَعر من شاعرهم ، ولا أفتَك من ماجنهم» .

ولبيان كيفية اختيارها عاصمة لدار الإسلام ، لا بدَّ من رواية تاريخية تفاضلية تقوم على ركنَي المدح والقدح : «لمّا أفضت الخلافة إلى بني عمّ رسول الله ، صلّى الله عليه وآله ، من ولد العبّاس بن عبد المطلب ، عُرِفوا بحسن تمييزهم وصحة عقولهم ، وكمال آرائهم ، وعَرفوا فضل العراق ، وجلالتها ، وسعتها ، ووسطها للدنيا ؛ وإنها ليست كالشأم الوبيئة الهواء الضيقة المنازل ، الحزنة الأرض ، المتّصلة الطواعين ، الجافية الأهل ، ولا كمصر المتغيِّرة الهواء ، الكثيرة الوباء التي إنما هي بين بحر رطب ، عفن ، كثير البخارات الرديئة التي تولِّد الأدواء ، وتفسد الغذاء ، وبين الجبل اليابس الصلد ، الذي ليبسه وملوحته وفساده لا ينبت فيه خضر ، ولا ينفجر منه عين ماء ، ولا كإفريقية البعيدة عن جزيرة الإسلام ، وعن بيت الله الحرام ، الجافية الأهل ، الكثيرة العدوّ ، ولا كأرمينية النائية ، الباردة الصردة الحزنة التي يحيط بها الأعداء . ولا مثل جبال كور الحزنة الخشنة المثلجة ، دار الأكراد الغليظي الأكباد . ولا كأرض خراسان الطاعنة في مشرق الشمس التي يحيط بها من جميع أطرافها عدوّ كلب ومحارب حرب ، ولا كالحجاز النكدة المعاش الضيقة المكسب التي قوتُ أهلها من غيرها ، ولا كالتبت التي ، بفساد هوائها وغذائها ، تغيرت ألوان أهلها ، وصغرت أبدانهم ، وتجعّدت شعورهم .

فلمّا علموا (بنو العباس) أنها أفضل البلدان ، نزلوها ، مختارين لها . فلمّا

ولي أبو جعفر المنصور الخلافة صار إلى بغداد ، فوقف بها ، وقال : ما اسم هذا الموضع؟ قيل له : بغداد . قال : هذه ، والله ، المدينة التي أعلمني أبي محمد بن علي أني أبنيها ، وأنزلها ، وينزلها ولدي من بعدي . ولقد غفلت عنها الملوك في الجاهلية والإسلام ، حتى يتمّ تدبير الله لي وحكمه فيَّ ، وتصحّ الروايات ، وتبين الدلائل والعلامات ، وإلا فجزيرة بين دجلة والفرات ؛ دجلة شرقيها ، والفرات غربيها مشرَّعة للدنيا ، كل ما يأتي في دجلة ، من واسط ، والبصرة ، والأبلَّة ، والأهواز ، وفارس ، وعمان واليمامة ، والبحرين ، وما يتصل بذلك ، إليها ترقى ، وبها تُرسى . وكذلك ما يأتي من الموصل ، وديار ربيعة ، وأذربيجان ، وأرمينية ، ممّا يُحمَل في السفن في دجلة ، وما يأتي من ديار مضر والرقة ، والشآم ، والثغور ، ومصر ، والمغرب ، ممّا يُحمَل في السفن في الفرات ، فيها يحتطّ وينزل ، ومدرجة أهل الجبل وأصبهان وكور خراسان . فالحمد لله الذي ذخرها لي ، وأغفل عنها كل من تقدَّمني ، والله ، لأبنينّها ، ثم أسكنها أيّام حياتي ، ويسكنها ولدي من بعدي ، ثم لتكوننّ أعمر مدينة في الأرض»[١] .

ولا غرابة ، بعد كلّ ذلك ، أن ينتهي الأمر بابن الوردي إلى اعتبار بغداد إحدى غرائب العالم ؛ فهي «جنة الأرض ، وواسطة الدنيا ، وقبة الإسلام ، ومدينة السلام ، وغرة البلاد ، ودار الخلفاء ، ومعدن الظرفاء واللطائف ، وبها أرباب النهايات في العلوم ، والدرايات ، والحكم ، والصناعات ، هواؤها ألطف من كل هواء ، وماؤها أعذب من كل ماء ، ونسيمها أرقّ من كل نسيم»[٢] ؛ وكل هذا جعلها محطّ أنظار الجغرافيين والرحّالة ، وموضوع عنايتهم .

يمكن اعتبار مدوّنات ابن خرداذبه ، وقدامة ، واليعقوبي ، والإصطخري ، وابن حوقل ، ممهّدات أساسية بلورت فكرة وضع العراق في المركز ، لكن المسعودي ، وقد عُرف بتوسُّعاته الثقافية ، صاغ تلك المركزية من منظور أشمل ؛

---

(١) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، بريل ، ليدن ، ص :١-٢ .

(٢) ابن الوردي ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة .

فقد أدرج أسبابًا متعدِّدة لها ، وأعاد ترتيب المعطيات الشخصية والمعطيات الموضوعية ، بكل تنوُّعاتها ليجعل من العراق مركز استقطاب استثنائي ، ومدخله إلى ذلك ذاتي بحكم الولادة ؛ فقد أعلن اعتزازه بالعراق ، لأنه «الإقليم الذي ولدنا به» . واحتفى بما اختُصَّ به «كثرة مرافقه ، واعتدال أرضه ، وغضارة عيشه ، ومادّة الرافدين إليه ، وهما دجلة والفرات ، وعموم الأمن فيه ، وبُعد الخوف عنه ، وتوسُّطه الأقاليم السبعة ، وقد كانت الأوائل تشبِّهه ، من العالم ، بالقلب من الجسد ؛ لأن أرضه من إقليم بابل الذي تشعّبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب ؛ وبذلك اعتدلت ألوان أهله ، واقتدرت أجسامهم ، فسلموا من شُقرة الروم والصقالبة ، وسواد الحبشة ، وغلظ البربر ، ومن جفا من الأمم ، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ، وكما اعتدلوا في الجِبِلَّة ، كذلك ، لطفوا في الفطنة ، والتمسُّك بمحاسن الأمور ، وأشرف هذا الإقليم مدينة السلام»[١] .

كتب المسعودي هذا الكلام في مصر ، وهو بعيد من العراق ، فتدخّلت نبرة الحنين إلى مسقط رأسه في ترتيب أفكاره وأحكامه ، وشأنه شأن معظم الجغرافيين القدامى منح الموقع الجغرافي قيمة عليا في تحديد الطبائع البشرية وسلوك الأفراد وصفاتهم ، وهي فكرة ظلت فاعلة في مسار الفكر الإنساني حتى العصر الحديث ، وتعْزى أصولها النظرية الأولى إلى اليونان . لكن أرسطو طرحها نظرية ضمن كتابه «السياسة»[٢] . واصطلح عليها بنظرية «الكيوف الطبيعية» وهي فرضية ربطت ، بشكل مباشر ، بين المناخ والطبع ، وأضفت تفوّقًا وقيمة على الأقوام بحسب اعتدال المناخ . وكنا وقفنا ، في مكان آخر ، بالتفصيل على

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق : محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٦٤ ، ج٢ : ص٦٥-٦٦ .

(٢) أرسطو ، السياسة ، ترجمة أحمد لطفي السيد ، القاهرة ، الهيئة المصرية، ١٩٧٩، ج١ : ١١٦ .

أسس تلك النظرية ، وتجلياتها ، في الفكر الغربي الحديث[١] .

وكما نظر أرسطو إلى بلاد اليونان ، بوصفها مركز العالم ، نظر المسعودي إلى العراق بوصفه قلب العالم القديم . فهو المكان الذي توافرت فيه الأسباب الكاملة ، فأهّلته لكل ذلك ، كالاعتدال ، وغضارة العيش ، والماء ، والأمن ، والطمأنينة ، وتوسُّط أقاليم الأرض ، والحكمة ؛ ولذلك اعتدل أهله في ألوانهم ، وفي أفكارهم ، وفي أجسامهم . لقد اجتمعت في العراق وأهله محاسن جميع الأمم والأقطار . لم يأتِ المسعودي على ذكر أية مساوئ ، لا في البلاد ، ولا في العباد ، وقد دفع به شغفه بموطنه للنظر إلى العراق كأنه بلد في الأثير!

من الصعب فَصْمُ عرى العلاقة الوثيقة بين المسعودي والعراق ؛ فهو لم يترك أية مسافة بينه وبين موضوعه للنظر المحايد ، والموضوعي ، وتقديم الأحكام النهائية ، ولهذا لم يذكر إلاّ ما كان يرغب فيه ، وتوارت عن كتابه المثالب ، كما شاح بوجهه عن كل ما لا يراه جديرًا بالذكر ؛ فغربته في أرض الكنانة شحذت خياله بالحنين إلى مسقط رأسه ، وجعلته يغضّ الطرف عن أشياء كثيرة ، إلى ذلك فإن حالته النفسية حجبت عنه المساوئ ، وكان مذعنًا لمؤثرات الثقافة السائدة في عصره ، حيث كان العراق يتبوّأ المكانة الأولى في دار الإسلام .

لم ينظر المسعودي إلى العراق إلاّ بوصفه نموذجًا مثاليًا لكل شيء ، على أن هذه الأحكام لم تكن منفصلة عمّا استقر لدى معظم الجغرافيين والمؤرخين من تصوُّر بخصوص مركزية العراق . وما لبث المسعودي أن أعاد تكرار البراهين على مركزية العراق في كتابه «التنبيه والإشراف» مدرجًا فيه براهين مضافة ؛ ففي سياق حديثه عن الأقاليم السبعة ، وصل إلى العراق الذي هو أوسط تلك الأقاليم ، و«شرف الأرض وصفوتها» وموضعه هو «الموضع الذي ينقسم فيه الزمان إلى أربعة أقسام ، فلا يخرج ساكنوه من شتاء إلى صيف حتى يمر بهم

---

(١) عبدالله إبراهيم ، المركزية الغربية ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٧ ، ص :٢٢٩-٢٧٥ .

فصل الربيع ، ولا صيف إلى شتاء حتى يمرّ بهم فصل الخريف .

ولمّا ذكرنا توسّطه ، كانت ملوك سالف الأمم تحلّه ؛ إذ كان نسبة الملك إلى المملكة التي هو عليها نسبة القلب إلى البدن الذي هو فيه . فكما كان الله عزّ وجلّ بلطيف حكمته ، إذ خلق القلب أشرف الأعضاء ، أحلّه من البدن أوسطه ، كانت هذه سبيل الملك من مملكته . وكانت قدماء الملوك تقول الملك الأعظم مركز لدائرة ملكه ، بعده من محيطها بعد واحد ، وتدٌّ مركوز ، وعلم منشور ، منه يُستمد التدبير ، وإليه تردّ الأمور . لذلك يقال إن الملك الأعظم والمدبّر الأكبر ينبغي أن يكون منزله الواسطة من هذه الأقاليم» . واستنادًا إلى كل هذه الحجج ، عُدَّ المسعودي العراق «أشرف المواضع التي اختارتها ملوك الأمم»[1] .

وما دمنا نتحرّك في مجال خاصّ بالمسعودي ، وبالقرب من استطراداته الإغوائية حول العراق ، فمن المفيد الوقوف على وثيقة أوردها في كتابه «مروج الذهب» وأكّد أنها تعود إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ومع أن أفكارها وأحكامها شديدة الشبه بما كان شائعًا في زمن المسعودي ، وتتغلغل في تضاعيفها أيدلوجيا التمركز المتأخرة ، ومضمونها يوافق نموذج التفكير السائد في العصر العباسي ، فإن تأكيد المسعودي على أنها متصلة بعهد عمر ، وأنها مكتوبة له خصيصًا من أحد «حكماء» ذلك العصر ، جوابًا عن سؤال وجهه إليه الخليفة الثاني ، يضفي عليها أهمية استثنائية ؛ لأنها تكشف- لو صحّت- أن النظر إلى العراق باعتباره مركزًا قد تشكّلَ في وقت مبكّر جدًا من تاريخ الإسلام .

تكشف ما سوف نصطلح عليه بـ«وثيقة عمر» جملة من الأمور الأساسية ، ولعل أهمها على الإطلاق أن الحكيم الذي كتبها وبعثها إلى عمر ، كان ينظر إلى العالم على أنه ثلاثة عوالم : أولها العالم العربي ، وفيه : الشام ، ومصر ، والحجاز ، والمغرب ، والعراق ، والجزيرة : وثانيها العالم الإيراني ، وفيه : الجبال ، وخراسان ، وفارس ، وخورستان . وثالثها عالم شبه مبهم غير مترابط الأوصال

(١) المسعودي ، التنبيه والإشراف ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، بريل ، ١٨٩٤ ، ص :٣٥-٣٦ .

يتكوَّن من الهند، والصين، وبلاد الروم. وهو التقسيم التقريبي الشائع لدار العرب، ودار الإسلام، ودار الحرب. وحينما نتأمّل ترتيب تلك العوالم الثلاثة نجد أن ذلك الحكيم المجهول قد رتّبها بحسب أهمّيّتها، فالترتيب امتثل لنوع من حكم القيمة. وقد حرصت الوثيقة على وضع العراق في القلب، ثم جرى تنضُّد البلاد الأخرى إلى جانبيه: شرقًا، وغرباً، وشمالاً وجنوبًا، فظهر أنه المركز الثابت لتلك العوالم كافّة.

أسند المسعودي خبر «وثيقة عمر» إلى «ذوي الدراية» الذين ذكروا أن الخليفة حين تَمّ له فتح العراق، والشام، ومصر، وبلاد أخرى، كتب إلى حكيم من حكماء العصر: إنّا أناس عرب، وقد فتح الله علينا البلاد، ونريد أن نتبوّأ الأرض، ونسكن البلاد والأمصار، فصفْ لي المدن، وأهويتها، ومساكنها، وما تؤثّره التربة والأهوية في سكانها. فكتب إليه ذلك الحكيم «إن الله قسّم الأرض أقساماً: شرقًا وغرباً، وشمالاً وجنوبًا، فما تناهى في التشريق فهو مكروه لاحتراقه، وناريته، وحدّته، وإحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغربا أيضًا أضرّ سكانه؛ لموازاته ما أوغل في التشريق، وهكذا، ما تناهى في الشمال أضّر ببرودته وقرّه وثلوجه وآفاته، الأجسام، فأورثها الآلام، وما اتّصل بالجنوب، وأوغل فيه، أحرق بناريّته ما اتّصل به من الحيوان؛ ولذلك صار المسكون من الأرض جزءاً يسيراً، ناسب الاعتدال، وأخذ بحظّه من حسن القسمة».

هذا استهلال شائع استعاد فيه «الحكيم» أفكار بطليموس وجالينوس حول تأثير المناخ على الطبائع البشرية (وهي أفكار بدأت تترسخ لدى الجغرافيين المسلمين في عصر المسعودي) وبعد أن انتهى من تدبيج تلك التوطئة شرع يصف المناطق المسكونة من الأرض، على الوجه الآتي: «أمّا الشام فسحب وآكام، وريح وغمام، وغدق وركام، ترطب الأجسام، وتبلّد الأحلام، أمّا أرض مصر فأرض قوراء غوراء، ديار الفراعنة، ومنازل الجبابرة، تحمد بفضل نيلها، وذمّها أكثر من حمدها، هواؤها راكد، وحرّها زائد، وشرها وارد، تكدّر الألوان،

وتجنب الفطن ، وفي أهلها مكر ورياء ، وخبث ودهاء وخديعة ، إلاّ أنها بلد مكسب لا بلد مسكن ، لترادف فتنها ، واتّصال شرورها .

أمّا اليمن فيضعف الأجسام ، ويذهب بالأحلام ، أمّا الحجاز فهواؤه حرور ، وليله بهور ، ينحف الأجسام ، ويجفّف الأدمغة ، ويشجع القلب ، ويبسط الهمم ، أمّا المغرب ، فيقسّي القلب ، ويوحش الطبع ، ويطيّش اللبّ ، ويُذهِب بالرحمة ، ويُكسِب الشجاعة ، ويقشع الضراعة ، وفي أهله غدر ، ولهم خبث ومكر . ديارهم مختلفة ، وهممهم غير مؤتلفة .

أمّا العراق فمنار الشرق ، وسرّة الأرض وقلبها ، إليه تحادرت المياه ، وبه اتّصلت النضارة ، وعنده وقف الاعتدال ، فصَفَت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واحتدّت خواطرهم ، واتّصلت مسرّاتهم ، فظهر منهم الدهاء ، وقويت عقولهم ، وثبتت بصائرهم . وقلب الأرض العراق ، وهو المجتبى من قديم الزمان ، وهو مفتاح الشرق ، ومسلك النور ، ومسرح العينين ، ومدنه المدائن وما والاها ، ولأهله أعدل الألوان ، وأنقى الروائح ، وأفضل الأمزجة ، وأطْوَع القرائح ، وفيهم جوامع الفضائل ، وفوائد المبرّات ، وفضائله كثيرة ؛ لصفاء جوهره ، وطيب نسيمه ، واعتدال تربته ، وإغداق الماء عليه ، ورفاهية العيش به» .

بعد أن انتهى الحكيم من ذكر أطراف ديار العرب ، انتقل إلى العالم الإيراني ، ليستأنف أوصافه التبخيسية التي خصّ بها الشام ، ومصر ، واليمن ، والحجاز ، والمغرب ، باستثناء العراق الذي ركّب له صورة تبجيلية شفافة . ويلاحظ ، مرّةَ أخرى ، ظهور أحكام القيمة السلبية ؛ فـ«الجبال» تخشّن الأجسام وتغلظها ، وتبلّد الأفهام وتقطّعها ، وتفسد الأحلام ، وتميت الهمم . وأمّا خراسان فتكبر الهمم ، وتعظّم الأجسام ، وتلطّف الأحلام ، ولأهلها عقول وهمم طامحة ، وفيهم غوص وتفكير ، ورأي وتقدير . أمّا فارس فخصب الفضاء ، رقيق الهواء ، متراكم الماء ، معتم بالأشجار ، كثير الثمار ، وفي أهله شحّ ، ولهم خبّ ، وغرائزهم سيّئة ، وهممهم دنيئة ، وفيهم مكر وخداع . أمّا خوزستان فهي كدرة الأهواء ، تفسد الأحلام ، وتبلّد الأفهام ، وتخبث الهمم ، وتستأصل الكرم ،

يساق أهله سوق الأنعام ، وهم الهمج الطّغام .

ثم مرّ على «الجزيرة» وتقدّم ، في النهاية ، بوصيته الثمينة إلى الخليفة «واعلم ، يا أمير المؤمنين ، أن الله تبارك وتعالى قسّم الأرض أقسامًا ، فضّل بعضها على بعض ، فأفضل أقسامها العراق ، فهو سيّد الآفاق ، وقد سكنه أجيال وأمم ذوو كمال» . وأخيرًا ، في سطر واحد ، يجمل كلّ ما يتصل بدار الحرب : «وأمّا الهند والصين وبلاد الروم فلا حاجة بي إلى وصفها لك ؛ لأنها منازل شاسعة ، وبلدان نائية ، كافرة وطاغية»(1) . وقبل أن نقوم بتحليل هذه الوثيقة ، يحسن أن نردفها بجواب كعب الأحبار عن سؤال ، تقدَّم به إليه عمر بن الخطاب عن العراق ، فكان جوابه : يا أمير المؤمنين ، إن الله لـمّا خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء ، فقال العقل : أنا لاحق بالعراق ، فقال العلم : وأنا معك ، فقال المال : وأنا لاحق بالشام ، فقالت الفتن : وأنا معك . فقال الخصب : وأنا لاحق بمصر ، فقال الذل ، وأنا معك . فقال الفقر : وأنا لاحق بالحجاز ، فقالت القناعة : وأنا معك . فقال الشقاء وأنا لاحق بالبوادي ، فقالت الصحّة : وأنا معك(2) .

تكشف «وثيقة عمر» مجموعة من الإكراهات التي هدفت إلى تثبيت فكرة يُستبعد أنها كانت موجودة في العقد الثاني من القرن الهجري الأول ؛ فالفرضية الثقافية القائلة بمركزية العراق بدأت تتبلور مع العباسيين ؛ ولهذا فإن المسعودي في النصف الأول من القرن الهجري الرابع ، كان مشبعًا بأسس تلك الفكرة إلى درجة لم يشكّك بها ، لكن النقد الداخلي لهذه الوثيقة سيضعف من منطقها ، وحججها ، وأول ما يلاحظ أنها تتحدَّث عن بلاد المغرب ، بصفتها جزءاً من دار الإسلام ، والحال أنها لم تفتح في خلافة عمر ، ومحاولات عثمان بن عفان الأولية لم تفلح في فتحها إلى أن قام معاوية بن أبي سفيان ، بعد انقضاء الخلافة الراشدية بعشر سنين ، أي في عام٥٠ هجرية الموافق٦٧٠ميلادية ،

---

(1) مروج الذهب ٢ : ٦١ -٦٤ .

(2) م . ن . ٢ : ٦٥ .

بتكليف عقبة بن نافع بأمر الفتح ، وهو الذي بنى القيروان .

ولم يستتب الأمر للمسلمين في المغرب ، أو ما كان يسمى ، آنذاك ، إفريقيّة ، بسهولة ، فبعد أن عزل عقبة بن نافع جرى تمرُّد واسع ، فما كان من الأمويين إلاّ أن أعادوا عقبة ثانية . والسيطرة النهائية على هذه البلاد لم تتمّ إلاّ قرب نهاية خلافة عبد الملك بن مروان (حكم ٦٥-٨٦هـ ٦٨٥-٧٠٥م) حينما تَمَّ القضاء على «الكاهنة» التي كانت تُلَقَّب بـ«ملكة البربر» (حوالي سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م) . ليس ذلك فحسب ، بل إن المصادر تورد أن عمر بن الخطاب نفسه كان منع عَمْرًا بن العاص من الإقدام على فتح إفريقية ، فكتب إليه : «لا تدخل إفريقية ؛ فإنها مفرّقة لأهلها غير مجمّعة ، ماؤها قاسٍ ، ما شربه أحد من العالمين إلاّ قست قلوبهم»[١] .

والأمر الثاني ، وله الدرجة ذاتها من الأهمية ، هو الحديث عن خراسان وخوزستان وبلاد فارس والجبال ، أو ما اصطلح عليه بـ«العالم الإيراني» ، فلا يمكن الادعاء أن هذه البلاد فتحت جميعها في خلافة عمر ، ذلك أن الحدود الشرقية والحدود الشمالية لهذه البلاد تقع بعيدًا في وسط آسيا . والصحيح أن أجزاء منها فقط تَمّ فتحه ، وبعد مدّة طويلة تَمّ استكمال السيطرة عليها . وهنا ، يظهر الأمر الثالث الخاصّ بتقسيم كل البلاد التي أشار «الحكيم» إليها : دار الإسلام ودار الحرب ، كما هو واضح من وصفه للصين والهند وبلاد الروم بأنها «كافرة طاغية» . فهذا الوصف لم يكن قد ظهر في ذلك الوقت .

يرجَّح أن هذا التقسيم متأخِّر ، وقد عُرف بعد بزوغ التخوم الفاصلة بين الدارين المذكورتين . وعلى الرغم من أن هذه الطعون تضعف الأهمية التاريخية للوثيقة ، هي لا تمسّ القيمة الأيديولوجية التي تتشبّع بها ، فهي تريد دمج جملة من المعطيات المتفرّقة : الجغرافية ، التاريخية ، والثقافية ، والعرقية ، للإعلاء من شأن قضية معينة ، ومع أنه لا يُستبعَد أن السجالات

---

(١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٩٥ ، ج١ ، ص ٢٢٩ .

السياسية بين العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب- وقد بدأت تتشكّل في بعضها كيانات سياسية-وجهّت هذه الوثيقة وجهتها المذكورة ، وكانت حامية ، كما هو معروف في الأدبيات التاريخية ، فإن معظم مضامينها مشتقة من المعلومات الجغرافية التي كانت بدأت بالشيوع في القرن الثالث .

فكرة دار الإسلام ، ومركزها العراق ، تشكّلت بسبب من تثبُّت المنظومة العقائدية الإسلامية بعد أن توقَّف المسلمون عن الفتح والتوسُّع ، وقد كانت تلك الدار مجالاً شعوريًا تغذّيه الثقافة الإسلامية ، وتنشط فيها منظومة قيم متماسكة تقبل ، أحيانًا ، تفسيرات متقاربة ، ولكنها تنظر إلى الآخر بتوجُّس ، على أن الأمر الذي يستأثر بالاهتمام هو صورة الآخر خارج المجال المشبع بالعقيدة الإسلامية كما ظهرت في المدوّنات الجغرافية ، ومنها أدب الرحلة ، فعن كل تمركز ، لا بدَّ أن تتأدّى صورة مشوّهة للآخر .

٦. مرويّات ازدرائية:

أفرد أبو الفداء بابًا في كتابه للحديث عن الزنوج في الجزء الجنوبي من الأرض ، وهو ما يُعَرف بـ«بلاد السودان» ، وطفق ، منذ اللحظة الأولى ، يعرض أحكامًا انتقاصية حول الجنس الأسود ، معتمدًا في ذلك على ابن سعيد المغربي (الذي يروي عن رحّالة يدعى ابن فاطمة) ، فالسودان عراة ، مهملون ، وهم كالبهائم ، وعادتهم أنهم يأكلون من وقع إليهم من الناس[١] .

أمّا سكان أعالي النيل ، فقد «اشتهر عنهم أنهم يخصّون من يقع إلى أيديهم . ويدفعون ذكور الآدميّين في صدقاتهم ، ويفتخرون بذلك»[٢] . المعلومات التاريخية والاجتماعية والدينية ، حول الآخر خارج دار الإسلام ، ضحلة في كتاب أبي الفداء ، ففي أحاديثه المقتضَبة عن جزائر المحيط ، وبلاد

(١) تقويم البلدان ، ص١٥١ .

(٢) م . ن ، ص ١٥٤ .

الروم، والقسم الشمالي من الأرض، والهند، والصين، تجنّب الخوض في وصف المنظومات القيمية، وانصرف اهتمامه إلى ضبط المسافات والأسماء، وكأنّ تلك البلاد خالية من الجنس البشري.

وتحدّث أبو الفداء عن بريطانيا بالصورة الآتية: «من جزائر البحور المتفرّعة عن البحر المحيط الغربي جزيرة بريطانية في بحر برديل، وهو البحر الخارج في شمال الأندلس. وليس بهذه الجزيرة ماء إلاّ من الأمطار، وعلى ذلك يزرعون. وجزائر بريطانية إحدى عشرة جزيرة، ومن الجزائر المشهورة جزيرة انكلطرة، ويقال إنكلترة... وفي هذه الجزيرة مدينة ليندرس(لندن)... وفي هذه الجزيرة معدن الذهب، والفضة، والنحاس، والقصدير، وليس فيها كروم لشدة الجمد، وأهلها يحملون جواهر هذه المعادن إلى بلاد إفرنسة، ويتعوّضون به الخمر. فصاحب فرنسة إنما كثر الذهب والفضة عنده من ذلك... وفي شمالي جزيرة إنكلترة وبعض شمالي بريطانية جزيرة أرلندة... وهي مشهورة بكثرة الفتن، وكان أهلها مجوسًا ثم تنصّروا اتّباعًا لجيرانهم»[١]. ما الذي سيرتسم في المخيال عن الإنجليز سوى: استبدال الخمرة الخسيسة بالمعادن النفيسة، والفتن، والعقائد الوثنية التي ثلمها التنصّر؟

ولم يكن المسعودي بمنأى عن السقوط في هوّة الحكم القيمي بحق الآخر، فأهل الشمال بسبب الأحوال المناخية الباردة «عظمت أجسامهم، وجفت طبائعهم، وتوعّرت أخلاقهم، وتبلّدت أفهامهم، وثقلت ألسنتهم. ومَن أوغل إلى أقصى الشمال، فالغالب عليه الغباوة، والجفاوة، والبهائمية. ومَن كان في الإقليم السادس فإنهم في عداد البهائم»[٢]. وكل ذلك مبعثه الأخذ بالتركة الشائعة حول الأعراق، وتصنيفاتها، وخضوعها للظروف الطبيعية، فقد ورثت

---

(١) تقويم البلدان، ص ١٨٧ –١٨٨.

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، بيروت، ١٩٦٥، ص٢٣.

الجغرافيا الإسلامية عن الإغريق والفرس والهنود فكرة الأقاليم ، وفكرة الطبائع ، والعلاقة بينهما[١] .

حدّد الموقع الجغرافي طبائع البشر ، وأخلاقهم ، وعقلياتهم ، وألوانهم ، فالتلازم بينهما تلازم نتيجة بسبب . إذ تدخلت الظروف المناخية للإقليم -حسب اعتقاد القدماء- في تشكيل الطبائع ، والعادات ، والأشكال ، وطرائق التفكير ، والرغبات . أخذ الجغرافيون المسلمون بهذه العلاقة الافتراضية ، وبنوا عليها تصوُّراتهم ، وتصنيفاتهم للأجناس البشرية . وقد نقد كراتشوفسكي خضوع الجغرافيا الإسلامية للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل[٢] .

وظّفت الآداب الجغرافية معطيات نظرية الكيوف الطبيعيّة في مجال رؤية الآخر ، وقد وُجِّه نقد إلى جغرافيا الأقاليم وما ترتّب عليها ؛ لأن التقسيم الذي اعتمدت عليه تعسُّفي ، ولم يولِ أهمية للعوامل الجغرافية ، مثل التشابه في الظروف : المناخية ، والثقافية ، والبشرية ، وغيرها ، وتضمّنت تكرار بلاد مختلفة في أكثر من إقليم[٣] .

تُنسَب الفرضيّات التي قالت بها نظرية الكيوف إلى بطليموس ، وجالينوس ، وأبقراط ؛ فالأول عُدّ المرجعيّة الأساسية لفكرة الأقاليم ، أمّا جالينوس وأبقراط فهما الموجّهان الأساسيان لفكرة الأعراق والطبائع . وربطت الآداب الجغرافية الفكرتين ربطًا محكمًا ، وكيّفتهما في نظرتها إلى الذات

---

(١) أندريه ميكيل ، جغرافية دار الإسلام البشرية ، ترجمة إبراهيم الخوري ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٥ ، ج١ ، ق١ ، ص١١ . وكرامرز وآخرون ، الجغرافيا عند المسلمين «سلسلة كتب دائرة المعارف الإسلامية» ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٢ص٩١-١٠٣ . وشاكر خصباك «موسوعة الحضارة العربية الإسلامية» ص٤٨٨-٤٩٢ .

(٢) كراتشكوفسكي ، تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ،القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج ١ ، ص٢٣ .

(٣) س . م . ضياء الدين علوي ، الجغرافيا العربية ، تعريب وتحقيق : عبدالله يوسف الغنيم ، وطه محمد جاد ، الكويت ، جامعة الكويت ، ١٩٨٠ ، ص١٦٦ .

والآخر، منذ دخول الفكر اليوناني إلى الثقافة العربية الإسلامية في القرن الثالث الهجري . وظهرت تجلّيات واضحة للفكرتين في سياق مناقشتنا لوثيقة عمر «فما تناهى في التشريق فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدّته وإحراقه لمن دخل فيه، وما تناهى مغربًا أيضًا أضرّ سكانه ؛ لموازاته ما أوغل في التشريق، وهكذا ما تناهى في الشمال أضّر ببرودته وقُرّه وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام، وما اتّصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتّصل به من الحيوان ؛ ولذلك صار المسكون من الأرض جزءًا يسيرًا، ناسب الاعتدال، وأخذ بحظّه من حسن القسمة» .

تطوّرت هذه الظاهرة، وأصبحت محورًا أساسيًا في الآداب الجغرافية، وبخاصة في مرويّات الارتحال، ويعنينا الجانب المتَّصل بالآخر منها، كما ظهر في أدب الرحلة حيث ظهر اهتمام البشر، ووقع شِبْه إهمال للطبيعة . وكان أندريه ميكيل مصيبًا حينما ثبّت هذه الحقيقة، فموضوع بحثِ الجغرافيين كان البشر، بالدرجة الأولى، وكانت وظيفة الجغرافيا كشف علاقات دار الإسلام بالبلدان المجاورة، وتصوّر المسلمين عن شعوبها، وتصوُّرهم عن الأرض بأجمعها(١) .

ربط المسعودي بين البيئة والطبائع البشرية، مكرِّسًا التصوُّر الإغريقي، فانتهى إلى تثبيت نتائج غير محايدة، ترتَّبت عليها أحكام قيمة بالغة القسوة، فالأرض -كما يقول- أربعة أقسام عنده، وهي :

١ . شرقي مذكّر، يتّصف أهله بـ«طول الأعمار، وطول مدد الملك، والتذكير، وعزةّ الأنفس، وقلّة كتمان السرّ، وإظهار الأمور والمباهاة بها، وما لحق بذلك ؛ وذلك لطباع الشمس، وعلمهم الأخبار والتواريخ والسير والسياسات والنجوم» .

---

(١) جغرافية دار الإسلام البشرية ،ج١ ، ق١ ، ص١١ . وج٢ ، ق١ ، ص١٢٠ .

٢ . غربي مؤنّث ، يتّصف أهله بـ«كتمان للسُر ، وتديُّن وتألّه ، وكثرة انقياد إلى الآراء والنِحَل ، وما لحق بهذه المعاني ، إذ كان من قسم القمر» .

٣ . شمالي غبيّ ، تأثّر أهله بالبرد ، فـ«عظمت أجسامهم ، وجفّت طبائعهم ، وتوعّرت أخلاقهم ، وتبلّدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم ، وابيضّت ألوانهم حتى أفرطت . . . ولم يكن في مذاهبهم متانة ؛ وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة . ومَنْ كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة ، والجفاء ، والبهائمية ، وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال . . . وأمّا مَنْ كان خارجًا عن هذا العرض ، فإنهم في عداد البهائم» .

٤ . جنوبيّ متوحِّش ، ضربت الحرارة أهله فـ«اسودّت ألوانهم ، واحمرّت أعينهم ، وتوحّشت نفوسهم ؛ وذلك لالتهاب هوائهم ، وإفراط الأرحام في نضجهم حتى احترقت ألوانهم ، وتفلفلت شعورهم لغلبة البخار الحارّ اليابس»(١) .

قام المسعودي بتنميط البشر بحسب الأقاليم ، وهو تنميط عرقي ، وأخلاقي ، وعقلي ، وشكلي ، يراد منه حبس الأجناس في طبائع ثابتة ، وهو تقسيم اختزالي الهدف منه بسط سلسلة من الانطباعات الشائعة كأحكام نهائية يروم من خلالها إلغاء طرف وتبجيل آخر . وتلك التقسيمات ليست غريبة عن الأفق التاريخي الذي تترتب فيه ، فلم ينجُ القدماء من الانزلاق إلى تبنّي تلك الفكرة ؛ فأرسطو قبل المسعودي بأكثر من ألف عام ، كان دشّن لذلك بتركيز الصفات الحميدة في اليونان وحدها استنادًا إلى الحجة البيئية ، قال : «الشعوب التي تقطن الأقطار الباردة حتى في أوربا هم على العموم ملؤهم الشجاعة لكنَّهم على التحقيق منحطّون في الذكاء وفي الصناعة . من أجل ذلك هم يحتفظون بحريتهم ، لكنهم من الجهة السياسية غير قابلين للنظام ، ولم

---

(١) التنبيه والإشراف ، ص ٢١ .

يستطيعوا أن يفتتحوا الأقطار المجاورة . وفي آسيا الأمر على ضدّ ذلك ، فشعوبها أشدّ ذكاء وقابلية للفنون ، لكن يعوزهم القلب ، ويبقون تحت نير استعباد مؤبّد . أمّا العنصر الإغريقي ، الذي هو ، بحكم الوضع الجغرافي ، وسط ، فإنه يجمع بين كيوف الفريقين ، فيه الذكاء والشجاعة معًا . إنه يعرف أن يحتفظ باستقلاله ، وفي الوقت نفسه ، يعرف أن يؤلّف حكومات حسنة جداً . وهو جدير ، إذا اجتمع في دولة واحدة ، بأن يفتح العالم»[1] .

مايز المسعودي بين الشعوب على أسس تفترض التضادّ المطلق فيما بينها ، وهي : الذكورة والأنوثة من جهة ، والبهيمية والوحشية من جهة ثانية . وألحق بالزوج الأول الشرقيّين والغربيّين ، وبالزوج الثاني الشماليّين والجنوبيّين . وتوزيعه المفتعل يقتضي التنافر التام ، فالذكورة الحقّة تضادّ الأنوثة ، حسب تصوره ، وتضاد بالطبع البهيمية والوحشية . إنها فحولة التميّز والقوة والتفكير . وعلى النقيض من ذلك تظهر الأنوثة كمنقصة لأنها سلوك معْوجّ ، يقوم على الغموض والكتمان والتصديق العاطفي السريع ، ثم التعلّق بشيء والتخلّي عنه دونما سبب واضح ، فتختلط الآراء والمواقف ، وتكثر النِّحَل .

رفع المسعودي من شأن الذكورة إذ جعلها معيارًا للتفوُّق في الطبع ، وخفّض من شأن الأنوثة ؛ إذ جعلها معيارًا لنقصه . أمّا نظرته إلى الشماليين والجنوبيين ، فلا تستحقّ معايير بشرية ، ولهذا اقترض أركانها من عالم الحيوان البهيمي ، والمتوحِّش ، فنضّد سلسلة طويلة من الأحكام القاسية بحقّهم . وبذلك يكون قد اقترح خريطة جينية للتقسيم البشري والحيواني ، فأفضل بني البشر ، هم الشرقيون ؛ لأنهم ذكور في جملة طباعهم الشائعة ، والأسوأ هم الغربيون لأنهم مؤنثون في طباعهم المعروفة ، أمّا أهل الشمال والجنوب فينبغي نفيهم خارج دائرة التصنيف البشري ، إنهم أقرب إلى الحيوانات المتوحشة ، والتراتب بينهم غائب إذ هم في الدرك الأخير من الحيوانية ، ولا تمايز عنده بين ذكور الحيوانات

---

(١) السياسة ، ج١ ، ص : ٢٥٤-٢٥٥ .

وإناثها ، ولا بين وحشيّها وأليفها . وما دام التصنيف يقوم على التفاضل ، فالمهم هي منزلة الفاضل وليس المفضول .

يسبّب هذا التصنيف صدمة ، إذ يصدر عن المسعودي الذي سلخ عمره في مخالطة الأغيار ، ولكنه كان جزءاً جوهريًا من ثقافة القرون الوسطى ، وظلّ مستبداً بالتفكير البشري إلى العصر الحديث ، فقد وضع الفكر الغربي تمايزاً لا يقل قسوة عن تقسيم المسعودي بين الشعوب حتى وقت قريب[1] . قلب الفكر الغربي أوصاف المسعودي ، وعكس الأحكام ، وبدّل مواقع الأجناس ، فالأقوام الشمالية هي الـمُمثّلة ، في العصر الحديث ، لنخبة بني البشر ، ويبدأ بعد ذلك انحطاط الطباع بالتدرُّج ، إلى أن ينتهي بالزنوج والهنود الحمر القابعين في نهاية سلّم الدونيّة . تفرض المركزيات الثقافية والعرقية والدينية قوانينها الصارمة والمغلقة على الجنس البشري ، وتحجزه ضمن تصنيفات قائمة على أسس مختلقة . هذه الفكرة كانت مثار إعجاب ابن خلدون ، وغيره كثر ، فتبناها ، وجعلها الركيزة التي استندت إليها فكرته عن العُمران البشري .

٧. أقاليم، وبشر، ومواقع دونيّة:

أكد ابن خلدون في «المقدِّمة» على أهمية موقع الأقاليم ، وترتيبها ، وربط بها الخصائص البشرية ، فالناس يتفاضلون في مكنتهم الإنسانية باختلاف الأقاليم التي يستوطنونها ، فكل امرئ بما خلق فيه ، فإن كان ذلك في الأقاليم الوسطى ، فقد امتاز بالفضائل ، وإلا فقد تردّى في الرذيلة إن شاء سوء طالعه أن يكون من أهل الأقاليم المتطرفة الشمالية أو الجنوبية . لا تكتسب الفضائل والرذائل كسبًا بل توجد في خلق الإنسان بحسب الإقليم الذي يولد فيه ، فيكون متطرفًا في خلقه وأخلاقه كلما قدّرت له الطبيعة من أهل الأقاصي ، ويعتدل في كل ذلك حينما يكون من أهل الأقاليم الوسطى ، فهؤلاء حازوا

---

(١) المركزية الغربية ، ص٢٢٩-٢٧٢ .

كمال الخلق والأخلاق ؛ لأنهم خلقوا في أقاليم الأرض الوسطى ، فهم النوع الكامل ، وأما سواهم فقد خلقوا ناقصين بطبعهم . تلازم الخصال السوية من كان إقليمه سويًا ، ويفتقر إليها من كان غير ذلك ، ولا سبيل لتصحيح هذا الخطأ ، فهو خطأ الطبيعة ، ولا قِبَل لأحد بتغييره .

قال ابن خلدون : «إن المعمور من الأرض إنما يوجد في الوسط لإفراط الحر في الجنوب منه والبرد في الشمال ، ولمّا كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادّين من الحر والبرد وجب أن تتدرّج الكيفية من كليهما إلى الوسط ، فيكون معتدلاً ؛ فالإقليم الرابع أعدل العُمران ، والذي حافاته من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال ، والذي يليهما . والثاني والسادس بعيدان من الاعتدال . والأول والسابع أبعد بكثير ؛ فلهذا كانت العلوم ، والصنائع ، والمباني ، والملابس ، والأقوات ، والفواكه ، بل الحيوانات ، وجميع ما يتكوّن في هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال ، وسكّانها من البشر أعدل أجسامًا ، وألوانًا ، وأخلاقًا ، وأديانًا ، حتى النبّوات فإنما توجد في الأكثر فيها .

ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ؛ وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ، قال تعالى : «كنتم خير أمّة أخرجت للناس» ؛ وذلك ليتمّ القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله . وأهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم ، فتجدهم على غاية من التوسّط في مساكنهم ، وملابسهم ، وأقواتهم ، وصنائعهم ، يتّخذون البيوت المنجّدة بالحجارة المنمّقة بالصناعة ، ويتناغون في استجادة الآلات والمواعين ، ويذهبون في ذلك إلى الغاية ، وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب ، والفضة ، والحديد ، والنحاس ، والرصاص ، والقصدير ، ويتصرّفون في معاملاتهم بالنقدين العزيزين ، ويبعدون عن الانحراف في عامّة أحوالهم . وهؤلاء أهل المغرب ، والشام ، والحجاز ، واليمن ، والعراقين ، والهند ، والسند ، والصين ، وكذلك الأندلس ومَنْ قرُب منها من الفرنجة ، والجلالقة ، والروم واليونانيين ، ومَنْ كان مع هؤلاء أو قريبًا منهم في هذه الأقاليم المعتدلة ؛ ولهذا كان العراق

والشام أعدل هذه كلّها ؛ لأنها وسط من جميع الجهات .

وأمّا الأقاليم البعيدة من الاعتدال ، مثل : الأوّل ، والثاني ، والسادس ، والسابع ؛ فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم ، فبناؤهم بالطين والقصب ، وأقواتهم من الذرة والعشب ، وملابسهم من أوراق الشجر ، يخصفونها عليهم أو الجلود ، وأكثرهم عرايا من اللباس ، وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف ، ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدّرونها للمعاملات ، وأخلاقهم ، مع ذلك ، قريبة من خلق الحيوانات العجم ، حتى لينقل عن الكثير من السودان ، أهل الإقليم الأوّل ، أنهم يسكنون الكهوف والغياض ، ويأكلون العشب ، وأنهم متوحّشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضًا ، وكذا الصقالبة ؛ والسبب في ذلك أنهم ، لبعدهم عن الاعتدال ، يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ، ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك ، وكذلك أحوالهم في الديانة أيضًا ، فلا يعرفون نبوءة ولا يدينون بشريعة إلاّ من قرب منهم من جوانب الاعتدال . . ومن سوى هؤلاء من أهل تلك الأقاليم المنحرفة جنوبًا وشمالاً فالدين مجهول عندهم ، والعلم مفقود بينهم ، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأناسي قريبة من أحوال البهائم . ويخلق ما لا تعلمون»[1] .

أوردنا نصّ ابن خلدون الطويل بكامله لأنه يحمل في طياته حجج القدح بجلاء ، فقد أصدر صاحب «المقدّمة» أحكامًا مطلقة دمج فيها المعطيات الطبيعية بالربانية ؛ فقد اختار الله أهل الأقاليم الثلاثة المتوسطة المخصوصة بالاعتدال ، وسكّانها من أعدل البشر أجسامًا وألوانًا وأخلاقًا ، فخصّهم بالأديان ، حتى النبوءات إنّما هي فيهم ، فلم يقف على خبر بعثة نبوية في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية ؛ وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم ، وقد أعاد تكييف دلالة الآية القرآنية : «كنتم خير

(١) ابن خلدون ، المقدّمة ، تحقيق حجر عاصي ، بيروت ، دار مكتبة الهلال ، ١٩٨٦ ، ص :٦٠-٦١ .

أمة أخرجت للناس» لدعم حجّته ، وذلك ليتمّ القبول بما يأتيهم به الأنبياء من عند الله . ربط ابن خلدون بين البيئة ، والطبع ، وإرادة الله ، ليسوّغ موقفًا ، يقوم في أسسه على خفض قيمة جماعات من البشر كاملة ، ورفع قيمة أخرى . ومن الصعب إقامة براهين على فرضية تدفع بها منظومة ثقافية ، لها شروط مغايرة عن شروط الأقوام الموصوفة . وكان «روسو» قد حذّر من أمر البحث في أمور عامّة كالأعراف ، وطرق معيشة شعب ما ، إذ ينبغي توخّي الحذر لئلاّ يصار إلى تقليص أمر الرؤية على أمثلة خاصّة[1] .

وحاول ابن خلدون نقض الأسطورة الشائعة حول الألوان ، وبها استبدل القول بالنظرية المناخية ، فذهب إلى أن بعض النسّابين ممن لا علم لديهم بطبائع الكائنات توهموا أن السودان ، وهم ولد حام بن نوح ، اختصّوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ، ظهر أثرها في لونه ، وفيما جعل الله من الرقّ في عقبه ، وينقلون في ذلك حكاية من خرافات القصّاص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة ، وليس فيه ذكر السواد ، وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيدًا لولد إخوته ، لا غير[2] .

بعد هذا التمهيد الذي ظهر فيه ابن خلدون مبدّدًا لخرافات القصّاص ، انزلق فجأة إلى خرافة المناخ ، فقرّر الآتي : في القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحَرّ والبرد وأثرهما في الهواء ، وفيما يتكوّن فيه من الحيوانات ، وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ؛ فإن الشمس تُسامِتُ رؤوسهم مرتين في كل سنة قريبة إحداهما من الأخرى ، فتطول المسامتة عامّة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ويلحّ القيظ الشديد عليهم ، وتسودّ جلودهم لإفراط الحَرّ . ونظير هذين الإقليمين مما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضًا البياض من

---

(١) تودروف ، نحن والآخرون ، ترجمة ربى حمود ، دمشق ، دار المدى ، ١٩٩٨ ، ص٦١ .

(٢) المقدّمة ، ص٦٣ .

مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ؛ إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين ، أو ما قَرُبَ منها ، ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قَرُبَ منها ، فيضعف الحَرّ فيها ، ويشتدّ البرد عامّة الفصول ؛ فتبيضّ ألوان أهلها ، وتنتهي إلى الزعورة ، ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون ، وبرش الجلود ، وصهوبة الشعور[١] .

صدر المسعودي وابن خلدون ، في رؤيتهما للآخر ، من عمق الثقافة المتمركزة حول نفسها ؛ أي الثقافة التي تقول بقيم ، وتؤمن بها ، وتدعو إليها ، وتنفي كلّ منْ لا ينصاع لها ، فالاختلاف في منظومات القيم يقود إلى التراتب ، والتراتب نوع من التفاضل القائم على ترجيح قيم وتبخيس أخرى . لم يبرأ مجتمع من هذا الداء ، مهما ادّعى من تسامح ؛ فالتسامح في القرون الوسطى كان رغبة دفينة بالامتثال لا التعايش . ولا يخفى أن هذه الأحكام تقود إلى أيديولوجيا الإحساس بالتفرّد القائم على المفاضلة ، ومبدأ المفاضلة ينتهي -لا محالة- إلى الإقصاء . وقد شعر أبو الريحان البيروني بالافتخار ، والزهو ، لأنه ظل منحبسًا داخل أطر عاداته ، وقيمه ، وتصوُّراته ، وهو الذي أمضى شطرًا طويلاً من حياته بين الهنود ، فعبَّر عن ذلك مباهيًا بالقطيعة بين المِلل ، بقوله : «لم يَسُمنا التهنّد ، والانتقال إلى رسومهم» لأن الهنود «يباينوننا في الرسوم والعادات» و«يباينوننا بالديانة مباينة كلّيّة ، لا يقع منّا شيء من الإقرار بما عندهم ، ولا منهم بشيء ممّا عندنا»[٢] .

يبدو هذا الموقف طبيعيًا ، أول وهلة ، بسبب الانحباس ضمن إطار الهوية الثابتة ، ولكنه سوف يصبح مع الزمن عبئًا ؛ إذ لا يمكن التقيّد الصارم بمنظومة أخلاقية مغلقة وسط منظومة أخلاقية مفتوحة مغايرة . فهذا النمط من التفكير

---

(١) المقدّمة ، ص٦٣ .

(٢) البيروني ، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، حيدر آباد ، مطبعة المعارف العثمانية ، ١٩٥٨ ، ص١٤-١٥ .

هو اتّصال دوغمائي بنوع من «الهويّات القاتلة»[١] . وهو نوع من التمركز حول الذات الذي يكثّف مجموعة من الرؤى في مجال شعوري محدَّد ، فيؤدّي إلى تشكيل كتلة متجانسة من التصوُّرات المتصلّبة التي تنتج الذات ، ومعطياتها الثقافية ، بما في ذلك الدينية والأخلاقية ، بوصفها الأفضل ، استناداً إلى معنى محدَّد للهوية ، قوامه الثبات ، والديمومة ، والتطابق ، بحيث تكون الذات هي المرجعيّة الفاعلة في أيّ فعل ، سواء باستكشاف أبعاد نفسها وبمعرفة الآخر ، وذلك سيؤدّي إلى تركيب صورة مشوَّهة للآخر ، وإنتاج أيديولوجيا اقصائية استبعادية ضده ، وأيدلوجيا طهرانية مقدسة خاصّة بالذات[٢] .

لم تكن الصور التي رسمها الرحّالة للعالم الوسيط قد رُكّبت بمنأى عن الوسيلة التي وقعت بها معرفة الشعوب في دار الحرب ، فمصدر المعلومات ، وطرق تداولها ، وكيفية ترتيبها ، لعبتْ دورًا مباشرًا في صوغ تلك الصورة ، وقد قامت تلك المعرفة إمّا على احتكاك خارجي مع أفراد ينتمون إلى تلك الشعوب في دار الإسلام أو على احتكاك داخلي ، والأول مصدره الحروب والتجارة والارتحال ، والداخلي مصدره الرقيق والكتب المنقولة عن لغات الشعوب الأخرى إلى العربية ، ولم تكن معرفة المسلمين بالآخر معرفة بريئة ، إنما كانت مزيجًا من التوقّعات والتصوّرات الشائعة ، وهي ممزوجة بتخيُّلات ورغبات كثيرة[٣] .

أدّت المرويّات عن الآخر المختلف ثقافيًا وقيميًا إلى رسم صور تطابق رغبة الذي يقوم بروايتها وتلقّيها ، أكثر ممّا عبّرت عن الموضوع الأصل الذي دارت حوله . وقد تدخّلت المنظومة الثقافية-العقائدية الإسلامية في إعادة رسم ملامح تلك المعرفة ، فصورُ الآخرين تشكّلت من تداخل المعلومات الحقيقية بالمزيَّفة ، ومن المشاهدات المباشرة المفسّرة على وفق سلّم معيَّن من القيم ، ومن

---

(١) أمين معلوف ، الهويات القاتلة ، ترجمة نهلة بيضون ، دمشق ، ١٩٩٩ .

(٢) المركزية الغربية ص١٠ .

(٣) عزيز العظمة ، العرب والبرابرة ، لندن ، رياض الريس ، ١٩٩١ص٢١ .

الأخبار التي هتكتها الخرافات والأساطير ، واقتحمت صلبها ، وأخيرًا من الرغبة الثابتة في الذات لإنتاج صورة نمطية منقوصة للآخر المختلف عنها .

وفي حقبة ، يعدّ الموجّه العقائدي فيها محفّزًا لتشويه الآخر الذي يئنّ تحت طائلة الضلال ، ليس من المنتظر البحث عن نقاء الصورة ، فطالما أنتجت الأعراق والعقائد ، وما زالت ، صورًا استعلائية لنفسها وتبخيسية لغيرها ، وفي الحالين تقوم تلك الصور على تنضيد مرويّات لا يركّز الاهتمام فيها على الدقّة والتقدير المطلوبين ، إنما على إشباع الرغبات الثقافية ، ففي مخيال الجماعات الثقافية-البشرية المعتصمة بذاتها ترتسم صورة مُرْضية عن ذاتها ، ومَرَضّية عن غيرها . وما دام الآخر موضوعًا للتبخيس في مجتمعات القرون الوسطى ، فلم يفلح أحد ، بصورة مطلقة ، في تعديل الصور المقلوبة ؛ فالدونيّة سمة تُلصَق بالآخر ، وتخفض من شأنه ، وقد تبيّنت لنا الأسباب التي وُضعت لذلك ، وكانت المرويّات الجغرافية ، وفي مقدِّمتها سرود الارتحال ، قد نهضت بمهمّة التمثيل الدونيّ للأمم خارج دار الإسلام ، واستأثرت بمواقع مهمّة في صلب عمليّة التمثيل السرديّ المذكور ، وركِّبت لها صور خاصّة ، ستتّضح طبيعتها في الفصول اللاحقة من هذا الكتاب .

الفصل الثاني

عوالم متجاورة، عوالم متداخلة

١ . أسفار وبعوث:

في نهاية العقد الأول من القرن الرابع الهجري ، الذي يوافق بداية العقد الثالث من القرن العاشر الميلادي ، انطلق ابن فضلان من بغداد ، قلب دار الإسلام ، مبعوثًا من الخليفة العباسي المقتدر إلى يلطوار ملك الصقالبة . وطبقًا للمعايير العقائدية الشائعة ، فإن مملكة الصقالبة ، وعاصمتها بلغار على نهر الفولغا ، في البلاد الروسية الحالية ، تقع ضمن دار الحرب . نُدِب ابن فضلان واعظًا في بعثة الخليفة ، ولم يكن الشخصية المركزية فيها ، إنما كُلِّف بالإرشاد الديني ، وبتقديم شروحات ، وتفسيرات ، ومواعظ دينية ، لملك الصقالبة حول الإسلام .

وكلّما مضت البعثة في طريقها إلى بلاد الشمال توارى حضور الآخرين ، وفي نهاية المطاف لم يبق أثر لأحد منهم ، وتركّز السرد حول شخصية ابن فضلان الذي أصبح موضوعًا للرحلة التي يرجَّح أنها استغرقت ثلاث سنوات . لم يكن ذلك سيئًا ؛ فهذا الانفراد بالسرد ، جعل رؤيته الثقافية للعوالم التي مرّ بها تعرض تمثيلاً سرديًا على غاية من الأهمية لكثير من المشاهد التي التقطتها عيناه ، أو التجارب التي مرّ بها .

تألفت بعثة المقتدر بالله (في ٢٨شوال٣٢٠هـ١نوفمبر٩٣٢م) من ثلّة مختارة من الرجال الفاعلين في البلاط العباسي ، وهم من بين أولئك الذين كانت تتردد أسماؤهم في المصادر طوال خلافة المقتدر المضطربة ، وبعضهم أسهم مباشرة في تثبيت بيعته ، ورافقه منذ اللحظة الأولى لتولي أمر الخلافة ، وحامى عنه في وسط مملوء بالمنازعات التي أتت عليه في نهاية المطاف ، وأبرزهم : نذير الحرمي ، وسوسن الرُسِّي ، وبارس الصقلابي ، وتكين التركي ، ومعهم سفير الصقالبة في بغداد عبد الله بن باشتو الخزري . والرجل الوحيد الذي تُخمل

المصادر ذكره في البلاط العباسي ، هو أحمد بن فضلان ، الذي سرعان ما انتزع دورًا أساسيًا في البعثة .

اعتلى المقتدر بالله عرش الخلافة في الثالثة عشرة من عمره ، فكان ، بذلك ، أصغر من تولّى الحكم في تاريخ الإسلام إلى عهده . وما تمكّن المقتدر أبدًا من إحكام السيطرة على دار الإسلام ، فشرعت في التفكُّك الذي أتى عليها بسبب الفتن ، والفوضى ، وسوء الإدارة ، ولعل تفكُّك بعثته إلى ملك الصقالبة يحيل رمزيًا إلى ما كان الأمر عليه في الواقع .

وكانت البعثة مناسبة جيدة ، يعيد ابن فضلان فيها الاعتبار لنفسه ، إذ سيتوارى الآخرون خلف حضوره الكثيف ، وسيُبتر وجودهم في اللحظة الحاسمة ، وهي لحظة دخول البعثة بلاد الشمال ، فلا يعود إلى ذكرهم بعد ذلك ، ولن نعرف عن مصائرهم شيئًا ، فكأن البعثة المقدّر لها أن تصل إلى دار الصلح ، تبعثرت ، حينما شرع مُرشدها الديني في اختراق دار الحرب ، التي هي دار كفر بحسب المعتقد الديني في القرون الوسطى .

تندرج بعثة المقتدر إلى بلاد الصقالبة ضمن سلسلة من البعوث ، والسفارات ، والرحلات ، بين العرب والأمم المجاورة ، لأغراض متعدِّدة : سياسية ، ودينية ، واقتصادية ، وأحيانًا لأسباب فردية خاصّة بالرحّالة أنفسهم ، وفي معظمها ترك الرحّالة مدوّنات سرديّة شديدة الأهمية ، تمثِّل أدبًا استكشافيًا ، قدّم للعرب ، وللمسلمين ، أحوال الأمم الأخرى ، بمزيج من ذكر الوقائع ، وإنتاج الخيالات ، ومزج هذا بذاك ، كلّما انقطعت السبل بالرحّالة ، وهم يطوفون في الأصقاع النائية للعالم مندهشين بأحوال الناس المغايرة لأحوال أهل دار الإسلام .

سُبقتْ بعثة المقتدر ، وتُليتْ ، بكثير من الوفود والبعوث التي توزَّعت في أركان العالم المجاور لدار الإسلام ؛ إذ أرسل هارون الرشيد بعوثًا إلى الصين ، وبلاد الإفرنج ، وتبادل معهم الآراء حول العلاقات فيما بين الطرفين ، ثم سفارة الشاعر الأندلسي الغزال إلى بلاد الشمال مبعوثًا من السلطان عبد الرحمن ،

ورحلة البيروني إلى بلاد الهند من طرف محمود الغزنوي ، وقد أثمرت إقامته المديدة فيها عن معرفة شاملة بأحوالها : الثقافية ، والبشرية ، والدينية ، كما ظهرت في كتابه الكبير «في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» . وسفارة ابن خلدون مبعوثًا إلى المغول القادمين لاحتلال بلاد الشام ، ومحاولة التوسط لإيقاف تقدمهم إلى مصر ، كما عرض لها في سيرته الذاتية «التعريف بابن خلدون» .

ثم سفارة أبي دُلَف مسعر بن مهلهل ، مبعوث نوح بن نصر إلى الصين والهند ، ورحلة سليّم الأسواني إلى أعالي النيل ، وبلاد النوبة ، ورحلة ابن بطوطة إلى وسط إفريقية مبعوثًا من السلطان أبي عنان ، فضلاً عن الرحلات البحرية التي قام بها سليمان التاجر ، وابن وهب إلى الهند والصين ، وبحار جنوب آسيا ، ثم رحلات أبي حامد الغرناطي ، والطرطوشي إلى أوربا ، ومشاهدات هارون بن يحيى للقسطنطينية وروما ، ورحلة سلاّم الترجمان إلى بلاد يأجوج ومأجوج ، وابن جبير إلى صقلية .

على أن رحلة ابن بطوطة إلى بلاد الأناضول ، وجنوب البلاد الروسية ، ثم اختراق خراسان باتّجاه الهند ، ثم أقصى شمال شرق الصين ، وتطوافه في جزر المحيط الهندي ، مثل جزر المالديف ، والمليبار ، وسيلان ، وبعض الجزر الإندونوسية ، وارتحاله إلى السواحل الشرقية لإفريقية ، ثم الأجزاء الوسطى الغربية منها ، تعدّ أهم مدوّنات الارتحال في الثقافة العربية-الإسلامية ، لما فيها من مواقف ، ورؤى ، وأخبار ، عن الأمم خارج دار الإسلام . وينطبق على ابن بطوطة وصف «الرّحول» .

٢. انتهاك نَصٍّ، وخرمُه:

لم يأخذ ابن فضلان في الحسبان التحذير الذي اتَّفق عليه الجغرافيون المسلمون القُدامى ، والذي سنّهُ المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ، ومؤدّاه : أن أهل دار الإسلام غير معنيّين بدار الكفر ، وليس من

الحكمـة أن يكلّفـوا أنفسـهم عناء البـحث في ممالك الكفـار ، ولا فـائدة من ذلك[1] .

لـم يكن ابن فـضـلان جـغـرافـيّـا بالمعنى المعـروف ، ولم يدخل تلك الدار برغبته ، إلاّ أن وضعيّته كشفت طبيعة ذلك التحذير التراجيدي ؛ فعالم «الآخر» غيـر عالـم «الأنا» . ثمـة اختـلافـات جوهرية قـائمـة في صلب البنيـة الذهنيـة والعقائدية للمجتمعات في تلك الحقبة من الزمن ، وفاعلة في صميم النموذج الفكري اللاهوتي السـائد وقتـذاك . كان الاتّصال مع الآخر-المختلف عقـائديّاً- محظورًا أو شبه محرَّم ، ولا يجرؤ على ذلك إلاّ المغامرون من الرحّالة والسفراء ، فـ«الآخر» كان ثمرة محرّمة ، وفي أقل الأحوال ثمرة عسيرة الهضم . والعُرف الشـائع في عصر ابن فضـلان ، هو : ينبـغي الحذر من الآخـر . نادرًا ما ذكـر ابن فضلان بغداد باسمها ، فهو يستخدم «دار السلام» . ودار السلام ، بالنسبة إليه ، معقل العالم القديم ، ومركزه ، فهي الوسط من الفضاء الثقافي الواسع المسمّى بدار الإسلام . إنها منهل المرجعيّة الإسلامية الكلّيّة ، وهو الذي انتدبه الخليفة ليفقّه أهل دار الصلح في الدين ، ويعرِّفهم بشرائع الإسلام[2] .

أظهـر ابن فـضـلان حـرصًـا واضـحًـا على ذكـر المدن والمسـافـات والأنهـار ، واستأثرت باهتمامه أحوال الأمم التي اخترق مجالَيْها الجغرافي والثقافي ، وهي أمم كثيرة ، ومتنوِّعة الأعـراق ، والأديان ، والتقـاليـد ، وبخاصة حينمـا غـادر دار الإسـلام ، وتوغّل في دار الصلح ، ثم دار الحرب . ولعبت الكتابة دورًا مهمّاً في تثبيت رؤاه ، وتصوّراته ، وأحكامه ، فما دام يتحرّك في مجاله الثقافي داخل دار الإسـلام ، فإن الكتـابة لديه كـانت تقوم بإعـادة خلق جـديد لكل مـا وقع تحت بصره ، فهي كتابة تمثيلية تعرض ، بواسطة السرد ، مكوّنات العالم الذي يرتحل

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص٩ .

(٢) ابن فضـلان ، رسالة ابن فضلان ، جمع وترجمة وتقديم حيدر محمد غيبة ، بيروت ، الشركة العالمية للكتاب ، ١٩٩٤ ، ص٣٤ .

فيه ، ولكن ما أنْ انزلق إلى دار الحرب حتى توقفت الكتابة ، وضاع من المخطوط معظم الجزء الخاصّ بالآخر ؛ فكأن ثمة قوة سحرية انتزعت ما له صلة بالآخر ، ورمت به في غياهب النسيان ، إلاّ ما ورد ذكره عن الروس ، ومقطع عن بلاد الخزر ، ولم يُعثر ، إلى الآن ، على الأصل العربي الكامل .

لم يتطرّق ياقوت الحموي إلى تفاصيل رحلة ابن فضلان من بغداد إلى بلاد الصقالبة ، لكنه اقتبس منها مقاطع طويلة ، على أنه شكّك في بعض مرويّاته مستبعدًا وقوعها ، وأعلن براءته منها ، وعدم ضمان صحّتها[1] . وإذا صحّت تلك المرويّات ، وأُخذت بالحسبان فرادة المغامرة ، ومداها الواسع ، وأحداثها ، وأثرها في شخصية ابن فضلان ، فسيكون من المحتمل ألاّ يُسمح بعرضها ، على العموم ، كاملة . إذ ينبغي أن تركّب صورة مشوّهة للآخر ، وإلى ذلك فيحتمل أن ياقوتًا نفسه ، بعد مضيّ ثلاثة قرون على عصر ابن فضلان ، لم يكن قادرًا على تصديق أحد مصادره الأصلية عن بلاد الصقالبة .

يفتح غياب المتن الكامل من رحلة ابن فضلان باب الأسئلة الكبيرة ، وجميعها متصلة بالحدود الصارمة التي تنظّم العلاقة بالآخر . وإذا كان القدماء ، قصدوا إتلاف الجانب المهمّ من الرحلة ، فإنهم ، بذلك العمل الشنيع الأخرق ، قد شرّعوا نوافذ التخيُّل . فمنذ القدم بُذل جهد جبار لإعادة وصل الأجزاء المفقودة ، وربطها ، والبحث عمّا طُمس منها ، إلى جانب ذلك ، وكما هو متوقّع ، سيتراكم طوال ألف سنة تراث من التضخيم للرحلة ولصاحبها .

منح ابن فضلان دورًا استثنائيًا ورائدًا لكل ما يتّصل بعلاقة دار الإسلام بالبلاد الشمالية الوثنية في القرن العاشر الميلادي ، وأصبح شاهدًا من الدرجة الأولى على انبثاق عالم مجهول في فضاء الثقافة الإسلامية ، وأضفى عليه شمولية أحاطت به إحاطة السوار بالمعصم . لكن الشك ظل يحوم حول المدى الذي بلغه في تلك الأصقاع البعيدة . بدا وكأن مصير كتابته حول الآخر ظل

---

(١) معجم البلدان ، بيروت ، ج١ ، ص٨٨ .

معلّقًا في مكان ما من هذا العالم ، فالآخر كالترياق السامّ الذي طالما جرى التحذير منه . وفي ضوء تلك الفكرة ، جرى تقسيم العالم القديم .

ترك أبو حكيمة (راشد بن إسحاق الكاتب) وهو معاصر لابن فضلان ، ديوانًا شعريًا فريدًا في رثاء ذكره . والقصيدة الأولى فيه ، وهي فاتحة الديوان ، والتي يصف فيها خَرْم الأحداث لبدنه وعضوه ، هي التي تخرّمت ، في أكثر المقاطع أهمية . فما يعتبره الشاعر شيئًا حميمًا ، هو الذي تعرَّضَ للخَرْم[1] . ثمة يد خفيّة ، قاسية ، باطشة ، مهيّأة للامّحاء ، لحقت لبّ كثير من الآثار : الأدبية ، والفكرية . ولم تكن رحلة ابن فضلان ، بمنأى عن احتمال مثل هذا ، فالضرر الذي لحق بالنصّ عن بلاد الشمال يماثل الضرر الذي لحق بالنصوص التي ظهرت في عصره .

لم تزل ظروف تدوين رحلة ابن فضلان غامضة ، فلم يتطرّق أحد إليها ، ولا نكاد نعرف شيئًا محقّقًا عن مصائر أبطالها الرئيسيّين ، بما فيهم مصير الرحّالة نفسه . أمّا الأضرار فهي جسيمة ، وفي مقدمتها ضياع المتن الأصلي ، وطمس أكثر الأجزاء أهمية ، وهي الفصول المتعلّقة بوجود ابن فضلان خارج دار الإسلام ، ويُحتَمَل أن يكون التوتُّر العقائدي قد تدخّل في تخريب المخطوط الأصلي ، واقتطع منه الأجزاء المتّصلة بـ«الآخر» .

وإذا صحّ ذلك ، فيكون قد حدث بعد قرون عدة من زمن الرحلة ، فالشاهد الوحيد على وجود النص المدوّن كاملاً ، هو ياقوت الحموي (٦٢٥هـ١٢٢٩م) فيما بدأت الرحلة في الحادي عشر من صفر عام ٣٠٩هـ ، الموافق للعشرين من حزيران/يونيو سنة ٩٢١م ، ووصل ابن فضلان عاصمة الصقالبة في ١٢ أيار/مايو ٩٢٢م . قال ياقوت : «وقصّة ابن فضلان ، وإنفاذ المقتدر له إلى بُلغار ،

---

(١) راشد بن إسحاق الكاتب ، ديوان أبي حكيمة ، تحقيق محمد حسين الأعرجي ، كولونيا ، دار الجمل ، ١٩٩٧ ، ص ٢٥-٢٦ .

مدوّنة معروفة مشهورة بأيدي الناس ، رأيتُ منها عدّة نسخ»[1] .

لم يبق من النص سوى وصف رحلة الذهاب التي استغرقت نحو أحد عشر شهرًا ، فيما أكّد ياقوت أن الرسالة صوّرت خروج ابن فضلان من بغداد إلى بلاد الصقالبة ، وعودته إليها[2] . ولو افترضنا أن رحلة الإياب استغرقت حوالي سنة شأن رحلة الذهاب ، فيكون ابن فضلان قد أمضى عامًا كاملاً في بلاد الشمال . وقد وصف ياقوت الرسالة بأنها «قصّة» ، وأنه رآها ، واطّلع عليها ، واقتبس منها ، وهي تصوّر ذهاب ابن فضلان ، وإيابه ، وكانت وظيفته ، ضمن بعثة المقتدر ، هي تعليم الصقالبة «الصلوات والشرائع» .

قام ياقوت بدمج مقاطع من النص في معجمه ، لكونها من المصادر الجغرافية ، والبشرية عن تلك البلاد ، لكنه لم يضمن صحّتها ، وتشكّك في بعضها ، وأعلن براءته منها . ومع أن الرحّالة كانوا يدرجون غرائب كثيرة ، بعضها أوهام ، في مدوّناتهم عن أهل دار الحرب ، فإن ياقوتًا الحموي لم يستطع هضم مشاهدات ابن فضلان ، ولم يتكفّل باحتمال صدقها ؛ ذلك أن النصّ تضمّن جملة من الأخبار ، يصعب تصوُّر حدوثها ؛ الأمر الذي دعاه إلى التحذير من الاعتماد عليها .

لم ينفرد ياقوت في كونه الشاهد الوحيد على اكتمال نصّ ضاعت أصوله فيما بعد ، ولم تنجح أية محاولة في العثور عليه إلى الآن ، فابن النديم المفهرس الثقة كان أيضًا شاهدًا على وجود أصل كامل لكتاب «ألف ليلة وليلة» رآه ، كما يقول «بتمامه دفعات ، وهو في الحقيقة كتاب غث بارد الحديث»[3] . ولكن الأصل الذي اطّلع عليه ابن النديم أجزاء فُقد كما هو الأمر بالنسبة إلى نصّ ابن فضلان ، وكلاهما : ياقوت وابن النديم ، يقفان الموقف نفسه ، ويصدران الحكم

(١) معجم البلدان ١ : ٨٨ .

(٢) م . ن . ١ : ٤٨٤ .

(٣) ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، ١٩٧١ ، ص٣٦٣ .

ذاته ؛ يطّلعان على الكتابين ، ويُعَدّان أول شاهدَيْن عليهما ، ثم يصدران حكمًا سلبيًا بحقّهما .

كتاب «ألف ليلة وليلة» ، وكتاب «رسالة ابن فضلان» المشفوعان بشاهدَيْ عيان من وزن ابن النديم وياقوت الحموي ، يقدّمان دليلاً على أن بعض الكتب ، في ثقافتنا القديمة ، تظهر كاملة ، لكنها سرعان ما تتعرّض لسوء فهم ، يفضي بها إلى الضياع ؛ إمّا جراء الطمس أو بسبب الإهمال المقصود لبعض الفصول والأبواب والفقرات . وليس من المصادفة أن يلحق ضرر بهذين الكتابين– وكثير من الكتب المماثلة– فهما يصوران الارتحال العجيب في عوالم الآخر ، بما يطعن المتخيّل الذاتي المنضبط ، عقائديًا وثقافيًا ، عنها . تأتي اليد «الآثمة» لقطع «الإثم» الدخيل على الثقافة .

ما انفكّت الآثار التي يحوم الشكّ حول مقاصدها تتعرّض للتخريب ، ولم يقتصر الأمر على الكتب وحدها ، فكثير من الصور القديمة التي اخترقت حاجز المنع والتحريم ، وصوّرت الإنسان والحيوان ، إمّا أُتلفت ، أو أن يدًا كارهة قامت بمحو الرؤوس ، بمهارة بالغة ، من كل صورة ، ومثال ذلك مخطوط عربي في «سان بطرسبورج» مزيّن بالصور ، لم تستطع اليد الآثمة من قطع الرؤوس فيه تمامًا ، إنما فصلتها عن الأجساد بخطّ مميّز من الحبر ، فالشخصيات الممثلة في المخطوط ، أناسًا وحيوانات ، قد احتفظت برأسها على كتفيها ، لكن أعناقها جميعًا مقطوعة بخطّ من الحبر ؛ خطّ واضح يرسم حدًا بين الرأس وسائر الجسد ، وفي تعجّله ، فإن كاره الصور قطع ، أحيانًا ، لا الرأس ، بل الصدر أو بطن الشخصيات . هذا الخط يشير إلى المحرّم الذي أُنتُهِك ، وفي الوقت نفسه يقدّم نفسه كسيف عقاب[1] .

وفي صالة آثار بلاد الرافدين في متحف اللوفر ، جرى تخريب نحو ستّة من التماثيل الصغيرة لـ«غوديا» (توفي حوالي ٢١٢٥ ق . م) أمير مدينة «لكش»

---

(١) عبد الفتاح كيليطو ، لسان آدم ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، الدار البيضاء ،١٩٩٥ ، ص٧٩ .

العراقية ، وحطّمت الرؤوس بقصد سافر ، ومعلَن ؛ كيلا يقع تماثل في الإيحاء بين الشكل الفني الرائع ، ونماذج الخلق البشري . ولم ينجُ من التخريب إلاّ نحتٌ صغير يمثِّل الأمير الكاتب ، وهو في مقتبل عمره ، إذ بدا قصيرًا في قامته ، وقد اتّزر برداء لفّه حتى القدمين ، وظهر وحيدًا بين نماذجه الأخرى التي جُزّت رؤوسها جميعًا ، ولم يبق سوى ثلمات ناتئة فوق الأكتاف . من المستحيل تخيّل كاتب أمير بلا رأس ، فكل ما لا يتوافق مع السُّنن الثقافية والعقائدية ينبغي أن يُبتر أو يُطمس ، سواء أكان سردًا تخيليًا ، أم أدبًا ارتحاليًا ، أم صورًا توضيحية ، أم منحوتات تعود إلى آلاف السنين .

تتعرَّض الذاكرة الإنسانية للتخريب ، حينما يستبدّ بالفكر تأويل خاضع لموجّه عقائدي مغلق لا يأخذ في الحسبان التطوُّر التاريخي للمجتمعات الإنسانية ، فتُفرّغ الخطابات ، والصور ، والتماثيل ، من معانيها ، وتحمّل بمقاصد جديدة ، يفترضها ذلك التأويل استجابةً لشروطه ؛ فالرسوم المذبوحة ، والتماثيل المدمّرة ، والنصوص المخرومة التي تصوّر الآخر أو الذات ، وكلّها ظهرت في حقب ماضية ، أصبحت لا تهدّد المتخيّل الثقافي بخطر يمحق معتقداته ، لأنها فقدت وظيفتها الأولى التي ظهرت من أجلها ، وأصبحت اليوم شاهدًا جماليًا على حقبة مضت من التاريخ . وعلى الرغم من ذلك ، فلطالما تعسّف التأويل الضيّق في إسقاط دلالات أخرى عليها . ترحّل الآثار الأدبية والآثار الفنية من حاضرها إلى الماضي لتُدرج في سياق فهم معيّن ، فيصبح التخلّص منها مشروعًا حينما يستبدّ تأويل ضيّق بالدين .

قال «كريكتون» : الذي ادّعى إعادة تركيب الأصول المفقودة لرسالة ابن فضلان على سبيل التخيّل السرديّ في سياق روائي عجائبي : «يمثل مخطوط ابن فضلان أقدم وصف معروف لشاهد عيان عن حياة الفايكنغ ومجتمعهم ، ويُعتبر وثيقة بارزة ، في وصفه لحوادث وقعت منذ ما ينوف عن ألف سنة ، بتفصيل مميَّز ، مفعم بالحياة . ومن الطبيعي ألاّ ينجو المخطوط من عاديات الزمن ، خلال الحقبة الطويلة التي مرّت عليه . وفي الحقيقة ، للمخطوط تاريخه الذاتي ،

الذي لا يقلّ تميُّزًا عن النص نفسه»[١] . الجملة الأخيرة هي التي تعنينا في هذا السياق ، فهي تعرض تسخّطًا معلنًا على طمس تاريخ النصوص الكبيرة .

أجل ، إن للمخطوطات تواريخها الحايثة التي لا تقلّ عنها تميّزاً . فتاريخ كتاب «ألف ليلة وليلة» وكتاب «كليلة ودمنة» وبعض كتب «السير الشعبية» يضارع ، في أهمّيّته النصوص نفسها . وهو أمر له أكثر من دلالة . وفيما يتصل برسالة ابن فضلان ، فبعد عصر ياقوت تمزّق المخطوط . أسهم ياقوت نفسه بذلك حينما انتزع منه نبذاً وشذرات وأجزاء متفرّقة . وكل ذلك استأثر باهتمام المتخصصين الذين بذلوا جهودًا شاقّة في تتبُّع مصير المخطوط ، ولمّ شتاته ، وتركيب أجزائه[٢] . على أن المفارقة ترتسم حينما نعلم أنَّ النص الذي كان موحّدًا ، في بداية القرن السابع الهجري-بداية القرن الثالث عشر الميلادي ، قد تفرّق الآن ، وضاع ، ولم تبقَ منه سوى رحلة ذهاب بلا عودة .

٣. تماثُل وتمايُز:

ارتحل ابن فضلان في سلسلة متعاقبة من العوالم المتماثلة حينًا ، والمتمايزة ، دينيًا وعرقيًا وثقافيًا ، حينًا آخر ، كالعالم العربي ، والعالم الإيراني ، والعالم التركي ، والعالم الصقالبي ، والعالم الخزري ، لكن علاقته بهذه العوالم تنتظم في ثلاثة فضاءات عقائدية : فضاء مؤمن بالنسبة إلى العالمين الأولين ، وفضاء شبه وثنيّ بالنسبة إلى العوالم الثلاثة الموالية . ستتَّضح المطابقة بين هذه العوالم والحدود التقليدية لعوالم العصور الوسطى في الفكر الإسلامي : دار الإسلام ، دار الصلح (أو العهد) ، دار الحرب . مسار ابن فضلان أخذه من المعلوم إلى المجهول ، ومن المألوف إلى الغريب ، ونقله من حاضنة الذات إلى حاضنة الآخر .

---

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ٢٣ .

(٢) تنبغي الإشارة بتقدير إلى جهود كريكتون ، وفراوس دولوس ، وسامي الدهان ، وقد عرضها حيدر محمد غيبة ، انظر الرسالة ، ص٧ -٣٠ .

اندفع كسهم لاختراق هذه المجالات المتناصبة العداء . وفي تلك الأصقاع النائية سوف تتجلّى عرقيّته ، فلا يُعرف إلاّ بوصفه عربيًا . لم يكن ابن فضلان عربيًا بالدم إنما بالثقافة ، لكنه عرف كذلك حيثما حلّ في عالم ما زال بعيدًا ، عن ملامسة الحقيقة الإلهية . إذ إن التنصّر النهائي لأوربا تمّ في حوالي القرن العاشر الميلادي ، وتأخّر كثيرًا قبل أن يتغلغل في الأقاصي الشمالية النائية .

حمل ابن فضلان في أعماقه ، بوصفه مبعوثًا لخليفة المسلمين ، الحقيقة المطلقة ؛ أي التوحيد الكامل ، وهي الفكرة الأكثر سموًا وحضورًا في ذهنه ، وفي ذهن سائر الرحّالة ، إنها فكرة مصقولة ، وصلبة ، وشفافة ، وجاهزة ، وبسيطة ، لمن يؤمن بها ، لكنها ، بمضيّ الارتحال إلى الشمال ، سوف تصبح خشنة ، ومعقّدة ، لكونها تصطدم يوميًا بالمظاهر الوثنية ، فهو بصعوده المنضبط إيقاعيًا إلى الشمال ، يتناغم والحدود الشعورية لعالم القرون الوسطى وتقسيماته العقائدية ، فالتصوُّر يذهب إلى أن دار الإسلام واحدة ؛ لأنها تتكوّن من رعيّة واحدة ، وتحكمها دولة واحدة ، وترأسها سلطة واحدة ، وعليها تقع حماية الرعيّة بأعراقهم ودياناتهم ومذاهبهم ، فقد وقعت تحت حمايتها بالفتح . أمّا دار الحرب فتتكوّن من بقيّة العالم ، وبينهما دار الصلح/العهد ، ذلك المجال الذي تحكمه دولة غير مسلمة ، لكنها مرتبطة بعلاقة تعاقدية مع دولة الإسلام ، ومن خلالها أذعنت لسيطرة المسلمين ، وقامت بدفع الجزية ، لكنها تحافظ على شكلها الخاصّ بالحكم[(١)] . وخطاب الرحلة سيتلوّن بهذه التقسمات كلّما مضى كاتبه ميمّمًا وجهه ناحية الشمال .

من أجل تقدير المخاطر المحدقة بابن فضلان ، ينبغي القول : إنه بسبب العداء الديني المستحكم بين دار الإسلام ودار الحرب ، فإن الاتّصال مع أهالي دار الحرب ممنوع ومحرّم . وعلى العكس ، يُسمح لمن يريد من أهالي دار الحرب زيارة دار الإسلام بتصريح يطلق عليه «أمان» . ويسمّى حامله «المستأمِن» . وهذا

---

(١) برنارد لويس ، اكتشاف المسلمين لأوربا ، ترجمة ماهر عبد القادر ، القاهرة ، ص ٧١-٧٣ .

التصريح يمكن أن يمنحه أيّ «رجل مسلم بالغ حرّ» . وبالمقابل ، فهذا الأمان لا يُمنَح للمسلمين في دار الكفر[1] . لا ضامن لمن ينزلق من الدار الأولى إلى الثانية ، سيَعدَم ابن فضلان كل وسائل الأمان والاتصال ، لأنه غادر فضاءً آمنًا خاصًا به إلى آخر خاصّ بأعدائه ، وأعداء الله . وسوف تتعطّل لغته ، وسيظلّ لسانه العربي معقودًا إلى النهاية . ليس ثمة وظيفة حقيقية لمرشد ديني بلا لسان . وكان مسلمو العصور الوسطى يعتبرون أن تعلُّم لغة أجنبية ينطوي على نوع من الزندقة والنجاسة[2] ؛ ذلك أن الحقيقة القرآنية عربية اللسان ، ولا أهمية للتمرّس بغيرها .

ما استطاع ابن فضلان إجادة لغة الأقوام الشمالية بدرجة تمكّنه من التعبير عن أفكاره ، والألفاظ المبعثرة في ذاكرته لم تشفع له بأن يستوعب كل شيء . حاول أن يلمّ شتات كلمات ، وعبارات ، لكنه ظل مكبّلاً خلف لسانه الحبيس ، وطلاسم الآخر التي لا سبيل إلى فكّ شيفراتها بدون معرفة اللغة ، ومعرفة المرجعيّات الثقافية الحاضنة لها ؛ ولهذا سوف يحتاج إلى لسان آخر ، أي إلى وسيط مغاير في عالم لا علاقة له بتلك اللغة . وما دام ابن فضلان حيًا ، ينبغي ألاّ يختفي ترجمانه . يمثِّل المترجم الوسيط بين ابن فضلان وأهل دار الحرب ، فيما يمثل هو نفسه الوسيط بين دار الإسلام ودار الحرب .

٤. ألفة فقيه وغربة شاعر:

انطلق ابن فضلان من بغداد ، وهي المركز الاعتباري لدار العرب والمسلمين . لم يتحدّث عن عالم غادره ، ولكن الجميع بانتظار أن يتكلّم عن عالم ذهب إليه . وأوّل عالم مرّ به ، هو : العالم الإيراني ، وهو عالم متنوّع ،

---

(١) اكتشاف المسلمين لأوربا . ص ٧٤ ، وانظر : برنارد لويس ، السياسة والحرب ، ضمن «تراث الإسلام» ترجمة محمد السمهوري ، الكويت ، عالم المعرفة ، ١٩٧٨ ، ج١ ، ص ٢٥٧ .

(٢) اكتشاف المسلمين لأوربا ، ص ٨٥ .

ومتـرامي الأطراف ، لكن المدهش أن ابن فضـلان اختـرقـه دون أن يبـدي أية تطلُّعات استكشافيـة ، فلم يستوقفه شيء فيه إلى أن بلغ تخومه الشماليـة الشرقية في بخارى ، فالسرد الوصفي البارد لم يعنَ بكشف طبيعة ذلك العالم ، إذ كانت القافلة متعجِّلة في ارتحالها ، ومعها ، كان ابن فضلان متعجّلاً في أوصافه . وكان النسق الآتي للارتحال هو المهيمن في أثناء اختراقه العالم الإيراني : «رحلنا من مدينة السلام يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت ، من صفر ، سنة تسع وثلاثمئة ، فأقمنا بالنهروان يومًا واحدًا ، ورحلنا مجدّين حتى وافينا الدسكرة ، فأقمنا فيها ثلاثة أيّام ، ثم رحلنا قاصدين ، لا نلوي على شيء حتى صرنا إلى حلوان ، فأقمنا بها يومين»(١) .

وطبقًا لهذا النسق الذي جاء خلوًا من هواجس الاكتشاف ، مضى مخترقًا العالم الإيراني : سرنا ، فأقمنا ، ثم رحلنا ، ثم قطعنا ، وعبرنا . . .الخ . وهذا الارتحال المتعجّل الذي حال دون الوقوف على التفاصيل ، له صلة مباشرة بإحساس ابن فضلان الداخلي أنه يتحرّك في مجال مستكشف بالنسبة إلى معاصريه ، وأليف بالنسبة إليه ، فلا حاجة له بإعادة الوصف ، ولم يرغب في تعريف المعرّف ، فكأنه سهم في فراغ . حتى الأزمنة والأمكنة نضّدت للدلالة ، فقط على مروره . وأورد نحو عشرين مدينة ، مرّ بها قبل وصوله بخارى ، أوردها جميعها متعاقبة ، ولم يستغرق منه ذلك إلاّ أقلّ من صفحة واحدة . ويفاجأ المتلقّي بأن ابن فضلان بلغ بخارى ، في وسط آسيا ، لكي يلتقط ، هناك ، ولأوّل مرة ، أنفاسه .

يبدو العالم الإيراني ، بالنسبة إليه ، خاملاً ، لم يستثِر لديه أيّ فضول ، ولا يمكن تفسير ذلك إلاّ بسبب الغطاء العقائدي السميك الذي كان يتدثّر به ، وهو الذي حجب عنه الاختلافات الثقافية والعرقية بين العالمين العربي والإيراني ،

---

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ٧٣ .

وأحالهما إلى عالمين متماثلين ، لا حاجة لابن فضلان أن يقف على التمايز بينهما . والحال ، فهما متباينان في كثير من المعالم والمظاهر الطبيعية ، بل في الثقافات والعلاقات الاجتماعية ، لكن السرد المحكوم برؤية دينية أحادية جعلهما عالمًا واحدًا . ولفهم ذلك الاختلاف ، يلزمنا وضع الفقيه بإزاء الشاعر ، لكشف نوع الاختلاف الثقافي ، والجغرافي ، والعرقي ، بين العالمين .

كان المتنبّي (٣٥٤هـ=٩٦٥م) ، وهو معاصر لابن فضلان ، قد نقض ، ضمنًا ، ألفة ابن فضلان للعالم الإيراني ، ففي قصيدته «شِعب بَوّان» ، وهي آخر قصائده الكبيرة ، عبّر عن ذهول كامل ومترابط بالطبيعة والبشر المختلفين عمّا ألفه في العالم العربي . وعرّف نفسه ، مَجازيًا ، بـ«الفتى العربي» الذي فضح الاختلافُ غربةَ وجهه ، ويده ، ولسانه ، فكفَّ التماثل عن ممارسة فعله ، وتوارى خلف بروز مفاجئ لاختلاف ثقافي وعرقي . إلى ذلك فإن الشِّعْب ، وهو البؤرة الرمزية المصغّرة التي تحيل على فارس ، مكان خلاّب ، مضادّ للصحراء التي تُعدّ إحدى مرجعيّات المتنبي وشعره ، فكأن أبا محسَّد سقط فجأة في أسر عالم غريب ، لكنه جميل ورائع ، فجمال الغريب عمّق لديه إحساسًا جذريًا بالتباين ، فالشِّعْب «ملاعب جِنّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمانِ» .

تعطّلت المعرفة اللسانية بإزاء الدهشة ، وخيّم الذهول الشعري ، وغمرت العالمَ شبكةٌ من العلامات ، والرموز ، فسليمان القادر على فكّ شيفرات اللغات البشرية ، وهمس الطيور ، يحتاج إلى وسيط فارسي يفكّ له لغز الطبيعة . وضع المتنبي نفسه في موقع مختلف عن موقع ابن فضلان ، فإحساسه بوصفه شاعرًا دنيويًا بالاختلاف ، حال دون المعرفة ، فاكتفى بالعجب ، والانبهار ، حتى البطانة المجازية الخلاّقة لقصيدته لا تمكّنه من ذلك ، وهو غير قادر على تخطّي التباين الثقافي والتباين العرقي .

أمّا ابن فضلان ، فيريد بالعقيدة تجاوز تلك الاختلافات ذاتها ، وصهرها في فضاء واحد ، باعتبارها تماثلات لا ترتقي إلى رتبة التناقض ، فهو يفكّر بالفضاء الإسلامي الموحَّد : دار الإسلام ، وكأنه ينطق بلسان الإصطخري الذي قال :

«إن في مملكة الإسلام ألسنة مختلفة ، والملك واحد»[1] . في قضية العقيدة ، ظهر المتنبّي أكثر حذراً ، وأقلّ تطلّعاً ، ولم يسمح لنفسه بمدّ شمول ابن فضلان إلى أقصاه ، واكتفى ، فقط ، بإبراز حالة الذهول .

شُغل ابن فضلان بالمماثلة العقائدية ، فأنكر ، ضمنًا ، ما عداها ، أمّا المتنبّي فملاحِظ عميق الحساسية لكلّ ما له صلة بالتباين ؛ ولهذا لم يتوغّل في ما وراء شيراز ، فقفل راجعًا إلى الفضاء العربي ، ليلقى حتفه في أطرافه الشرقية . فيما انطلق ابن فضلان كسهم ، لا يلوي على شيء ، كأنه مشدود إلى هدف غامض بعيد جداً ، يجتذبه إلى ما وراء العالم التركي الذي يقع على تخوم العالم الإيراني . لم تثِره أبدًا بلاد فارس التي ، حسب قول بلاشير ، طالما «أدهشت ، بمشاهدها الطبيعية المتعرّجة ، وبالتباين العنيف في بنيتها ، الرحّالة ، في جميع الأزمنة»[2] .

وإذا قورنت رؤيتا الشاعر والرحّالة ، فيمكن القول بأن المبالغة الشعرية القائمة على التخيّل الأخّاذ ، وهي الوسيلة الناضجة عند المتنبّي ، قد وسّعت فضاء الارتحال الخيالي بالنسبة إليه ، فهو ، بالتخيّل ، مارس ارتحالاً دائماً . أمّا تقرير ابن فضلان المقتضب ، ومروره المتعجّل بالعالم الإيراني ، فلا يراد منه إلاّ رسم خطّ الرحلة ، فكأنه يدّخر تخيّله للحظة أخرى ، لحظة صدمة التباين الحقيقي في دار الحرب . وبإزاء غربة حقيقية خاضها ابن فضلان ، تبدو غربة الشعراء العرب ، من مالك بن الريب إلى أحمد شوقي ، غربة مجازية . فأبو تمّام الذي لم يطوّف كثيرًا في العالمين : العربي ، والإيراني ، قال :

فغرّبتُ حتى لم أجدْ ذكرَ مشرق
وشرّقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا

والمتنبّي ، الذي احتذى سلفه في هذا ، ولم يجازف بالتوغّل في العالم

---

(١) مسالك الممالك ، ص ٩ .

(٢) بلاشير ، أبو الطيب المتنبي ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٥ ، ص٣٤٥ .

الإيراني ، كان ، وهو ما زال شبه أسير لدى كافور الإخشيدي ، قد قال :

شـرّقَ حـتى ليس للشـرق مـشـرق
وغـرّبَ حـتى ليس للغـرب مـغـربُ

وينبغي الأخذ بالحسبان أنّ إحساس المتنبّي بالغربة كان قائمًا ، حتى في قلب ديار العرب ، وسرعان ما تفاقم إذ تخطّاه إلى ديار أخرى ، وكأن الآخر سمّ يلزم الحذر منه ، حتى أن رحلته الخاطفة والوحيدة انتهت بها حياته . وإذا عدنا إلى التباين العرقي ، يبدو اندماج ابن فضلان ، بالمقارنة مع عناد المتنبي ونشوزه ، واضحاً . فهو ذو رؤية شمولية تجاوزت الانتماءات العرقية ، والثقافية ، في دار الإسلام ، ولم يكن ابن فضلان «عربي الأصل»[(١)] . وليس ذلك بمستغرَب في الفضاء الاندماجي السائد آنذاك ؛ فابن العميد ، قد أذهل المتنبي بفصاحته ، فقال فيه :

عـــربيّ لســـانه ، فلســـفيّ
رأيه ، فـــارســيـــة أعـــيـــادهْ

أصبحت الفصاحة ميزة عرقية ، ومن العبث الذهاب إلى أنها حكر لأحد . وتجربة المتنبي البسيطة ، في معرفة هذه القضية ، جعلته يقف عاجزًا عن تفسير فصاحة ابن العميد ، كما أن الصحراء لم تجهزه بامتصاص العجب وهو يتجوّل في شِعب بوّان ، فوجد نفسه ينزلق إلى حيرة شعرية عميقة ، وغربة بيانية . وكان «أركون» قد استخلص طبيعة استنكار المتنبي : كيف يمكن للمرء أن يتكلّم العربية دون أن يكون عربيًا؟ ومع أنه يمكن أول وهلة تفسير ذلك بالاندماج ، لكن الواقع يكشف أن التطورات الثقافية والاجتماعية التي طرأت منذ فتح إيران قد عكست حالة تاريخية جديدة ، وهي بداية اضمحلال دور العرب لصالح أقوام آخرين ، ذلك أنه ، حتى وهم الخلافة ، على الرغم من قداسته وهيبته في

---

(١) دائرة المعرف الإسلامية ، القاهرة ، دار الشعب ، ١ : ٣٦٤ .

أعين الناس، قد اختفى، في هذه الفترة، وراحت السيطرة الفارسية (الديلمية) تفتح آفاقًا جديدة للنفوس[١].

هل يبدو المتنبّي على صواب في تضخيم التباين، أم أنه من طبيعة القول الشعري؟ وهل يبدو مبعوث الخليفة متعاليًا على إدراك الاختلافات، ومضحِّيًا بها من أجل صوغ عالم مثالي موحَّد؟ فغياب العالم الإيراني في رحلة ابن فضلان أمر يصعب تفسيره إلاّ إذا تَمَّ إدراجه في مضمار القائلين بوحدة دار الإسلام، إلى درجة تحول دون رؤية خصوصيات تلك الدار وتفاصيلها، فابن بطوطة، في اختراقه المتمهّل لتلك الدار: من التخوم الغربية إلى الشرقية، ومن الشمالية إلى الجنوبية، كان معنيًا، أكثر من أيّ شيء آخر، بالخصوصيات الثقافية، واللغوية، والاجتماعية. وبالمقابل، فإن ابن فضلان لم يلتقط أنفاسه ليتبصّر في موقع قدميه، إلاّ بعد أن اخترق العالم الإيراني؛ ذلك العالم الذي وصفه «لومبار» بأنه عالم مختلف عن العالم العربي «يسكنه خلق آخرون يتحدّثون لغة أخرى، ويعيشون في إطار حضارة تختلف، تمامًا، عن الحضارة الإسلامية السائدة في العالم العربي»[٢].

٥. إكرام الضيف بنار طيّبة:

في بخارى انتبه ابن فضلان إلى العالم المحيط به، وذلك حينما أوقف مساره السريع، وألقى نظرة خاطفة على رحلته الصاعدة من بغداد، ومع أنه أقام في المدينة ثمانية وعشرين يوماً، فلم تترسّب في ذاكرته غيرُ صور الدراهم. وكان يستخدم ضمير الجمع في السرد، لكنه لم يأتِ على ذكر من كان يرافقهم، جرى تلاعب بالضمائر السرديّة على حساب الشخصيات الفاعلة،

(١) أركون، نزعة الأنسنة في الفكر العربي، ترجمة هاشم صالح، لندن، دار الساقي، ١٩٩٧، ص١٥٥.

(٢) موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول، ترجمة: إسماعيل العربي، المغرب، دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٠، ص٤٧.

وهذا الاستبدال دشّن لبداية استئثار ابن فضلان بالعالم التخيُّلي للرحلة ، واستبعاد متدرّج للآخرين عنه . على أنه ، في بخارى ، انبثقت مظاهر عدم الانسجام في الجماعة ، وانشطرت إلى فئتين : فئة تريد مواصلة التقدّم إلى خوارزم قبل حلول الشتاء ، فكانت تحضّ على الرحيل ، وأخرى ترغب في المكوث في بخارى متريِّثة إلى حين توافر الظروف الملائمة للسفر . وثمة تغيّر آخر ارتسم في الأفق ، ففيما كانت البعثة متَّجهة إلى الشرق ، تقريبًا ، انعطفت فجأة ، إلى الشمال الغربي ، باتجاه مدينة خوارزم ، وهي بوّابة الدخول إلى الشمال ، حيث العوالم : التركية ، والخزرية ، والصقالبية .

لم يأذن أمير خوارزم محمد بن عراق للبعثة بالدخول إلى بلاد الترك خوفًا على أفرادها «لا يحلّ إليّ ترككم تغرّرون بدمائكم» . وكان ذلك التحذير كافيًا لإشاعة الخوف وسط بعثة الخليفة ، ثم مضى أمير خوارزم في تحذيره : عالم الصقالبة ، هو «بلد الكفار» وللوصول إليه ينبغي اختراق العالم التركي «وثمة ألف قبيلة من الكفار» بين العالمين . وكلّما تقدّمت القافلة شمالاً صار الخطر أكثر احتمالاً .

أفلح ابن فضلان في إقناع الأمير ، فغادرت البعثة إلى «الجرجانية» ، وهي آخر مدن العالم الإيراني ، فخيّمت في الجرجانية حيث أجبرها الثلج على البقاء طوال الشتاء . وبداية من هذه اللحظة شرع ابن فضلان يعترف بنبرة سرديّة واضحة بأنه على مشارف عالم مغاير تمامًا لعالمه ، مغايرة عقائدية وطبيعية لا يمكن إخفاؤها ، إذ فصمت الجرجانية علاقته بجزء كبير من ماضيه ، وأفكاره ، وعلاقاته ، وعالمه الدافئ ، فلجأ إلى الأحكام السريعة ، والمبتسرة ، والجاهزة ، التي غاب عنها التريُّث في الحكم ، وافتقرت إلى التروّي المنتظَر من فقيه مسلم .

كان تأثير الفراسخ الخمسين الفاصلة بين الجرجانية وخوارزم ، في نفسه ، أكثر من تأثير كل فراسخ الرحلة الطويلة من بغداد إلى بخارى ، فخبرته الناقصة في الارتحال ، وغياب الجَلد الشخصي ، وأوهام التماثل التي حملها من بغداد ، فضحتها الطبيعة القاهرة بثلوجها وقفارها في تلك المسافة القصيرة بين المدينتين ،

فقد مرّوا في برارٍ مقفرة لا جبال فيها ، وضربهم الضرّ ، والبرد ، وتلاشت مقاومتهم ، فأشرفوا على الهلاك . وأول الأحكام الاختزالية التي أطلقها ابن فضلان على أهل الجرجانية ، هي أنهم «أوحش الناس كلامًا وطبعاً ، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير ، وبها قرية على يوم يقال لها أردكو ، أهلها يقال لهم الكردلية ، كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع ، وهم يتبرَّؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في دبر كلّ صلاة»(١) .

ظهر الاختلاف في اللغة ، والسلوك ، والإيمان ، ضربه التباين في الصميم ؛ فبتوجيه من التفاضل الثقافي القديم والمتأصّل في النفوس بين العوالم ، ركّب لأهل الجرجانية الصور الانتقاصية الآتية : أوحش الناس كلامًا وطبعاً ، كلامهم أشبه بصياح الزرازير ، ونقيق الضفادع ، إلى ذلك هم ما زالوا أسرى الأفكار التي أشاعتها الفتنة منذ نحو ثلاثة قرون . كانوا جماعة راكدة تسيطر عليها السجالات الأولى حول الأحقّيّة في حكم المسلمين .

لم تنحبس ملاحظات ابن فضلان في إطار العادات ، واللغات ، إنما صدمته الطبيعة بمغايرتها الكلّيّة التي كادت تهلك القافلة ، فتكشّفت له أشياء ما كان قادرًا على تصوُّرها من قبل : نهر جيحون الهادر المخيف تحوّل في الشتاء إلى طريق جليدي سمكه سبعة عشر شبراً ، والقوافل بدل أن تخترق الجبال والغابات كانت تتخذه طريقًا لها طوال فصل البرد ، وهو ثابت لا يتخلخل . وقد لاحظ ذلك ، فيما بعد ، ابن بطوطة ، وأشار إلى أن النهر المذكور يتجمّد لخمسة أشهر ، وربما يتغافل الناس في نهاية أوان البرد عنه ، فيذوب الثلج تحتهم فيهلكون(٢) . أمّا النار ، وهي رمز العقاب الإلهي في الآخرة عند المسلمين ، فستُصبح في هذه الديار رمزًا للكرم والبرّ ، فإذا أتحف المرء صاحبه ، أو ضيفه ، وقرّبه إليه ، ورغب في إكرامه ، قال له تعال إليّ «فإن عندي نارًا طيّبة» . وقع انقلاب كامل في

---

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ٤١ .

(٢) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، شرح طلال حرب ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٢ ، ص ٣٧٥ .

الدلالة الرمزية للنار. وأول كلمة أعجمية ستظهر في قاموس ابن فضلان، هي «بكند»، وتعني «الخبز».

استعصى على ابن فضلان إدراك أوهام الهويّة المغلقة والتطابق المزعوم إلاّ في الجرجانية، فليست الأنظمة الثقافية والقيمية هي المختلفة وحدها، إنما الطبيعة التي ستترك في ذاكرته بصمات لا تمحى، فمن ذلك تجمُّد لحيته حال خروجه من الحمام، وتحوُّلها إلى قطعة من الثلج، وكان ينام في بيت يقع في جوف بيت، وسط لبود تركية، وقد تدثّر بالأكسية والفرى، فربما التصق خدّه بالمخدّة من شدة البرد. وبسبب الثلج، كانت الأرض تتشقّق إلى أودية عظام، والشجرة العظيمة تنفلق إلى نصفين، وراكب الجمل لا يقدر على التحرُّك لما عليه من الثياب[١].

تجنّب ابن فضلان المبالغة في وصف البرد داخل تلك الأصقاع، فخَلَفَهُ ابن بطوطة، وقدّم وصفًا مطابقًا لذلك حينما طاف في أرجاء تلك الفيافي الثلجية بعد نحو أربعة قرون، فقال: كنت ألبس ثلاث فروات، وسروالين، أحدهما مبطّن، وفي رجلي خفٌّ من صوف، وفوقه خف مبطّن بثوب كتّان من الرغالي، وهو جلد الفرس مبطّن بجلد ذئب، وكنت أتوضّأ بالماء الحار بمقربة من النار، فما تقطر من الماء قطرة إلاّ جمدت لحينها. وإذا غسلت وجهي بالماء إلى لحيتي فيجمد، فأحرّكها فيسقط منه شبه ثلج. والماء الذي ينزل من الأنف يجمد على الشارب، وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما عليّ من ثياب حتى يُركِبني أصحابي[٢].

أكّدت الإشارات كافّة أن ابن فضلان وصل إلى تخوم عالم انتهى، وطفق يتأهّب لدخول عالم بدأ لتوّه، وتجربته الجرجانية دفعته لإعادة النظر بفكرة المطابقة الذهنية الموجودة لديه بين العوالم، وهي بمقدار ما كانت تجربة مملوءة

---

(١) رسالة ابن فضلان، ص٤٣.

(٢) رحلة ابن بطوطة، ص٣٦٧.

بالعجائب، وضعت أمامه -بصورة لا تقبل اللبس- حالة الاختلاف الكلّيّة للعالم الذي سيصل إليه عمّا قريب، وهو العالم التركي.

٦. ألف قبيلة من الكفّار:

انتهى العالم الإيراني عند جبل عظيم. ويصلح ذلك الجبل لأن يكون حداً رمزيًا يفصل بين نسقَيْن ثقافيين، وطبيعتَيْن مختلفتين، وكما هو معروف، في العالم القديم، تمارس التخوم دور الحدود. غادر ابن فضلان الجرجانية، فوجد نفسه في عالم أشدّ اختلافاً. وضعته الأيام العشرة الأُول من رحلته في عالم غير متوقَّع، أو، على الأقلّ، في عالم فاق كلّ تصوُّراته التي حملها معه من بغداد، فغالبه داء النسيان، لما واجه هو وأفراد البعثة من صعاب جديدة، لم تكن صعاب الجرجانية لتُذكَر مقارنة بها «لقينا من الضرٍّ والجهد والبرد الشديد، وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف. ونسينا كل ما مرّ بنا، وأشرفنا على تلف الأنفس»[١].

حضر التفسير الديني حينما تعذّر على ابن فضلان معرفة الحقائق المؤكَّدة، ففسّر البرد في تلك الأصقاع على أنه عقاب إلهي للأتراك العصاة، فلو وحّد هؤلاء القوم الله، لكفاهم ذلك، ودفع عنهم البرد القاتل. غاب التفسير العلمي وحلّ مكانه تفسير لاهوتي؛ فلأنه كان يتحرّك في مجال غامض، لا خبرة له فيه، تبدو أسباب البرد الحقيقية خافية عليه، لا تعليل له إلاّ غضب الله على قوم أشركوا به. هنا، تتدخّل الرؤية العقائدية في ترتيب منظوره لمكوّنات العالم التركي، وستكون النبرة الانتقادية رنّانة، بل مكفهرّة، وغاضبة، وقاسية. غادر ابن فضلان التخوم الشمالية لدار الإسلام، وأول قبيلة واجهها، كانت من البدو، لكنهم، كانوا «كالحمير الضّالة لا يدينون لله بدين، ولا يرجعون إلى عقل، ولا يعبدون شيئًا، بل يسمّون كبراءهم أربابا. فإذا استشار أحدهم رئيسه

---

(١) رسالة ابن فضلان، ص٤٥.

في شيء قال له : «يا رب ، إيش أعمل في كذا وكذا»[1] .

حكم ابن فضلان على البدو الأتراك بأنهم في «شقاء» ، فهم مهجّنون عقائديًا ، ومنقسمون على أنفسهم ، ومزدوجون في انتمائهم وفي هويّتهم ، وقد ظهروا في عينيه جماعات منافقة في عالم متقلّب الولاءات . يقولون : «لا إله إلاّ الله . . محمد رسول الله» تقرُّبًا إلى المسلمين الذين يجتازون عالمهم ، لا اعتقادًا بوحدانية الله ، ولا تأكيدًا لنبوّة محمّد ، إنما لأغراض دنيوية ، فيتمتمون بألفاظ متناثرة ، وأكثر ما بلغوه الوصول إلى تشكيل عبارة «بير تنكري» التي تعني «الله الواحد» . وهذه أول عبارة في معجم ابن فضلان ، بعد لفظة «بكند» التي أشرنا إليها .

شرع ابن فضلان في مهمّة إصلاحية مستحيلة ، وبدأ في ترميم عالم ممزّق ، ولأنه أخفق في تنفيذ مهمّته ، فبدل قبول الأمر كما هو ، مضى في إصدار سلسلة من الأحكام المتعجّلة والقاسية بحقّ الآخرين ، فالأتراك «لا يستنجون من غائط ، ولا بول ، ولا يغتسلون من جنابة ، ولا غير ذلك ، وليس بينهم وبين الماء عمل ، خاصّةً في الشتاء ، ولا تستتر نساؤهم من رجالهم ، ولا من غيرهم ، كذلك لا تستر المرأة شيئًا من بدنها عن أحد من الناس»[2] .

شُغل مبعوث الخليفة بالمبادئ الأولى التي تَشغل الفقهاء عادةً ، وهي : الطهارة والاحتجاب . وفي كل ذلك وجد الأتراك خارجين تمامًا عند المبادئ الإنسانية السويّة التي يراها أساسية لكل مجتمع سليم ، فمعياره لذلك مستعار من قلب دار الإسلام حيث جاء لتغيير كل ما يراه مخالفًا لتلك السوية . ثمة حكاية ستنطبع في ذاكرته إلى الأبد ، وقد أوردها مثلاً على ذلك الخروج السافر الذي سبَّب له صدمة أخلاقية : نزل في يوم ما ضيفًا على رجل وامرأته ، فبينما هي جالسة تحدِّثهم إذا كشفت فرجها وحَكَّته . وفي الحال ستر ابن فضلان

(١) رسالة ابن فضلان ، ص٤٧ .

(٢) م . ن ، ص٤٨ .

وجهه مستغفرًا ربه ؛ الأمر الذي أثار ضحك الزوج ، فطلب من المترجم أن يخبر ابن فضلان وجماعته بالحكمة من وراء ذلك «قل لهم : تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصل إليه خير من أن تغطّيه وتمكِّنَ منه» . كشفت الواقعة نسقَيْن ثقافيَّيْن ، فالعالم التركي ما زال طبيعيًا ، لم تغزه ثقافة الاحتجاب : هنالك الفرج ينكشف ، وهنا الوجه يحتجب .

مارس ابن فضلان والمرأة التركية دورين لا يُفهمان إلاّ في ثقافتين مختلفتين ، قيم الاستتار لها المكانة الأولى عنده ، وقيم الصيانة عندها . وتكون المفاجأة الأخرى هي النظر إليه ، بوصفه عربياً ، دون الإشارة إلى أنه مسلم . وابتداءً من هذه المرحلة ، سيُنظَر إليه ، هو غير العربي ، على أنه كذلك ، وممثّل لملك العرب . لا يبدو أنه سيكون لإسلامه شأن كبير في تقدير الآخرين له ؛ الأمر الذي يرجح أن كلمة «عربي» آنذاك ، وفي تلك الأصقاع ، كانت محددة الدلالة أكثر من كلمة «مسلم» . سأل أحدُ الأتراك ابن فضلان ، بوساطة الترجمان ، سؤالاً محيّرًا يكاد يكون تجديفًا لو صدر عن عارف ، وفيه طعن بالذات الإلهية «قل لهذا العربي : ألربنا عزّ وجلّ امرأة!؟» . فاستعظم السؤال ، وطلب له المغفرة .

وصفُ الله بالعزة والجلال من إضافات ابن فضلان ، فلو عرف التركي الإطار العامّ لصفات الخالق ، لما تقدّم بسؤاله . وفي مكان آخر عند «الباشغرد» لاحظ ما هو أكثر خروجًا من ذلك ، فكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل ، ويعلّقها عليه ، فإذا أراد سفرًا أو لقاء عدو قبّلها ، وسجد لها ، وقال «يا ربّ افعل بي كذا وكذا» . استفسر ابن فضلان ، عبر ترجمانه عن سبب وصف الذكر بالرب ، فجاء الجواب صريحًا «لأني خرجت من مثله ، فلست أعرف لنفسي خالقًا غيره»[1] . إلى ذلك ، فبعضهم كان يزعم أن له اثني عشر ربًا : للشتاء ربٌّ ، وللصيف ربٌّ ، وللمطر ربٌّ ، وللريح ربٌّ ، وللشجر ربٌّ . وبعضهم كان يعبد الحيّات والثعابين ، وبعضهم يعبد الأسماك ، وبعضهم يعبد الكراكي .

---

(١) رسالة ابن فضلان ، ص٥٦ .

في مواجهة هذه الديانات الطبيعية المتعدِّدة، لا يفعل ابن فضلان سوى القول: «تعالى الله عمّا يقول الظالمون». مكّنت هذه السلسلة المتضافرة من الملاحظات ابن فضلان من تنمية مهاراته الاستكشافية، وبرهنت له أنه أصبح في عالم مختلف عن العالم الذي قدم منه، فاستأثرت العادات الاجتماعية باهتمامه، مثل الزواج، والحقوق، والضيافة، والجنس المحرّم، واللواط، والميراث، والطهارة. حاول أن يفهم كل ذلك بصورة مباشرة، لكنه اكتشف أن هذا العالم البكر، عالم هشّ، يُخترق بالهدايا، والرِّشا، والتخويف، فالمسلم فيه عربي، والخليفة مجرّد ملك للعرب.

انبثق شكٌّ حول بعثة ابن فضلان، فاحتجز أفرادها، إذ لم يسبق أن وصل عبر هذه البلاد رسول متوجِّه إلى الشمال، فشُكّ بأنَّهم ربما يقومون بعمل لصالح ملك الخزر اليهودي للهجوم عليهم، وانقسم القوم بشأنهم: قسم اقترح تقطيع أوصالهم، وقسم رأى سلبهم، وإعادتهم عراة إلى بغداد، وقسم ثالث وجد أن يُفادوا بأسراهم لدى الخزر. وقع كل ذلك لهم لأنهم أهملوا تحذير أمير خوارزم محمد بن عراق. ولكن ابن فضلان فكّك قوّة الخصوم بالهدايا، من جهة، ومن جهة أخرى، إن انقسام الآراء وتعارضها حول مصيرهم فعل فعله، فلم يُتَّخذ قرار نهائي بشأنهم، فعجّلوا، شبه هاربين، في مغادرة تلك البلاد، لا يلوون على شيء.

جعل الخوف ابن فضلان يكفّ عن توسيع ملاحظاته، وقد قوبل فضوله بسوء فهم، وكاد يقوده هو وجماعته إلى التهلكة، فقطعوا ما تبقى من العالم التركي مذعورين، وقد تفاقم سوء ظنّهم بكلّ شيء مرّوا به. بعد هذه التجربة التي رسمت درجة الخطر، على نحو لا يقبل الشكّ، عاد ابن فضلان إلى نسق التتابع في الوصف السريع الخاطف الذي لاحظناه عند خروجه من بغداد: رحلنا، ثم وصلنا إلى نهر يغندي، ثم عبرنا جام، ثم نهر جاخش، ثم أذل، ثم أردن، ثم وارش، ثم أختي، ثم تبا، وكلها أنهار كبار، ثم صرنا إلى البجناك (البشناق، شمال البحر الأسود)، ثم ارتحلنا، ثم سرنا، ثم عبرنا . . . إلخ. عدد

كبير من الأنهار قارب عدد المدن الإيرانية قبل بخارى ، لا يكشف السرد إلاّ عن أسمائها ، فإذا كانت المعرفة منعت التفاصيل في الحالة الأولى ، فالخوف والذعر والتعجُّل منعت التفاصيل في الحالة الثانية .

ظهر ابن فضلان ، خلال هذه المرحلة من سفره ، فاقد الإرادة ، وقد ترك للأحداث أن تقوده حيثما تشاء ، إذ سلّم أمره للقدر ، وادَّخر حكمًا قاسيًا وصف به أحد الأقوام التركية ، وهم «الباشغرد» (غرب جبال الأورال) ، فقال بأنهم «شرّ الأتراك وأقذرهم ، وأشدّهم إقدامًا على القتل ، يلقى الرجل الرجل فيفزر هامته ، ويأخذها ويتركه ، وهم يحلقون لحاهم ، ويأكلون القمل»[١] . ضاق بالترك من النواحي : الدينية ، والاجتماعية ، والأخلاقية ، فعبر ثمانية أنهر أخرى على عجل ، قبل أن يصل إلى أرض الصقالبة على شاطئ نهر الفولغا ، حيث الهدف الأخير لسفارتهِ .

٧. إخفاقات مصلح ديني:

وصل ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة ، وهي البلاد التي قصدها من بغداد بأمر المقتدر ، لتقديم العون لملكها يلطوار ، وتفقيه شعبه بالدين الإسلامي . لا يُعرف كيف اخترق بلاد الخزر التي تفصل بلاد الترك عن بلاد الصقالبة . والجزء الخاصّ بالخزر من الرحلة ، وهو ليس من النص المنشور ، والمنسوب إلى المؤلف مباشرة ، إنما منتزَع من «معجم البلدان» لـ«ياقوت» لا يقدم دليلاً ، بأية حال من الأحوال ، على أن ابن فضلان دخل تلك البلاد علناً ؛ إذ اختفى الحديث بصيغة السرد المباشر ، وخلا النصّ من الملاحظات العيانية ، ووردت في تضاعيفه معلومات كانت شائعة قبل القرن الرابع ، ومنها ما أورده الإصطخري عن تلك البلاد[٢] .

---

(١) رسالة ابن فضلان ، ص٥٦ .

(٢) المسالك والممالك ، ص٢١٧-٢٢٧ .

انكشف الطابع الجُزافي للرحلة ، فابن فضلان جاء من بغداد استجابة لاستغاثة ملك الصقالبة لحمايته من ملك الخزر ، وهم قوم كانوا على اليهودية ، وليس أمامه إلاّ المرور عبر بلاد معادية للوصول إلى هدفه . ولا ترد إشارة إلى ذلك ، فقد ظهر ، فجأةً ، في أرض الصقالبة مع ثلاثة من جماعته : تكين ، وبارس ، وسوسن . وطوال وجودهم في هذه الديار ، لا يظهر نذير الحرمي ، ولا عبد الله بن باشتو ، ولا يرد ذكر لهما . كانت مهمة ابن فضلان قراءة كتاب الخليفة ، وكتاب الوزير ، وكتاب السفير (نذير الحرمي) أمام الملك ، فاستقبل باحتفاء ظاهر يوم الأحد ، لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم ، سنة عشر وثلاثمئة[1] .

أبدى ابن فضلان حرصًا على مراعاة الطابع الاحتفالي للّقاء ؛ فجلّل دابّته بالسواد ، وهو رمز العباسيين ، وطلب إلى الملك الوقوف في أثناء قراءة رسالة الخليفة ، ثم انخرط ، إثر ذلك ، في تصحيح الممارسات الدينية الخاطئة ، بادئًا بملك الصقالبة نفسه ، فظهر له أن الملك ليس خائفًا من القوة العسكرية للخليفة العباسي ، ولا هو بحاجة مباشرة إلى أمواله لبناء الحصون الدفاعية ضدّ الخزر الأعداء ، إنما كان يخشى المكانة الدينية الرفيعة لخليفة المسلمين ، فبدعاء واحد قد يهلكه ، وقد طلب منه المال للتبرّك به ، لا للحاجة إليه .

بعد أيام من تسليم كتابَي الخليفة والوزير استدعى ابن فضلان إلى البلاط على عجل ، ثم وُوجِه بالحقيقة المرّة : أين الأموال التي أرسلها الخليفة؟ تلبّدت الأجواء بغيوم الشك ، ووجد ابن فضلان نفسه في مأزق كبير ، إذ طُعِنت مصداقيّته ، فاعترف لملك الصقالبة أن المقتدر أمرهم بجمع عطاء إحدى القرى الواقعة على تخوم دار الإسلام ، وإيصاله إلى الملك يلطوار ، لكنهم لم يفلحوا في ذلك بسبب الخلافات التي دبّت بينهم حول كيفية تحصيل الأموال ، وهم في بخارى والجرجانية . وعلى هذا وصل الوفد دون الأموال . أشار كتاب الخليفة إلى تلك الأموال ، لكنها لم تكن موجودة مع المبعوثين ، وضُرِبت مهمته في

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ٥٩ .

الصميم ، فقد جاء من أجل تصحيح الأخطاء القيمية عند مجتمع كان بحاجة ماسة إلى ذلك ، فإذا به يرافق بعثة فاسدة ، كان الأولى به أن يصحِّح أخطاءها .

حاول ابن فضلان توضيح الالتباس للملك ، لكن الثقة به تبدّدت ، وتعذّر عليه استعادتها ، فلم يعد مؤتَمَنًا ، وخيّم الشكّ على المهمة ، وانهارت القاعدة الأساسية ، وهي الصدق ، والأمانة ، والمواثقة . وكانت ردّة فعل الملك مباغتة ، فحتى الأخطاء الدينية اليسيرة التي قام ابن فضلان بتصحيحها ، أمر الملك «يلطوار» بإعادتها إلى ما كانت عليه قبل وصول البعثة . نجح الملك في وضع الجميع موضع الشكّ ، وخيانة الأمانة التي حمّلهم إياها الخليفة ، فرفض وعظ ابن فضلان ، ولم يقبل منه أيّ نصح ديني ، فوجد نفسه بلا دور ، وقد تلاشت هيبته أمام الملك ، والادّعاء وحده لا يكفي ؛ فعدم الوفاء كان دليلاً حاسمًا ضدّه . ولم تُقبل أبدًا أعذاره ، وبذلك أصبحت البعثة بكاملها خارج مدار الاهتمام .

أهمل يلطوار أمر بعثة المقتدر ، ولم يعبأ بمصير أفرادها ، فانصرف ابن فضلان إلى الاستزادة من ملاحظاته الاستكشافية ، بعد أن قُوّضت مهمّته ، وشغل بفحص التركيب الداخلي لعالم الصقالبة ، كالطقوس الدينية ، وموائد الطعام ، والمناخ ، والوقت ، والتقاليد الاجتماعية ، والعلاقة بين الرجل والمرأة . وأهمّ ما ارتسم في خياله الأساطير الروسية التي تغزو أرض الصقالبة من كلّ أطرافها . ولا يعرف أحد عاقبة تلك البعثة ، فعند هذه اللحظة الحاسمة ، تشظّى النصّ الأصلي للرحلة ، وكلّ المحاولات اللاحقة لترميمه بُنيت على جمع نصوص ، وإعادة تركيبها أو ترجمة نصوص ضائعة . وبإزاء شكّ في نزاهة بعثة المقتدر وإمامها ، انصرف يلطوار إلى شؤون مملكته ، وشغل ابن فضلان بملاحظاته ، وجولاته ، وعانى الوحدة ، إذ تحلّلت البعثة في أرض الصقالبة ، وتناثر التعاهد الذي حملته معها من بغداد .

٨. ضلالة وغموض:

ظل الشمال مكانًا غامضًا بالنسبة إلى الجغرافيين والرحّالة ، فآخر ما يمكن الاطمئنان إليه من حديث هو ما يتعلّق بالصقالبة ، والتصوُّر الشائع أن الشمال أرض غير مسكونة ، ومتجمِّدة . وكما يقول أبو الفداء هو «مفاوز لا عمارة فيها إلى البحر المحيط ، ولا تُسكن لشدّة البرد الذي فيها»[١] .

ويتوهم الجغرافيون وجود بلاد يأجوج ومأجوج في أقصى نهاية الشمال[٢] . وأول ما يواجه رحّالة قدموا من مناطق حارّة أو معتدلة هو عنف الطبيعة من ثلوج ، وأمطار ، وظلام ، وعواصف ، وجبال ، ورياح ، واختلاف في أطوال الليل والنهار ، وفي مواعيد الشروق والغروب ، ثم غرابة كاملة في التقاليد والعلاقات الاجتماعية ، وكل هذا غير معتاد في دار الإسلام ، وكان يترك ذهولاً عند الرحّالة كلما اقتربوا من تلك الفيافي المتثلّجة ، أو طافوا في تخومها . ولم يَنمُ إلينا أن أحدًا قد زارها قبل ابن فضلان ، فابن بطوطة ، البارع والصبور ، عجز عن ذلك ، فانكفأ عائدًا ؛ «لعظم المؤونة» و«قلّة الجدوى» ، ولأن «السفر إليها لا يكون إلاّ في عجلات صغار تجرّها كلاب كبار» ، واكتفى بأن وصفها بـ«بلاد الظلام»[٣] .

والقول بأن بلاد الشمال مظلمة له أكثر من دلالة ، وفي مقدّمتها إضفاء المجهولية على عالم غير مكتشَف ، والإيحاء بأنها خارج مدار الأهمية ، فمدنها ، كما قرَّر ابن سعيد المغربي «خاملة الأسماء» . وليس فيها «بلد مذكور ، ولا

---

(١) تقويم البلدان ، ص ٢ .

(٢) بخصوص مكان يأجوج ومأجوج ، انظر : ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ١٩٢-١٩٨ ، وابن حوقل ، صورة الأرض ، ج٢ ، ص٥٣٧ ، والإصطرخي ، المسالك والممالك ، ص٩ ، ورحلات ماركو بولو١ : ١٥ ، وابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ص٢٠٨ ، ورسالة ابن فضلان ص٧٠ ، وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص : ٨٧ - ٨٨ ، ورحلة ابن بطوطة ، ص٦٣٥-٣٣٦ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ، ص٣٥٠ .

معلم مشهود»[1] . ومن التقاليد الراسخة التي صدمت الرحّالة طقوس حرق الأجساد ، فالروس يحرقون أنفسهم إذا ماتوا ، مع الجواري ، بطيبة من أنفسهن[2] . شغل ابن فضلان بملاحظة هذه العادة ، وحضر طقوسها ، وشهدها بأمّ العين ، وهو أمر سيكون مثار اهتمام الرحّالة إلى الشرق ، وبخاصّة إلى الهند والصين ، مثل سليمان التاجر ، والبيروني ، وابن بطوطة .

وصف ابن فضلان الروس بأنهم «أقذر خلق الله : لا يستنجون من غائط ولا بول ، ولا يغتسلون من جنابة ، ولا يغسلون أيديهم من الطعام ، بل هم كالحمير الضالة ، يجيئون من بلدهم ، فيرسون سفنهم بإتل (الفولغا) وهو نهر كبير ، ويبنون على شطه بيوتًا كبارًا من الخشب . ويجتمع في البيت الواحدُ والعشرةُ والعشرون ، والأقلّ والأكثر ، ولكل واحد سرير يجلس عليه ، ومعهم الجواري الروقة (الغواني) للتجّار ، فينكح الواحد جاريته ، ورفيقه ينظر إليه ، و-ربّما- اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال ، بعضهم بحذاء بعض . وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية ، فيصادفه ينكحها ، فلا يزول عنها حتى يقضي أربه .

ولا بدّ لهم في كل يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه ، وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة ومعها قصعة كبيرة فيها ماء ، فتدفعها إلى مولاها ، فيغسل فيها يديه ، ووجهه ، وشعر رأسه ، فيغسله ، ويسرّحه بالمشط في القصعة ، ثم يمتخط ويبصق فيها ، ولا يدع شيئًا من القذر إلاّ فعله في ذلك الماء ، فإذا فرغ ممّا يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي إلى جانبه ففعل مثل فعل صاحبه ، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى

---

(١) ابن سعيد المغربي ، الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، بيروت ، المكتب التجاري ، ١٩٧٠ ، ص٢٠٦ و٢٠٧ .

(٢) الإصطرخي ، المسالك والممالك ص٢٢٦ ، وللتفصيل انظر : المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت ، المكتبة العصرية ، ١٩٨٨ ، ٢ : ٦٥- ٦٦ ورحلات ماركو وبولو ، ج١ ، ص ١١٨ - ١٢٠

تديرها على جميع مَنْ في البيت ، وكل واحد منهم يتمخط ويبصق فيها ، ويغسل وجهه وشعره فيها»[1] .

لم يدُر في خلد ابن فضلان أنه سيصل إلى دار الحرب وحيدًا ، فكل توقّعاته كانت دونها ، والهاجس الذي طاف في مخيّلته اقتصر على إصلاح الأخطاء القيمية ثم العودة إلى دار الإسلام . ولسوء الحظ ، حتّى مهمته هذه لم يُكتب لها أي نجاح يُذكر ، فالقوم غارقون في عاداتهم : «ما زلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة ، فما استوى لي ذلك»[2] .

ينبغي التذكير بأنه انطلق في بعثة الخليفة ، بوصفه مصلحًا دينيًا ، وهذا جعله منافحًا عنيدًا عن الحقيقة الإلهية ، فهو مُشبَع بأوامر الشريعة ، ونواهيها ، وفي ضوئها تحدّد مجال فعله ، ودوره ، ولم يسمح لأحد العبث بهذا المجال الرمزي الحسّاس ، فكلّ ما رآه زوغانًا سعى إلى تصحيحه ، ولكنه لم ينجح في ذلك ، فانتهى إلى حال مُذِلّة في مهمّته الإصلاحية ، ومُنِي بإخفاق المصلح الديني .

لم يفلح ابن فضلان في تغيير العادات الجماعية مهما كان خطؤها جسيمًا من وجهة نظره الدينية ، كما أخفق في زحزحة القناعات الراسخة لدى الأقوام الشمالية . من الصحيح القول إنه انخرط كفاعل ديني في مجتمع اتصف بالهشاشة الدينية ، لكنه ، كلّما دفعته مهمته إلى مواجهة ذلك المجتمع كان ينتهي إلى الفشل والتراجع ، شاعرًا بالانكسار . وكان أكثر ما أثاره حفيظته التقاليد التي لا توافق سُنن الشريعة . ولم يكن قادرًا على تغييرها ، ولعل التقاليد الوثنية هي الباعث الأول للكراهية في نفسه . الاعتراف بالعجز عن التغيير له معنى واحد لا غير ، هو : أن مهمّته أخفقت ، ولا معنى لها ، وقد كفّت عن أن تكون لها أية قيمة ، إلى ذلك فإن البعثة فشلت ، وانهار هدفها

---

(١) رسالة ابن فضلان ، ص ٧٦ .

(٢) م .ن ، ص٦٩ .

الأكبر، فوجد مرشدها الروحي نفسه بين شكّ ملك الصقالبة وغضب الخليفة العباسي، وهذا فتح الاحتمال على إحساس عميق بالإخفاق على المستويين العقائدي، والسياسي.

لقد نُظر إليهم، هو المصلح الديني وفريقه، بوصفهم جماعة لا يوثق بها، وقد خانت الأمانة، فكان أن خاطبه ملك الصقالبة، إثر مساجلة للإيقاع بهم، وكشف أخطائهم «والله إني لَبِمَكاني البعيد الذي تراني فيه، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه فيدعو عليّ فأهلك بمكاني، وهو في مملكته، وبيني وبينه البلدان الشاسعة، وأنتم (يقصد البعثة) تأكلون خبزه، وتلبسون ثيابه، وترونه في كلّ وقت، خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إلى قوم ضعفى، وخنتم المسلمين، لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه». عقَّب ابن فضلان على ذلك بقوله: «فألجَمَنا، وما أحَرنا جواباً، وانصرفنا من عنده»[1].

النتيجة التي ترتّبت على هذا الفشل المزدوج هي استحالة البقاء في بلاد الصقالبة بعد مناظرة الملك، من جهة، وصعوبة العودة إلى بغداد حاملاً معه فشلاً ينطوي على التباس عميق بمصداقيته في بلاط يمور بالتنافس وصراع القوى، من جهة ثانية. ويُحتمل أن ابن فضلان قد أسلم نفسه لقدر غامض، لأن دوره كفّ عن أن يكون ذا قيمة اعتبارية بعد مناظرة الملك له، إذ طُعن في صميم مهمته، وهو الصدق، ووُصِم بالخيانة. حتى الممارسات الدينية الخاطئة التي رآها كأنصال جارحة في بدن الإسلام، أصبحت تُؤلمه كثيرًا. وتخففت نبرته الانتقادية من ثقلها الدوغمائي، ثم ينبغي عدم إهمال العنصر الأكثر أهمية، وهو التواطؤ مع الآخر وتقبُّل الاختلاف. فالأغيار كثر في تلك البلاد،

(١) رسالة ابن فضلان، ص ٦٣.

لكنهم ضالّون وخارجون عن النسق القيمي الذي تشبّع ابن فضلان به . لكن الكثرة تغلب الحقّ .

ينطبق على ابن فضلان ما قاله «جون ميسفيلد» في تقديمه لرحلات ماركو بولو : «فَقَدنا كلّ عجب حين ضاع إيماننا»[1] . ففي الوقت الذي احتدّ فيه بصره ، فرأى كلّ شيء في دار الحرب ، أصيب بنوع من عمى البصيرة ؛ إذ فقد قدرته التحليلية ، فانزلق ، إمّا إلى جهل تامّ ، أو إلى خطأ في التفسير . ومن الصعب اكتشاف الذات على حقيقتها قبل الانخراط في تفاعل خصب مع الآخر ، فالاعتصام بالذات يحول دون كشفها ، وهو يماثل خطورة التماهي الأعمى بالآخر ، ونسيان الذات ، فالتواصل يضفي خصوصية وتمايزًا على الذات وعلى الآخر ، بما يجعل الذات والآخر ، على حدّ سواء ، حالة تاريخية متحولة بشكل دائم .

٩. مماثلات عابرة للزمان والمكان:

تبدو المماثلة واضحة بين ابن فضلان والطهطاوي ، والقرون العشرة الفاصلة بينهما لا تكاد تمارس فعلها في مجال التباين ، وكأن الزمن كفّ عن فعله الطبيعي . يُرسل ابن فضلان مرافقًا دينيًا لبعثة المقتدر إلى ملك الصقالبة ، باعتباره «فقيهًا وحجّة في شؤون الدين»[2] ، في نهاية الربع الأول من القرن العاشر الميلادي ، ويُرسَل الطهطاوي مرافقًا لبعثة محمد علي إلى فرنسا ، في نهاية الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي . كلاهما ذو دور ملتبس ، ولن يوليا اهتمامًا كافيًا ما كُلِّفا به ، وكأنهما يبحثان عن أدوار خاصّة بهما .

وفي الحالين يغيب الأبطال ، ويتفاقم ، شيئًا فشيئًا ، دور المرافقين . يطوي

---

(١) ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٩٩٥، ص٢٢ .

(٢) دائرة المعرف الإسلامية ، ج١ ، ص٣٦٤ .

التاريخ المبعوثين الأصليين، ويُظهر إلى العلن المرافقين فقط. ولا نكاد نعرف أو نتذكّر شيئًا ذا بال، خاصًا بمبعوثي المقتدر ومحمد علي، وحدَهما: ابن فضلان والطهطاوي سوف يستأثران بالاهتمام، ذلك أنهما يخرقان التعاقد الضمني الذي من أجله بعثا كموجِّهَيْن دينيَّيْن، ووسّعا من طبيعة دوريهما، وعاد كل منهما ومعه أول تقرير وافٍ عن «الآخر». وهو تقرير تحليلي، استكشافي، حفريّ، يحمل في طيّاته تركيب أول صورة مباشرة وحيّة، قائمة على الخبرة والمعايشة، عن الآخر.

وكما أن «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» يُعَدّ أول كتاب حديث في الثقافة العربية، يعرض لطبيعة التجربة الغربية ممثّلةً بفرنسا، في مجال الحقوق، والواجبات الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، تُعَدّ رحلة ابن فضلان أول ملامسة لعالم الشمال بما فيه من أتراك، وصقالبة، وبلغار، وخزر، بالنسبة إلى المسلمين في المرحلة الأولى من تكوين دولتهم وحضارتهم. وكلا المصدرين عُدّا مرجعين رائدين في مجالهما، لا يمكن تجاوزهما بأي شكل من الأشكال، وعليهما تشكّلت، وفي عصرين مختلفين، الصور الأولى للآخر، ونوع الأنساق: الثقافية، والاجتماعية، والعقائدية السائدة.

في البدء يحتاطان لكل شيء، وتبدو النبرة النقدية الغاضبة واضحة، لكن المناقشة تمتص الغلواء العقائدية. كلاهما اخترق عالمًا بكرًا، أصابهما بالذهول، وكلاهما انتهى إلى تثبيت صورة مختلفة للآخر. واجه ابن فضلان عالمًا وثنيًا مشبعًا بالضلال، وندب نفسه لتغيير كل شيء، في النهاية اقتنع بأن مهمته مستحيلة، ولذلك ما يماثله في التجربة الفكرية الكلّيّة للطهطاوي الذي استخلص من الآخر الحكمة الآتية: «مخالطة الأغراب، لا سيّما إذا كانوا من أولي الألباب، تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب»[1].

ولا يُلغي التماثل بعض التمايز بين الاثنين، فابن فضلان متعجِّل، غاصّ

---

(١) الطهطاوي، الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة، بيروت، المؤسسة العربية، ١٩٧٣.

بالروح العقائدية الإصلاحية للنسق الثقافي الشائع في القرون الوسطى ، يتحرّك داخل سياج عقائدي صارم يقوم على منظومة متكاملة وجاهزة من المسلّمات ، ويريد ، بشكل من الأشكال ، توسيع دار الإسلام ، وتضييق دار الكفر . أمّا الطهطاوي الذي تطوف في ذهنه الفكرة ذاتها ، فهو أقلّ طموحًا إلى تغيير الآخر ، ولا يختلف عن سَلَفه بنوع المنظومة العقائدية ، بل يختلف بدرجتها ، على أن تطلّعه أقلّ ، وتفهّمه أكثر ، وحواره أعمق .

سعى الطهطاوي إلى «تخليص» ذهب التجربة الغربية الحديثة بصعوبة بالغة ، وأهمل الشوائب ، ووضع بين أيدينا وجهة نظر عملية ، لكن ابن فضلان شُدَّ إلى الشمال ، فلا نعرف كيف عاد إلى بغداد ، وكيف قوبل تقريره ، وليس لأحد الادّعاء ، الآن ، بأنه على معرفة بذلك ، فآخر الشهود الموثوقين هو ياقوت الحموي من القرن الثالث عشر الميلادي الذي قرأه بنفسه ، وأقرّ بشهرته وشيوعه بين الناس ، واقتطف منه أجزاء وافية في معجم البلدان[1] . ومنذ ذلك التاريخ اختفت النسخة الأمّ ، وتمزّق الأصل ، بتمزق دار الإسلام . وكلّ المحاولات التي بُذلت إنما هي محاولات لترميم العالم الذي انبثق فيه .

كان ابن فضلان شاهدًا ذا حساسية مرهفة على تباين الطبائع والأحوال في بلاد الشمال ، والعوالم التي ترحّل بينها عُرضت في رحلته بنوع من التدرّج ، الذي بدأ بالألفة ، وانتهى بالعجب ، وترافق بأحكام تصاعدت تبعًا لتصاعد مساره ، من دار الإسلام إلى دار الحرب .

---

(١) معجم البلدان١ : ٨٨ .

النص الرديف
رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك، والصقالبة، والروس، والخزر

قال أحمد بن فضلان : لـمّا وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر ، يسأله فيه البعثة إليه ممن يفقّهه في الدين ، ويعرّفه شرائع الإسلام ، ويبني له مسجدًا ، وينصب له منبرًا ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصّن فيه من الملوك المخالفين له ، فأجيب إلى ما سأل من ذلك . وكان السفير له نذير الحرمي ، فندبتُ أنا لقراءة الكتاب عليه ، وتسليم ما أهدى إليه ، والإشراف على الفقهاء والمعلّمين ، وسبّب له بالمال المحمول إليه لبناء ما ذكرناه ، وللجراية على الفقهاء والمعلمين على الضيعة المعروفة بأرثخشمثين من أرض خوارزم ، من ضياع ابن الفرات (في بلاد تركستان) .

وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجل يقال له عبد الله بن باشتو الخزري (سفير الصقالبة في بغداد) والرسول من جهة السلطان (سلطان خراسان) سوسن الرسي مولى نذير الحرمي ، وتكين التركي ، وبارس الصقلابي (من رجال الخليفة المقتدر) ، وأنا معهم على ما ذكرت ، فسلمت الهدايا له (للسلطان) ولامرأته ، ولأولاده ، وأخوته ، وقوّاده . وأدوية كان كتب إلى نذير يطلبها . فرحلنا من مدينة السلام (بغداد) يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وثلاثمئة (٢٠حزيران/يونيو٩٢١م) فأقمنا بالنهروان يومًا واحدًا . ورحلنا مجدّين حتى وافينا الدسكرة ، فأقمنا بها ثلاثة أيام . ثم رحلنا قاصدين لا نلوي على شيء ، حتى صرنا إلى حلوان ، فأقمنا بها يومين .

وسرنا منها إلى قرميسين (كرمنشاه) فأقمنا بها يومين . ثم رحلنا ، فسرنا حتى وصلنا إلى همذان ، فأقمنا بها ثلاثة أيام . ثم سرنا حتى قدمنا ساوة (بين همذان والري) فأقمنا بها يومين ، ومنها إلى الري ، فأقمنا بها أحد عشر يومًا ننتظر أحمد بن علي أخا صعلوك ؛ لأنه كان بخُوار الري .

ثم رحلنا إلى خُوار الري ، فأقمنا بها ثلاثة أيام ، ثم رحلنا إلى سمنان ، ثم منها إلى الدامغان ، وصادفنا بها ابن قارن من قبل الداعي ، فتنكّرنا في القافلة ، وسرنا مجدّين حتى قدمنا نيسابور ، وقد قتل ليلى بن نعمان ، فأصبنا بها حَمَويه كوسا صاحب جيش خراسان ، ثم رحلنا إلى سرخس ، ومنها إلى مرو (إحدى مدن خراسان) ومنها إلى قشمهان ، وهي طرف مفازة آمل ، فأقمنا بها ثلاثة أيام نريح الجمال لدخول المفازة ، ثم قطعنا المفازة إلى آمل ، ثم عبرنا جيحون وصرنا إلى آفرير رباط طاهر بن علي ، ثم رحلنا إلى بيكند ثم دخلنا بخارا (تقع حاليًا في أوزبكستان) وصرنا إلى الجيهاني ، وهو كاتب أمير خراسان ، وهو يدعى ، بخراسان ، الشيخ العميد ، فتقدم بأخذ دار لنا ، وأقام لنا رجلاً يقضي حوائجنا ، ويزيح عللنا في كل ما نريد ، فأقمنا أيامًا .

ثم استأذن لنا على نصر بن أحمد (صاحب خراسان) فدخلنا إليه ، وهو غلام أمرد ، فسلّمنا عليه بالإمرة ، وأمرنا بالجلوس . فكان أول ما بدأنا به أن قال : «كيف خلفتم مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وسلامته في نفسه ، وفتيانه ، وأوليائه؟» فقلنا : «بخير» . قال : «زاده الله خيرًا» . ثم قُرئ الكتاب عليه بتسلُّم أرثخشمثين من الفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات ، وتسليمها إلى أحمد بن موسى الخوارزمي ، وإنفاذنا والكتاب إلى صاحبه بخوارزم بترك العَرَض (الأملاك) لنا ، والكتاب بباب التُرك ببذرقتنا (الحماية المصاحبة للبعثة) وترك العرض لنا . فقال : «وأين أحمد بن موسى؟» . فقلنا : «خلّفناه بمدينة السلام ، ليخرج خلفنا لخمسة أيام» . فقال : «سمعًا وطاعة لما أمر به مولاي أمير المؤمنين أطال الله بقاءه» . واتّصل الخبر بالفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات ، فأعمل الحيلة في أمر أحمد بن موسى ، وكتب

إلى عمال المعاون بطريق خراسان من جند سرخس إلى بيكند «أن أذكوا العيون على أحمد بن موسى الخوارزمي في الخانات والمراصد ، وهو رجل من صفته ونعته ، فمَن ظفر به ، فليعتقله إلى أن يردّ عليه كتابنا بالمسألة» . فأُخذ بمرو ، واعتُقل .

وأقمنا نحن ببخارا ثمانية وعشرين يومًا ، وقد كان الفضل بن موسى أيضًا وَاطأ عبد الله ابن باشتو وغيره من أصحابنا يقولون : «إن أقمنا هجم الشتاء وفاتنا الدخول ، وأحمد بن موسى إذا وافانا لحق بنا» . ورأيت الدراهم ببخارا ألوانًا شتى ؛ منها دراهم يقال لها الغطريفية (ضربها عامل الرشيد غطريف بن بهاء) وهي نحاس ، وشَبه ، وصفر ، يؤخذ منها عدد بلا وزن ، مئة منها بدرهم فضة . وإذا شروطهم في مهور نسائهم : تزوّج فلان بن فلان فلانة بنت فلان على كذا وكذا ألف درهم غطريفية . وكذلك أيضًا شراء عقارهم وشراء عبيدهم ، لا يذكرون غيرها من الدراهم ، ولهم دراهم أُخر صفر وحده ، أربعون منها بدانق ، ولهم أيضًا دراهم صفر يقال لها السمرقندية ستة منها بدانق .

فلمّا سمعت كلام عبد الله بن باشتو وكلام غيره يحذرونني من هجوم الشتاء ، رحلنا من بخارا راجعين إلى النهر ، فتكارَينا سفينة إلى خوارزم ، والمسافة إليها من الموضع الذي اكترينا منه السفينة أكثر من مئتي فرسخ ، فكنا نسير بعض النهار ولا يستوي لنا سيره كله من البرد وشدته إلى أن قدمنا خوارزم ، فدخلنا على أميرها محمد بن عراق خوارزم شاه ، فأكرمنا ، وقرّبنا ، وأنزلنا دارًا . فلمّا كان بعد ثلاثة أيام أحضرَنا وناظرَنا في الدخول إلى بلد الترك وقال : «لا آذن لكم في ذلك ، ولا يحلّ إليّ ترككم تغررون بدمائكم . وأنا أعلم أنها حيلة أوقعها هذا الغلام» . يعني تكين «لأنه كان عندنا حدّادًا ، وقد وقف على بيع الحديد ببلد الكفار ، وهو الذي غرّ نذيرًا وحمله على كلام أمير المؤمنين ، وإيصال كتاب ملك الصقالبة إليه ، والأمير الأجلّ «يعني أمير خراسان» كان أحق بإقامة الدعوة لأمير المؤمنين في ذلك البلد ، لو وجد محيصًا . ومن بعدُ فبينكم وبين هذا البلد الذي تذكرون ألف قبيلة من الكفّار ،

وهذا تمويه على السلطان ، وقد نصحتكم ، ولا بدّ من الكتاب إلى الأمير الأجلّ حتى يراجع السلطان أيده الله في المكاتبة ، وتقيمون أنتم إلى وقت يعود الجواب» .

فانصرفنا عنه ذلك اليوم ، ثم عاودناه ، ولم نزل نرفق به ، ونقول : «هذا أمر أمير المؤمنين وكتابه ، فما وجه المراجعة فيه؟» . حتى أذن لنا ، فانحدرنا من خوارزم إلى الجرجانية ، وبينها وبين خوارزم في الماء خمسون فرسخًا . ورأيت دراهم خوارزم مزيفة ، ورصاصًا وزيوفًا وصفرًا ، ويسمون الدرهم طازجة ، ووزنه أربعة دوانيق ونصف . والصيرفي منهم يبيع الكعاب والدوامات والدراهم . وهم أوحش الناس كلامًا وطبعًا ، كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير . وبها قرية على يوم يقال لها أردكو ، أهلها يقال لهم الكردلية ، كلامهم أشبه شيء بنقيق الضفادع ، وهم يتبرّؤون من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في دبر كل صلاة .

فأقمنا بالجرجانية أيامًا ، وجمد نهر جيحون من أوله إلى آخره . وكان سُمك الجمد سبعة عشر شبرًا . وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق ، وهو ثابت لا يتخلخل ، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر ، فرأينا بلدًا ما ظننا إلاّ أن بابًا من الزمهرير قد فتح علينا منه . ولا يسقط فيه الثلج إلاّ ومعه ريح عاصف شديدة . وإذا أتحف الرجل من أهله صاحبه ، وأراد بِرّه ، قال له : «تعال إليّ حتى نتحدّث ، فإن عندي نارًا طيبة» . هذا إذا بالغ في بِرّه وصلته ، إلاّ أن الله تعالى قد لطف بهم في الحطب ، وأرخصه عليهم ، حمل عجلة من حطب الطاغ بدرهمين من دراهمهم ، تكون زهاء ثلاثة آلاف رطل . ورسم سؤالهم أن لا يقف السائل على الباب بل يدخل إلى دار الواحد منهم ، فيقعد ساعة عند ناره يصطلي ، ثم يقول : «بكند» . يعني «الخبز» . فإن أعطوه شيئًا أخذ ، وإلا خرج .

وتطاول مقامنا بالجرجانية ، وذلك أنا أقمنا بها أيامًا من رجب وشعبان ، وشهر رمضان وشوال . وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته . ولقد بلغني أن

رجلين ساقا اثني عشر جملاً ليحملا عليها حطبًا من بعض الغياض ، فنسيا أن يأخذا معهما قداحة وحراقة ، وأنهما باتا بغير نار ، فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد . ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى يطوف الإنسان أكثر الشوارع والأسواق فلا يجد أحدًا ، ولا يستقبله إنسان . ولقد كنت أخرج من الحمام ، فإذا دخلت إلى البيت نظرت إلى لحيتي ، وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار . ولقد كنت أنام في جوف بيت ، وفيه قبة لبود تركية ، وأنا مدثر بالأكسية والفرى ، فربما التصق خدّي على المخدة ، ولقد رأيت الجباب بها تكسي البوستينات (عباءات جلدية) من جلود الغنم ؛ لئلاّ تتشقق وتنكسر ، فلا يغني ذلك شيئًا ، ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدّة البرد ، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك .

فلمّا انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمئة (١٥شباط/ فبراير٩٢٢)أخذ الزمان في التغير ، وانحلّ نهر جيحون ، وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آلة السفر ، واشترينا الجمال التركية ، واستعملنا السفر من جلود الجمال لعبور الأنهار التي نحتاج أن نعبرها في بلد الترك ، وتزودنا الخبز والجاورس (الجريش) والنمكسوذ (اللحم المقدّد) لثلاثة أشهر . وأمرنا من كنا نأنس بهم من أهل البلد بالاستظهار في الثياب والاستكثار منها ، وهوّلوا علينا الأمر ، وعظّموا القصة ؛ فلمّا شاهدنا ذلك كان أضعاف ما وصف لنا ، فكان كل رجل منا عليه قرطق (معطف) وفوقه خفتان (قفطان) وفوقه بوستين ، وفوقه لبادة وبُرنس لا تبدو منه إلاّ عيناه وسراويل طاق ، وآخر مبطَّن وران وخف كيمخت (حذاء من جليد سميك) . وفوق الخف خف آخر ، فكان الواحد منا إذا ركب الجمل لم يقدر أن يتحرّك لما عليه من الثياب .

وتأخر عنا الفقيه والمعلم والغلمان الذين خرجوا معنا من مدينة السلام فزعًا من الدخول إلى ذلك البلد ، وسرت أنا والرسول وسلف له والغلامان تكين وبارس ، فلمّا كان في اليوم الذي عزمنا فيه على المسير ، قلت لهم : «يا قوم

معكم غلام الملك ، وقد وقف على أمركم كله ، ومعكم كتب السلطان ، ولا أشكّ أن فيها ذكر توجيه أربعة آلاف دينار المسيبية له ، وتصيرون إلى ملك أعجمي ، فيطالبكم بذلك» . فقالوا : «لا تخش من هذا ، فإنه غير مطالب لنا» . فحذرتهم ، وقلت : «أنا أعلم أنه يطالبكم» ، فلم يقبلوا ، واستدف (استقام) أمر القافلة ، واكترَينا دليلاً يقال له قلواس من أهل الجرجانية ، ثم توكلنا على الله عز وجل وفوضنا أمرنا إليه .

ورحلنا من الجرجانية يوم الإثنين لليلتين خلتا من ذي القعدة ، سنة تسع وثلاثمئة (٤أذار/ مارس٩٢٢) فنزلنا رباطًا يقال له «زمجان» ، وهو بباب الترك ، ثم رحلنا من الغد فنزلنا منزلاً يقال له «جيت» ، وجاءنا الثلج حتى مشت الجمال إلى ركبها فيه ، فأقمنا بهذا المنزل يومين ، ثم أوغلنا في بلد الترك لا نلوي على شيء ، ولا يلقانا أحد في برية قفر بغير جبل ، فسرنا فيها عشرة أيام . ولقد لقينا من الضرّ ، والجهد ، والبرد الشديد ، وتواصل الثلوج الذي كان برد خوارزم عنده مثل أيام الصيف ، ونسينا كل ما مرّ بنا ، وأشرفنا على تلف الأنفس . ولقد أصابنا في بعض الأيام برد شديد . وكان تكين يسايرني وإلى جانبه رجل من الأتراك يكلّمه بالتركية ، فضحك تكين وقال : «إن هذا التركي يقول لك أي شيء يريد ربنا منا؟ هو ذا يقتلنا بالبرد ، ولو علمنا ما يريد لرفعناه إليه» . فقلت له : «قل له يريد منكم أن تقولوا لا إله إلاّ الله» ، فضحك وقال : «لو علمنا لفعلنا» . ثم صرنا بعد ذلك إلى موضع فيه من حطب الطاغ شيء عظيم ، فنزلناه ، وأوقدت القافلة ، واصطلوا ، ونزعوا ثيابهم ، وشرّوها ، ثم رحلنا فما زلنا نسير في كل ليلة من نصف الليل إلى وقت العصر أو إلى الظهر ، بأشدّ سير يكون وأعظمه ، ثم ننزل .

فلمّا سرنا خمس عشرة ليلة ، وصلنا إلى جبل عظيم كثير الحجارة ، وفيه عيون تنجرف عبره ، وبالحفرة تستقرّ الماء ، فلمّا قطعناه أفضينا إلى قبيلة من الأتراك يُعرفون بالغزية (قبائل انتشرت بين الفولغا والدانوب) وإذا هم بادية لهم بيوت شعر يحلون ويرتحلون ، ترى منهم الأبيات في كل مكان ، ومثلها في مكان

آخر على عمل البادية وتنقلهم ، وإذا هم في شقاء ، وهم مع ذلك كالحمير الضالّة لا يدينون لله بدين ، ولا يرجعون إلى عقل ، ولا يعبدون شيئًا ، بل يسمون كبراءهم أربابًا ، فإذا استشار أحدهم رئيسه في شيء قال له : «يا رب إيش أعمل في كذا وكذا» . وأمرهم شورى بينهم ، غير أنهم متى اتَّفقوا على شيء ، وعزموا عليه ، جاء أرذلهم وأخسّهم فنقض ما قد أجمعوا عليه ، وسمعتهم يقولون : «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» ؛ تقرُّبًا بهذا القول إلى من يجتاز بهم من المسلمين لا اعتقادًا لذلك .

وإذا ظلِم أحد منهم أو جرى عليه أمر يكرهه رفع رأسه إلى السماء ، وقال : «بير تنكري» . وهو بالتركية : «الله الواحد» . لأن بير بالتركية واحد ، وتنكري الله بلغة الترك ، ولا يستنجون من غائط ولا بول ، ولا يغتسلون من جنابة ، ولا غير ذلك ، وليس بينهم وبين الماء عمل خاصّة في الشتاء ، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم ، كذلك لا تستر المرأة شيئًا من بدنها عن أحد من الناس . ولقد نزلنا يومًا على رجل منهم ، فجلسنا وامرأة الرجل معنا ، فبينا هي تحدّثنا إذ كشفت فرجها وحكّته ، ونحن ننظر إليها ، فسترنا وجوهنا وقلنا : «أستغفر الله» . فضحك زوجها ، وقال للترجمان : «قل لهم ، تكشفه بحضرتكم فترونه وتصونه فلا يوصَل إليه ، هو خيرٌ من أن تغطّيه ، وتمكّن منه» . وليس يعرفون الزنى ، ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقوه بنصفين ؛ وذلك أنهم يجمعون بين أغصان شجرتين ثم يشدونه بالأغصان ، ويرسلون الشجرتين ، فينشق الذي شُدّ إليهما .

وقال بعضهم ، وسمعني أقرأ قرآنا ، فاستحسن القرآن ، وأقبل يقول للترجمان : قل له : «لا تسكت» . وقال لي هذا الرجل يومًا على لسان الترجمان : «قل لهذا العربي ألِربنا عز وجل امرأة؟» . فاستعظمت ذلك ، وسبّحت الله ، واستغفرته ، فسبّح ، واستغفر كما فعلت . وكذلك رسم التركي كلما سمع المسلم يسبّح ويهلل قال مثله . ورسوم تزويجهم هو أن يخطب الواحد منهم إلى الآخر بعض حرمه ، أمّا ابنته أو أخته أو بعض من يملك أمره على كذا

وكذا ثوب خوارزمي ، فإذا وافقه حملها إليه . وربما كان المهر جمالاً أو دوابَّ أو غير ذلك . وليس يصل الواحد إلى امرأته حتى يوفي الصداق الذي قد وافق وليها عليه ، فإذا وفاه إياه جاء غير محتشم حتى يدخل إلى المنزل الذي هي فيه ، فيأخذها بحضرة أبيها وأمّها وإخوتها فلا يمنعونه من ذلك . وإذا مات الرجل وله زوجة وأولاد ، تزوج الأكبر من ولده بامرأته إذا لم تكن أمّه ، ولا يقدر أحد من التجّار ولا غيرهم أن يغتسل من جنابة بحضرتهم إلاّ ليلاً من حيث لا يرونه ؛ وذلك أنهم يغضبون ويقولون هذا يريد أن يسحرنا ، لأنه قد تفرّس في الماء ، ويغرمونه مالاً .

ولا يقدر أحد من المسلمين أن يجتاز ببلدهم حتى يجعل له منهم صديقًا ينزل عليه ، ويحمل له من بلد الإسلام ثوبًا ، ولامرأته مقنعة ، وشيئًا من فلفل وجاورس وزبيب وجوز ، فإذا قدم على صديقه ضرب له قبة ، وحمل إليه من الغنم على قدره ، حتى يتولّى المسلم ذبحها ؛ لأن الترك لا يذبحون ، وإنما يضرب الواحد منهم رأس الشاة حتى تموت . وإذا أراد الرجل منهم الرحيل ، وقد قام عليه شيء من جماله ودوابه ، أو احتاج إلى مال ، ترك ما قد قام عند صديقه التركي ، وأخذ من جِماله ودوابه وماله حاجته ورحل ، فإذا عاد من الوجه الذي يقصده قضاه ماله ورد إليه جِماله ودوابه .

وكذلك لو اجتاز بالتركي إنسان لا يعرفه ثم قال أنا ضيفك ، وأنا أريد من جمالك ودوابك ودراهمك ، دفع إليه ما يريد ، فإن مات التاجر في وجهه ذلك وعادت القافلة لقيهم التركي ، وقال أين ضيفي؟ فإن قالوا مات ، حط القافلة ، ثم جاء إلى أنبل تاجر يراه فيهم ، فحلَّ متاعه ، وهو ينظر ، فأخذ من دراهمه مثل ماله عند ذلك التاجر بغير زيادة حبة ، وكذلك يأخذ من دوابّه وجماله ، وقال ذلك ابن عمك وأنت أحقّ من غرم عنه ، وإن فرّ فعل أيضًا ذلك الفعل وقال له ذلك مسلم مثلك خذ أنت منه ، وإن لم يوافق المسلم ضيفه في الجادة سأل عن بلاده أين هو ، فإذا أرشد إليه سار في طلبه مسيرة أيام حتى يصير إليه ويرفع ماله عنده وكذلك ما يهديه له . وهذه أيضًا سبيل التركي إذا دخل

الجرجانية سأل عن ضيفه ، فنزل عليه حتى يرتحل . ومتى مات التركي عند صديقه المسلم ، واجتازت القافلة ، وفيها صديقه قتلوه وقالوا : أنت قتلته بحبسك إياه ، ولو لم تحبسه لما مات ، وكذلك إن سقاه نبيذًا فتردّى من حائط قتلوه به ، فإن لم يكن في القافلة عمدوا إلى أجلّ من فيها ، فقتلوه .

وأمر اللواط عندهم عظيم جدًا ، ولقد نزل على حي كوذركين-وهو خليفة ملك الترك-رجل من أهل خوارزم ، فأقام عند ضيف له مدة في ابتياع غنم ، وكان للتركي ابن أمرد ، فلم يزل الخوارزمي يداريه ويراوده عن نفسه حتى طاوعه على ما أراد ، وجاء التركي ، فوجدهما في بنيانهما ، فرفع التركي ذلك إلى كوذركين ، فقال له : «اجمع الترك» . فجمعهم ، فلمّا اجتمعوا ، قال للتركي : «بالحق تحب أن أحكم ، أم بالباطل؟» . قال : «بالحقّ» . قال : «أحضر ابنك» . فأحضره فقال : «يجب عليه وعلى التاجر أن يقتلا جميعًا» . فامتعض التركي من ذلك ، وقال : «لا أسلِّم ابني» . فقال : «فيفتدي التاجر نفسه» . ففعل ، ودفع للتركي غنمًا للفعل بابنه ، ودفع إلى كوذركين أربعمئة شاة لما رفع عنه ، وارتحل عن بلد الترك .

فأول من لقينا من ملوكهم ورؤسائهم ينال الصغير (ولي العهد) وقد كان أسلم ، فقيل له إن أسلمت لم ترؤسنا ، فرجع عن إسلامه ، فلمّا وصلنا إلى الموضع الذي هو فيه ، قال : «لا أترككم تجوزون لأن هذا شيء ما سمعنا به قط ، ولا ظننّا أنه يكون» . فرفقنا به إلى أن رضي بخفتان جرجاني يساوي عشرة دراهم وشقة باي باف (لباس خاصّ بالمرأة) وأقراص خبز ، وكف زبيب ، ومئة جوزة ، فلمّا دفعنا هذا إليه سجد لنا . وهذا رسمهم إذا أكرم الرجل الرجل سجد له ، وقال : «لولا أن بيوتي نائية عن الطريق لحملت إليكم غنمًا وبرًا» . وانصرف عنا ، وارتحلنا . فلمّا كان من غد لقِيَنا رجل واحد من الأتراك ، دميم الخلقة ، رثّ الثياب ، قميء المنظر ، خسيس المخبر ، وقد أخذنا مطر شديد ، فقال : «قفوا» . فوقفت القافلة بأسرها ، وهي نحو ثلاثة آلاف دابّة وخمسة آلاف رجل ، ثم قال : «ليس يجوز منكم أحد» . فوقفنا طاعةً لأمره ، فقلنا له : «نحن أصدقاء

كوذركين» . فأقبل يضحك ، ويقول : «منْ كوذركين؟ ، أنا أخرى على لحية كوذركين» . ثم قال : «بكند» ، يعني : «الخبز» ، بلغة خوارزم ، فدفعتُ إليه أقراصًا فأخذها ، وقال : «مرّوا قد رحمتكم» .

وإذا مرض الرجل منهم ، وكان له جوارٍ وعبيد خدموه ، ولم يقربه أحد من أهل بيته ، ويضربون له خيمة ناحية من البيوت ، فلا يزال فيها إلى أن يموت ، أو يبرأ ، وإن كان عبدًا أو فقيرًا رموا به في الصحراء ، وارتحلوا عنه . وإذا مات الرجل منهم حفروا له حفيرة كبيرة كهيئة البيت ، وعمدوا إليه فألبسوه قرطقة ومنطقته وقوسه ، وجعلوا في يده قدحًا من خشب فيه نبيذ ، وتركوا بين يديه إناءً من خشب فيه نبيذ ، وجاءوا بكلّ ماله فجعلوه معه في ذلك البيت ، ثم أجلسوه فيه فسقفوا البيت عليه ، وجعلوا فوقه مثل القبّة من الطين ، وعمدوا إلى دوابه على قدر كثرتها ، فقتلوا منها مئة رأس إلى مئتي رأس إلى رأس واحد ، وأكلوا لحومها إلاّ الرأس والقوائم والجلد والذنب ، فإنهم يصلبون ذلك على الخشب ، وقالوا : هذه دوابه يركبها إلى الجنة ، فإن كان قَتَل إنسانًا وكان شجاعًا نحتوا صورًا من خشب على عدد مَنْ قَتَل ، وجعلوها على قبره ، وقالوا : هؤلاء غلمانه يخدمونه في الجنة .

وربما تغافلوا على قتل الدواب يومًا أو يومين فيحثّهم شيخ من كبارهم ، فيقول : «رأيت فلانًا» . يعني الميت في النوم ، فقال لي : «هو ذا تراني ، وقد سبقني أصحابي ، وشققت رجلاي من اتّباعي لهم ، ولست ألحقهم ، وقد بقيت وحدي» . فعندها يعمدون إلى دوابه ، فيقتلونها ، ويصلبونها عند قبره ، فإذا كان بعد يوم أو يومين جاءهم ذلك الشيخ ، وقال : «قد رأيت فلانًا ، وقال : عرّف ، أهلي وأصحابي أني قد لحقت من تقدمني ، واسترحت من التعب» .

والترك كلهم ينتفون لحاهم إلاّ أسبلتهم ، وربما رأيت الشيخ الهرم منهم وقد نتف لحيته وترك شيئًا منها تحت ذقنه ، وعليه البوستين ؛ فإذا رآه إنسان من بعد لم يشكّ أنه تيس . وملك الترك الغزية يقال له «يبغو» . وهو اسم الأمير ، وكل من ملك هذه القبيلة فبهذا الاسم يسمّى ، ويقال لخليفته «كوذركين» وكذا كل

من يخلف رئيسًا منهم ، يقال له كوذركين ، ثم نزلنا بعد ارتحالنا من ناحية هؤلاء بصاحب جيشهم ، ويقال له «أترك بن القطغان» . فضرب لنا قبابًا تركية وأنزلنا فيها ، وإذا له ضبنة (عيال ، وأهل) ، وحاشية ، وبيوت كبيرة ، وساق إلينا غنمًا وقادَ دواب ، لنذبح الغنم ونركب الدواب ، ودعا هو جماعة من أهل بيته وبني عمه ، فقتل لهم غنمًا كثيرة .

وكنّا قد أهدينا إليه هدية من ثياب ، وزبيب ، وجوز ، وفلفل ، وجاورس ، فرأيت امرأته ، وقد كانت امرأة أبيه ، وقد أخذت لحمًا ولبنًا ، وشيئًا ممّا أتحفناه به ، وخرجت من البيوت إلى الصحراء ، فحفرت حفيرة ، ودفنت الذي كان معها فيها ، وتكلّمت بكلام ، فقلت للترجمان : «ما تقول؟» . قال : «تقول هذه هدية للقطغان أبي الترك ، أهداها له العرب» .

فلمّا كان في الليل ، دخلتُ أنا والترجمان إليه ، وهو في قبّته جالس ، ومعنا كتاب نذير الحرمي إليه ، يأمره فيه بالإسلام ، ويحضّه عليه ، ووجّه إليه خمسين دينارًا فيها عدّة دنانير مسيبية ، وثلاثة مثاقيل مسك ، وجلود أديم ، وثياب مرويّة ، وقطعنا له منها قرطقين ، وخف أديم ، وثوب ديباج ، وخمسة أثواب حرير ، فدفعنا إليه هديّته ، ودفعنا إلى امرأته مقنعة وخاتمًا ، وقرأت عليه الكتاب ، فقال للترجمان : «لست أقول لكم شيئًا حتى ترجعوا ، وأكتب إلى السلطان بما أنا عازم عليه» . ونزع الديباجة التي كانت عليه ليلبس الخلع التي ذكرنا ، فرأيت القرطق الذي تحتها ، وقد تقطّع وسخًا ؛ لأن رسومهم أن لا ينزع الواحد منهم الثوب الذي يلي جسده حتى ينتثر قطعًا ، وإذا هو قد نتف لحيته كلها وسباله ، فبقي كالخادم .

ورأيت الترك يذكرون أنه أفرسهم . ولقد رأيت يومًا وهو يسايرنا على فرسه ، إذ مرّت وزة طائرة ، فأوتر قوسه ، وحرّك دابّته تحتها ، ثم رماها ، فإذا هو قد أنزلها . فلمّا كان في بعض الأيام وجّه خلف القواد الذين يلونه ، وهم طرخان ، وينال ، وابن أخيهما وإيلغز . وكان طرخان أنبلهم وأجلّهم ، وكان أعرج ، أعمى ، أشلّ ، فقال لهم : «إن هؤلاء رسل ملك العرب إلى صهري ألمش بن شلكي ، ولم يخير

لي أن أطلقهم إلاّ عن مشورتكم» . فقال طرخان «هذا شيء ما رأيناه قط ، ولا سمعنا به ، ولا اجتاز بنا رسول سلطان مذ كنا نحن وآباؤنا ، وما أظن إلاّ أن السلطان قد أعمل الحيلة ، ووجّه هؤلاء إلى الخزر ليستجيش بهم علينا ، والوجه أن يقطع هؤلاء الرسل نصفين نصفين ، ونأخذ ما معهم» . وقال آخر منهم : «لا ، بل نأخذ ما معهم ، ونتركهم عراة يرجعون من حيث جاؤوا» . وقال آخر : «لا ، ولكن لنا عند ملك الخزر أُسَراء ، فنبعث بهؤلاء نفادي بهم أولئك» . فما زالوا يراجعون بينهم هذه الأشياء سبعة أيام ، ونحن في حالة الموت حتى أجمع رأيهم على أن يخلوا سبيلنا ، ونمضي ، فخلعنا على طرخان خفتانًا مرويًا ، وشقّتين باي باف ، وعلى أصحابه ، كل واحد قرطقًا ، وكذلك على ينال ، ودفعنا إليهم فلفلاً ، وجاورسًا ، وأقراصًا من خبز ، وانصرفوا عنا .

ورحلنا حتى صرنا إلى نهر يغندي (زيندي) فأخرج الناس سفرهم ، وهي من جلود الجمال ، فبسطوها ، وأخذوا بالأثاث من الجمال التركية ؛ لأنها مدوّرة ، فجعلوها في جوفها حتى تمتدّ ، ثم حشوها بالثياب والمتاع ، فإذا امتلأت جلس في كل سفرة جماعة من خمسة وستة وأربعة ، وأقلّ وأكثر ، ويأخذون بأيديهم خشب الخدنك (خشب البتولا)فيجعلونه كالمجاديف ، ولا يزالون يجدّفون ، والماء يحملها ، وهي تدور ، حتى نعبر ، فأمّا الدواب والجِمال ، فإنه يصاح بها ، فتعبر سباحة ، ولا بدَّ أن تعبر جماعة من المقاتلة ، ومعهم السلاح قبل أن يعبر شيء من القافلة ؛ ليكونوا طليعة للناس خيفة من الباشغرد (قوم من الأتراك) أن يكبسوا الناس ، وهم يعبرون ، فعبرنا يغندي على هذه الصفة التي ذكرنا ، ثم عبرنا بعد ذلك نهرًا يقال له جام في السفر أيضًا ، ثم عبرنا جاخش (سجير) ثم أذل (أوييل) ثم أردن (زاكسباي) ثم وارش (كالدغايتي) ثم أختي (آشي)ثم وتبا (ياك) . وهذه كلها أنهار كبار .

ثم صرنا بعد ذلك إلى البنجاك (قوم من الأتراك في الأورال ، وحوض الفولغا ، وضفاف بحر قزوين) وإذا هم نزول على ماء شبيه بالبحر غير جارٍ ، وإذا هم سُمْر شديدو السمرة ، وإذا هم محلقو اللحى فقراء خلاف الغزية ، لأني

رأيت من الغزية من يملك عشرة آلاف دابّة ، ومئة ألف رأس من الغنم ، وأكثر ما ترعى من الغنم ما بين الثلج ، تبحث بأظلافها تطلب الحشيش ، فإذا لم تجده قضمت الثلج فسمنت غاية السمن ، فإذا كان الصيف ، وأكلت الحشيش هزلت ، فنزلنا على البجناك يومًا واحدًا . ثم ارتحلنا فنزلنا على نهر جيخ (أحد فروع جيحون) وهو أكبر نهر رأيناه ، وأعظمه ، وأشدّه جرية ، ولقد رأيت سفرة انقلبت فيه فغرق من كان فيها ، وذهبت رجال كثير من الناس ، وغرقت عدة جِمال ودواب ، ولم نعبره إلاّ بجهد .

ثم سرنا أيامًا ، وعبرنا نهر حاخا (جاغان) ثم بعده نهر أرخز ، ثم باجاغ ، ثم سمور ، ثم كنال ، ثم نهر سوخ ، ثم نهر كنجلو . ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقال لهم الباشغرد ، فحَذَرْناهم أشد الحذر ، وذلك أنهم شرّ الأتراك ، وأقذرهم ، وأشدّهم إقدامًا على القتل . يلقى الرجل الرجل فيفرز هامته ، ويأخذها ويتركه . وهم يحلقون لحاهم ، ويأكلون القمل . يتتبع الواحد منهم درز قرطقة (الرُّقع في الثياب) فيقرض القمل بأسنانه . ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم ، وكان يخدمنا فرأيته وجد قملة في ثوبه ، فقصعها بظفره ، ثم لحسها ، وقال لـمّا رآني : «جيد» . وكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل ، ويعلقها عليه . فإذا أراد سفرًا أو لقاء عدو ، قبّلها وسجد لها ، وقال : «يا ربّ افعل بي كذا وكذا» . فقلت للترجمان : «سل بعضهم : ما حجّتهم في هذا؟ ولِمَ جعله ربه؟» . قال : «لأني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقًا غيره» .

ومنهم من يزعم أن له اثني عشر ربًا : للشتاء ربّ ، وللصيف ربّ ، وللمطر ربّ ، وللريح ربّ ، وللشجر ربّ ، وللناس ربّ ، وللدواب ربّ ، وللماء ربّ ، ولليل ربّ ، وللنهار ربّ ، وللموت ربّ ، وللأرض ربّ . والرّب الذي في السماء أكبرهم إلاّ أنه يجتمع مع هؤلاء باتفاق ، ويرضى كل واحد منهم بما يعمل شريكه . تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًا كبيرًا . ورأينا طائفة منهم تعبد الحيّات ، وطائفة تعبد السمك ، وطائفة تعبد الكراكي . فعرّفوني أنهم كانوا يحاربون قومًا من أعدائهم فهزموهم ، وأن الكراكي صاحت وراءهم ففزعوا وانهزموا بعدها

هُزموا ؛ فعبدوا الكراكي لذلك ، وقالوا : «هذه ربنا وهذه فعالاته هزم أعدائنا» ، فهم يعبدونها لذلك .

وسرنا من بلد هؤلاء فعبرنا نهر جرمشان ، ثم نهر أورن ، ثم نهر أورم ، ثم نهر بياناخ ، ثم نهر وتيغ ، ثم نهر نياسنه ، ثم نهر جاوشيز ، وبين النهر والنهر ممّا ذكرنا اليومان والثلاثة والأربعة وأقلّ من ذلك وأكثر . فلمّا كنا من ملك الصقالبة ، وهو الذي قصدنا له على مسيرة يوم وليلة ، وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يده وإخوته وأولاده ، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاورس ، وساروا معنا . فلمّا صرنا منه على فرسخين تلقّانا هو بنفسه ، فلمّا رآنا نزل فخرّ ساجدًا شكرًا لله (جَلّ وعَزّ) ، وكان في كمه دراهم فنثرها علينا ، ونصب لنا قبابًا فنزلناها . وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمئة (١٢آيار/مايو٩٢٢) فكانت المسافة من الجرجانية إلى بلده سبعين يومًا . فأقمنا يوم الأحد ، ويوم الإثنين ، ويوم الثلاثاء ، ويوم الأربعاء في القباب التي ضربت لنا ، حتى جمع الملوك والقوّاد ، وأهل بلده ، ليسمعوا قراءة الكتاب .

فلمّا كان يوم الخميس ، واجتمعوا نشرنا المطردين (الرايتين) اللذين كانا معنا ، وأسرجنا الدابّة بالسرج الموجه إليه ، وألبسناه السواد (شعار العباسيين) وعممناه ، وأخرجتُ كتاب الخليفة ، وقلت له : «لا يجوز أن نجلس ، والكتاب يُقرأ» . فقام على قدميه هو ومن حضر من وجوه أهل مملكته ، وهو رجل بدين بطين جداً . وبدأتُ فقرأت صدر الكتاب ، فلمّا بلغت منه : «سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو» . قلت : «ردَّ على أمير المؤمنين السلام» ، ثم أمرته بالجلوس ، فجلس عند قراءة كتاب نذير الحرمي ، فلمّا استتممته نثر أصحابه عليه الدراهم الكثيرة ، ثم أخرجت الهدايا ، من الطيب ، والثياب ، واللؤلؤ له ولامرأته . فلم أزل أعرض عليه وعليها شيئًا شيئًا حتى فرغنا من ذلك ، ثم خَلِعت على امرأته بحضرة الناس ، وكانت جالسة إلى جنبه . وهذه سنّتهم وزيهم ، فلمّا خَلِعت عليها نثر النساء عليها الدراهم ، وانصرفنا .

فلمّا كان بعد ساعة وَجَّهَ إلينا فدخلنا إليه ، وهو في قبته والملوك عن يمينه ، وأمرنا أن نجلس عن يساره ، وإذا أولاده جلوس بين يديه ، وهو وحده على سرير مغشى بالديباج الرومي ، فدعا بالمائدة فقدِّمت وعليها اللحم المشوي وحده . فابتدأ هو فأخذ سكينًا وقطع لقمة ، وأكلها ، وثانية ، وثالثة ، ثم احتز قطعة دفعها إلى سوسن الرسول ، فلمّا تناولها جاءته مائدة صغيرة ، فجعلت بين يديه ، وكذلك الرسم لا يمدّ أحد يده إلى الأكل حتى يناوله الملك لقمة ، فساعة يتناولها قد جاءته مائدة ، ثم ناولني فجاءتني مائدة ، ثم قطع قطعة وناولها الملك الذي عن يمينه ، فجاءته مائدة ، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة ، ثم ناول الملك الرابع فجاءته مائدة ، ثم ناول أولاده فجاءتهم الموائد . وأكلنا كل واحد من مائدته لا يشركه فيها أحد ، ولا يتناول من مائدة غيره شيئًا ، فإذا فرغ من الطعام حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله .

فلمّا أكلنا دعا بشراب العسل ، وهم يسمونه السجو (نوع من الخمر) ليومه وليلته ، فشرب قدحًا ، ثم قام قائمًا ، فقال : «هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه» . وقام الملوك الأربعة ، وأولاده ، لقيامه ، وقمنا نحن أيضًا ، حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات ثم انصرفنا من عنده . وقد كان يخطب له على منبره قبل قدومي : «اللهمّ ، أصلح الملك يلطوار ملك بلغار» . فقلت أنا له : «إن الله هو الملك ، ولا يسمى على المنبر بهذا الاسم غيره جل وعز ، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضي لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب اللهم أصلح عبدك ، وخليفتك ، جعفر الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين ، وكذا من كان قبله من آبائه الخلفاء . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا تطروني كما أطْرَت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» . فقال لي : «فكيف يجوز أن يخطب لي؟» . قلت : «باسمك ، واسم أبيك» . قال : «إن أبي كان كافرًا ولا أحبّ أن أذكر اسمه على المنبر ، وأنا أيضًا فما أحب أن يذكر اسمي ، إذ كان الذي سمّاني به كافرًا ، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟» . فقلت : «جعفر» . قال : «أفيجوز أن أتسمّى باسمه؟» . قلت : «نعم» . قال : «قد

جعلت اسمي جعفرًا ، واسم أبي عبد الله ، فتقدَّمْ إلى الخطيب بذلك» ، ففعلت ، فكان يخطب له : «اللهمّ ، أصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين» .

ولمّا كان بعد قراءة الكتاب ، وإيصال الهدايا ، بثلاثة أيام ، بعث إليّ ، وقد كان بلغه أمر الأربعة آلاف دينار ، وما كان من حيلة النصراني في تأخيرها ، وكان خبرها في الكتاب ، فلمّا دخلت إليه أمرني بالجلوس ، فجلست ، ورمى إليّ كتاب أمير المؤمنين ، فقال : «من جاء بهذا الكتاب؟» . قلت : «أنا» . ثم رمى إليّ كتاب الوزير ، فقال : «وهذا أيضًا؟» . قلت : «أنا» . قال : «فالمال الذي ذُكر فيهما ما فُعل به؟» . قلت : «تعذّر جمعه ، وضاق الوقت ، وخشينا فوت الدخول ، فتركناه ليلحق بنا» . فقال : «إنما جئتم بأجمعكم ، وأنفق عليكم مولاي ما أنفق لحمل هذا المال إليّ حتى أبني به حصنًا يمنعني من اليهود الذين قد استعبدوني ، فأمّا الهدية فغلامي قد كان يحسن أن يجيء بها» . قلت : «هو كذلك ، إلاّ أنا قد اجتهدنا» . فقال للترجمان : «قل له أنا لا أعرف هؤلاء إنما أعرفك أنت ، وذلك أن هؤلاء قوم عجم ، ولو علم الأستاذ أيده الله أنهم يبلغون ما تبلغ ما بعث بك حتى تحفظ عليّ ، وتقرأ كتابي ، وتسمع جوابي ، ولست أطالب غيرك بدرهم ، فأخرج من المال فهو أصلح لك» .

فانصرفتُ من بين يديه مذعورًا مغمومًا ، وكان رجلاً له منظر وهيبة ، بدين عريض ، كأنما يتكلّم من خابية ، فخرجت من عنده ، وجمعت أصحابي ، وعرّفتهم ما جرى بيني وبينه ، وقلت لهم : «من هذا حذّرتُ» . وكان مؤذّنه يثنّي الإقامة إذا أذّن ، فقلت له : «إن مولاك أمير المؤمنين يفرد في داره الإقامة» . فقال للمؤذّن : «اقبل ما يقوله لك ، ولا تخالفه» . فأقام المؤذّن على ذلك أيامًا ، وهو يسألني عن المال ، ويناظرني فيه ، وأنا أؤيّسه منه ، وأحتجّ فيه . فلمّا يئس منه تقدّم إلى المؤذّن أن يثنّي الإقامة ، ففعل ، وأراد بذلك أن يجعله طريقًا إلى مناظرتي ، فلمّا سمعت تثنيته للإقامة نهيته ، وصحت عليه ، فعرف الملك ، فأحضرني ، وأحضر أصحابي .

فلمّا اجتمعنا ، قال الترجمان : «قل له (يعنيني) : ما يقول في مؤذّنين ، أفرد أحدهما ، وثنّى الآخر ، ثم صلى كل واحد منهما بقوم . أتجوز الصلاة أم لا؟» . قلت : «الصلاة جائزة» . فقال : «باختلاف أم بإجماع؟» . قلت : «بإجماع» . قال : «قل له : فما يقول في رجل دفع إلى قوم مالاً لأقوام ضعفى محاصرين مستعبدين ، فخانوه» . فقلت : «هذا لا يجوز ، وهؤلاء قوم سوء» . قال : «باختلاف أم بإجماع» . قلت : «بإجماع» ، فقال للترجمان : «قل له : تعلّم أن الخليفة-أطال الله بقاءه-لو بعث إليّ جيشًا ، كان يقدر عليّ؟» . قلت : «لا» ، قال : «فأمير خراسان؟» ، قلت : «لا» ، قال : «أليس لبعد المسافة ، وكثرة من بيننا من قبائل الكفار؟» . قلت : «بلى» ، قال : «قل له : فوالله إني لبمكاني البعيد الذي تراني فيه ، وإني لخائف من مولاي أمير المؤمنين ، وذلك أني أخاف أن يبلغه عني شيء يكرهه ، فيدعو عليّ فأهلك بمكاني ، وهو في مملكته ، وبيني وبينه البلدان الشاسعة ، وأنتم تأكلون خبزه ، وتلبسون ثيابه ، وترونه في كل وقت خنتموه في مقدار رسالة بعثكم بها إلى قوم ضعفى ، وخنتم المسلمين ، لا أقبل منكم أمر ديني حتى يجيئني من ينصح لي فيما يقول ، فإذا جاءني إنسان بهذه الصورة قبلت منه» . فألجمنا ، وما أحرنا جوابًا ، وانصرفنا من عنده .

فكان بعد هذا القول يؤثرني ويقرّبني ، ويباعد أصحابي ، ويسميني أبا بكر الصديق . ورأيت في بلده من العجائب ما لا أحصيها كثرة ، من ذلك أن أول ليلة بتناها في بلده رأيت قبل مغيب الشمس بساعة قياسية أفق السماء وقد احمرّت احمرارًا شديدًا ، وسمعت في الجو أصواتًا شديدة ، وهمهمة عالية ، فرفعت رأسي فإذا غيم أحمر مثل النار قريب مني ، وإذا تلك الهمهمة والأصوات منه ، وإذا فيه أمثال الناس والدوابّ ، وإذا في أيدي الأشباح التي فيه تشبه الناس رماح وسيوف أتبيّنها وأتخيّلها ، وإذا قطعة أخرى مثلها أرى فيها أيضًا رجالاً ودوابّ وسلاحًا ، فأقبلت هذه القطعة تحمل على هذه كما تحمل الكتيبة على الكتيبة ، ففزعنا من ذلك ، وأقبلنا على التضرُّع والدعاء . وهم

يضحكون منا ، ويتعجّبون من فعلنا .

وكنا ننظر إلى القطعة تحمل على القطعة فتختلطان جميعًا ساعة ثم تفترقان ، فما زال الأمر كذلك ساعة من الليل ثم غابتا . فسألنا الملك عن ذلك ، فزعم أن أجداده كانوا يقولون إن هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم ، وهم يقتتلون في كل عشية ، وإنهم ما عدموا هذا مذ كانوا في كل ليلة . ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد- قد وقع إلى تلك الناحية-قبّتي لنتحدث ، فتحدثنا بمقدار ما يقرأ إنسان أقل من نصف سبع ، ونحن ننتظر أذان العتمة ، فإذا بالأذان ، فخرجنا من القبة ، وقد طلع الفجر ، فقلت للمؤذن : «أي شيء أذنت؟» قال : «أذان الفجر» . قلت : «فالعشاء الآخرة؟» . قال : «نصليها مع المغرب» . قلت : «فالليل؟» قال : «كما ترى ، وقد كان أقصر من هذا إلاّ أنه قد أخذ في الطول» . وذكر أنه منذ شهر ما نام خوفًا أن تفوته صلاة الغداة ، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار وقت المغرب ، ثم يصلّي الغداة ، وما آن لها أن تنضج .

ورأيت النهار عندهم طويلاً جداً ، وإذا أنه يطول عندهم مدة من السنة ويقصر الليل ، ثم يطول الليل ويقصر النهار ، فلمّا كانت الليلة الثانية جلست خارج القبة وراقبت السماء ، فلم أرَ من الكواكب إلاّ عددًا يسيرًا ظننت أنه نحو الخمسة عشر كوكبًا متفرقة ، وإذا الشفق الأحمر الذي قبل المغرب لا يغيب بتّة ، وإذا الليل قليل الظلمة ، يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم . ورأيت القمر لا يتوسط السماء بل يطلع في أرجائها ساعة ، ثم يطلع الفجر فيغيب القمر . وحدثني الملك أن وراء بلده ، بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم ويسو (يرجح أنهم سكّان روسيا البيضاء) ، الليل عندهم أقلّ من ساعة .

ورأيت البلد عند طلوع الشمس يحمرّ كل شيء فيه من الأرض والجبال وكل شيء ينظر الإنسان إليه حين تطلع الشمس كأنها غمامة كبرى ، فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء . وعرّفني أهل البلد أنه إذا كان الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل حتى إن الرجل منا ليخرج إلى

موضع يقال له إتل (لا يقصد بها هنا نهر الفولغا ، إنما مدينة فولغاغراد) بيننا وبينه أقلّ من مسيرة فرسخ وقت طلوع الفجر فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها حتى تطبق السماء ، فما برحنا من البلد حتى امتد الليل وقصر النهار . ورأيتهم يتبركون بعواء الكلاب جداً ، ويفرحون به ، ويقولون سنة خصب وبركة وسلامة . ورأيت الحيّات عندهم كثيرة حتى أن الغصن من الشجرة لتلتف عليه العشرة منها والأكثر ، ولا يقتلونها ، ولا تؤذيهم ، حتى لقد رأيت ، في بعض المواضع ، شجرة طويلة يكون طولها أكثر من مئة ذراع ، وقد سقطت وإذا بدنها عظيم جداً ، فوقفت أنظر إليه ، إذ تحرك ، فراعني ذلك ، وتأملته ، فإذا عليه حية قريبة منه في الغلظ والطول ، فلمّا رأتني سقطت عنه ، وغابت بين الشجر ، فجئت فزعًا ، فحدّثت الملك ومن كان في مجلسه ، فلم يكترثوا لذلك ، وقال : «لا تجزع ، فليس تؤذيك» .

ونزلنا مع الملك منزلا ، فدخلت أنا وأصحابي : تكين ، وسوسن ، وبارس ، ومعنا رجل من أصحاب الملك بين الشجر ، فرأينا عودًا صغيرًا أخضرَ كرقّة المغزل وأطول ، فيه عرق أخضر ، على رأس العرق ورقة عريضة مبسوطة على الأرض ، مفروش عليها مثل النابت فيها حب ، ولا يشك من يأكله أنه رمان أمليسي (لا نواة لحبّاته) فأكلنا منه ، فإذا به من اللذّة أمر عظيم ، فما زلنا نتبعه ونأكله . ورأيت لهم تفاحًا أخضر شديد الخضرة ، وأشدّ حموضة من خل الخمر ، وتأكله الجواري فيسمنّ عليه . ولم أرَ في بلدهم أكثر من شجر البندق . لقد رأيت منه غياضًا تكون الغيضة أربعين فرسخًا في مثلها . ورأيت لهم شجرًا لا أدري ما هو ، مفرط الطول وساقه أجرد من الورق ، ورؤوسه كرؤوس النخل ، له خوص دقاق إلاّ أنه مجتمع يجيئون إلى موضع يعرفونه من ساقه ، فيثقبونه ، ويجعلون تحته إناءً ، فتجري إليه ، من ذلك الثقب ، ماء أطيب من العسل ، إن أكثر الإنسان منه أسكره كما يسكر الخمر .

وأكثر أكلهم الجاورس ولحم الدابة على أن الحنطة والشعير كثير ، وكل من زرع شيئًا أخذه لنفسه ليس للملك فيه حقّ ، غير أنهم يؤدون إليه في كل سنة

من كل بيت جلد سمور ، وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان فغنمت كان له معهم حصّة ، ولا بدَّ لكل من يعترس أو يدعو دعوة ، من زلّة (العرس) للملك على قدر الوليمة ، وساخرخ (كمية) من نبيذ العسل ، وحنطة رديّة لأن أرضهم سوداء منتنة . وليس لهم مواضع يجمعون فيها طعامهم ، ولكنهم يحفرون في الأرض آبارًا ، ويجعلون الطعام فيها ، فليس يمضي عليه إلاّ أيام يسيرة حتى يتغير ، ويريّح فلا ينتفع به . وليس لهم زيت ولا شيرج (زيت السمسم) ولا دهن بتة ، وإنما يقيمون مقام هذه الأدهان دهن السمك . فكل شيء يستعملونه فيه يكون زفرًا ، ويعملون من الشعير حساءً ، يُحسونه الجواري والغلمان ، وربما طبخوا الشعير باللحم ، فأكل الموالي اللحم وأطعموا الجواري الشعير إلاّ أن يكون رأس تيس ، فيُطعَم من اللحم .

وكلهم يلبسون القلانس ، فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ، ولا أحد يكون معه ، فإذا اجتاز في السوق لم يبقَ أحد إلاّ قام وأخذ قلنسوته عن رأسه فجعلها تحت إبطه ، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم إلى رؤوسهم ، وكذلك كل من يدخل إلى الملك من صغير وكبير ، حتى أولاده وإخوته ساعة ينظرون إليه قد أخذوا قلانسهم فجعلوها تحت آباطهم ، ثم أومَوا إليه برؤوسهم وجلسوا ، ثم قاموا حتى يأمرهم بالجلوس . وكل من يجلس بين يديه فإنما يجلس باركًا ولا يخرج قلنسوته ولا يظهرها حتى يخرج من بين يديه فيلبسها عند ذلك . وكلهم في قباب إلاّ أن قبة الملك كبيرة جدًا ، تسع ألف نفس وأكثر ، مفروشة بالفرش الأرمني ، وله في وسطها سرير مغشى بالديباج الرومي . ومن رسومهم أنه إذا ولد لابن الرجل مولود أخذه جده دون أبيه ، وقال : «أنا أحقّ به من أبيه في حضنه» . حتى يصير رجلاً ، وإذا مات منهم الرجل ورثه أخوه دون ولده ، فعرّفت الملك أن هذا غير جائز ، وعرّفته كيف المواريث حتى فهمها .

وما رأيت أكثر من الصواعق في بلدهم ، وإذا وقعت الصاعقة على بيت لم يقربوه ويتركونه على حالته ، وجميع من فيه من رجل ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمان ، ويقولون هذا بيت مغضوب عليهم . وإذا قتل الرجل منهم الرجل

عمدًا أقادوه به (قتلوه قصاصًا) ، وإذا قتله خطأً صنعوا له صندوقًا من خشب الخدنك ، وجعلوه في جوفه وسمّروه عليه وجعلوا معه ثلاثة أرغفة وكوز ماء ، ونصبوا له ثلاث خشبات مثل الشبائح وعلّقوه بينها ، وقالوا : نجعله بين السماء والأرض يصيبه المطر والشمس ، لعل الله أن يرحمه . فلا يزال معلقًا حتى يبليه الزمان وتهب به الرياح ، وإذا رأوا إنسانًا له حركة ومعرفة بالأشياء قالوا : «هذا حقّه أن يخدم ربنا» ، فأخذوه وجعلوا في عنقه حبلاً ، وعلقوه في شجرة حتى يتقطّع .

ولقد حدّثني ترجمان الملك أن سنديًا سقط إلى ذلك البلد ، فأقام عند الملك برهة من الزمان يخدمه ، وكان خفيفًا فهمًا ، فأراد جماعة منهم الخروج معهم فنهاه عن ذلك ، فاستأذن السندي الملك في الخروج معهم ، فنهاه عن ذلك ، وألحّ عليه حتى أذن له فخرج معهم في سفينة ، فرأوه حركًا كيِّسًا ، فتآمروا بينهم وقالوا : «هذا يصلح لخدمة ربنا ، فنوجه به إليه» ، واجتازوا في طريقهم بغيضة ، فأخرجوه إليها ، وجعلوا في عنقه حبلاً ، وشدّوه في رأس شجرة عالية ، وتركوه ومضَوا . وإذا كانوا يسيرون في طريق فأراد أحدهم البول ، فبالَ ، وعليه سلاحه ، انتهبوه ، وأخذوا سلاحه وثيابه ، وجميع ما معه ؛ وهذا رسم لهم ، ومن حطّ عنه سلاحه وجعله ناحية ، وبالَ ، لم يعرضوا له .

وينزل الرجال والنساء إلى النهر فيغتسلون جميعًا عراة ، لا يستتر بعضهم من بعض ، ولا يزنون بوجه ولا سبب ، ومن زنى منهم كائنًا من كان ضربوا له أربع سكك ، وشدّوا يديه ورجليه إليها ، وقطعوا بالفأس من رقبته إلى فخذيه ، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضًا ، ثم يُعَلَّق كل قطعة منه ومنها على شجرة . وما زلت أجتهد أن يستتر النساء من الرجال في السباحة ، فما استوى لي ذلك ، ويقتلون السارق كما يقتلون الزاني . وفي غياضهم عسل كثير في مساكن النحل يعرفونها فيخرجون لطلب ذلك ، فربما وقع عليهم قوم من أعدائهم فقتلوهم . وفيهم تجار كثير يخرجون إلى أرض الترك فيجلبون الغنم ، وإلى بلد يقال له ويسو ، فيجلبون السمور والثعلب الأسوَد .

ورأينا فيهم أهل بيت يكونون خمسة الآف نفس من امرأة ورجل ، قد أسلموا كلهم يعرفون بالبرنجار (يُرَجّح أنهم المنغول) وقد بنَوا لهم مسجدًا من خشب يصلون فيه ، ولا يعرفون القراءة ، فعلمت جماعة ما يصلّون به . ولقد أسلم على يدي رجل يقال له : «طالوت» . فأسميته : «عبد الله» ، فقال : «أريد أن تسميني باسمك محمدًا» . ففعلت ، وأسلمت امرأته وأمه وأولاده ، فسمّوا كلهم : «محمدا» . وعلمته : «الحمد لله» ، و«قل هو الله أحد» ، فكان فرحه بهاتين السورتين أكثر من فرحه إن صار ملك الصقالبة . وكنا لمّا وافينا الملك وجدناه نازلاً على ماء يقال له خلجة ، وهي ثلاث بحيرات ، منها اثنتان كبيرتان وواحدة صغيرة إلاّ أنه ليس في جميعها شيء يلحق غوره . وبين هذا الموضع وبين نهر لهم عظيم يصبّ إلى بلاد الخزر ، يقال له نهر إتل (الفولغا) نحو الفرسخ . وعلى هذا النهر موضع سوق تقوم في كل مديدة ، ويباع فيها المتاع الكثير النفيس .

وكان تكين حدثني أن في بلد الملك رجلاً عظيم الخلق جداً ، فلمّا صرت إلى البلد سألت الملك عنه فقال : «نعم قد كان في بلدنا ، ومات ولم يكن من أهل البلد ولا من الناس أيضًا ، وكان من خبره أن قومًا من التجّار خرجوا إلى نهر إتل ، وهو نهر بيننا وبينه يوم واحد كما يخرجون ، وهذا النهر قد مدّ وطغى ماؤه فلم أشعر يومًا إلاّ وقد وافاني جماعة من التجار ، فقالوا : أيّها الملك قد قفا على الماء رجل إن كان من أمّة تقرب منا ، فلا مقام لنا في هذه الديار ، وليس لنا غير التحويل .

فركبت معهم حتى صرت إلى النهر ، فإذا أنا بالرجل ، وإذا هو بذراعي اثنا عشر ذراعًا ، وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القدور ، وأنف أكثر من شبر ، وعينان عظيمتان ، وأصابع تكون أكثر من شبر شبر . فراعني أمره ، وداخلني ما داخل القوم من الفزع ، وأقبلنا نكلِّمه ولا يكلمنا بل ينظر إلينا . فحملته إلى مكاني ، وكتبت إلى أهل ويسو ، وهم منا على ثلاثة أشهر أسألهم عنه ، فكتبوا إليّ يعرفونني أن هذا الرجل من يأجوج ومأجوج ، وهم منا على ثلاثة أشهر ، عراة ، يحول بيننا وبينهم البحر لأنهم على شطّه ، وهم مثل البهائم ينكح

بعضهم بعضًا ، يخرج الله ، عز وجل ، لهم كل يوم سمكة من البحر فيجيء الواحد منهم ومعه المدية فيجز منها قدر ما يكفيه ويكفي عياله ، فإن أخذ فوق ما يقنعه اشتكى بطنه ، وكذلك عياله يشتكون بطونهم ، وربما مات وماتوا بأسرهم ، فإذا أخذوا منها حاجتهم انقلبت ووقعت في البحر ، فهم في كل يوم على ذلك . وبيننا وبينهم البحر من جانب والجبال محيطة بهم من جوانب أخر ، والسد أيضًا قد حال بينهم وبين الباب الذي كانوا يخرجون منه . فإذا أراد الله ، عز وجل ، أن يخرجهم إلى العمارات سبّب لهم فتح السد ، ونضب البحر ، وانقطع عنهم السمك» .

فسألته عن الرجل ، فقال : «أقام عندي مدة فلم يكن ينظر إليه صبي إلاّ مات ولا حامل إلاّ طرحت حملها ، وكان إن تمكّن من إنسان عصره بيديه حتى يقتله ، فلمّا رأيت ذلك علقته في شجرة عالية حتى مات . إن أردت أن تنظر إلى عظامه ورأسه مضيت معك حتى تنظر إليها» . فقلت : «أنا والله أحب ذاك» . فركب معي إلى غيضة كبيرة فيها شجر عظام ، فتقدمني إلى شجرة سقطت عظامه ورأسه تحتها ، فرأيت رأسه مثل القفير الكبير ، وإذا أضلاعه أكبر من عراجين النخل ، وكذلك عظام ساقيه وذراعيه ، فتعجبت منه ، وانصرفت . وارتحل الملك من الماء الذي يسمّى خلجة إلى نهر يقال له جاوشيز ، فأقام به شهرين ، ثم أراد الرحيل فبعث إلى قوم يقال لهم سواز ، يأمرهم بالرحيل معه ، فأبَوا عليه ، وافترقوا فرقتين ، فرقة مع ختنه ، وكان قد تملّك عليهم ، واسمه ويرغ ، فبعث إليهم الملك ، وقال : «إن الله ، عَزّ وجَلّ ، قد منّ عليّ بالإسلام ، وبدولة أمير المؤمنين ، فأنا عبده ، وهذه الأمة قد قلّدتني ، فمن خالفني لقيته بالسيف» . وكانت الفرقة الأخرى مع ملك من قبيلة يعرف بملك أسكل ، وكان في طاعته إلاّ أنه لم يكن داخلاً في الإسلام .

فلمّا وجّه إليهم هذه الرسالة خافوا ناحيته ، فرحلوا بأجمعهم معه إلى نهر جاوشيز ، وهو نهر قليل العرض يكون عرضه خمسة أذرع ، وماؤه إلى السرة ، وفيه مواضع إلى الترقوة ، وأكثره قامة وحوله شجر كثير من الشجر الخدنك

وغيره ، وبالقرب منه صحراء واسعة ، يذكرون أن بها حيوانًا دون الجمل في الكبَر وفوق الثور ، رأسه رأس جمل وذنبه ذنب ثور ، وبدنه بدن بغل وحوافره مثل أظلاف الثور ، له في وسط رأسه قرن واحد غليظ مستدير ، كلما ارتفع دقّ حتى يصير مثل سنان الرمح ، فمنه ما يكون طوله خمسة أذرع إلى ثلاثة أذرع إلى أكثر وأقل ، يرتعي ورق الشجر جيد الخضرة ، إذا رأى الفارس قصده ، فإن كان تحته جواد أمن منه بجهد ، وإن لحقه أخذه من ظهر دابته بقرنه ثم زجّ به في الهواء ، واستقبله بقرنه ، فلا يزال كذلك حتى يقتله ، ولا يعرض للدابة بوجه ولا سبب . وهم يطلبونه في الصحراء والغياض حتى يقتلوه . وذلك أنهم يصعدون الشجر العالية التي يكون بينها ، ويجتمع لذلك عدة من الرماة بالسهام المسمومة ، فإذا توسّطهم رمَوه حتى يثخنوه ويقتلوه . ولقد رأيت عند الملك ثلاث طيفوريات (أطباق عميقة) كبار ، تشبه الجزع اليماني ، عرَّفني أنها معمولة من أصل قرن هذا الحيوان ، وذكر بعض أهل البلد أنه الكركدن .

وما رأيت منهم إنسانًا يحمر بل أكثرهم معلول ، وربما يموت أكثرهم بالقولنج حتى إنه ليكون بالطفل الرضيع منهم ، وإذا مات المسلم عندهم أو زوج المرأة الخوارزمية غسلوه غسل المسلمين ثم حملوه على عجلة تجره وبين يديه مطرد حتى يصيروا به إلى المكان الذي يدفنونه فيه ، فإذا صار إليه أخذوه عن العجلة وجعلوه على الأرض ثم خطّوا حوله خطًا ونحوه ، ثم حفروا داخل ذلك الخط قبره وجعلوا له لحدًا ودفنوه ، وكذلك يفعلون بموتاهم . ولا تبكي النساء على الميت بل الرجال منهم يبكون عليه يجيئون في اليوم الذي مات ، فيقفون على باب قبته ، فيضجون بأقبح بكاء يكون وأوحشه . هؤلاء للأحرار فإذا انقضى بكاؤهم وافى العبيد ومعهم جلود مضفورة فلا يزالون يبكون ويضربون جنوبهم وما ظهر من أبدانهم بتلك السيور حتى تصير في أجسادهم مثل ضرب السوط ، ولا بدَّ من أن ينصبوا بباب قبّته مطردًا ، ويحضروا سلاحه ، فيجعلونها حول قبره ولا يقطعون البكاء سنتين . فإذا انقضت السنتان حطّوا المطرد ، وأخذوا من شعورهم ودعا أقرباء الميت دعوة يعرف بها خروجهم من الحزن وإن كانت له

زوجة تزوّجت ، هذا إذا كان من الرؤساء فأمّا العامّة فيفعلون بعض هذا بموتاهم .
وعلى ملك الصقالبة ضريبة يؤديها إلى ملك الخزر من كل بيت في مملكته جلد سمور ، وإذا قدمت السفينة من بلد الخزر إلى بلد الصقالبة ركب الملك فأحصى ما فيها وأخذ من جميع العشر ، وإذا قدم الروس أو غيرهم من سائر الأجناس برقيق ، فللملك أن يختار من كل عشرة أرؤس رأسًا . وابن ملك الصقالبة رهينة عند ملك الخزر ، وقد كان اتصل بملك الخزر عن ابنة ملك الصقالبة جمال ، فوجه يخطبها ، فاحتج عليه وردّه ، فبعث وأخذها غصبًا ، وهو يهودي وهي مسلمة ، فماتت عنده ، فوجّه يطلب بنتًا له أخرى ، فساعة اتصل ذلك بملك الصقالبة بادر ، فزوّجها لملك أسكل ، وهو من تحت يده خيفة أن يغتصبه إياها ، كما فعل بأختها ، وإنما دعا ملك الصقالبة أن يكاتب السلطان ، ويسأله أن يبني له حصنًا خوفًا من ملك الخزر . وسألته يومًا ، فقلت له : «مملكتك واسعة ، وأموالك جمّة ، وخراجك كثير ، فلم سألت السلطان أن يبني حصنًا بمال من عنده لا مقدار له؟» . فقال : «رأيت دولة الإسلام مقبلة وأموالهم يؤخذ من حلها ، فالتمست ذلك لهذه العلة ، ولو أني أردت أن أبني حصنًا من أموالي من فضة أو ذهب لما تعذّر ذلك علي ، وإنما تبرّكت بمال أمير المؤمنين فسألته ذلك» .

ورأيت الروسية (الروس) وقد وافَوا في تجارتهم ، ونزلوا على نهر إتل ، فلم أرَ أتمّ أبدانا منهم كأنهم النخل ، شقر ، حمر ، لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين ، ولكن يلبس الرجل منهم كساءً يشتمل به على أحد شقّيه ، ويخرج إحدى يديه منه ، ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكّين لا يفارقه جميع ما ذكرنا ، وسيوفهم صفائح مشطبة أفرنجية . ومن حدّ ظفر الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك . وكل امرأة منهم فعلى ثديها حقة مشدودة إمّا من حديد وإمّا من فضة وإمّا من نحاس وإمّا من ذهب على قدر مال زوجها ومقداره . وفي كل حقة حلقة فيها سكين مشدودة على الثدي أيضًا ، وفي أعناقهن أطواق من ذهب وفضة ، لأن الرجل إذا ملك عشرة آلاف درهم صاغ لامرأته طوقًا ، وإن

ملك عشرين ألفًا صاغ لها طوقين، وكذلك، كلّ عشرة آلاف يزداد طوقًا لامرأته، فربما كان في عنق الواحدة منهن الأطواق الكثيرة. وأجلّ الحلي عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبالغون فيه، ويشترون الخرزة بدرهم، وينظمونه عقودًا لنسائهم.

وهم أقذر خلق الله لا يستنجون من غائط ولا بول، ولا يغتسلون من جنابة، ولا يغسلون أيديهم من الطعام، بل هم كالحمير الضالة، يجيئون من بلدهم، فيرسون سفنهم بإتل، وهو نهر كبير، ويبنون على شطه بيوتًا كبارًا من الخشب. ويجتمع في البيت الواحدُ، والعشرة، والعشرون، والأقل والأكثر، ولكل واحد سرير يجلس عليه، ومعهم الجواري الروقة (الغواني) للتجار، فينكح الواحد جاريته، ورفيقه ينظر إليه، وربما اجتمعت الجماعة منهم على هذه الحال، بعضهم بحذاء بعض. وربما يدخل التاجر عليهم ليشتري من بعضهم جارية، فيصادفه ينكحها، فلا يزول عنها حتى يقضي أربه.

ولا بدّ لهم، في كل يوم، من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه، وذلك أن الجارية توافي كل يوم بالغداة، ومعها قصعة كبيرة فيها ماء، فتدفعها إلى مولاها، فيغسل فيها يديه، ووجهه، وشعر رأسه، فيغسله، ويسرحه بالمشط في القصعة، ثم يمتخط ويبصق فيها، ولا يدع شيئًا من القذر إلاّ فعله في ذلك الماء، فإذا فرغ ممّا يحتاج إليه حملت الجارية القصعة إلى الذي إلى جانبه ففعل مثل فعل صاحبه، ولا تزال ترفعها من واحد إلى واحد حتى تديرها على جميع من في البيت، وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها، ويغسل وجهه وشعره فيها.

وساعة توافي سفنهم إلى هذا المرسى، يخرج كل واحد منهم ومعه خبز ولحم وبصل ولبن ونبيذ، حتى يوافي خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه وجه الإنسان، وحولها صور صغار، وخلف تلك الصور خشب طوال قد نصبت في الأرض، فيوافي إلى الصورة الكبيرة، ويسجد لها ثم يقول لها: «يا رب قد جئت من بلد بعيد، ومعي من الجواري كذا وكذا رأسًا، ومن السمور كذا وكذا

جلدًا» . حتى يذكر جميع ما قدم معه من تجارته ، ثم يقول : «وجئتك بهذه الهدية» ، ثم يترك الذي معه بين يدي الخشبة ويقول : «أريد أن ترزقني تاجرًا معه دنانير ودراهم كثيرة ، فيشتري مني كل ما أريد ، ولا يخالفني فيما أقول» . ثم ينصرف . فإن تعسر عليه بيعه وطالت أيامه عاد بهدية ثانية وثالثة ، فإن تعذر ما يريد حمَل إلى كل صورة من تلك الصور الصغار هدية ، وسألها الشفاعة وقال : «هؤلاء نساء ربنا وبناته وبنوه» . فلا يزال يطلب إلى صورة يسألها ، ويستشفع بها ، ويتضرّع بين يديها ، فربما تسهّل له البيع ، فباع ، فيقول : «قد قضى ربي حاجتي ، وأحتاج أن أكافيه» . فيعمد إلى عدة من الغنم أو البقر فيقتلها ، ويتصدق ببعض اللحم ، ويحمل الباقي فيطرحه بين يدي تلك الخشبة الكبيرة والصغار التي حولها ، ويعلّق رؤوس البقر أو الغنم على ذلك الخشب المنصوب في الأرض ، فإذا كان الليل وافت الكلاب فأكلت جميع ذلك ، فيقول الذي فعله : «قد رضي ربي عني ، وأكل هديَّتي» .

وإذا مرض منهم الواحد ضربوا له خيمة ناحية عنهم ، وطرحوه فيها ، وجعلوا معه شيئًا من الخبز والماء ، ولا يقربونه ، ولا يكلمونه ، بل لا يتعاهدونه في كل أيام مرضه ، لا سيما إن كان ضعيفًا أو مملوكًا ، فإن برئ وقام رجع إليهم ، وإن مات أحرقوه . فإن كان مملوكًا تركوه على حاله تأكله الكلاب وجوارح الطير . وإذا أصابوا سارقًا أو لصًا جاؤوا به إلى شجرة غليظة ، وشدوا في عنقه حبلاً وثيقًا وعلقوه فيها ، ويبقى معلَّقًا حتى يتقطع من المكث بالرياح والأمطار . وكان يقال لي إنهم يفعلون برؤوسهم ، عند الموت ، أمورًا أقلها الحرق ، فكنت أحب أن أقف على ذلك حتى بلغني موت رجل منهم جليل ، فجعلوه في قبره وسقفوا عليه عشرة أيام حتى فرغوا من قطع ثيابه وخياطتها . وذلك أن الرجل الفقير منهم يعملون له سفينة صغيرة ويجعلونه فيها ويحرقونها ، والغني يجمعون ماله ويجعلونه ثلاثة أثلاث : فثلث لأهله ، وثلث يقطعون له به ثيابًا ، وثلث ينبذون به نبيذًا يشربونه يوم تقتل جاريته نفسها ، وتُحرَق مع مولاها .

وهم مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلاً ونهارًا ، وربما مات الواحد منهم والقدح

في يده ، وإذا مات الرئيس منهم قال أهله لجواريه وغلمانه : «من منكم يموت معه؟» . فيقول بعضهم : «أنا» . فإذا قال ذلك فقد وجب عليه لا يستوي له أن يرجع أبدًا ، ولو أراد ذلك ما تُرك ، وأكثر من يفعل هذا الجواري . فلمّا مات ذلك الرجل الذي قدمت ذكره ، قالوا لجواريه : «من يموت معه؟» . فقالت إحداهن : «أنا» . فوكلوا بها جاريتين تحفظانها ، وتكونان معها حيث سلكت حتى إنهما -ربما- غسلتا رجليها بأيديهما ، وأخذوا في شأنه وقطع الثياب له وإصلاح ما يحتاج إليه ، والجارية ، في كل يوم ، تشرب وتغني فرحة مستبشرة .

فلمّا كان اليوم الذي يحرق فيه هو والجارية حضرتُ إلى النهر الذي فيه سفينته ، فإذا هي قد أخرجت وجعل لها أربعة أركان من خشب الخدنك وغيره ، وجعل أيضًا حولها مثل الأنابير الكبار من الخشب ، ثم مدت حتى جعلت على ذلك الخشب ، وأقبلوا يذهبون ويجيئون ويتكلمون بكلام لا يفهم ، وهو بعد في قبره لم يخرجوه . ثم جاؤوا بسرير فجعلوه على السفينة وغشّوه بالمضربات الديباج الرومي والمساند الديباج الرومي ، ثم جاءت امرأة عجوز يقولون لها : «ملك الموت» ، ففرشت على السرير الفرش التي ذكرنا ، وهي وليتْ خياطته وإصلاحه ، وهي تقتل الجواري ، ورأيتها جوان بيرة (العجوز الشمطاء) ضخمة مكفهرّة ، فلمّا وافَوا قبره نحُّوا التراب عن الخشب ، ونحّوا الخشب ، واستخرجوه في الإزار الذي مات فيه ، فرأيته قد اسودّ لبرد البلد ، وقد كانوا جعلوا معه في قبره نبيذًا وفاكهة وطنبورًا ، فأخرجوا جميع ذلك فإذا هو لم ينتن ، ولم يتغيّر منه شيء غير لونه ، فألبسوه سراويل ورانًا وخفًا وقرطقًا وخفتان ديباج له أزرار ذهب ، وجعلوا على رأسه قلنسوة ديباج سمورية ، وحملوه حتى أدخلوه القبّة التي على السفينة ، وأجلسوه على المضربة ، وأسندوه بالمساند ، وجاؤوا بالنبيذ والفاكهة والريحان فجعلوه معه .

وجاؤوا بخبز ولحم وبصل فطرحوه بين يديه ، وجاؤوا بكلب فقطعوه نصفين وألقوه في السفينة ، ثم جاؤوا بجميع سلاحه فجعلوه إلى جانبه ، ثم أخذوا دابّتين فأجروهما حتى غرقتا ، ثم قطعوهما بالسيف وألقَوا لحمهما في السفينة .

ثم جاؤوا ببقرتين فقطّعوهما أيضًا وألقوهما فيها ، ثم أحضروا ديكًا ودجاجة فقتلوهما وطرحوهما فيها ، والجارية التي تريد أن تقتل ذاهبة وجائية ، تدخل قبة قبة من قبابهم ، فيجامعها صاحب القبة ، ويقول لها : «قولي لمولاك إنما فعلت هذا من محبتك» .

فلمّا كان وقت العصر من يوم الجمعة جاؤوا بالجارية إلى شيء قد عملوه مثل ملبن الباب ، فوضعت رجليها على أكف الرجال ، وأشرفت على ذلك الملبن ، وتكلمت بكلام لها ، فأنزلوها ثم أصعدوها ثانية ففعلت كفعلها في المرة الأولى ، ثم أنزلوها وأصعدوها ثالثة ففعلت فعلها في المرتين ، ثم دفعوا إليها دجاجة فقطعت رأسها ، ورمت به ، وأخذوا الدجاجة فألقوها في السفينة . فسألتُ الترجمان عن فعلها فقال : «قالت في أول مرة أصعدوها : هو ذا أرى أبي وأمي ، وقالت في الثانية هو ذا أرى جميع قرابتي الموتى قعودًا ، وقالت في المرة الثالثة : هو ذا أرى مولاي قاعدًا في الجنة ، والجنة حسنة خضراء ، ومعه الرجال والغلمان ، وهو يدعوني فاذهبوا بي إليه» ، فمرّوا بها نحو السفينة ، فنزعت سوارين كانا عليها ، ودفعتهما إلى المرأة التي تسمى : «ملك الموت» . وهي التي تقتلها ، ونزعت خلخالين كانا عليها ، ودفعتهما إلى الجاريتين اللتين كانتا تخدمانها ، وهما ابنتا المرأة المعروفة بملك الموت ، ثم أصعدوها إلى السفينة ، ولم يدخلوها إلى القبة ، وجاء الرجال ومعهم التراس والخشب ودفعوا إليها قدحًا نبيذًا ، فغنّت عليه وشربته .

فقال لي الترجمان : إنها تودِّع صواحباتها بذلك ، ثم دُفع إليها قدح آخر فأخذته ، وطوّلت الغناء والعجوز تستحثها على شربه ، والدخول إلى القبة التي فيها مولاها . فرأيتها وقد تبلّدتْ ، وأرادت دخول القبّة ، فأدخلت رأسها بينها وبين السفينة ، فأخذت العجوز رأسها وأدخلتها القبة ودخلت معها ، وأخذ الرجال يضربون بالخشب على التراس لئلا يسمع صوت صياحها ، فيجزع غيرها من الجواري ولا يطلبن الموت مع مواليهن ثم دخل إلى القبة ستة رجال ، فجامعوا بأسرهم الجارية ، ثم أضجعوها إلى جانب مولاها ، وأمسك اثنان

رجليها واثنان يديها ، وجعلت العجوز التي تسمى : «ملك الموت» في عنقها حبلاً مخالفًا ، ودفعته إلى اثنين ليجذباه ، وأقبلت ، ومعها خنجر عريض النصل ، فأقبلت تدخله بين أضلاعها موضعًا موضعًا وتخرجه ، والرجلان يخنقانها بالحبل ، حتى ماتت .

ثم وافى أقرب الناس إلى ذلك الميت ، فأخذ خشبة ، وأشعلها بالنار ، ثم مشى القهقرى نحو قفاه إلى السفينة ، ووجهه إلى الناس ، والخشبة المشعلة في يده الواحدة ، ويده الأخرى على باب استه ، وهو عريان حتى أحرق الخشب المعبأ الذي تحت السفينة ، من بعدما وضعوا الجارية التي قتلوها في جنب مولاها . ثم وافى الناس بالخشب والحطب ، ومع كل واحد خشبة ، قد ألهب رأسها ، فيلقيها في ذلك الخشب ، فتأخذ النار في الحطب ، ثم في السفينة ، ثم في القبة ، والرجل والجارية ، وجميع ما فيها ، ثم هبت ريح عظيمة هائلة ، فاشتد لهب النار ، واضطرم تسعُّرها .

وكان إلى جانبي رجل من الروسية فسمعته يكلِّم الترجمان الذي معي ، فسألته عمّا قال له ، فقال إنه يقول : «أنتم يا معاشر العرب حمقى» . فقلت : «لم ذلك؟» قال : «إنكم تعمدون إلى أحبّ الناس إليكم ، وأكرمهم عليكم ، فتطرحونه في التراب ، وتأكله التراب والهوام والدود ، ونحن نحرقه بالنار في لحظة ، فيدخل الجنة من وقته وساعته» ، ثم ضحك ضحكًا مفرطًا ، فسألت عن ذلك ، فقال : «من محبّة ربّه له قد بعث الريح حتى تأخذه في ساعة» . فما مضت على الحقيقة ساعة حتى صارت السفينة والحطب والجارية والمولى رمادًا مددًا ، ثم بنَوا على موضع السفينة وكانوا قد أخرجوها من النهر شبيهًا بالتل المدور ونصبوا في وسطه خشبة كبيرة خدنك ، وكتبوا عليها اسم الرجل ، واسم ملك الروس ، وانصرفوا .

ومن رسم ملك الروس أن يكون معه في قصره أربعمئة رجل من صناديد أصحابه وأهلِ الثقة عنده ، فهم يموتون بموته ويقتَلون دونه ، ومع كل واحد منهم جارية تخدمه وتغسل رأسه وتصنع له ما يأكل ويشرب ، وجارية أخرى يطؤها ،

وهؤلاء الأربعمئة يجلسون تحت سريره ، وسريره عظيم مرصع بنفيس الجوهر ، ويجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشه ، وربما وطئ الواحدة منهن بحضرة أصحابه الذين ذكرنا ، ولا ينزل عن سريره ، فإذا أراد قضاء حاجة قضاها في طشت ، وإذا أراد الركوب قدموا دابته إلى السرير فركبها منه ، وإذا أراد النزول قدم دابّته حتى يكون نزوله عليه ، وله خليفة يسوس الجيوش ، ويواقع الأعداء ، ويخلفه في رعيته .

فأمّا ملك الخزر ، واسمه خاقان ، فإنه لا يظهر إلاّ في كل أربعة أشهر متنزه ، ويقال له خاقان الكبير ، ويقال لخليفته خاقان به ، وهو الذي يقود الجيوش ويسوسها ، ويدبر أمر المملكة ، ويقوم بها ، ويظهر ، ويغزو ، وله تذعن الملوك الذين يصاقبونه ، ويدخل ، في كل يوم ، إلى خاقان الأكبر متواضعًا ، يظهر الإخبات والسكينة ، ولا يدخل عليه إلاّ حافيًا وبيده حطب ، فإذا سلم عليه أوقد بين يديه ذلك الحطب ، فإذا فرغ من الوقود جلس مع الملك على سريره عن يمينه ، ويخلفه رجل يقال له كندر خاقان ، ويخلف هذا أيضًا رجل يقال له جاوشيغر .

ورسم الملك الأكبر أن لا يجلس للناس ولا يكلمهم ولا يدخل عليه أحد غير من ذكرنا ، والولايات في الحل والعقد والعقوبات وتدبير المملكة على خليفته خاقان به . ورسم الملك الأكبر إذا مات أن يُبنى له دار كبيرة فيها عشرون بيتًا ويحفر له في كل بيت منها قبر ، وتكسر الحجارة حتى تصير مثل الكحل ، وتفرش فيه ، وتطرح النورة فوق ذلك وتحت الدار نهر والنهر نهر ، كبير يجري ، ويجعلون القبر فوق ذلك النهر ويقولون حتى لا يصل إليه شيطان ولا إنسان ولا دود ولا هوام . وإذا دُفن ضُربت أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى أين قبره من تلك البيوت ويسمّى قبره الجنة ، ويقولون : قد دخل الجنّة . وتفرش البيوت كلها بالديباج المنسوج بالذهب .

ورسم ملك الخزر أن يكون له خمس وعشرون امرأة ، كل امرأة منهن ابنة ملك من الملوك الذين يحاذونه ، يأخذها طوعًا أو كرهًا ، وله من الجواري السراري

لفراشه ستون ما منهن إلاّ فائقة الجمال ، وكل واحدة من الحرائر والسراري في قصر مفرد لها قبّة مغشاة بالساج ، وحول كل قبة مضرب ، ولكل واحدة منهنّ خادم يحجبها ، فإذا أراد أن يطأ بعضهن بعث إلى الخادم الذي يحجبها فيوافي بها في أسرع من لمح البصر حتى يجعلها في فراشه ، ويقف الخادم على باب قبة الملك فإذا وطئها أخذ بيدها ، وانصرف ، ولم يتركها بعد ذلك لحظة واحدة .

وإذا ركب هذا الملك الكبير ركب سائر الجيوش لركوبه ، ويكون بينه وبين المواكب ميل فلا يراه أحد من رعيّته إلاّ خرّ لوجهه ساجدًا له ، لا يرفع رأسه حتى يجوزه . ومدة ملكهم أربعون سنة إذا جاوزها يومًا واحدًا قتلته الرعية وخاصته ، وقالوا هذا قد نقص عقله ، واضطرب رأيه . وإذا بعث سرية لم تولّ الدبر بوجه ولا سبب ، فإن انهزمت قتل كل من ينصرف إليه منها ، فأمّا القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضر نساءهم وأولادهم ، فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون ، وكذلك دوابّهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم ، وربما قطع كل واحد منهم قطعتين وصلبهم ، وربما علقهم بأعناقهم في الشجر ، وربمًا جعلهم إذا أحسن إليهم ساسة . وللملك الخزر مدينة عظيمة على النهر إتل وهي جانبان في أحد الجانبين المسلمون ، وفي الجانب الآخر الملك وأصحابه ، وعلى المسلمين رجل من غلمان الملك ، يقال له «خز» . وهو مسلم ، وأحكام المسلمين المقيمين في بلد الخزر والمختلفين إليهم في التجارات مردودة إلى ذلك الغلام المسلم ، لا ينظر في أمورهم ، ولا يقضي بينهم غيره .

الفصل الثالث

طواف في أعالي الأرض

١ ـ سوء تفاهم:

رأينا برفقة ابن فضلان، في الفصل السابق، كيف ارتسمت صورة الشمال في عينيه، ومن الصعب الحكم على قيمة تلك الصورة، فالتنازع القيمي بين دار الإسلام ودار الحرب ترك بصماته في الصور التي شكلّها الرحّالة المسلمون للشعوب والمجتمعات الأخرى، وفي كثير منها تتصاعد نبرة سخط واضحة، تشمل المعتقدات الوثنية، والطقوس البدائية، ونظام العلاقات الاجتماعية، وجميعها تختلف عمّا يوجد في دار الإسلام، ويعود ذلك إلى عدم توافر المعلومات الوافية عن أهل الشمال، فكلّما شحت الأخبار عن بلد أو إقليم بدا غامضًا في صورته، وفي فهم طبيعة الشعوب التي تستوطنه، إذ تغيب المرجعيّة التفسيرية القابعة خلف العلاقات الاجتماعية، والطقوس الدينية، وكثير من الظواهر الطبيعية تبدو غريبة، وغير معهودة، فالرحّالة القادمون من دار الإسلام إلى دار الحرب كانوا يعلّلون الظواهر طبقًا لتصوُّراتهم، ورصيدهم المعرفي.

لم يجهَّز الرحّالة إلى المناطق الشمالية من العالم بمعرفة متكاملة عن تلك الديار النائية، فجمعوا أشتاتًا من المعلومات عنها بأنفسهم من مصادر ناقصة، من بينها انطباعات الجغرافيّين المتعجلة، والعلاقات التجارية، والحروب، ولمّا كانت كل تلك المعلومات شحيحة في مجملها، فلم يكن غريبًا أن تتشكَّل ملامح تلك الصورة الغامضة للشمال في أذهانهم. ويضاف إلى ما ذُكر حدّة الصراع العقائدي الذي كان ناشبًا بين دار الإسلام وكثير من الممالك الشمالية، وفي مقدمتها بلاد الروم، وبلاد الفرنجة، وممالك وسط أوربا، ثم الممالك التي نشأت على التعاقب شمال بحر قزوين، وحول البحر الأسود، وحوض نهر الفولغا، كالصقالبة، والخزر، والبلغار، والباشغرد، وكثير من الأمم التي كانت تعرف آنذاك بالأمم التركية، ويُقصد بها القبائل التي اندفعت من

شمال آسيا ووسطها صوب الغرب ، وتوغّلت في أوربا ، فضلاً عن الجرمان ، والأقوام الإسكندنافية-النورمانية التي كان لها وجود مهدِّد للأندلس وحوض البحر المتوسط ، والأطراف الشمالية من دار الإسلام ، والثغور الأخرى .

ظلّ التوتّر العقائدي موجِّهًا أساسيًا في طريقة تركيب الصور المتبادلة للشعوب فيما بينها ، وكلما شحنت الأجواء بكراهيات الصراع الذي ينتصر فيه هذا الطرف أو ذاك ، تتأجج أحقاد في النفوس فتجد طريقها في توجيه زاوية النظر إلى الآخر ، ومن ذلك الحروب الصليبية التي لعبت دورًا بالغ الخطورة في إعادة تعبئة النفوس بالضغائن ، وأسهمت فيها ، كما هو معروف ، أغلب الممالك الشمالية المسيحية ، وظلّ التهديد قائمًا لفترة طويلة ، واستمر إلى ما بعد الحروب الصليبية ، وإلى ما بعد إجلاء العرب المسلمين عن الأندلس ، فالوجود الإسباني انتعش بعد سقوط الأندلس في حوض المتوسط ، وشمال إفريقية . وظهر الوجود البرتغالي في بحر العرب ، والضفاف العربية للخليج ، بكثافة في مطلع القرن السادس عشر ، فجاب أسطول «دلبوكيرك» الشواطئ الشرقية لشبه الجزيرة العربية ، ودمَّرَ كلّ شيء أمامه ، وأثار ذعرًا هائلاً بين الأهالي على الضفاف العربية للخليج ، والسجلّ الوثائقي الضخم المعتمد لإعمال «دلبوكيرك» في تلك المناطق ، فضح ، على نحو منقطع النظير ، تلك الأعمال الشنيعة ، وكلّ هذا غذّى الأحقاد الدفينة المطمورة منذ الحروب الصليبية بمزيد من الكراهية .

إلى ذلك فإن الفتوحات الإسلامية في التخوم الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، ثم فتح الأندلس ، ووجود المسلمين في معظم جزر البحر المتوسط ، فضلاً عن تقدمهم شمال بحر قزوين ، وحوض البحر الأسود ، وسيطرة الأتراك المسلمين فيما بعد على الجزء الشرقي من أوربا ، والاندفاع إلى قلبها . كل ذلك جعل الأقوام المتجاورة من الطرفين تتوجَّس خيفةً ، بعضها من بعض ، وترك ذلك آثارًا مباشرة في رسم صور متخاطئة للآخر . ومع ذلك فلا نعدم استثناءات تنقض سُنن الكراهية التي ترسَّخت لأسباب عقائدية ، وحربية ، واستيطانية ؛ إذ قدّر المسلمون شجاعة أهل الشمال في الحروب ، وندر أن ظهر بينهم مَنْ أنكر

ذلك ، أو تغافل عنه . وعلى الرغم من الجراح العميقة التي أحدثتها الحروب الصليبية ، وهي حروب ذات طابع لاهوتي ، إلاّ أن التقدير المتبادل للشجاعة الشمالية والتسامح الإسلامي انبثق من خضمّ أجواء مشرّبة بدم الضحايا . تثبت ذلك الملاحظات المعمّقة التي تركها أسامة بن منقذ حول شجاعة المقاتلين الصليبيين ، وبراعتهم في الحروب ، وتثبتها ، أيضًا ، المرويّات الشعبية التي ظهرت في أوربا حول صلاح الدين الأيوبي .

توافرت للشعوب المتساكنة حول البحر الأبيض المتوسط درجة من التعارف المتبادل لكون البحر حلقة اتّصال فيما بينها منذ القدم . ولكنها معرفة لم تسمح ، كما ينبغي ، في تخطّي التصوُّرات السائدة المعبّأة باحتقان ، ظل يتغذّى طوال القرون الوسطى . وكان التنازع قائمًا بين قوى صاعدة وأخرى متراجعة تحيط بهذا البحر ، إلى ذلك ، لعبت العوامل السياسية والتجارية ، وتداخل التخوم ، أحيانًا ، في إبراز الصور المتشكّلة لتلك الشعوب فيما بينها ، وكلّما توغلنا في وسط القارة الأوربية ، واتّجهنا شمالاً وغربًا تضاءلت المعلومات ، وحلّت الأساطير محلّ الحقائق ، بحيث تبدو الأصقاع الشمالية من أوربا شبه مجهولة ، وقد غابت المعلومات المؤكّدة حول الأنظمة : الثقافية ، والدينية ، والأخلاقية ، والاقتصادية .

وباستثناء ملاحظات الرحّالة ، كالطرطوشي ، وابن فضلان ، وابن بطوطة ، وأبي حامد الغرناطي ، فإن الجغرافيين المسلمين الذين جمعوا مدوّنات الرحّالة مثل ابن خرداذبه ، والبكري ، وياقوت الحموي ، لم يتعاملوا بجدية تامة مع المعلومات التي جهّزها لهم رحّالة اتّصفوا بقوة الملاحظة إلى درجة نلمس فيها حذرًا منهم ، بصورة أو بأخرى ، هذا فضلاً عن أن بعض مدوّناتهم الأصلية تناثرت في المتون الجغرافية ، والمثال الأكثر شهرة في هذا السياق الكيفية التي وظّف فيها كل من البكري وياقوت النصوص الأصلية لرحلتي الطرطوشي وابن فضلان إلى معظم البلاد الأوربية من الشرق حتى الغرب . فقد خرّبت تلك النصوص ، وجرى تقطيعها بحسب المناطق التي اهتم بوصفها البكري في

«المسالك والممالك» وياقوت في «معجم البلدان» ، فقُضِي على الترابط النصّي فيها ، وغاب تطوُّر الرؤية ، ومُزّق السياق العامّ لها .

تشكّك ياقوت في أخبار ابن فضلان بخصوص الصقالبة ، وكان يجتزئ معلومات منها بما يخدم غرضه التعريفي ، في سياق وصفه للمدن والبلدان ، دون أن يجرؤ على تقدير قيمتها الثقافية ، وكان متشدداً على نسبتها إلى صاحبها بأسلوب ، يُشَمّ منه رائحة التخلّص من مسؤوليتها لما فيها من العجائب والغرائب ، فكيف بأخبار الأقوام الساكنة إلى الشمال من الصقالبة![1] .

أمّا ابن خرداذبه الذي ذكر خبر ذهاب سلاّم الترجمان إلى بلاد «يأجوج ومأجوج» ، فإنه ، وهو يورد عجائب الرحلة بصيغة السرد المباشر على لسان صاحبها ، يومئ من طرف خفيّ إلى أنه غير مسؤول عمّا ورد فيها «فحدّثني سلاّم الترجمان بجملة هذا الخبر ، ثم أملاه عليّ من كتاب كان كتبه للواثق بالله[2] . تجعل السمة العجائبية للنص المنسوب لسلاّم الترجمان ابنَ خرداذبه في وجل من مصداقية المغامرة . أمّا البكرى في كتابه «المسالك والممالك» فقد استفاد كثيرًا من رحلة الطرطوشي إلى قلب أوربا ، لكنه نثرها نثرًا في تضاعيف كتابه ، بحيث تفرّقت أقسامها ، وتمزّق نسيجها النصّي ، فاختار منها ما يناسب غرضه الجغرافي في التعريف بالمدن ، ولم يأخذ في الحسبان التماسك الخطابي لتلك الرحلة .

ليس القصد اتّهام الجغرافيين بتخريب سرديّات الرحلة العربية في عالم الشمال ، فغرضهم ، في مجمله ، كان مختلفًا عن غرض الرحّالة ، ولكن طبيعة المنهج الجغرافي المتبع أحدث تخريبًا في بنية تلك النصوص . وفي ظل فقدان بعض النصوص الأصلية ، تحوّلت فقراتها التي حفظتها المدوّنات الجغرافية إلى شذرات غير مترابطة ، لا تقدّم صورة كاشفة لعالم الشمال إلاّ في استثناءات

---

(١) معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٨ .

(٢) المسالك والممالك ، ص ١٧٠ .

قليلة ، كما ظهر في رحلات ابن فضلان ، وابن بطوطة ، وابن جبير .

وعلى الرغم من ذلك فأخبار أهل الشمال المشوبة بمبالغات الجهل ، وبخاصة المناطق النائية والمنعزلة ، قد غزت كتب الجغرافيّين ، وتحوّلت مع الزمن إلى جملة من الحقائق الذهنية التي أخذها الخلَف عن السلَف دون تعديل يذكر ، فملاحظات سلاّم الترجمان استعيدت عند كثير من الجغرافيين والمؤرخين . فابن سعيد المغربي المتأخّر يكرّر المعلومات التي عُرِفت قبل قرون عدة حول الشمال . ومثال ذلك ما يذكره سلاّم الترجمان عن الأرض الواقعة وراء بلاد الخزر ، بأنها «أرض سوداء منتنة الرائحة ، وكنّا قد تزوّدنا قبل دخولها خلاً نشمّه من الرائحة المنكرة»[(١)] . وعلى غراره يذهب ابن سعيد واصفًا تلك البلاد ، بأنها «الأرض المنتنة ، لا يقدر أحد على سلوكها إلاّ بالروائح الطيبة ، وهي خالية»[(٢)] .

على أن كلّ هذا لا يقلّل ، بأيّ شكل من الأشكال ، من قيمة المشاهدات المباشرة التي تركها الرحّالة ، فكثير منها اعتُبر من أهمّ الوثائق عن الحياة الاجتماعية ، والدينية ، والاقتصادية ، لكثير من البلاد الشمالية . وهي تنتظم في سياق عامّ يمتثل لرؤية المسلمين في النظر إلى الآخر المختلف على صعيد القيم والمعتقد . وكانت الأحاسيس مفعمة بالمعتقد الديني الذي يسعى إلى إدراج غير المسلمين في منظومته ، وكان الصراع يتم باسم الله ، فالخارجون عليه-حسب التصوُّرات المتبادلة- يتناحرون بعنف من أجل الاستئثار بالوفاء الروحي لجعل كلمته سائدة في الأرض ، وكان الصراع يخضع ، في كثير من الأحيان ، إلى الموجِّهات الدينية .

---

(١) المسالك والممالك ، ص ١٦٣ .

(٢) الجغرافيا ، ص ٢٠٧ .

٢. أوصاف وأحكام:

وصف ابن بطوطة الشمال بأنه «بلاد الظلام»[١] . وهذا الوصف القائم على حكم اختزالي واضح ، يخفِّض من أهمية هذه المناطق ، ويبخسها قيمتها ، ويجعل منها أصقاعًا معتمة . ويحسن أن نستعين بابن سعيد المغربي الذي جمع مادة كتابه «الجغرافيا» من موارد سابقة ، ظهرت بداية من القرن الثاني الهجري إلى القرن السابع الذي عاش فيه . فما أن يصل بحديثه إلى الجزء السادس من الإقليم الشمالي الذي يكون نهر «أتل» (الفولغا) في جزئه الجنوبي ، حتى تحلّ الأحكام محلّ الأوصاف ، فسكّان الأجزاء العليا «هم من أجناس الأتراك ، ولهم اعتناء بالنجوم ، واشتغال بأحكامها ، وهم يعبدونها» .

وكل المدن الواقعة هناك «خاملة الأسماء» . وفي الجزء الثامن من هذا الإقليم ، حيث جبل «البجناك» ، توجد «أمّة من الترك يحرقون أنفسهم ، ويحرقون من وقع إليهم» . وإلى الشرق تقع الأرض المنتنة التي يسكنها قوم «كفّار لا يدلّ إليهم أحد إلاّ قتلوه» . ثم يأتي الجزء التاسع ، وهو «الأرض المحفورة» . وهي أرض «مسكونة بقوم لا يقدرون على الصعود ، ولا يستطيع أحد النزول إليهم لبعد عمقها» . وينتهي شمال الأرض ، بالجزء العاشر ، و«جميعه داخل في بلاد يأجوج ومأجوج ، وآخره المحيط بالشرق»[٢] .

حينما تغيب المعلومات الصحيحة تنشط التخيّلات ، والملاحظة الحاضرة هي أنه كلّما نأت المناطق عن دار الإسلام سقطت في عتمة خاصّة بها ، فتدور الأحكام حولها في دائرة مغلقة . يَجمع الجغرافيين والرحّالة ، فيما يخصّ الشمال ، أمرٌ واحد ، هو الحديث عن بلاد «يأجوج ومأجوج» . وباستثناء سلاّم

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، شرح طلال حرب ، ص ٣٥٠ .

(٢) الجغرافيا ، ص ٢٠٧ و٢٠٨ .

الترجمان ، فلا أحد ادّعى الوصول إليها[1] .

وحينما وصل ابن بطوطة مدينة الزيتون (شوان شوفو) ، ثم عَبَرها شمالاً إلى مدينة «صين كلان» ، وهي آخر مدينة صينية بلغها في رحلته ، توقّف ، قبل أن يعود أدراجه ، قائلاً : «ليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين ، وبينها وبين سدّ يأجوج ومأجوج ستّون يوماً ، فيما ذُكِر لي ، يسكنها كفّار رحّالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا به ، ولذلك لا تُسلَك بلادهم ، ولا يُسافَر إليها ، ولم أرَ بتلك البلاد من رأى السد المذكور ، ولا من رأى من رآه»[2] .

تترتّب المعلومات حول أقوام الشمال بتنضيد المعلومات التي ترسم مسارًا صاعدًا يبدأ بأقرب البلاد المتاخمة لدار الإسلام ثم ينتهي بفيافي الثلج ؛ إذ تنال الشعوب القريبة نوعًا من الاهتمام ، والتقدير ، من ذلك بلاد الروم ، وهي الجار المتاخم المرتبط دائمًا بعلاقة متوتِّرة مع دار الإسلام . إذ يقول المسعودي عن أهلها : «ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين ، وبرهة من مملكة الروم ، تعظّم العلماء ، وتشرّف الحكماء ، وكانت لهم الآراء في الطبيعيات ، والجسم ، والعقل ، والنفس ، والتعاليم الأربعة ، أعني : الإرتماطيقي ، وهو علم الأعداد والجومطريقي ، وعلم المساحة والهندسة ، والإسترنوميا ، وهو علم النجوم ، والموسيقى وهو علم تأليف اللحون . ولم تزل العلوم قائمة السوق ، مشرقة الأقطار قوية المعالم ، شديدة المقاوم ، سامية البناء ، إلى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم ، فعفوا معالم الحكمة ، وأزالوا رسمها ، ومحَوا سبلها ، وطمسوا ما كانت

---

(١) فيما يخصّ الحديث عن «يأجوج ومأجوج» . انظر على سبيل المثال : ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ١٦٣- ١٧٠ . والإدريسي ، نزهة المشتاق ص ٨٤٦ وما بعدها ، ورسالة ابن فضلان ص ٧٠ . وياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج١ : ص٨٧ و٨٨ وابن حوقل : صورة الأرض ، ج١ : ص١٥ . والإصطرخي ، مسالك الممالك ، ص٩ . وابن سعيد ، الجغرافيا ، ص ٢٠٨ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٣٥ و٦٣٦ .

اليونانية أبانته ، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته»[1] .

قدّم المسعودي وصفًا وتفسيرًا وحكمًا في آن واحد ، أمّا الوصف فمداره نظرة تقديرية للثقافة اليونانية التي تنوّعت بين الرياضيات ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى ، والفلسفة ، والآداب ، وكلّ ذلك كان موضوع معرفة المسلمين في القرن الرابع الذي كتب فيه المسعودي هذا الوصف . والحال هذه ، فإن الثقافة الإسلامية ، والعربية منها بوجه خاص ، احتفت بالمكوّن الثقافي اليوناني ، وتطلّعت إلى معرفته قبل زمن المسعودي ، وتُرجمت إلى العربية كثير من النماذج الممثّلة لذلك المكوّن في مجالات الجغرافيا ، والفلسفة ، والعلوم .

أمّا التفسير ؛ فإن المسعودي يعزو ذبول الثقافة اليونانية إلى ظهور المسيحية التي أعادت النظر في الموروث اليوناني ، وحالت دون أن يكون منافسًا لها . وهذا التفسير على غاية من الأهمية ، ليس ، فقط ، لأن المسعودي قال به ، إنما لأنه يطابق الواقع التاريخي ؛ فقد نظر اللاهوت المسيحي إلى ذلك الموروث بوصفه وثنيًا ، وجرت محاربته تحت دعاوى دينية . ومع أن بعض كبار اللاهوتيين مثل القديس أوغسطين ، حاولوا الإفادة من الموروث اليوناني في صنع لاهوت كنَسي ، لكنّ ذلك اللاهوت -بما فيه الجانب الذي يُعرف بالفلسفة المسيحية- عارض القيم الكبرى التي أشاعتها الثقافة اليونانية ، ودمغها بالوثنية . لا يظهر المسعودي انقطاعًا عن روح السجال الديني المسيحي الذي قام بتصفية الموروث الإغريقي ، إنما هو على دراية بذلك .

ثم يأتي الحكم الذي يترشّح من تضاعيف الوصف والتفسير ، ويتصل بالتفريق بين أصل كبير وسام ، وفرع غير بارّ ، طمس الآثار الجيدة ، ومحا تلك الحكمة الرفيعة . فوضع الرومَ في مقارنة مع اليونانيين الأوائل ، فيما يخص الجهود الفكرية والعقلية سيضرب صميم الدور الذي قام به الروم ، ويتلخّص هذا

---

(١) مروج الذهب ، ج١ ، ص٣٢١ .

الدور في إزالة الأمجاد الأولى ، ومحو سبلها . وأخيرًا ، وضع المسعودي بصمته التي لا تمحى ؛ فالنصرانية التي تظاهرت في تلك البلاد هي السبب وراء ذلك ، إذ قوضت مجدًا إنسانيًا مشتركًا ، وبالمقارنة ، فالإسلام هو الذي أحيا ذلك الموروث ، واحتفى به ، فيما أنكرته النصرانية ، وحاربته دار الروم النصرانية حينما تنكبت عن الوعد اليوناني ، وأعرضت عنه ، وانحبست في فهم ديني ضيق للماضي والحاضر ، على حدّ سواء .

أمّا حديث المسعودي عن الأقوام الأخرى كالإفرنجة ، والصقالبة ، والنوكبرد ، والأشبان ، ويأجوج ومأجوج ، والترك ، والخزر ، وبرجان ، واللان الجلالقة ، فوردت في سياق التعريف بأصول تلك الأقوام ، فالإفرنجة أشدّ هؤلاء الأجناس بأساً ، وأمنعهم هيبةً ، وأكثرهم عدّةً ، وأوسعهم ملكًا ، وأكثرهم مدناً ، وأحسنهم نظامًا وانقيادًا لملوكهم ، وأكثرهم طاعة ؛ إلاّ أن الجلالقة أشدّ من الإفرنجة بأساً ، وأعظم منهم نكايةً ، والرجل من الجلالقة يقاوم عدّةً من الإفرنجة ، وكلمة الإفرنجة ، متّفقة على ملك واحد ، لا تنازع بينهم في ذلك[1] .

يحتاج نصّ المسعودي إلى آخر رديف يضفي عليه دلالته الكلية ، سواء ما له علاقة بالروم وبالإفرنج ، وليكن ذلك النصّ الرديف مقتبسًا من القزويني الذي انخرط أيضًا في وصف بلاد الإفرنج ، فقال بأنها مملكة عريضة في بلاد النصارى ، بردها شديد جداً ، وهواؤها غليظ لفرط البرد ، وهي كثيرة الخيرات والفواكه والغلاّت ، غزيرة الأنهار ، كثيرة الثمار ، ذات زرع وضرع وشجر وعسل ، صيودها كثيرة الأنواع . بها معادن الفضة ، وتضرب بها سيوف قطّاعة جداً . وسيوف إفرنجة أمضى من سيوف الهند . وأهلها نصارى . ولهم ملك ذو بأس ، وعدد كثير ، وقوة ملك ، له مدينتان أو ثلاث على ساحل البحر من هذا الجانب في وسط بلاد الإسلام ، وهو يحميها من ذلك الجانب ، كلما بعث المسلمون إليها من يفتحها يبعث هو من ذلك الجانب من يحميها . وعساكره ذوو بأس

---

(١) مروج الذهب ، ج١ ، ص٣٢١ .

شديد ، لا يرون الفرار أصلاً عند اللقاء ، ويرون الموت دون ذلك . لا ترى أقذر منهم ، وهم أهل غدر ، ودناءة أخلاق ، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلاّ مرة أو مرتين ، بالماء البارد ، ولا يغسلون ثيابهم منذ لبسوها إلى أن تتقطّع . ويحلقون لحاهم ، وإنما تنبت بعد الحلق خشنة مستكرهة[1] .

طوّر القزويني البنية التي أرساها المسعودي ، فهو لا يفسّر كسَلَفه ، إنما يكتفي بالوصف والحكم ، وفي الحالين ذهب إلى أكثر ممّا ذهب إليه سَلَفه ، فهو غير مشغول بالمكوّن اليوناني ، الذي رأينا كيف أن المسعودي خصّه بوصف وتفسير واضحَيْن ، إنما الذي شغله قوّة الخصوم من الإفرنجة في دار الحرب ، الذين أشار إليهم المسعودي . إنهم مقاتلون ذوو بأس ، ولا يعرفون الهزيمة ، وقد حال ذلك دون فتح كثير من بلادهم لما اتصفوا به من عزيمة شديدة في الحرب ، ولهم مملكة واسعة وقويّة .

وهذا تقدير مناظر لتقدير أسامة بن منقذ لشجاعة الصليبيين ، ويماثل تقدير المسعودي لعلوم اليونان ، فالتقدير متشابه ، والموضوع مختلف . عُني القزويني بوصف واقع الحال في عصره خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي . وبعد هذه المرحلة تحلّ الأحكام محلّ الأوصاف ، فهؤلاء الإفرنجة فيما يخص القيم والعادات ، هم أهل غدر ودناءة أخلاق ، ويلحق بهم صفات القذارة والنجاسة كونها تتعارض مع قيم الطهارة الإسلامية ، فتبدأ ثنائية الوصف والحكم تتأرجح ، ثم سرعان ما يتغلّب الحكم على الوصف ، فيما بعد .

٣. تراتُب وتفاضُل:

لو أخذنا الأسلوب السرديّ الذي وصف به كل من المسعودي والقزويني أهل الشمال ، وتحديدًا الروم والإفرنجة ، لوجدنا أنه يقوم على نوع الثنائية التفاضلية ، وهي ثنائية تنتظم في مستويين خاصّ ، وعامّ ، ويدخل المكوّن

(١) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٩ ، ص٤٩٨ .

العقائدي، في نهاية الأمر، ليحسم الأمر لصالح أحدهما على حساب الآخر. قارن المسعودي الجهل الرومي بالمعرفة اليونانية، ووضع القزويني الغدر، والدناءة، وسوء الأخلاق، والقذارة، في إحدى كفَّتَي الميزان، ووضع البسالة الإفرنجية في الكفة الأخرى. وسيكون الرجحان للعنصرين الأوّلين، لأنهما في تصور المسعودي والقزويني هما الموجودان في عالم الروم والإفرنج الآن، وهذا تمزيق لوحدة الصورة، وتخريب لانسجامها العامّ؛ فما قيمة المعرفة إذا تَمّ التفريط بها واستبد الجهل! . وما قيمة البسالة إذا عُبّر عنها بالغدر والدناءة!؟ . وعند هذا الحد تتقوض قيمة تُعدُّ إيجابية، تحت ضغط قيمة أخرى تُعَدّ سلبية. وبعبارة شارحة ينتقص الروم والإفرنجة لأنهم دون الفضائل العقلية والأخلاقية.

هذا هو المستوى الخاصّ الذي ينظّم طرف الثنائيات الضدية في المقارنة، وبعد ذلك، يظهر المستوى العامّ، وهو يتوارى خلف المستوى الأوّل؛ فالمسلمون هم الذين انتدبوا أنفسهم لإعادة بعث الموروث اليوناني، فيما طمسه أحفادهم الروم النصارى، والمسلمون هم المقاتلون الأشدّاء، بلا غدر ولا دناءة ولا سوء أخلاق؛ هذا لأنهم جعلوا من المعرفة تراثًا إنسانيًا مشتركًا عزيزًا، ولأنهم جعلوا من القتال وسيلة للجهاد الذي يتسامى أن يكون غدرًا ودناءة. وعلى هذا جرى تمزيق صورة الآخر مرَّتين: مرّة في تضخيم التناقضات الداخلية فيه، ومرَّة في مقارنته بالمنظومة الثقافية الفاعلة في دار الإسلام، وكان ينظر إليها بعين الرعاية والتبجيل.

ينبغي إيراد البراهين الكافية على هذا النسق من التمثيل السرديّ لصورة الآخر في الرحلة العربية؛ أي براهين التمثيل الذي يجري مفاضلة تؤدي إلى تهديم البنى الأساسية التي تشكّل قوام الآخر؛ إذ يصف ابن جبير، في رحلته، مدينة مسينة في جزيرة صقلية وسط البحر المتوسط، بالصورة الآتية، هي: «موسم تجّار الكفار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الإرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر، لا يقرّ فيها لمسلم قرار، مشحونة بعبدة الصلبان، تغصّ بقاطنيها، وتكاد تضيق ذرعًا بساكنيها، مملوءة نتنًا ورجسًا،

موحشة لا تُوجِد لغريب أنسًا ، أسواقها نافقة حفيلة ، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة ، لا تزال بها ، ليلَكَ ونهارَك ، في أمان ، وإن كنت غريب الوجه ، واليد ، واللسان»[1] .

واضح أن الزيارة السريعة التي قام بها ابن جبير إلى صقلية ، وهو في طريقه إلى الأندلس ، بعد مشقّة الضياع في البحر عائدًا من رحلته المشرقية ، قد رسمت له عالمًا منقسمًا على نفسه ، وقد انعكس ذلك في السرد ، فيه أمان شخصي لكنّه يعجّ بالاضطراب الروحي ، فمن الصحيح أن مسينة مزدهرة اقتصاديًا ، والأمن فيها مستتبّ ، لكنّها تئنّ تحت وطأة القيم الكافرة . يصعب إقامة توازن بين الضلال والكفاية الاقتصادية ، فابن جبير الذي يُحتفى به في صقلية يدفعه حنين إلى ماضي هذه الجزيرة التي كانت جزءًا من دار الإسلام ، وقد بدأ يدبّ فيها الكفر ، شأنها ، في ذلك ، شأن تخوم دار الإسلام الأخرى في زمنه .

كيف تشتغل آلية المفاضلة؟ يقوم ابن جبير بتنضيد الأوصاف على نحو يدفع بترجيح وصف على حساب آخر ، وتتضارب معايير السرد ، فمسينة تتَّصف من جانب بأنها وكر لتجارة الكفار ، وبأنها مظلمة الآفاق بالكفر ، ولا مكان فيها لمسلم ، وهي تموج بعبدة الصلبان ، ومملوءة نتنًا ورجسًا ، وموحشة ، وليس ثمة أنيس لغريب فيها . ولكنها من جانب آخر ، كثيرة الإرفاق ، وأسعارها رخية ، وأسواقها نافقة ، وأرزاقها واسعة ، وعيشها رغيد ، وفيها أمان . خطاب ابن جبير موجّه للمسلمين ، وفيه درجة عالية من الحساسية ، فيما يخص الصراع المزمن بين القيم الروحية والقيم المادّية ، ذلك الصراع الذي حسمت العقيدة الإسلامية النصر فيه لصالح الطرف الأول ، وابتذلت الثاني ، وعدّته من متاع الحياة الفانية ، وقد استحضر وصف ابن جبير تلك الثنائية ، فصوّر عالمًا منحطًا بضلاله ، لا سبيل إلى العيش فيه ، فالمسلم غريب الوجه واليد واللسان كما يقول المتنبي . يصعب قبول ذلك العالم الذي جرى فيه تواطؤ

---

(١) ابن جبير ، رحلة بن جبير ، بيروت ، دار صادر ، ص٢٦٦ .

بين الكفر والرجس . وحتى المتع الدنيوية الخاصّة بتوافر العيش الرغيد والأمن ، تتضاءل أمام عالـم شبه مغلق على ضلاله ، يشعر المؤمن فيه بالوحشة ، والغربة ، والفسق ، وكما قرَّر بعض الفقهاء من قبل لا أمان لمسلم في دار الحرب . تتقهقر أية قيمة لمسينة وأهلها من الصقليّين .

ووصف الطرطوشي بلد الجلالقة ، بأنه سهل جميعه ، والغالب على أرضهم الرمل ، وأكثر قُوْتِهم الدخن والذُّرة ، ومُعَوّلهم في الأشربة على شراب التفاح والبشكة ، وهو شراب يُتَّخذ من الدقيق ، وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق ، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلاّ مرة أو مرّتين ، بالماء البارد ، ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تتقطّع عليهم ، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم ، وتصحّ أبدانهم . وثيابهم أضيق الثياب ، وهي منفرجة يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم . ولهم بأس شديد ، لا يرون الفرار عند اللقاء في الحرب ، ويرون الموت دونه . أمّا البرتونيون (أهل مقاطعة بريتاني الفرنسية) فلهم لغة تمجّها الأسماع ، ومناظر قبيحة ، وأخلاق سيّئة ، ولهم لصوص يقطعون على الإفرنج ويسرقونهم . والإفرنج يصلبونهم ، إذا ظفروا منهم بأحد[1] .

عاش الطرطوشي في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، ثم زار أوربا في حدود٩٦٥م ، وقد أورد البكري المتوفى٤٨٤هـ١٠٩٤م مزقًا من رحلته يصعب التحقّق من دقتها ، فالجغرافيون القدماء ، كما ذكرنا ، كانوا يتدخّلون في ترتيب النصوص التي تصل إليهم ، ويكيّفونها من أجل أهدافهم ، ولكنّ النصّ حافظ على الثنائية التقليدية الشائعة آنذاك ، وهي تجاور الوصف والحكم . ويعدّ الطرطوشي شاهد عيان من الدرجة الأولى ، وهو من الرحّالة الذين توغّلوا في غرب أوربا ووسطها ، ثم شرقها ، ويرجّح أنه مخر تلك المناطق بغرض التجارة .

---

(١) البكري ، المسالك والممالك ، نقلا عن عبد الرحمن الحجي ، جغرافية الأندلس وأوربا ، بيروت ، دار الإرشاد ، ١٩٦٨ ، ص٨٠ و٨١ .

٤. بعث نظرية الكيوف الطبيعية:

كنّا أوردنا، في الفصل الأول، أحكام المسعودي وابن خلدون، في سياق الحديث عن العلاقة المستعارة من اليونان بين المناخ والطبائع، ومثّلنا على ذلك بما أورده أرسطو من تفضيل لليونانيين. ويحسن أن نورد نموذجًا آخر يدعم تلك الفكرة التي هيمنت على التفكير الخاص بالأقوام الشمالية والجنوبية، فقد ذهب الدمشقي المتأثّر بنظريّة الكيوف الطبيعية إلى أن الروم، والأرمن، والروس، واللان يُسمَّون البيض بشقرة لإفراط البرد وبُعد الشمس، وبسبب ذلك ساءت أخلاقهم، وقستْ قلوبهم، وإنما كانت أبدانهم كذلك لغلبة البرودة الرطوبة واستيلائها، وقلّ من يوجد فيهم له فطنة، بل الحيوانية غالبة عليهم، والشهوة، والغضب، وحدّة النفس. أمّا أهل المناطق الواقعة إلى الشمال منهم، وهي أكثر بردًا، وهم: الترك، والخزر، والفرنج، وإفرنسة، وكاشغرد (باشغرد)، ومَنْ سامَتَهم فيسمَّون الشقر، وألوانهم بيض، وهم كالوحوش؛ لا يعتنون بغير الحروب، والقتال، والصيد، ولا يعرفون عرفانًا، ولا يفرّقون فرقانًا. وإلى الشمال من هؤلاء الصقالبة. وهم على خلق واحد، وطبيعة واحدة، ولا يكادون يفقهون قولاً إلاّ أنهم كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً[1].

تحدّث الدمشقي عن أهل الشمال، بوصفهم ثلاثة أجناس من البشر، تتناقص السمات الإنسانية فيهم إلى أن تضمحل في نهاية المطاف. ونحن في مواجهة نصوص تختلف في الدرجة عن نصوص المسعودي، والقزويني، والطرطوشي، فقد كانت تتخلّل تلك النصوص مكوّنات فيها نوع من التكافؤ، لكن السياقات الثقافية تضعف مكوّنًا، وتقوّي آخر، تبعًا للرؤية التي يصدر عنها الرحّالة. بيد أننا مع الدمشقي سنكون في وضع مختلف، إذ يعاد تصنيف أهل الشمال إلى جنسين أساسيين، ومجموعة ضالّة لا يمكن إدراجها تحت أي مسمّى. فالجنس الأبيض يتكوّن من الروم، والأرمن، والروس، واللان. وهؤلاء

---

(١) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى، ص٢٧٥.

بإطلاق ساءت أخلاقهم ، واتّصفوا بقسوة القلوب ، ولا فطنة فيهم ، ولا عقل ، ولا يمكن العثور فيهم إلاّ على الحيوانية والشهوة والغضب ؛ وذلك يعود إلى أن البرد قد ضربهم . ثم الجنس الأشقر ، وهم الخزريون ، والإفرنج ، والفرنسيون ، والباشغرد ، وهؤلاء وحوش ، لا يعرفون سوى الاحتراب والصيد ، ولا شرائع لهم ، ولا عقائد ؛ لكون البرد قد بالغ في ضربهم فغيّر طباعهم . وأخيرًا الصقالبة ، وهؤلاء يتعذّر إدراجهم تحت أيّ مسمّى ، لأنهم كالحيوانات السائبة ، بل أضلّ منها .

ترجّح لدى الدمشقي ، وهو مصدر ثراء لا ينضب للغرائب ، والنظرة التراتبية للبشر ، أحكام القيمة ، وكما لا يخفى ، فنصوصه كلها تتحرّك في مجال عجائبي ، وهذا المجال يتدخّل في إضفاء طابع سحري على أوصافه ، وأحكامه ، فالآخر -بالنسبة إليه- هو النقيض المأسور ضمن سياج من القيم الناقصة ، قوامها سوء الأخلاق ، وقسوة القلوب ، وغياب الفطنة ، والحيوانية ، والوحشية ، والفوضى العمياء التي تطمس الحقّ ، والضلال الذي يفوق ضلال الأنعام . ثمة تدرُّج متصاعد بالأحكام ، ينتهي بتبخيس عامّ ينحدر بأبناء الأقاصي الشمالية إلى عالم ما دون عالم الحيوان . ليس هذا كلّ شيء ، فالاطّراد في الأحكام يتجاوز كلّ إمكانية للوقوف قليلاً من أجل المراجعة ، وتعديل الأحكام ، إذ تأخذ المعلومات طابع الغرابة لمن هم أبعد من ذلك .

وتحدّث ابن سعيد المغربي عن بلاد البرغار (يرجّح أنها النرويج ، حسب رأي بعض الجغرافيين) ، وهي آخر ما ينتهي إليه ظهور البحر المحيط ، وآخر هذا الجزء بالمشرق ، وذلك في نهاية المعمور في الشمال ، وهم أمّة عاتية أجهل من الروس ، والروس في شرقيهم وفي جنوبيهم . ووجوههم كالكلاب ، وذلك دليل على الشجاعة . ويقال إن الواحد منهم يخرج إلى العسكر ، ويقاتل وحده ، حتى يُقتل تهوُّرًا وإقدامًا على الموت[1] .

---

(١) الجغرافيا ، ص٢٠٢ .

ثم الروس الذين أُشير إليهم أكثر من مرة ، وصورتهم مركّبة بنوع من التشويه والانتقاص ، إذ يصفهم ابن بطوطة بأنهم نصارى شقر الشعور ، زرق العيون ، قباح الصور ، أهل غدر[١] . وإذا أنعمنا النظر في هذه القائمة التي تترادف فيها الأوصاف ، نجد أن تلك الأقوام تتشارك في الضلالة ، وسوء الأخلاق ، والجهل ، والغدر ، والوحشية . وتتقاسم الشرور ، والمفاسد ، وتفوز بأكثرها قسوة تلك التي تقع في منأى عن المعاينة ، والمخالطة ، ويحيط الجهل بها من كلّ جانب .

ثم تأتي ، أخيرًا ، أخبار الأصقاع الواقعة أعلى شمال الأرض ، أي تلك الأرض المسكونة وراء الإقليم السابع (يلاحَظ نوع من الاضطراب في تحديد المواقع) ، ومن ذلك جبال «البجناك» التي تقع بين نهرَي الدانوب ، والدون ، حيث تستوطن أمة من الترك ، يحرقون أنفسهم ويحرقون من وقع إليهم ، وإلى الشرق توجد الأرض المنتنة ، التي يكتفي الجميع بالقول : إنه لا يقدر أحد على سلوكها إلاّ بالروائح الطيبة ، وهي أرض خالية من بني البشر . وفي شماليها بلاد سحرت ، وهم كفّار ، لا يدخل إليهم أحد إلاّ قتلوه[٢] .

يتناغم هذا السياق المتصاعد من الأحكام مع درجة البعد عن دار الإسلام ، فالجهل يوفّر درجة عالية من البغض ، ويوجّه الأفكار بخصوص الآخر وجهة ، تتخطّى إمكانية تقويم وتقبُّل منظومته الثقافية ، فيما ترجّح المعرفة إمكانية التقدير ، وفي جميع الأحوال ، تخضع الأحكام لمبدأ اختلاف القيم .

٥. أمم من العشائر الضالّة:

تحتاج صورة أهل الشمال ، كما عرضتها مدوّنات الرحلة ، إلى تقصّيات تفصيليّة تبيّن التضاريس الداخلية لطبيعة الحياة الاجتماعية ، والدينية ، والاقتصادية . وتلك التقصيات استأثرت بها الأقوام الشمالية في أعالي السهوب

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ص٣٥٠ .

(٢) الجغرافيا ، ص٢٠٧ .

الأوربية التي كانت مسرحًا لأقوام كثيرة ، نقول بأنها أقوام تجوّزًا ، مجاراة للجغرافيين القدامى ، وهي في مجملهما قبائل نازحة من شمال آسيا نحو شرق أوربا وشمالها ، وكانت تُعرَف بالقبائل التركية . ونجحت في تأسيس كيانات سياسية ، كانت تقوم وتنهار بسرعة بالغة . قدّم المسعودي بعض التفاصيل عنها ، حيث توجد أمة منقادة إلى دين المجوسية ، وليس بين الأمم في هذا الصقع أنقى أبشارًا ، ولا أصفى ألوانًا ولا أحسن رجالاً ولا أصْبَح نساء ، ولا أقوَم قدودًا ، ولا أدقّ أخصارًا ، ولا أظهر أكفالاً وأردافًا ، ولا أحسن شكلاً من هذه الأمة ، ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات ، ولباسهم البياض والديباج الرومي والسقلاطوني ، وغير ذلك من أنواع الديباج المذهّب ، وبأرضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب ، فيها نوع يقال له الطلى أرقّ من الدبيقي ، وأبقى على الكَدِّ ، يبلغ الثوب عشرة دنانير ، ويحمل إلى ما يليهم من الإسلام ، وقد تُحمَل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم إلاّ أن الموصوف منها ما يُحمَل من قبل هؤلاء[1] .

تبدأ ملاحظات المسعودي من الواقع المادّي : جمال النساء اللواتي هنّ مثار رغبة ، وانجذاب ، ثم تجارة الملابس ، لكن ، سرعان ما يستبدل المسعودي بالوصف الأحكام ، في لهجة مختلفة ، وغير معهودة منه ، حين يتطرّق بحديثه إلى الأمم والأقوام الأخرى ، ومنها : السبع بلدان ، وهي أمّة كبيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلمُ ملّتها ، ولا نمى إليّ خبر في دينها . وتليها أمّة عظيمة ، يقال لها إرم ذات العماد ، وهم ذوو خلق عجيب ، وآراؤها جاهلية . ولهذا البلد الواقع على البحر خبر ظريف ؛ وذلك أن سمكة عظيمة تأتيهم في كلّ سنة فيتناولون منها ، ثم تعود ثانية فتتوجّه نحوهم من الشق الآخر ، فيتناولون منها ، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أُخذ منه أولاً ، وخبر هذه الأمّة مستفيض في تلك الديار من الكفّار .

ويلي هذه الأمة أمة بين جبال أربعة ، كلّ جبل منها ممتنع ذاهب في

---

(١) مروج الذهب ، ج١ ، ص١٧٧ .

الهواء ، وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مئة ميل صحراء ، في وسط تلك الصحراء دارة مقوّرة كأنها قد خُطّت ببيكار ، وشكل دائرتها خسفة مجوّفة في حَجَر صَلْد منخسف كما تدور الدائرة ، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلاً ، قطع قائم يهوى سفلاً كحائط مبنى من سفل إلى علو ، يكون قعره على نحوٍ من ميلين ، لا سبيل إلى الوصول إلى مستوى تلك الدارة ، ويُرى فيها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة ، وبالنهار يُرى قرى وعمائر وأنهار تجري بين تلك القرى ، وناس وبهائم ، إلاّ أنهم يُرَون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع ، لا يدري من أي الأمم هم ، ولا سبيل لهم إلى الصعود إلى جهة من الجهات ، ولا سبيل لمن فوق إلى النزول إليهم ، بوجه من الوجوه .

ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض ، فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه ، والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم ، إلاّ أنهم ذوو شعر ، وربما وقع في النادر القرد منها إذا احتيل في اصطياده ؛ فيكون في نهاية الفهم والدراية ، إلاّ أنه لا لسان له فيعبِّر بالنطق ؛ ويفهم كلّ ما يخاطب به بالإشارة ، وربما حمل الواحد منها إلى ملوك الأمم من هناك فتعلمه القيام على رؤوسها بالمذابِّ على موائدها لما في القرد من الخاصّة بمعرفة السموم من المأكل والمشرب ، ويلقي الملك له من طعامه : فإن أكله أكل الملك منه ، وإن اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه ، وكذلك فعل الأكثر من ملوك السند والهند في القردة[1] .

فصّل المسعودي الحديث بثقة عن خمس من الأمم دون أن يذكر أسماءها ، إلاّ واحدة على سبيل التخمين : الأمّة المجوسية التي شُغِل بجمال نسائها ، ثم أخرى مجهولة ، لا يعرف دينها ، وأمة أهلها ذوو خلق عجيب ، وآراؤهم جاهلية ، ثم أمّة بين جبال أربعة ، وأخيرًا أمة مهجّنة من القرود والبشر . وبالمقابل تجرّأ

(١) مروج الذهب ، ص١٨٧ .

المسعودي على وصف طرز حياة هذه الأمم، وتقاليدها، وأنماط المعيشة فيها، وقدم تفصيلات مسهبة عنها.

لا يأتي الإحجام عن التسمية عن جهل إنما عن قصد، فليس من الممكن معرفة كل تلك التفاصيل الدقيقة، مع جهل تامّ بأقوامها. يراد من حجب التسمية طمس حضور المسمّى، فالتسمية، بحَدّ ذاتها، تضفي قيمة في هذا السياق، سياق التعريف بالآخر، وهي في الفكر القديم والوسيط تشكل حضورًا قويًا، فتسمية الشيء تؤكّد حضوره، لكنَّ لاوعي المسعودي، والقزويني، والدمشقي، وغيرهم اختزل الآخر إلى كتلتين: إمّا أقوام معرّفة بالاسم لكنها تتشارك بخليط موحد من الخصائص الدونيّة، كما رأينا مع الدمشقي، وإمّا أقوام تنتقص في أسمائها، مع إفاضة واضحة في أعرافها وتقاليدها. وفي الحالين مكثت تلك الأقوام محجوبة وراء حكم قيمة، لم يكن منصفًا.

تبنّى المسعودي أسلوبين في رسم صورة الآخر: أسلوب وصفي مرّ بنا حينما أوردنا وصفه للروم، وفيه حاول أن يقدّم البنية الإثنوغرافية للمجتمعات خارج دار الإسلام، وبعض أوصافه مستعارة من الآخرين، كما سيظهر ذلك بوضوح في وصفه للهنود والصينيين في الفصل القادم؛ إذ استقى بعض معلوماته من سليمان التاجر، وابن وهب، والرحّالة الجوّابين في الشواطئ الهندية والصينية، دون أن يعلن عن ذلك، مع أنه نفسه قد طوّف في بلاد كثيرة، ثم أسلوب مبتسر تتلبّسه الأحكام المتواصلة، وهو أسلوب اختزالي يقوم على مبدأ الانتقاء. إن مبدأ الحكم القائم على المصادرة- ومثاله الواضح ما وقفنا عليه في أثناء الحديث عن تقسيم الأقوام الشمالية والأقوام التركية- فرضته تحيزات الثقافة السائدة، مثله في ذلك مثل ابن خلدون.

ومع أنه من الصعب تقبّل هذا الازدواج الظاهر لدى كبار الجغرافيين، لكن من الواضح أن المنهجية الفكرية المتّسقة مع نفسها في الرؤية والمنهج لم تكن واضحة في وعي المؤلّفين القدامى، وهو أمر لا يقتصر على المسلمين إنما يتجاوزه إلى اليونانيّين كما لاحظنا مع جالينوس وأرسطو على سبيل المثال. تتخلّل

كتابات القدماء تناقضات غير قابلة للحلّ إلاّ إذا عرفنا سرّ التأليف القديم الذي يقوم ، في أساسه على مبدأ التجميع لا الابتكار ، ويعدّ الأدب الجغرافي في الثقافة العربية-الإسلامية مثالاً ممتازًا على هذا الأسلوب من التأليف .

لكنّ هذه الملاحظة حول منهج القدماء ، وقد دفعنا إلى ذكرها المسعودي ، لن تنسينا موضوع الأقوام الشمالية الأخرى التي سيتكفّل الدمشقي بتقديم الوصف الآتي لها ، وهي : الخرلخية ، والخرجزية ، والكيماكية ، والغزية ، والبجناكية ، والطغزغزية ، والخلخلية ، والقلجية ، والغورية . وجميع هذه الأقوام عند الدمشقي أصحاب قلوب قاسية ، وطباع جافية ، ونفوس عاتية . ومنهم من سكن المدن ، ومنهم من سكن الجبال والبراري ، وما برحوا يتقلّبون مع الزمان في طلب الكلأ والعشب ، بالخيل والبقر والغنم ، وينزلون في بيوت الشعر والخركاوات ، وليس لهم عمل غير الصيد ، ويأكلون كل طائر وكل وحش ، وليس لهم ملّة ولا نِحْلة ، وإنما يرجعون إلى رسوم وضعتها ملوكهم[1] . يتأسّى الدمشقي على أقوام ليس لها شرائع سماوية إنما قوانين وضعية تنظّم حياتها .

٦. بدو الأصقاع الشمالية:

بدو الشمال الذين أشار الدمشقي إلى بعضهم لهم أشباه كثر في الأقاليم الشمالية العليا ، وهؤلاء كانوا مثار انتباه رحّالة متقدّم ، يقظ الملاحظات هو أبو دُلَف (مسعر بن مهلهل) وهو شاهد عيان متميّز ترك رحلتين ، الأولى إلى الصين والهند ، والثانية إلى أرمينيا ، وحوضَي البحرين الأسود وقزوين ، وبلاد فارس ، ويرجّح أنه عاش حياة مديدة استغرقت معظم القرن الرابع الهجري ، وقد أوفد في مقتبل عمره إلى الصين حوالي ٣٣١هـ-٩٤٣م فاتّجه إليها بطريق قادته إلى أقصى الشمال قبل أن ينعطف إلى الشرق ناحية هدفه . وفي أثناء مروره قدّم أبو دُلَف سردًا أخّاذًا للشعوب الشمالية التي مرّ بها ، كما قدّم التفاصيل شبه

(١) نخبة الدهر ، ص٢٦١ .

الكاملة للمسالك التي تربط شمال آسيا بالصين حيث تعيش مجموعة كبيرة من الأقوام التركية شبه البدائية ، وجميعها كانت مثار عجبه .

وتعدّ هذه الرحلة من الوثائق المبكّرة عن هذه المناطق شبه المجهولة ، وتتّصف بالكثافة ، وقوّة الملاحظة ، والسرد الاستقصائي المتتابع ، وكل ذلك أضفى على النصّ قيمة استثنائية لكونه انصرف إلى وصف الأحوال البشرية من حياة ، ودين ، وحكم ، لتلك الأقوام . فقد اخترق أبو دُلف الفيافي الشمالية متّجهًا إلى الشرق بإصرار لا يخفى ، فأثارته مظاهر حياة الجماعات التي مرّ بها بتفاصيلها كافة ، ولكن المعلومات القيّمة التي تضمّنتها رحلته الكثيفة ، وقد حرص ياقوت على إدراجها في معجمه ، اختنقت وسط إطار صارم من الأحكام العقائدية والأحكام الثقافية ، فلم يكن أبو دُلف منقطعًا عن المنظومة الدينية التي صاغت وعيه الديني في دار الإسلام ، وحدّدت طبيعة منظوره للآخر في دار الحرب ، فارتسمت صورة قاتمة لـ«الآخر» من خلال عينيه .

قال أبو دُلف : ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبجناك ، طوال اللحى ، أُولو أسبلة ، همجٌ ، يغِير بعضهم على بعض ، ويفترش الواحد المرأة على ظهر الطريق ، يأكلون الدخن فقط . فسرنا فيهم اثني عشر يومًا ، وأُخبرنا أن بلدهم عظيم مّما يلي الشمال بلد الصقالبة ، ولا يؤدّون الخراج إلى أحد . . .ثم سرنا إلى قبيلة تُعرَف بالجكل يأكلون الشعير ، والجلبان ، ولحوم الغنم ، فقط ، ولا يذبحون الإبل ، ولا يقتنون البقر ، ولا تكون في بلدهم ، ولباسهم الصوف والفراء لا يلبسون غيرهما . وفيهم نصارى قليل ، وهم صباح الوجوه ، يتزوّج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه ، وليسوا مجوسًا ، ولكن هذا مذهبهم في النكاح . يعبدون سهيلاً ، وزحل ، والجوزاء ، وبنات نعش ، والجدي ، ويسمون الشِّعرى اليمانية ربّ الأرباب . وفيهم دعة ، ولا يرَون الشرّ . وجميع من حولهم من قبائل الترك يتخطّفهم ، ويطمع فيهم . وعندهم نبات يعرف بالكلكان طيب الطعام يُطبخ مع اللحم . وعندهم معادن البازهر وحياة الحبق . ويعملون من الدم والذاذي البرّي نبيذًا يُسكِر سكرًا شديدًا ، وبيوتهم من الخشب والعظام ، ولا

ملك لهم . فقطعنا بلدهم في أربعين يومًا في أمن ، وخفض ، ودعة .

تبدو ملاحظات أبي دُلف على غاية من الأهمية ؛ إذ استرسل في انتقاء سلسلة متراكبة من العلاقات ، والتقاليد ، ومظاهر الحياة الاجتماعية ، تضافرت فيما بينها لترسم حال جماعات قبلية شبه منفلتة في علاقاتها ، وعقائدها ، وقد نظّمت طرز حياتها استجابة لتلك العلاقات ، والعقائد الطبيعية ، ورد كلّ ذلك بتمثيل سردي فيه درجة عالية من التقريرية . وفي خلفية الصورة انبثقت المقارنة ، فكل ذلك يبدو غريبًا لرحّالة مُشبع بقيم مغايرة . ولكن من المفيد أن ندعه يمضي في مساره مخترقًا تلك القبائل : ثم خرجنا إلى قبيلة تُعرَف بالبغراج ، لهم أسبلة بغير لحى ، يعملون بالسلاح عملاً حسنًا فرسانًا ورجالة ، ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه عَلَويَ ، وأنه من ولد يحيى بن زيد ، وعنده مصحف مذهّب ، على ظهره أبيات شعر رُثي بها زيد ، وهم يعبدون ذلك المصحف .

وزيد عندهم ملك العرب ، وعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، عندهم ، إله العرب ، لا يملّكون عليهم أحدًا إلاّ من ولد ذلك العَلَويّ ، وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم وشخصوا أبصارهم إليها ، يقولون : إن إله العرب ينزل منها ، ويصعد إليها . ومعجزة هؤلاء الذين يملّكونهم عليهم من ولد زيد أنهم ذوو لحى ، وأنهم قيام الأنوف ، عيونهم واسعة ، وغذاؤهم الدخن ، ولحوم الذكران من الضأن ، وليس في بلدهم بقر ولا معز . ولباسهم اللبود لا يلبسون غيرها . فسرنا بينهم شهرًا على خوف ووجل ، أدّينا إليهم العِشْر من كل شيء كان معنا .

تصادف مرور أبي دلف في بلاد مختلفة عن تلك التي ذكرها في الفقرة الأولى ، ثمة جماعة دمجت في عقيدتها الدينية بين المستويَيْن البشري ، والإلهي ، فقد وقع خلطٌ مثير للاهتمام . يعبد القوم مصحفًا خطّت على غلافه قصيدة رثاء ، وجعلوا من علي بن أبي طالب إلهًا لهم ، ومن نسله خلفاء عليهم ، ولكي يتم ربط الجانب البشري بالإلهي ؛ أي الحكم الدنيوي بالعبادة الدينية ، فلا بدَّ من البحث عن طريقة تمكّنهم ذلك ، فكانت السماء هي البوابة المناسبة لحلّ هذه المشكلة ، فإله العرب في حال من العروج والنزول .

ثم مرّ أبو دُلَف ببلاد أكثر غرابة : انتهينا إلى قبيلة يقال لها الخرلخ ، يأكلون الحمّص والعدس ، ويعملون الشراب من الدخن ، ولا يأكلون اللحم إلاّ مغموسًا بالملح ، ويلبسون الصوف ، ولهم بيت عبادة ، في حيطانه صور متقدِّمي ملوكهم ، والبيت من خشب ، لا تأكله النار ، وهذا الخشب كثير في بلادهم ، والبغي والجور بينهم ظاهر ، ويغير بعضهم على بعض . والزنى بينهم كثير غير محظور ، وهم أصحاب قمار ، يقامر أحدهم غيره بزوجته وابنه وابنته وأمّه ، فما دام في مجلس القمار فللمقمور أن يفادى ويفكّ ؛ فإذا انصرف القامر فقد حصل له ما قمر به ، يبيعه من التجار كما يريد . والجمال والفساد في نسائهم ظاهران ، وهم قليلو الغيرة ، فتجيء ابنة الرئيس فمن دونه أو امرأته أو أخته إلى القوافل إذا وافت البلد فتعرض للوجوه ؛ فإن أعجبها إنسان أخذته إلى منزلها ، وأنزلته عندها ، وأحسنت إليه ، وتصرّف زوجها وأخوها وولدها في حوائجه ، ولم يقربها زوجها ، ما دام مَنْ تريده عندها ، إلاّ لحاجة يقضيها ، ثم تتصرّف هي ومَنْ تختاره في أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها ، لا يغيره ولا ينكره . ولهم عيد يلبسون الديباج ، ومن لا يمكنه رقَعَ ثوبَه برقعة منه . ولهم معدن فضّة تستخرج بالزيبق . وعندهم شجر يقوم مقام الإهليلج قائم الساق ، وإذا طُلي عصارته على الأورام الحارة أبرأها لوقتها . ولهم حجر عظيم يعظّمونه ، ويحتكمون عنده ، ويذبحون له الذبائح ، والحجر أخضر سلقيّ . فسرنا بينهم خمسة وعشرين يومًا في أمن ودعة .

ترتسم ملامح العجب ، شيئًا فشيئًا في مخيِّلة أبي دُلَف ، ويفضح السرد منطقة الجهل لديه ، فالخرلخ يعتصمون بمعبد خشبي لا تؤثِّر فيه النار ، وهم عَبَدة أصنام حجرية ، يعظّمونها ، ويفتدونها بالأضاحي ، ويحتكمون إليها في خلافاتهم ، ولكن عبادتهم لا تتعارض مع نزوع دنيوي ظاهر يخلط بين المقامرة والإباحية ، فكلّ شيء مرهون بالمتعة . من الصحيح أن للرجل أن يقامر بزوجته ، أو حتى بأسرته كلها ، لكن النساء لهن الحرية في اختيار الخليل المناسب . فلا مزاحمة ذكورية حول الإناث ، لأنهن وحدهن اللواتي يخترن عشّاقهن ، ويجعلن

من مسكن الأسرة مخدعًا لمتعهنّ الجسدية .

لكن ، ما الذي تتميز به القبيلة الآتية؟ : انتهينا إلى قبيلة يقال لهم الخطلخ ، فسرنا بين أهلها عشرة أيّام ، وهم يأكلون البرّ وحده ، ويأكلون سائر اللحوم غير مذكاة . ولم أرَ في جميع قبائل الترك أشدّ شوكة منهم ، يتخطّفون مَنْ حولهم ، ويتزوجون الأخوات ، ولا تتزوّج المرأة أكثر من زوج واحد ، فإذا مات لم تتزوَّج بعده ، ولهم رأي وتدبير . ومن زنى في بلدهم أُحرق هو والتي يزني بها ، وليس لهم طلاق ، والمهر جميع ما ملك الرجل ، وخدمة الوالي سنة ، وللقتل بينهم قصاص ، وللجراح غرمٌ ، فإن تلف المجروح بعد أن يأخذ الغرم بَطُل دمه ، ومَلِكهم ينكر الشر ، ولا يتزوج ، فإن تزوَّج قُتِل[1] .

تُلفت الصورة المركّبة التي قدّمها أبو دلف في رحلته إلى الصين النظرَ إلى وجود أمم كثيرة لها طرزها الخاصّة في الحياة الاجتماعية ، والحياة الاقتصادية ، والحياة الثقافية ، بما في ذلك المنظومات العقائدية المتباينة ، فبعضها وثنيّ يعيش لحظات الحرّيّة الأولى قبل أن تتمكّن العقائد من صوغ العلاقات في ضوء نسق عامّ من القيم ، وبعضها أعاد تكييف العقيدة على وفق تفسير خاصّ به ، فالحقيقة القابعة في دار الإسلام لم تصل إليه كاملة ، فاكتفى بمظاهر مجتزأة منها ، وانتقى ما يناسبه ، فصار أحد تُقاتها إلهًا ، واحتُكِرت السلطة السياسية في أسرة واحدة .

ترتقي ملاحظات أبي دُلف إلى مستوى رفيع من الأهمّيّة ، لكونه عرض التنوُّعات الإثنوغرافية التي تتصف بها أمم عدّة متساكنة على جانبي المسار الذي قاده باتّجاه الصين ، فلم يكن مبعوثًا مشغولاً بوفادة ، فحسب ، إنما استأثر باهتمامه ما هو أهم من ذلك بكثير ، إذ تفرّد بسرد ثقافي كشف فيه البنية الجوّانية لتلك الأمم التي مرّ بها طائفًا ناحية الشرق . وفي كل ذلك كان أكثر تبصُّرًا من غيره من الرحّالة الذين جرّدوا أقوامًا مناظِرة من كل شيء ، ووصموهم

---

(١) معجم البلدان ، ص٤٤١-٤٤٣ .

بالضلالة ، والدونيّة . وعلى الرغم من ذلك ، فإن مروره المتعجّل ترك بصمات من الأحكام المتحيّزة ، فرضها النسق الثقافي الذي تشبّع به ، وهذا أمر لا يمكن توقّع خلافه في ذلك العصر .

لقد مرّ بنا كيف وُصف الصقالبة من قبل ، وكيف أُخرجوا من الجنس البشري ، أمّا البجناك الذين مرّ بهم أبو دلف ، وهم يصاقبون أولئك ، فإنهم همج ، وإباحيون . والجكل الذين يَلونَهم يمارسون سفاح المحارم ، ولم يدركوا الحدود الفاصلة بين الأفراد في العلاقات الجنسية ، وهم من عَبَدة الكواكب ، والبغراج الذين يأتون بعدهم يؤلّهون عَليًا ، ثم الخرلخ الزناة ، والوثنيون الذين ينحرون الأضاحي لأحجار خضر يعبدونها ، ويقامرون على زوجاتهم وأبنائهم ، ويفتقرون إلى الغيرة على نسائهم ، فيصاحبن من راق لهنّ من الرجال الغرباء (مثل نساء أيولاتن ، في غرب إفريقية اللواتي أثرن استغراب ابن بطوطة ، بسلوكهنّ المماثل ، كما سنرى في الفصل الأخير من هذا الكتاب) . وأخيرًا الخطلخ الذين يتزوّجون الأخوات ، لكن البأس فيهم ظاهر ، ويحرقون الزناة .

إن قائمة أبي دلف مثيرة بكلّ ما للكلمة من معنى ، ويكمن فيها فضول الرحّالة ، فسرده الخطّي قدّم صورة شاملة للعشائر المتناثرة في الأصقاع الشمالية لآسيا ، وهو يتخفّف من نبرة التحامل ، مقارنةً بسواه ، لكن وصفه انتقائي ، وفيه درجة غير خافية من التغليب ، إذ تتوارى البسالة أمام المثالب التي تُعرض ، بوصفها سلسلة من الحقائق الثابتة . وقد لا يرشّح من سرده انتقاص مقصود لذاته ، لكن التركيز على العلاقات شبه الإباحية ، والمحرّمة ، بين الرجل والمرأة ، وأعراف العبادة ، والوثنية الظاهرة ، جعلت تلك الأقوام ، طبقًا لمنظوره ، بحاجة إمّا إلى تصحيح عقائدها ، وأنظمتها الاجتماعية ، أو إلى تغيير تلك العقائد والأنظمة . وبعد كلّ ذلك تتصاعد النبرة الغرائبية ، فكلّما نأت الأقوام عن دار الإسلام سقطت في هوّة الجهل .

روى الدمشقي عن أبي عمر بن عبد البر في كتاب «القصد والأمم إلى معرفة أنساب الأمم» أن وراء صين الصين أممًا منهم مَنْ إذا طلعت الشمس يأوون

إلى مغارات فلا يخرجون منها حتى تغرب ، وأمّة يلتحفون بشعورهم ، وأمّة لا شعور لهم ، وأكثر ما يأكلون سمك البحر ، وخشاش الأرض ، ويحاذيهم ، من ناحية الشمال ، أمة شقر عُراة ، يتناكحون كما تتناكح البهائم ، تجتمع الجماعة على المرأة الواحدة . وبمشرق الأرض عند مطلع الشمس أمّة متولّدة بين السباع ، والناس ذوو عيون مدوَّرة ، وأنياب بارزة ممدّة ، وأذناب وأظفار معقّفة بأصابع قصار ، يسكنون الجبال ، طعامهم الحوت ، ودوابّ البحر ، ولهم زروع ودوابّ يركبونها[1] . أمّا بلاد يأجوج ومأجوج التي حيّرت الجميع ، ولم يصل إليها -فيما يروى- سوى سلاّم الترجمان ، فأهلها كفّار من أكَلة لحوم البشر ، ولا يجرؤ أحد على الوصول إليها ، بل هم ، كما يقول أبو زيد البلخي : أسوأ الناس عيشًا ، وأخبثهم طعمًا ، وأخرقهم خرقة ، وأقلهم تمييزًا وفطنة[2] .

كشفت سرود الارتحال إلى بلاد الشمال عن جماعات بشرية كثيرة ، تداخلت طرز حياتها بطقوسها الدينية ، وقد اهتمّ الرحّالة بالجوانب البشرية ، وانحسرت عنايتهم بوصف الطبيعة . وقد لاحظنا ، من قبل ، كيف أن ابن فضلان انتقى أمثلة فردية ، جسَّد من خلالها السلوك المجتمعي ، لكنه لم يهمل النظرة العامّة التي شملت الأقوام التي مرّ بها ، وظهر ذلك النسق التكراري من السرد عند معاصره أبي دُلَف ، وعند المسعودي ، وعند الدمشقي ، فالأمم في دار الحرب جماعات منفرطة لا رابط يشدّ أواصرها ، يمرّ بها الرحّالة ، وكأنها مشاهد متتابعة جرى تنضيدها لتعطي للرحلة معنى ، وللرحّالة دور ، فكل شيء يتشكّل عبر منظور إسلامي للعالم . فيما نظر الرحّالة إلى الجماعة الإسلامية على أنها كتلة متماسكة بالعقيدة التي أعادت صوغ الخصوصيات ، وارتفعت بالأعراق إلى رتبة الأمّة الكاملة . وهذه سمة تفتقر إليها الأمم في دار الحرب ، إذ لم تنصهر الجماعات ، بعدُ ، في مفهوم شامل للهوية .

---

(١) نخبة الدهر ، ص٢٦٥ و٢٦٦ .

(٢) أبو زيد البلخي ، المسالك والممالك ، ليدن ، بريل ، ص١٦٤ .

النصوص الرديفة

١ . شذرات من رحلة إبراهيم الطرطوشي إلى أوربا:

قال إبراهيم (الطرطوشي) : بلدُ الجلّيقيّين (شمال غرب إسبانيا) سهلٌ جميعه ، والغالب على أرضهم الرمل ، وأكثر قوتهم الدخن والذُّرة ، ومعوّلهم في الأشربة على شراب التفاح والبشكة ، وهو شراب يُتّخذ من الدقيق . وأهله أهل غدر ودناءة أخلاق ، لا يتنظّفون ولا يغتسلون في العام إلاّ مرة أو مرتين بالماء البارد . ولا يغسلون ثيابهم منذ يلبسونها إلى أن تنقطع عليهم ، ويزعمون أن الوسخ الذي يعلوها من عرقهم تنعم به أجسامهم وتصح أبدانهم . وثيابهم أضيق الثياب ، وهي منفرجة ، يبدو من تفاريجها أكثر أبدانهم . ولهم بأس شديد ، لا يرَون الفرار عند اللقاء في الحرب ، ويرَون الموت دونه .

بلاد إفرنجة في وسط الإقليم الخامس ، وهواؤها غليظ لشدة بردها ، ومصيفها معتدل . وهو بلد كثير الفاكهة غزير الأنهار ، منبعثة من ذوب الثلج . ومدائنه متقنة الأسوار محكمة البناء ، وآخر حدودها بحر الشام ، وحدُّه آخر البحر المحيط ، البحر الشامي بقبليّها والبحر المحيط بجوفيّها . ويتصل ببلاد رومة أيضًا من ناحية الجوف بلاد الصقالبة بينهما شعراء ملتفّة ، مسيرة الأيام الكثيرة ، ويتّصل بالشرق أيضًا بالصقالبة ويتصل بالغرب بالبشكنس ، ويتصل أيضًا ببلاد بيورة وهم الذين يعرفون بالأمانيس ، ولهم كلام غير كلام الإفرنج . وتتمادى إفرنجة في الطول والعرض مسيرة شهرين مع غيرها من القبائل . ويحجز بين بلاد إفرنجة وبلد الصقالبة في الجوف والشرق الجبل المعترض بين البحرين ، فيتمادى بلد الإفرنج مع ساحل البحر القبلي الشامي حتى يلتصق بجزيرة رومة ، وبلد لنقبرذية ، ويتمادى مع الجبل المعترض في الجوف إلى البحر المحيط .

ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالإنقلش ، وسيوف إفرنجية تفوق سيوف الهند .

بلد الإنقلش : وهم جنس من الأتراك نزلوا مصاقبين للصقالبة . وحدّ بلدهم في الغرب بلد بويرة وبلد بويصلاو . وفي الجوف منهم الرّوس ، وفي الشرق منهم البجناك وقفار لا تُسكَن ، هي بين بلد البجناك وبلد البلقارين من الصقالبة ، وفي القبلة بعض بلاد البلقارين ومسافة قفار لا تُسكَن . وأمّا بلاد الروس فهم في جزيرة حواليها بحيرة ، وطول جزيرتهم مسيرة خمسة أيام ، وفيها مشاجر وغياض . وملكهم يقال له خاقان روس ، وهم في نحو مئة ألف إنسان . وهم يغزون الصقالبة في السفن . وبلقان تبع للروس وموافقون لهم . وليس للروس مزارع ولا كسب إلاّ بسيوفهم . وقيل : هم ثلاثة أصناف ، صنف منهم ينزل ملكهم مدينة كودانية ، وهي أقرب من بلقان ، وهم أقرب الروس إلى بلقان ، وصنف آخر يسمّون الصلاوة ، وصنف ثالث يسمّون الأوثانية ، ومَلكهم مقيم بأوثان ، والتجّار إليهم لا يتجاوزون كويانة .

بلاد الصقالب متّصل من البحر الشامي إلى البحر المحيط إلى الشمال ؛ فتغلّب قبائل الجوف (الشمال) على بعضها ، وسكنوا حتى الآن فيما بينهم . وهم أجناس كثيرة مختلفة ؛ وقد كانوا ، فيما سلف يجمعهم مَلِك سمته ماخا ، وكان من جنس منهم يدعى ولينانا . وهذا الجنس معظّم فيهم ، ثم اختلفت كلمتهم فزال نظامهم ، وتحزّبت أجناسهم ، وملك كلّ جنس منهم مَلِك . وملوكهم الآن أربعة : ملك البلقارين (البلغار) ، وبويصلاو ملك فراغة ، وبويمة وكركوا (بولسلاس الأول ملك براغ ، وبوهيميا ، وكراكاو ، في القرن العاشر الميلادي) ومشقه ملك الجوف (مسكو الأول ملك بولندا في القرن العاشر الميلادي) وناقون في آخر الغرب (ناكون أمير القبائل التي استوطنت شمال ألمانيا في القرن العاشر الميلادي) .

وجاور بلد ناقون في آخر الغرب سكسون ، وبعض مرمان (نورمان ، وهم سكان البلاد الإسكندينافية) وبلده رخيصة الأسعار كثيرة الخيل ، ومنها يخرج

إلى غيرها . ولهم سلاح شاكٌ من الدروع والبيضات (الخوَذ) والسيوف . فمن فراغه (براغ) إلى ما يليه عشرة أميال ، إلى الجسر خمسون ميلاً ، وهو جسر من خشب ، في طوله ميل . ومن الجسر إلى حصن ناقون نحو أربعين ميلاً ، ويسمّى غراد ، وترجمته : الحصن الكبير . وفي قبل غراد حصن مبني في بحيرة عذبة الماء ، وكذلك تبني الصقالبة أكثر حصونهم : تعمد إلى المروج الكثيرة المياه والآجام فتخطّ فيه خطًا مستديرًا أو مربعًا قدر ما تريد من شكل الحصن وسعة ساحته ، وتحفر حواليه وتردم بالتراب المحفور ، وقد أوثق بالألواح والخشب على مثال الطوابي ، حتى يبلغ السور إلى الغاية التي تريد . وتذرع له بابًا من أي شقّ تشاء ويختلف إليه على جسر من خشب . ومن حصن غراد إلى البحر المحيط أحد عشر ميلاً . ولا تنفذ العساكر في بلاد ناقون إلاّ بالجهد الشديد ، لأن بلده كلّه متمرِّج وآجام وحمأة .

فأمّا بلد بويصلاو فطوله ، من مدينة فراغة إلى مدينة كركوا ، مسيرة ثلاث جمعات ، وهو مجاوز في الطول لبلاد الأتراك . ومدينة فراغة مبنيّة بالحجر والجير ، وهي أكثر البلاد متاجر ، تأتيها من مدينة كركوا الروس والصقالبة بالمتاجر ، ويأتيهم من بلاد الأتراك الإسلام واليهود والترك بالمتاجر أيضًا ، والمثاقيل المرقطية ، فيحملون من عندهم الدقيق والقزدير وضروب الأوبار . وبلادهم أطيب بلاد أهل الجوف وأزكاها معيشة ، يباع القمح عندهم بقنشار (عملة) ما يكفي به المرء شهراً .

ويباع الشعير بقنشار علف أربعين ليلة لدابة ، ويباع عندهم عشر دجاجات بقنشار . وبمدينة فراغة تصنع السروج واللجم والدرق المستعملة والمتَّخذة في بلادهم . ويصنع في بلاد بويمة (بوهيميا ، وهي الأراضي الجيك-سلافية) منيدلات خفاف مهلّلة النسج على هيئة الشبكة لا تصلح لشيء . وثمنها عندهم في كل زمان عشرة مناديل بقنشار ؛ بها يتبايعون ويتعاملون ، يملكون منها الأوعية وهي عندهم مال . وأثمن الأشياء يبتاع بها : الحنطة والدقيق والخيل والذهب والفضة وجميع الأشياء .

ومن العجيب أنّ أهل بويمة سمر سود الشعور، والشُّقرة فيهم قليلة . والطريق من ماذن برغ (مغدبورغ، مدينة ألمانية) إلى بلاد بويصلاو ومنه إلى حصن قليوي عشرة أميال، ومنه إلى نوب غراد ميلان . وهو حصن مبني بالحجارة والصاروج، وهو على نهر صلاوة وفيه يقع نهر بوده . ومن حصن نوب غراد إلى ملاحة اليهود - وهي على نهر صلاوة أيضًا- ثلاثون ميلاً، ومنها إلى حصن بورجين - وهي على نهر ملداوه- ومنه إلى طرف الشعراء خمسة وعشرون ميلاً . ومن أولها إلى آخرها أربعون ميلاً، في جبال وأوعار، ومنها إلى جسر من خشب على حمأة نحو الميلين، ومن آخر الشعراء يدخل مدينة فراغة .

فأمّا بلد مشقه فهو أوسع بلادهم، وهو كثير الطعام واللحم والعسل والحرث . وجبايته المثاقيل المرقطية، وهي أرزاق رجاله في كلّ شهر، لكل واحد عدد معروف منها . وله ثلاثة آلاف درّاع، وهم أجناد تعدل المئة منهم عشر مئة من غيرهم، ويعطي الرجال الملابس والخيل والسلاح وجميع ما يحتاجون إليه . وإذا وُلِد لأحدهم ولد أَمَر بإجراء الرزق عليه ساعة يولَد ذكرًا كان أو أنثى . فإذا بلغ، فإن كان ذكرًا زوجه ودفع عنه النِّحلة إلى والد الجارية، وإن كانت أنثى أنكحها ودفع النِّحلة إلى أبيها .

والنِّحلة عند الصقالبة عظيمة، ومذهبهم فيها كمذهب البربر، وإذا ولد للمرء ابنتان أو ثلاث فهنّ سبب غنائه، وإن وُلِد له ولدان فهم سبب فقره . ويجاور مشقه في الشرق الروس، وفي الجوف بروس (البروسيون)، وسكنى بروس على البحر المحيط، ولهم لسان على حدة، لا يعرفون ألسنة المجاورين لهم . وهم مشهورون في شجاعتهم، إذا أتاهم جيش لا يتوانى أحدهم حتى يلحق به صاحبه، وإنما يخرج لا يلوي على أحد، فيضرب بسيفه حتى يموت . ويغير عليهم الروس في المراكب من المغرب . وفي المغرب من الروس مدينة النساء، ولها بسائط ومماليك . وهن يَحْمِلن من عبيدهنّ، فإذا وضعت المرأة ذكرًا قتلته، ويركبن الخيل، ويباشرن الحرب، ولهنّ بأس وبسالة . قال إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي : وخبر هذه المدينة حقٌّ، أخبرني بذلك هوته ملك الروم (أوتو الأول، إمبراطور ألمانيا) .

وفي الغرب من هذه المدينة قبيلة من الصقالبة يقال لها أمة ولتابه ، وهي في غياض من بلاد مشقه مّما يلي المغرب وبعض الجوف . ولهم مدينة عظيمة على البحر المحيط ، لها اثنا عشر بابًا ولها مرسى . .وهم يحاربون مشقه ، وشوكتهم شديدة ، وليس لهم ملك ولا ينقادون لأحد ، وإنما الحكام فيهم أشياخهم . فأمّا ملك البلقارين فقال عنه إبراهيم بن يعقوب : لم أدخل بلده ، ولكني رأيت رسله بمدينة ماذن برغ ، حين وفدوا على هوته الملك ، يلبسون ملابس ضيّقة ، ويتمنطقون بأحزمة طوال ، قد رُكّب عليها ترامس الذهب والفضة . وملكهم عظيم القدر ، يضع على رأسه التاج ، وله الكتاب والأزمّة وأصحاب الخطط ، وأمر ونهي على نظم وترتيب كالمعهود للملوك الأكابر . ولهم معرفة بالألسن ويترجمون الإنجيل باللسان الصقلبي ، وهم نصارى .

قال إبراهيم بن يعقوب : وإنما تنصّر ملك البلقارين ، وأغار على بلاد الروم وحاصر مدينة القسطنطينية ، حتى داراه ملكها وأرضاه بجزيل العطايا . وكان مّما استرضاه به أن زوّجه ابنته فحملته على التّنصُّر . . .والقسطنطينية من بلقارين في القبلة وتجاورهم أيضًا في الشرق والجوف البجاناكية . وفي الغرب منها بحيرة بناجيه (خليج البندقية) وهو خليج يخرج من البحر الشامي بين الأرض الكبيرة والقسطنطينية . فيحيط بالأرض الكبيرة سواحل رومة وسواحل لنقبردية (لومبارديا) ، وينقطع باقولايه فتصير هذه المواضع كلها جزيرة واحدة ، قد أحاط بها البحر الشامي من القبلة ، وذراع بناجيه من جهة المشرق والجوف ، وبقي منها فتح من جهة المغَرب .

وتسكن حافّتي هذا الخليج من مخرجه في المشرق من البحر الشامي الصقالبة ؛ ففي الشرق منهم البلقارين وفي الغرب غيرهم من الصقالب . وهؤلاء الذين يسكنون في الغرب منه أشد بأساً ؛ وأهل تلك الناحية يستأمنونهم ويتقون شدّتهم . وبلادهم جبال شامخة وعرة المسالك . وبالجملة فإن الصقالب ذوو صولة وبطش ، ولولا اختلافهم بكثرة تفرّع أعراقهم وتفرُّق أفخاذهم ما قامت لهم في الشدّة أمّة من الأمم . وسكنوا من البلدان أجزلها ريعًا وأكثرها أقواتا ، وهم

يجتهدون في الفلاحة وطلب الأرزاق ، ويفوقون في ذلك جميع أمم الجوف . وتختلف تجارتهم في البر والبحر إلى الروس والقسطنطينية .

وجلّ قبائل الجوف يتكلّمون بالصقلبية لاختلاطهم بهم ، منهم قبائل الطدشكيين (قبائل ألمانية) والأنقليين (الهنغاريون) والبجاناكية ، والروس ، والخزر . وليس يكون الجوع في بلدان الجوف كلّها من القحط وتوالي الجدب ، إنما يكون من كثرة الغيث ، وتوالي الجمّة (الفيضانات) . ولا يكون المحل عندهم مهلكًا لأنه لا يتّقيه من أصابه لرطوبة بلادهم وشدّة بردها . وهم يزرعون في فصلين من العام ، في القيظ وفي الربيع ، ويرفعون رفعين ، وأكثر زرعهم الدّخن . والبرد فيهم سليم وإن تفاقم ، والحَرّ مهلك . وهم لا يقدمون على السفر إلى بلاد لنقبردية لحرّها ؛ لأن الحر يطغى عندهم فيهلكون .

والسلامة عندهم إنما تكون فيما يكون فيه المزاج جامداً ، فإذا انذاب وفارَ ذوي الجسد جاءه الموت من قبل ذلك . وتعمّهم علّتان لا يكاد أحدهم يسلم من أحدهما ، وهما ريحان : الحمرة والنواصير . وهم يجتنبون أكل الفراريج ، فإنها تصرعهم بزعمهم وتقوى عليهم ريح الحمرة ؛ ويأكلون لحوم البقر والإوز فتلائمهم . وهم يلبسون الثياب الواسعة إلاّ أن أردان أكمامهم ضيِّقة . ويحجب ملوكهم نساءهم ، ولهنّ غيرة شديدة عليهم . ويكون للرجل منهم عشرون زوجة فصاعداً .

وأكثر أشجار شعابهم التفاح والإجاص والفرشك (الخوخ) . وفيها طائر غريب تعلوه خضرة ، يحكي كلّ ما يسمعه من أصوات الناس والدواب ، وقد يوجد فيصيدونه ، ويسمّى بالصقلبية ، سبا . وفيها دجاج بريّة تسمى أيضًا بالصقلبية تترا ، وهي طيبة اللحم ، وتسمع أصواتها من أعالي الشجر على فرسخ وأكثرها صنفان : سود ، مُوشّاة ، أجمل من الطواويس . ولهم ضروب من المزاهر والمزامير ، ولهم مزمار طوله أكثر من ذراعين ، ومزهر عليه من الأوتار ثمانية أوتار ، وباطنه مسطّح لا مقبّب . وأشربتهم وأنبذتهم العسل .

٢. رحلة هارون بن يحيى إلى روما:

ذكر هارون بن يحيى أنه أُسر في الشام، وحُمل إلى القسطنطينية، ومكث فيها زمنا أتاح له معرفتها، ومنها أُخذ إلى روما، وقد وصف الطريق بين المدينتين في أثناء مروره الذي استغرق أشهرًا عدّة. وانتهى إلى بيان حال المدينة، فقال: وهي مدينة يدبِّر أمرها ملك يقال له الباب (البابا)، وطولها أربعون ميلاً في أربعين ميلاً، يجري إليها نهر من غربي المدينة فيخترق سككها قد فرش أسفل النهر بالصفر، وبني ضفّتاه أيضًا بالصفر، وقد عقد عليها جسور من صفر.

وفي وسط المدينة الكنيسةُ العظمى، طول الكنيسة مقدار فرسخين، وعليها ثلاثمئة وستون باباً، وفي وسط الكنيسة برجٌ طوله في الهواء مئة ذراع، وعلى رأس البرج قبة مبنية من الرصاص، وقد اتخذ على رأس القبة تمثال زرزر من صفر، فإذا كان أوان إدراك الزيتون جاءت الريح فدخلت في الزرزر، فيصيح فيجتمع زرازر تلك المدينة في منقار كل واحد منها زيتونة، فيطرحنها على ذلك البرج، فيؤخذ ذلك الزيتون ويعصر ويستخرج دهنها، فهو يكفيهم لمصابيح الكنيسة إلى السنة القابلة من ذلك الوقت. وفي الكنيسة قبر رجلين من الحواريين معمول من ذهب أحدهما في شرقي الكنيسة والآخر في غربيها، يقال لأحد صاحبي القبرين شمعون الصفا وللآخر بالوس، فإذا كان فصح النصارى في كل سنة، وهو يوم الخميس جاء الملك ففتح باب القبر ونزل إلى القبر ومعه موسى، فحلق رأس شمعون ولحيته، وقلَّمَ إظفاره، وصعد، وقسّم لكل رجل من أهل مملكته شعرة، هذا عملهم في كل سنة منذ تسع مئة سنة.

وحيطان هذه الكنيسة كلها مغشاة بالذهب، وأبوابها الغربية من نحاس صيني. والأبواب الداخلة التي على بيعة صلاتهم كلها مغشاة بالذهب، والموضع الذي يقعد عليه الكهنة مغشى كله بالذهب. وفي كل ركن من أركان هذه الكنيسة برج، على كل برج قبة مبنية من فضة يضرب عليها النواقيس، وفيها ألف مروحة ذهب عرض كل واحدة ذراع في ذراع مرصعة بالدرّ والياقوت

ولها مقابض من ذهب ولها ستمئة صليب من ذهب ، في وسط كل صليب درّة ووزن كل صليب ألف مثقال ، ولها اثنا عشر صليبًا على عدد الحواريين في كل صليب مئة منّ من الذهب ، ولها اثنان وسبعون صليبًا على عدد تلامذة الحواريين في كل صليب خمسمئة مثقال من الذهب ، وفيها ألف ومئتا كأس من الذهب يجعل فيها الخمر للتقريب مرصعة كلها بالجوهر ، وقد بني بيت المذبح أربعًا وعشرين ذراعًا في عرض اثنتي عشرة ذراعاً ، وفيها من الشمامسة والقسيسين ثلاثة آلاف ومئتا نفس على كلهم ديباج أبيض قيمة كل ثوب مئة دينار إلى مئة وخمسين ديناراً ، وعليهم طيالسة منسوجة بالذهب والدرّ ، ولها من السدنة ممن يتولون إشعال القناديل ستمئة .

وفي غربي هذه المدينة البحر الكبير وحوالي المدينة البساتين والزيتون ، ويغزو أهلها البربر من ناحية الأندلس وتاهرت على البحر من بلاد إدريس بن إدريس وتاهرت العليا ، وأهل الرومية صغيرهم وكبيرهم يحلقون لحاهم كلها لا يتركون منها شعرة واحدة على أذقانهم ، ويحلقون وسط هاماتهم ، فسألتهم عن السبب في حلق لحاهم ، وقلت لهم : «إن زين الرجال في اللحى ، فما مرادكم من هذا الذي تفعلونه بأنفسكم» . فقالوا : «إن كل من لم يحلق لحيته لم يكن نصرانيًا خالصاً ؛ وذلك أنه جاءنا شمعون الصفا والحواريون لم يكن معهم عِصيّ ولا حراب ، إنما كانوا مساكين ضعفاء ، وكنا نحن إذ ذاك ملوكًا علينا الديباج ، ونحن على كراسي الذهب يدعوننا إلى دين النصرانية ، فلم نجبهم ، فأخذناهم ، وعذبناهم وحلقنا رؤوسهم ولحاهم ، فلمّا ظهر لنا صدق قولهم صرنا نحلق لحانا كفّارة لما ارتكبناه من حلق لحاهم» .

ومن هذه المدينة تركب البحر فتسير ثلاثة أشهر حتى تنتهي إلى بلاد ملك برجان ، وتسير منها في جبال وعقاب شهرًا واحدًا حتى تنتهي إلى بلاد فرنجة ، ومنها تخرج فتسير أربعة أشهر حتى تنتهي إلى مدينة برطينية ، وهي مدينة كبيرة على ساحل بحر المغرب ، ويتملك عليها سبعة من الملوك . وعلى باب مدينتها صنم إذا رام الغريب أن يدخلها نام فلا يمكنه دخولها حتى يأخذه أهل

المدينة ، فيقفوا على مغزاه ومقصده في دخول المدينة . وهم قوم نصارى ، وهم آخر بلاد الروم ، وليس وراءهم عُمران .

ما وجدناه من صفة مدينة الرومية : ثلاث نواح منها في البحر العظيم ممّا يلي القبلة والمشرق والمغرب ، والناحية الرابعة ممّا يلي البرّ والجربيَّة ؛ يعني الشمال ، وطولها من الباب الغربي إلى الشرقي ثمانية وعشرون ميلاً ، ولها حائطان من حجارة ، وبينهما فضاء ستون ذراعاً ، وعرض السور الخارج ثماني أذرع ، وسمكه اثنتان وأربعون ذراعاً ، وفيما بين السورين نهر يسمّى فسطيطالس ، وهو مغطى ببلاط نحاس ، طول كل بلاطة ست وأربعون ذراعاً ، وعدد ما فيه من البلاط اثنتان وأربعون ألف بلاطة ، وعمق النهر اثنتان وتسعون ذراعًا في عرض ست وأربعين ذراعاً ، وفيما بين باب الذهب إلى باب الملك اثنا عشر ميلاً ، وسوق ممتدّة من الشرق إلى الغرب مثلّثة الأسطوانات وحنيًّتا الأوسط منها بعمد نحاس ، وقصبة العمود منها وقاعدته ورأسه مفرّغة ، وسمك كل عمود منها ثلاثون ذراعاً ، وفوق هذه العمد نقير من نحاس من المغرب إلى المشرق يجري فيه لسان من البحر ، وتجري السفن في هذا النقير بحمولتها ، وتحته حوانيت التجار للشراء والبيع ، فتجيء السفينة بما تحمله حتى تقف على حانوت الرجل الذي يبتاع منها .

وفي المدينة كنائس ، فجميع ما فيها أربع وعشرون كنيسة ، وكنائس أُخَر ، تقام الصلوات فيها كلّ يوم ، ألف ومئتا كنيسة ، وثلاثة وعشرون ألف دير عظام ، وحول سورها ألف ومئتان وعشرون عموداً فيها الرهبان جنس يسهرون الليل كلّه ، وفيها أسواق عظام ، وفي كل سوق قناتان عظيمتان من ماء ، وأسواقها كلّها مبلّطة برخام أبيض ، وفيها أربعون ألف حمّام ، وفيها مجامع أسواق يقام فيها التجارات خمسة وتسعون موضعاً . وليس فيها ، من تسع ساعات من يوم السبت حتى تغيب الشمس من يوم الأحد ، شراء ولا بيع ، وهم كلهم في الصلاة إلاّ ساعتين بعد أخذهم القربان للطعام ، ثم ينصرفون إليها .

وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم والحكمة من الرجال مئة وعشرون

مجمعاً ، وفي جميع كنائس المدينة من آنية الذهب والفضّة عشرة آلاف قنطار وأربعمئة جرّة من ذهب ومئتا جرّة من نحاس شبه الذهب وخمسون وثلاثمئة منارة ، والذي يظهرون في أيام الشعانين من صلب الذهب واحد وعشرون ألف صليب ، ومن صلب الفضّة والحديد والنحاس المنقوشة المموّهة بالذهب عشرة آلاف صليب . وفيها من المصاحف (الأناجيل) التي تُقرَأ في الكنيسة ، مكتوبة بالذهب والفضة ، ستة آلاف وأربعمئة مصحف ، وفيها من الكهنة والشمامسة ممّن يجري عليهم الأرزاق ثمانية وأربعون ألفاً ، لا ينقص عددهم ، كلما مات أحدهم أقاموا مكانه آخر .

٣. رحلة سلاّم الترجمان إلى بلاد يأجوج ومأجوج:

قال ابن خرداذبه : حدّثني سلاّم الترجمان ، وكان هو الذي يترجم كتب الترك التي كانت ترد على الواثق ، قال : لما رأى الواثق في المنام كأن السد الذي بناه ذو القرنين مفتوح ، وجّهني وضمّ إليّ خمسين رجلاً ، وقال لي : عاينه ، وجئني بخبره ، ووصلني بخمسة آلاف دينار وعشرة آلاف درهم ، وأعطى كل رجل من الخمسين ألف درهم ورزق سنة ، وأعطاني مئتي بغل أحمل عليها الزاد والماء ، وكتب إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية ، وهو بتفليس ، في إنفاذنا ، فشخصنا إليه من سُرّ من رأى ، فكتب إسحاق إلى صاحب السرير ، وكتب لنا صاحب السرير إلى بلد اللان ، وكتب ملك اللان إلى فيلان شاه ، وهو ملك ما يلي الباب والأبواب من خارج ، وكتب فيلان شاه إلى طرخان ملك الخزر ، فوجّه معنا ملك الخزر خمسة أدلاّء .

وسرنا من عنده خمسة وعشرين يومًا حتى انتهينا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة ، وكنا قد تحمّلنا شيئًا نشمّه ، ونحجب به نتن ريحها عند دخولها ، فسرنا نحو عشرة أيام حتى أفضينا إلى مدن خراب ، فسألنا عنها ، فأخبِرنا أن يأجوج ومأجوج خرّبوها ، فسرنا فيها سبعة وعشرين يومًا حتى أفضينا إلى حصن يقرب من الجبل الذي هو أحد الصدفين ، تتّصل به حصون فيها قوم

يتكلمون بالعربية وبالفارسية ، مسلمون يقرؤون القرآن ولهم مساجد ، فسألونا من أين أقبلنا ، فأخبرناهم أنا رسل أمير المؤمنين ، فجعلوا يتعجّبون ، ويقولون : أمير المؤمنين؟! فنقول : نعم ، فيقولون : أشيخ هو أم شابّ؟ فقلنا : شابّ ، فعجبوا أيضًا ، وقالوا : أين يكون؟ قلنا : بالعراق ، في مدينة يقال لها سُرّ من رأى ، فيقولون : ما سمعنا بهذا قَطّ .

ثم سرنا إلى جبل أملس يكاد البصر ينبو عنه ، وإذا جبل مقطوع عرضه مقدار مئة وخمسين ذراعاً ، وإذا عضادتان مبنيّتان ممّا يلي الجبل من جنبتي الوادي عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعًا ، في سمك خمسين ذراعًا ، وعتبة الباب السفلى عشرة أذرع في بسط مئة ذراع سوى ما تحت العتبتين ، والظاهر منها خمسة أذرع ، وهذا الذراع بذراع السواد ، وعلى أعلى العضادتين دروند حديد ، طرفاه على العضادتين ، طوله مئة وعشرون ذراعاً ، والدروند العتبة العليا ، وقد ركب فيها على كل واحدة من العضادتين مقدار عشرة أذرع ، ومن فوق الدروند بنيان متّصل بلبن الحديد المغيب في النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مدى البصر وفوقه شرافات حديد ، في طرف كل شرافة قرنان مثنيا الأطراف بعضهما إلى بعض ، وللباب مصراعان معلقان ، عرض كل مصراع خمسون ذراعًا في ثخن خمسة أذرع ، وقائمتاهما في دوارة على قدر الدروند . وعلى الباب قفل ، طوله سبعة أذرع ، في غلظ ذراع في الاستدارة ، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً ، وفوق القفل بخمسة أذرع غَلق طوله أكثر من طول القفل ، وعلى الغَلق مفتاح ، طوله ذراع ونصف ذراع ، وله اثنا عشر دندانجة ، كل دندانجة منها كأغلظ ما يكون من دساتج الهواوين كل واحدة منها معلّقة في سلسلة طولها ثمانية أذرع في استدارة أربعة أشبار ، والحلقة التي في السلسلة مثل حلقة المنجنيق .

ورئيس ذلك الحصن يركب في كل جمعة في عشرة فوارس مع كل فارس مرزبة من حديد فيها خمسة أمنان ، فيضربون القفل بتلك المرازب ثلاث مرات ، فيسمع من وراء الباب الصوت ، فيعلم أن هناك حفظة ، ويعلم هؤلاء أن أولئك

لم يحدثوا شيئًا في الباب ، فإذا ضرب أصحاب الحصون القفل وضعوا آذانهم فيسمعون دويًا ، ومع هذا الباب حصنان ، يكون كل واحد منهما مئتي ذراع في مثلها ، بينهما عين عذبة .

وفي أحد الحصنين بقية من آلة البنيان التي بُني بها السدّ من قدور الحديد ومغارف الحديد والديدكانات ، وعلى كل ديدكان أربع قدور مثل قدور الصابون ، وهناك بقايا من لبن الحديد ، قد التصق بعضها ببعض ، واللبنة ذراع ونصف في سمك شبر ، وبالقرب من هذا الموضع حصن كبير ، عشر فراسخ في مثلها ، تكسيرها مئة فرسخ . قال : وسألت مَنْ هناك ، هل رأوا أحدًا من يأجوج ومأجوج ، فذكروا أنهم رأوا ، مرة واحدة عددًا منهم فوق الشرف ، فهبت ريح سوداء فألقتهم إلى جانبهم من السد ، وكان مقدار الرجل منهم ، في رأي العين ، شبرًا ونصف شبر . قال : فلمّا انصرفنا أخذنا أدلاّء فأخرجونا إلى ناحية خراسان حتى وصلنا إلى سمرقند ، وكان أصحاب الحصون زوّدونا ، ثم صرنا إلى عبد الله بن طاهر . قال سلاّم : فوصلني بمئة ألف درهم ، ووصل كل رجل معي بخمسة آلاف درهم وأجرى علينا حتى وصلنا إلى الريّ ، فوصلنا إلى سُرّ من رأى لثمانية عشر شهرًا وعشرين يومًا من يوم خرجنا منها .

٤. شذرات من رحلة الغرناطي إلى بلاد البلغار، والصقالبة، والباشغرد:

قال أبو حامد الغرناطي : يوجد في أرض البلغار من عظام قوم عاد ، وتوجد تحت الأرض أنياب الفِيَلة والناب أبيض كالثلج ، ثقيل كالرصاص ، الواحد مئتا منٍّ وأكثر وأقلّ . لا يُدري من أيّ حيوان هو . يُقطع ويُحمل إلى خوارزم وخراسان وتُتّخذ منه الأمشاط والحقاق وغير ذلك كما يتّخذ من العاج ، وهو أقوى من العاج ، لا ينكسر . وفوق هذه الولاية أمم لا عدد لهم ، يعطون الجزية لملك بلغار ، ولهم ولاية تؤدّي الخراج ، بينهم وبينها مسيرة شهر ، يقال لها ويسوا ، وولاية أخرى يقال لها يورا ، فيها يُصطاد القندز والقاقم والسنجاب الجيّد . والنهار يكون هناك ، في الصيف ، اثنتين وعشرين ساعة .

ومنهم تجيء جلود القندز الجيد الفائق . والقندز حيوان عجيب يكون في الأنهار العظام ، ويتّخذ بيوتًا في البر إلى جانب النهر . وسمعتُ ببلغار ، وهي مدينة في آخر بلاد الإسلام ، في الشتاء يكون النهار في الصيف عشرين ساعة ، والليل أربع ساعات ، ويكون الليل في الشتاء عشرين ساعة والنهار أربع ساعات ، ويشتدّ البرد فيها ، حتى إذا مات لهم أحد لا يقدر أن يدفنه ستة شهور ، لأن الأرض تصير كالحديد . ولا يمكن أن يحفر بها قبر . ولقد مات لي بها ولد ، وكان في آخر الشتاء ، فلم أقدر على دفنه ، فبقي في البيت ثلاثة شهور حتى أمكن دفنه . ويبقى الميّت كالحجر .

وأهل البلغار أصبر الناس على البرد ، وسببه أن أكثر طعامهم العسل ولحم القندز والسنجاب . ووراء ويسوا ولاية تعرف بيورا على بحر الظلمات ، يكون النهار عندهم في الصيف طويلاً جداً . حتى أن التجار يقولون إن الشمس لا تغيب مقدار أربعين يوماً . وفي الشتاء أيضًا يكون الليل طويلاً مثل ذلك . والناس يحملون من بلاد الإسلام سيوفًا تُتّخذ في زنجان وأبهر وتبريز وأصفهان . ولا يتّخذون لها آلة ولا حيلة إلاّ حديدًا كما يخرج من النار ، وذلك السيف هو الذي يصلح أن يحمل إلى يورا .

وأهل يورا ليس عندهم دوابّ ولا مواشٍ إلاّ أشجارًا عظيمة وغياضًا يكثر فيها العسل . ويكثر عندهم السمّور جداً ، ويأكلون لحمه . والتجّار يحملون إليهم هذه السيوف وعظام البقر وعظام الغنم ، ويأخذون أثمانها جلود السمّور . ولهم في ذلك ربح كثير . والطريق إليهم في أرض لا يفارقها الثلج أبدًا . ويتّخذ الناس لأرجلهم ألواحًا ينحتونها ، طول كلّ لوح باع ، وعرضه شبر ، مقدّم ذلك اللوح ومؤخره مرتفعان عن الأرض ، وفي وسط اللوح موضع يضع الماشي فيه رجله ، وفيه ثقب قد شدّوا فيه سيورًا من جلود قويّة يشدّونها على أرجلهم .

ويُقرَن الرجل بين اللوحين اللذين يكونان في رجله بشندال طويل مثل عنان الفرس ، يمسكه في يده الشمال ، وفي يده اليمنى عصا بطول الرجل ، وفي أسفل العصا مثل كرة من الثياب محشوّة بصوف كثير مثل رأس الإنسان

خفيفة . ويعتمد على تلك العصا فوق الثلج ، ويدفع العصا خلف ظهره كما يصنع الملاح في السفينة ، فيذهب على ذلك الثلج بسرعة . ولولا تلك الحيلة لم يمكن أحد أن يمشي هناك البتّة ؛ لأن الثلج على الأرض مثل الرمل لا يتلبّد . وأيّ حيوان مشى عليه يغوص فيه فيموت إلاّ الكلاب والحيوان الخفيف كالثعلب والأرنب ، فإنها تمشي عليه بخفة وبسرعة .

والثعالب والأرانب في تلك البلاد تبيضّ جلودها ، حتى تكون مثل القطن . وكذلك الذئاب أيضًا في ناحية بلغار تبيضّ جلودها في زمن الشتاء . وتلك السيوف تُحمَل من بلاد الإسلام إلى بلغار ، وفيها ربح كثير . ثم يحملها البلغاريون إلى ويسوا موضع القندز ، ثم أهل ويسوا يحملونها إلى «يورا» يشترونها بجلود السمور وبالجواري وبالغلمان .

ثم كل آدمي يكون هناك يحتاج كل سنة إلى سيف يلقيه في بحر الظلمات . فإذا ألقوا السيوف أخرج الله لهم من البحر سمكة مثل الجبل العظيم ، تطردها سمكة أخرى أكبر منها أضعافًا مضاعفة ، تريد أكلها . فتفرّ الصغرى من الكبرى ، فتقرب من البر وتصير في موضع ، لا يمكنها الرجوع منه إلى البحر ، فتبقى هناك ، وترجع الكبرى إلى البحر ، ويدخل أهل يورا إلى البحر في السفن ويقطعون من جوانبها ، وليس عند السمكة من ذلك حسّ ولا تتحرك فيملؤون بيوتهم من لحمها ، ويصعدون على ظهرها ، وهي كالجبل العظيم .

لما دخلتُ بلاد الصقالبة خرجت من بلغار ، وركبت سفينة في نهر الصقالبة . وماؤه أسود مثل بحر الظلمات ، كأنه الحبر . وهو مع ذلك حلو طيب صاف ، ليس فيه سمك . وفيه الحيّات السود الكبار . بعضها على بعض أكثر من السمك لا تؤذي أحداً ، وفيه حيوان مثل السنّور الصغير . له جلد أسود يسمى سمور الماء تحمل جلوده إلى بلغار . ولمّا وصلت إلى بلادهم رأيت بلاداً واسعة . كثيرة العسل ، والحنطة ، والشعير ، والتفاح الكبير ، ويتعاملون بينهم بجلود السنجاب القديم الذي لا شعر عليه . وللصقالبة سياسات عظيمة . إذا تعرض أحد لجارية غيره أو ولده أو دابته أو تعدّى بأي شيء من التعدي كان ،

أُخِذ من المتعدّي جملة من المال . فإن لم يكن له مال بيع أولاده وبناته وزوجته في تلك الجناية . فإن لم يكن له أهل ولا أولاد بيع هو . فلا يزال عبدًا يخدم من يكون عنده حتى يموت . وبلادهم آمنة ، وإذا عامل المسلم منهم أحدًا وأفلس الصقلبي بيع هو وأولاده وداره ، ويعطى لذلك التاجر دَينه . والصقالبة شجعان ، وهم على مذهب الروم في النصرانية ، نسطورية . وحدّثت عنهم أنهم كل عشر سنين يكثر السحر عندهم ، وتفسد عليهم نساؤهم بالعجائز السحَرة ، فيأخذون كل عجوز في ولايتهم ، فيشدّون أيديهنّ وأرجلهنّ ويلقونهنّ في النهر . فكل من رسبت من العجائز في الماء تركوها ، وعلموا أنها ليست ساحرة ، والتي تطفو على الماء يحرقونها بالنار .

وبلاد الباشغرد هي فوق بلاد الصقالبة بأربعين يوماً . وبلادهم التي تعرف بأنقورية هي ثمان وسبعون مدينة ، كلّ مدينة لها حصون ورساتيق وقرى وجبال وغياض وبساتين ، وفيها من أولاد المغاربة آلاف لا عدد لهم ، وفيها من أولاد الخوارزميين آلاف لا عدد لهم أيضًا ، وأولاد الخوارزميين يخدمون الملوك ويتظاهرون بالنصرانية ، يكتمون الإسلام . وأولاد المغاربة لا يخدمون النصارى إلاّ في الحرب . وهم يعلنون الإسلام .

ولمّا دخلت بين أولاد المغاربة أكرموني ، وعلّمتهم شيئًا من العلم ، وأطلقت ألسنة بعضهم بالعربية ، وكنت أجتهد معهم في الإعادة والتكرير في فرائض الصلاة وسائر العبادات ، وكانوا لا يعرفون الجمعة ، فعلموا صلاة الجمعة والخطبة ، وعندهم اليوم أكثر من عشرة آلاف مكان يخطب فيه الجمعة ظاهرًا وباطناً ، لأن ولايتهم عظيمة . أقمت بينهم ثلاث سنين ، واشتريت جارية مولّدة من سيّدها بعشرة دنانير ، بنت خمس عشرة سنة ، أحسن من القمر ، سوداء الشعر والعين ، بيضاء كالكافور . تعرف الطبخ والخياطة والرقم . وجاء منها ولد ومات ، فأعتقتها وسمّيتها مريم . وكان ملك باشغرد يخرّب بلاد الروم ، فقلت لأولئك المسلمين : اجتهدوا في الجهاد مع هذا الملك ، فإنه يكتب لكم فيه ثواب الجهاد . فخرجوا معه إلى بلاد قسطنطينية ، وهزموا لملك الروم اثني عشر

عسكراً . فجاء صاحب القسطنطينية طلبًا للصلح . وبذل أموالاً كثيرة .

وحدثني بعض الأسارى من المسلمين ممن كانوا في الروم أن ملك الروم سأل : ما السبب في خروج ملك باشغرد إلى بلادي وتخريبها ، وما كان له بهذا عادة . فقيل له : ملك باشغرد عنده عسكر من المسلمين ، فقد تركهم يظهرون دينهم ، فهم الذين أخرجوه إلى ولايتك ، وخرّبوا بلادك . فقال لهم : وعندي مسلمون لا يقاتلون معي ، فقيل له : أنت تقهرهم على النصرانية ، فقال : لن أقهر مسلمًا على ديني أبدًا ، وأبني لهم المساجد حتى يقاتلوا معي . وملك باشغرد يسمّى كزالي ، وملكه أعظم من ملك صاحب الروم أضعافًا مضاعفة ، لا تحصى جنده ، وولايته أكثر من ولاية الروم عشرين يومًا وأكثر ، وهو على مذهب الإفرنج ولكنه يُسبيهم ، وجميع الأمم يخافون من شرّه لكثرة جنده وشدّة بأسه .

ولمّا سمع أنني منعت المسلمين من شرب الخمر ، وأبحت الجواري ، وأربعًا من الحرائر ، قال : «ليس هذا من العقل ؛ لأن الخمر يقوي الجسد ، وكثرة النساء تضعف الجسد والبصر ، ودين الإسلام لا يكون على وفق العقل» . فقلت للترجمان : «قل للملك : شريعة المسلمين ليست مثل شريعة النصارى . النصراني يشرب الخمر على الطعام بمنزلة الماء ولا يسكر . والمسلم الذي يشرب الخمر إنما يطلب منه غاية السكر ، فيذهب عقله ، ويصير كالمجنون ، ويزني ، ويقتل ، ويكفر ، ولا خير عنده . وقد يعطي سلاحه وفرسه ، ويضيع ماله في سبيل لذاته . والمسلمون ، هاهنا ، جندك ، وإذا أمرت الواحد بالغزو لا يكون له فرس ولا سلاح ولا مال ؛ لأنه أهلكه في الشراب .

وأمّا الجواري والنساء فإن المسلمين يوافقهم النكاح لحرارة طباعهم ، وأيضًا- فهم جندك . فإذا كثر أولادهم كثر جندك» . فقال : «اسمعوا من هذا الشيخ ، فإنه عاقل» . وقال : «تزوّجوا ما شئتم ، ولا تخالفوه» .

الفصل الرابع

توغلات في أعماق الشرق

١. أطياف متنوعة:

ظهر الشرق، في سرود الارتحال، جذّابًا، ومتنوّعًا، لكنّه ظلّ ممتثلاً للمفاضلة التقليدية بين دار الإسلام ودار الحرب. ومع أن الرحّالة، والجغرافيين، والمؤرِّخين، وقفوا على التباين العقائدي المختلف عن نظيره في دار الإسلام، لكنّهم لم يستدرجوا منه تحاملاً غاضبًا كالذي مرّ بنا في موقفهم من بلاد الشمال. على أن ذلك لم يُخفِ التصوُّر العامّ الذي اعتبر الصين وجزءاً كبيرًا من الهند، والبلاد المحيطة بهما، والجزر المحاذية لهما، ضمن دار الحرب، ونظر إلى أهلها بوصفهم كفّارًا. ومع ذلك يمكن القول، ببعض التحرُّز، بأن صورة الشرق، باستثناء الأقاصي البعيدة، والجزر النائية، هي صورة مقبولة، وتكاد تكون أحيانًا خالية من التشويه المتعمّد، وركّبت بدرجة ما من الموضوعية أفضل بكثير من الصور التي رسمتها الآداب الجغرافية لأهل الشمال في أوربا، وللزنوج والسودان في إفريقية.

شكّلت الهند والصين قلب الشرق طوال القرون الوسطى، وتجاورهما من الشمال ممالك كثيرة، وتترامى في المحيط الهندي جزر لا تحصى كانت على الدوام مناطق مأهولة بالبشر، واستأثرت باهتمام الرحّالة، مثل ابن بطوطة، والرام هرمزي، وابن وهب، سليمان التاجر، وأبي عبدالله بن إسحاق. لكن تركيز كبار الجغرافيين والرحّالة انصبّ على الهند والصين، كالمسعودي، والحميري، والبيروني، واليعقوبي، والدمشقي، وياقوت الحموي، ويأتي في مقدمة هؤلاء وأولئك ابن بطوطة الذي طاف بالشرق بحرًا وبراً، وترك مدوّنة سرديّة تفصيلية ندر مثيلها. إلى ذلك جاور المسلمون تلك البلاد، وأدخلوا بعضًا منها إلى دار الإسلام، كما ارتحلوا إليها للتجارة، وعرفوا الطرق البحرية والطرق البرية المؤدية إليها، وكل هذا جعلها معروفة لديهم، وهذه المعرفة لعبت دورًا بالغ

الأهمية في تشكيل صورة الشرق في الخيال الإسلامي ، وهي صورة غير مسيئة في عمومها ، ولكنها غير مُرضية في تفاصيلها الدقيقة ، وفيها نوع من التحفظ حول طبيعة العلاقات الاجتماعية ، الدينية ؛ فالشعوب تتخفف من الأحكام المشوّهة كلما اتّصلت فيما بينها بروابط مباشرة ، وقد استأثرت كلٌّ من الهند والصين بموقع استثنائي بين كلّ الصور التي شكّلها المسلمون عن الشعوب خارج دار الإسلام ، وحظيت بسرد غزير ومتنوِّع لم تحظَ به بقاع العالم الأخرى .

٢. منابع الحكمة الدنيوية:

أوّل ما لفتَ انتباه الرحّالة كون الهند مملكة للحكمة وللعدالة ، ولا يبدو أن بلادًا أخرى ضارعتها في ذلك طوال العصر الوسيط . وقد اشتق ذلك الحكم من معاينة مباشرة ، يصعب التشكيك فيها ، أو نقضها ، فأصبحت حقيقة وقع تداولها في المرويّات السرديّة . وبخلاف ما نجد في دار الإسلام حيث العدالة والحكمة تقرِّرهما الإرادة الإلهية العليا ، فإنهما في حالة الهند ينبعان من الأرض ، ويرتبطان بالإنسان ؛ فالديانة الهندية بشرية ، ومصدرها الأرض لا السماء . ولم يشكّك أحد في ذلك . ولم يحتج الرحّالة والجغرافيون على كون العدالة والحكمة مبعثهما الدنيا ، فهما ممارستان بشريتان يقع تعديلهما في ضوء التجربة وصولاً إلى الحال المرضية التي يتوافق عليها الجميع ، إذ ليس ثمة عدالة أو حكمة ثابتة ونهائية .

وعلى الرغم من هذا ، ينبغي التأكيد على قضية مهمّة لها صلة مباشرة بالصور المتشكّلة للشعوب فيما بينها ، وهي أن الموجّه العقائدي لعب دورًا أساسيًا في تركيب الصورة المتبادلة ، إذ احتكرت الفضائل للأنا ، ورُمِيَ الآخر بالرذائل ، على أن بعض الرحّالة والمؤرخين والجغرافيين المسلمين تخطّوا هذا السياج المحكم في مرات ليست قليلة ، فيما يخصّ جوانب الحياة الأخرى ، إلى درجة يمكن القول بسبب ذلك إنه سياج مشكوك في فاعليته المعرفية ، إذا ما تعلّق الأمر بغير العقيدة ، فطالما أثنوا على أقوام لسمات اختصّوا بها ، كالشجاعة

المميزة للأقوام الشمالية ، والتجارب الحية التي دوَّنها أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» عن الصليبيين تتنزل شاهدًا ضمن هذا المجال ، كما أثار التنظيم العُمراني إعجاب المسلمين في روما ، والقسطنطينية ، والحواضر المسيحية الأخرى ، وهو ما أشار إليه ياقوت الحموي ، والمسعودي ، وابن بطوطة ، وابن جبير ، والطرطوشي .

انتزع التنظيم في شؤون الحياة ، والشجاعة في الحرب ، إعجاب المسلمين حيثما ظهرا ، وبسببهما جرى ، في بعض الأحيان ، التغاضي عن المهيمن الأساسي في توجيه الأحكام ، وهو الدين . والغالب أنه في القضايا الدنيوية ، بما فيها أنظمة العبادة (وليس مضامينها) ، اتّصف الرحّالة بنزاهة لافتة للنظر ، وموضوع الحكمة والعدالة الهنديتين يندرج في هذا السياق . من الصحيح أنهم ظلوا يتحفّظون على القيم الوثنية ، ويتبرّمون منها ، ويحتجّون عليها علنًا أو سراً ، إلاّ أنهم أبدَوا تفهمًا عميقًا للعدل ، والمهارة ، والشجاعة ، والصدق .

من القضايا التي استرعت اهتمام المسعودي أمر المُلك ، ففيه إصلاح للرعية ، والتشدّد في الشروط التي ينبغي توافرها فيه يحقِّق مبدأ العدالة ؛ فالمُلك ليس تملّكًا عاديًا ، إنما هو إشاعة أخلاقيات اجتماعية سويّة ، في الحقوق والواجبات ، وفساد المالك الأوّل يشرِّع الأبواب أمام فساد الآخرين . لا يمكن وقف فساد يشرّعه سلوك في منأى عن الرقابة ، حتى لو كانت الرقابة رمزية ، وعليه ينبغي التدقيق في آليّة تولّي الملك منصبه ، ودوره في متابعة شأن رعيَّته .

ومع أن شرط الاحتجاب الملوكي حفاظًا على الهيبة ظلّ سلوكًا شائعًا إلى وقت متأخر ، فإن المسعودي لفت الانتباه إلى الدور الذي يتعهّده الملك ، وعليه ينبغي اختيار مَن يكون قادرًا على الوفاء بشروط هذه المهمّة ، «والهند لا تُملّك الملكَ عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة ، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامّهم إلاّ في كل برهة من الزمان معلومة . ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية ؛ لأن في نظر العوامّ عندها إلى ملوكها خرقًا لهيبتها ، واستخفافًا بحقها ، والرياسات

عند هؤلاء لا تجوز إلاّ بالتخيّر، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السيّاس»[١] .

عمّق سليمان التاجر هذه الفكرة، وأحاط بجوانب أخرى لها، حينما عزّزها بملاحظاته المباشرة في جزيرة سرنديب (سيلان - سريلانكا)؛ إذ انصبّ التركيز على البعد الاعتباري لمقام الملك بعد وفاته. والطقس الخاصّ بذلك جدير بأن يُعرض كاملاً، كما شاهده سليمان التاجر (وقد نسب المسعودي الأمر إليه)، إذ تصبح جثة الملك التي تجرّ في الطرقات أمام الناس مثار عظة، واعتبار للجميع «ورأيت في بلاد سرنديب أن الملك من ملوكهم إذا مات صُيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة، مُعدَّة لهذا المعنى، وشعره ينجرّ على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: «أيّها الناس، هذا مَلِكَكُم، بالأمس قد مَلَكَكُم وجاز فيكم حكمه، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه مَلَكُ الموت، والحيّ القديم الذي لا يموت، فلا تغترّوا بالحياة بعده». وتقول كلامًا هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم، ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع، وقد هيئ له الصندل، والكافور، وسائر أنواع الطيب، فيُحَرق بالنار، ويُذرّ رماده في الرياح، وكذا فِعْلُ أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصّهم؛ لغرض يذكرونه، ونهج يتيمّمونه في المستقبل من الزمان، والمُلْك مقصور على أهل بيت، لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء، والقضاة وسائر أهل المراتب، لا تغيّر ولا تبدّل»[٢] .

لا يمكن حجب القيم الأخلاقية الكبرى عن الأنظار، والسرد قادر على كشف ذلك بدقّة، فالمَلِك رمز يتحقّق به العدل الدنيوي، وينبغي إلاّ يفوّض بسلطات خارقة، وإلى ذلك فمصيره مرهون بمدى تحقيقه لذلك العدل، وما إنْ

(١) مروج الذهب، ج١، ص ٨٣.

(٢) السيرافي، رحلة السيرافي، تحقيق عبدالله الحبشي، أبو ظبي، ١٩٩٩، ص٤٥.

يتوفّى حتى ويُجَرّد عن هيبته الدنيوية لإزالة مظاهر السيطرة التي التصقت به خلال حكمه ، والحال هذه ، فنزع هيبة المَلِك بسحل جسده في الطرقات ، يراد منه تخريب مفهوم القوة الناشئ عند الآخرين الذين يتوهّمون ديمومة خالدة لأدوارهم الدنيوية . وفي نهاية المطاف ، فكل ذلك درس يقرُب إلى أن يكون تزهُّدًا غايته وضع حدّ فاصل بين غرور السلطة ، ووقار الحكمة . ولا يقع احتفال بالجسد في الثقافة الهندية ، كما هو الأمر في كثير من الثقافات الأخرى ، فهو وعاء ينبغي الاهتمام بمضمونه الروحي ، ولهذا يُذَلّ ، بما في ذلك جسد الملك ، كي يتمّ الإعلاء من مضمونه الروحي .

استأثرت مظاهر العدل والحكمة باهتمام الرحّالة المسلمين ، وبوصفهم غرباء عن بلاد الهند ؛ فتلك المظاهر كانت أول ما يسترعي انتباههم . وقد لاحظ أبو عبدالله بن إسحاق بأن العدل- في عهد أحد ملوكهم ، ويقال له الجُرْزة- مستفيض : فلو طرح الذهبُ في وسط الطريق ما خافوا عليه أحدًا يأخذه ، من عَدلهم ، وبلاده واسعة . والعرب يرحلون إليه في تجارتهم فيبرُّهم ، ويشتري منهم ، ومعاملاتهم لهم بالذهب القطع والدراهم التي يقال لها الطاطري ، عليها تمثال صورة الملك ، وزنها مثقال ، فإذا بايعوهم قالوا للملك : «ابعث معنا من يخرجنا من بلادك ، ويحفظ متاعنا» . فيقول : «ليس في بلادي لصٌّ ، اخرجوا فإن حدث بأموالكم حدث فخذوه منّي ، وأنا الضامن لكم»[1] .

وذهب اليعقوبي إلى أن الهنود أهل حكمة ومعرفة وعقول مجاوزين بها مقدار غيرهم من الأمم في الأرض ، إذ فاقوا سواهم من المِلَل في الاهتمام بأرواح الناس وأملاكهم ، وقدّم سلسلة متكاملة من الأدلّة على ذلك : الهند أصحاب حكمة ونظر ، وهم يفوقون الناس في كل حكمة ، فقولهم في النجوم أصحّ الأقاويل ، وكتابهم فيه كتاب «السند هند» الذي منه اشتُقّ كلّ علم من العلوم ممّا تكلّم فيه اليونانيون ، والفرس ، وغيرهم . وقولهم في الطبّ المقدّم ، ولهم فيه

(١) ابن رسته ، كتاب الأعلاق النفيسة ، ليدن ، بريل ، ١٨٩٣ ، ص١٣٥ .

الكتاب الذي يسمّى «سسرد» فيه علامات الأدواء، ومعرفة علاجها، وأدويتها، وكتاب «شرك»، وكتاب «ندان» في علامات أربعمئة وأربعة أدواء، ومعرفتها بغير علاج، وكتاب «سند هشان». وتفسيره «صورة النجح»، وكتاب «فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحارّ والبارد وقوى الأدوية وتفصيل السنة»، وكتاب «أسماء العقاقير». كلّ عقار بأسماء عشرة. ولهم غير ذلك من الكتب في الطبّ. ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم، منها كتاب «طوفا في علم حدود المنطق»، وكتاب «ما تفاوت فيه فلاسفة الهند والروم». ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها، ويبعد عرضها[1].

عرض اليعقوبي للنخبة الهندية في اهتماماتها الفكرية، والعلمية، لكنّ الدمشقي أمعن في تفصيل ذلك، وأتى بالأدلّة كاملة: والهنود عند سائر الأمم معدن الحكمة، الحسّية، ومعدن الرياضة، والعقول الحكمية، والآراء الفاضلة، والنتائج الغريبة. ومن ذلك براعتهم في الشطرنج الذي هو كشّاف لمن تدبّر حركات قطعه، وتفكّر في صورة وضعه عن سرّ من أسرار القضاء والقدر؛ وذلك أن الواضع له حكم فيما قدّره، وقرّره، وأمضاه، وقضاه، وسبق به علمه، وجرى بوضعه قدره، ولم يشاركه في اختراعه له مشارك، إن وضعه على ما هو عليه. فالشطرنج مثال حكمي، ووضع علمي، يجلب به الرأي، ويزداد به العقل، ويلهي عن الهمّ، ويكشف مستوره عن الأخلاق، ويحكي صورة الحرب، ويبين مقدار حلاوة الظفر بالخصم، والنصر على العدو، ومقدار مرارة القهر والخذلان، ولا يوصل إلى قضاء الحوائج بسبب من الأسباب للفقير الخالي اليدين مثله[2].

تلازمت قيم إنسانية سامية، وأخلاقيات فكرية وعلمية، وتفاعلت فيما بينها، وهي: الاعتبار، والعدل، والحكمة، والدراية، وهذا التلازم صان العدالة الهندية المستندة إلى حكمة غنيّة بالتجارب. وكل هذا وجد له مكانة بارزة في

---

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، ١٩٦٠، ج١، ص ٩٤.

(٢) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص٢٧٠.

اهتمام الرحّالة . وعلى هذه ، فالسرد لامس هذه المزايا بدقّة ، فمن خلال الوصف الاستقصائي الذي يتنقل بين الوقائع الحية ، والمعلومات التاريخية ، جرى تمثيل شامل للحكمة الهندية .

٣. ميزان الربّ: الصين الساهرة:

وضرب المسعودي بأحد ملوك الصين المدعوّ «توتال» مثلاً على العدالة التي فوائدها مشتركة بين الرعية والملك ، فقال : وقد استقامت له الأمور ، وأحدث من السّنن المحمودة ما لم يحدثه أحد ممّن سلف من ملوكهم . وزعم أن الملك لا يثبت إلاّ بالعدل فإن العدل ميزان الربّ ، وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل ، ورتّب الناس في رتبهم ، ووقفهم على طرائقهم ، وخرج يرتاد موضعًا ليبني فيه هيكلاً ، فوافى موضعًا عامرًا بالنبات حسن الاعتمام بالزهر ، تخترقه المياه ، فخطّ الهيكل هناك . وجُلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان ، فشيّد الهيكل ، وجعل على علوه قبة ، وجعل لها مخارج للهواء متساوية ، ونصب فيها بيوتًا لمن أراد التفرُّد بالعبادة ، فلمّا فرغ منها نصب في أعلاها تلك التماثيل التي فيها أجسام من سَلَف من آبائه ، وأمر بتعظيمها .

وجمع الخواصّ من أهل مملكته ، وأخبرهم أن من رأيه ضمّ الناس إلى ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل ، وتساوي النظام ، فإنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل ، ودخول الفساد والزلل . فرتّبَ لهم سياسة شرعية ، وفرائض عقلية ، وجعلها لهم رِباطًا ، ورتّبَ لهم قِصَاصًا في الأنفس والأعضاء ، ومستحلات مناكح يستباح بها النسوان ، وتصحّ بها الأنساب ، وجعلها مراتب ؛ فمنها لوازم موجبة يَحْرَجُون من تركها ، ومنها نوافل يتنفّلون بها . وأوجب عليهم صلوات ٍ لخالقهم تَقرُّبًا لمعبودهم : منها إيماء لا ركوع فيها ، ولا سجود ، في أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنة والشهور محدودة ، ورسم لهم أعيادًا . وجعل على الزُّنَاة منهم حداً ، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة ، وأن لا يستبحن النكاح في وقت من الأوقات ،

وإن أقلعن عمّا كنّ عليه تكفّ الجزية عنهن ، ومن يكون من أولادهن ذكورًا يكونون للمَلك عبيدًا وجُنْدًا ، ومَنْ يكنّ من أولادهن إناثاً فلأمهاتهن ، ويلحقن بصنعتهن .

وأمرهم بقرابين للهياكل ودخن ، وأبخرة للكواكب ، وجعل لكل كوكب منها وقتًا يتقرّب إليه فيه بدخن معلوم من أنواع الطيب والعقاقير ، وأحكم لهم جميع الأمور ، فاستقامت أيامه ، وكثر النسل ، فكانت حياته نحوًا من مئة وخمسين سنة ، وهلك ، فجزعوا عليه جزعًا شديدًا ، فجعلوه في تمثال من الذهب الأحمر ، ورَصَّعوه بأنواع الجواهر ، وبنوا له هيكلاً عظيمًا ، وجعلوا سقفه سبعة ألوان من الجوهر على أنواع الكواكب السبعة من النيرين والخمسة بألوانها وأشكالها ، وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيدًا يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل ، وصوّروا صورته على أبواب المدينة ، وعلى الدنانير ، والفلوس ، وعلى الثياب[١] .

النموذج الذي ضرب به المسعودي مثلاً للعدالة في الصين ، يستحقّ الاهتمام ؛ فالعدالة قيمة تداولية ، يتعاقد عليها الملك والرعيّة ، فيجني الطرفان ثمارها ، وعلى ذلك التعاقد تُشَرّع السّنن ، وفي ضوئه ، تنتظم الأعراف الاجتماعية والدينية ، ولكي يأخذ التعاقد شكله العملي ، اقترح الملك «توتال» مكانًا للعبادة والتخشّع ، وهذا يقتضي ضمّ الناس إلى ديانة ، فلا مُلك بلا شريعة . يحلّ التنظيم البشري للمملكة محل الفوضى حينما يتمّ الاتفاق على شريعة ودين ، ولكن تلك السنن التي أحدثها «توتال» إنما هي سنن وضعية تهتدي بقيم دينية ، لكنها دنيوية ، في طابعها العامّ ، وفي تفاصيلها المتصلة بالمجتمع . وتظهر أهمية الملك في أنه رسّخ من السّنن المحمودة ما لم يرسّخه أحد ممن سلف من الملوك ، فجعل منها تقاليد تنظّم حياة المجتمع بكامله .

لا يُظهر المسعودي تبرُّمًا من ذلك ، فما أحدثه الملك لم ينظر إليه بوصفه بدعة ، وضلالة ، كما كان ينظر إلى كلّ مُحدث آنذاك ، فقد وجد في ذلك

---

(١) مروج الذهب ، ج١ ، ص١٣٥ .

الملك أنموذجًا دنيويًا لعدالة أرضية تتفاعل أركانها الأخلاقية لتصون حياة الناس، وتحافظ على نسق علاقاتهم، فقابلوا جميل الملك بكلّ ما يستحق من ضروب الاحترام. ومن الواضح أن المسعودي تفهّم البعد الأرضي لكثير من الديانات: الهندية، والصينية، كالبوذية والكونفشيوسية، الأمر الذي جعله ينظر إلى ذلك كلّه بنوع لا يخفى من التقدير والإنصاف.

وبطريقة تماثل ما رأيناه من ضروب الإعجاب بالعدالة، والحكمة، احتفى الرحّالة بالمهارات الصينية التي عبّرت عن نفسها بتنظيم شؤون الحياة. وكانت ملاحظاتهم قد شملت كل ما يتّصل بذلك، وبخاصة التنظيم الدقيق في إدارة البلاد، وترتيب المصالح العامّة، والسهر على شؤون الناس. وقد لاحظ سليمان التاجر، وهو شاهد عيان مدقّق من الدرجة الأولى، ولديه ميل ظاهر للتحقّق ممّا تقع عليه عيناه، التنظيمَ الصيني، وأثار إعجابه، فبسببه تترتّب العلاقة بين الملوك والرعية على نحو متماسك، قال: في كل مدينة شيء يدعى الدرّا، وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة، مربوط بخيط مُدَّ على ظهر الطريق، للعامّة كافّة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ، فإذا حرّك الخيط الممدود أدنى حركة تحرَّك الجرس، فمن كانت له ظلامة حَرَّك هذا الخيط فيتحرّك الجرس منه على رأس الملك، فيؤذن له بالدخول حتى ينهي حاله بنفسه، ويشرح ظلامته. وجميع البلاد فيها مثل ذلك. ومن أراد سفرًا من بعضها إلى بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصيّ.

أمّا كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه، ومن أيّة قبيلة هو، وجميع من ببلاد الصين من أهلها، ومن العرب، وغيرهم، لا بدَّ لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به، وأمّا كتاب الخصيّ فبالمال وما معه من المتاع، وذلك لأن في طريقهم مسالح (نقاط تفتيش مسلّحة)، ينظرون في الكتابين، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا: ورد عليها فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا، وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعًا، فمتى ما ذهب منه شيء أو مات، عُلِمَ

كيف ذهب ، ورُدّ عليه أو على ورثته من بعده[١] .

تقاسُم السلطة بين الملك والخصيّ حقّق الأمن والطمأنينة ، لكن ، قبل ذلك ، تنبغي الإشارة إلى الصلة المباشرة بين الملك ورعاياه ، إنها علاقة غير مرتهنة ببطانة الملك وحاشيته ، وهي تتحقق باللقاء بين المتظلّم والملك . ويبدو تقاسم السلطة ، في ذلك العصر ، وبالطريقة التي عرضها سليمان التاجر ، جديرًا بالثناء ، فسلطة الملك تتَّصل بالجانب الإنساني الخاصّ بالمسافر الذي يتزود ببطاقة ملكية ، تعرّفه حيثما اقتضى الأمر ، أمّا سلطة الخصيّ ، وهو أقرب ما يكون إلى الحاكم المحلي ، فمتعلّقة بالجانب المادي ، وما يمتلكه المسافر ، كيفما كانت هويّته أو تجارته . وهذ الترابط بين السلطتين العامّة ، والخاصّة يتيح حرية وأمنًا ، للمسافر وللغريب أيضًا ، ففي كل مرحلة يقطعها في ترحاله يقع توثيق رسميّ لمروره ، وللممتلكات التي بحوزته ، وبهذا يُصان ، حيثما حلّ وارتحل ، في نفسه وأمواله .

وكان سليمان التاجر قد ذكر نظام التعليم في الصين : فإذا وُلِد ذكر كُتِب اسمه عند السلطان ، فإذا بلغ ثماني عشرة سنة أُخذت منه الجزية ، فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخَذ منه جزية ، وأُجرِيَ عليه من بيت المال ، ويقولون : أخذنا منه شابًا ، ونجري عليه شيخًا . وفي كل مدينة كتاب ومعلِّم يعلّم الفقراء وأولادهم ، من بيت المال يأكلون . ونساؤهم مكشفات الشعور ، والرجال يغطّون رؤوسهم ، والفقير والغني ، من أهل الصين ، والصغير والكبير ، يتعلّم الخطّ والكتابة[٢] .

فصّل سليمان التاجر في نظام التكافل الاجتماعي الدقيق في الصين بسرد استكشافي ألمّ بالمظاهر الاجتماعية ، إذ يُعفى الأطفال والشيوخ من الضرائب الحكومية ، فيما يشمل بها مَنْ هم بين هذين الحدّين . وهذا نظام صارم من

---

(١) رحلة السيرافي ، ص٤٣ .

(٢) م . ن ، ص : ٤٠ و٤٥ .

العمل ، يكاد لا يكون له نظير في تلك العصور ، فالمملكة تكفل صغارها وشيوخها ، فتقوم بتأهيل الصغار ليكونوا منتجين ، وبرعاية المُسنِّين لتأمين حياتهم . إلى ذلك ، يلقي سليمان التاجر ضوءاً كاشفًا على التعليم الذي يكاد يكون إجباريًا يتعلّمه الصغار والكبار ، الفقراء والأغنياء ، وهو تعليم مجّاني تتحمّل الدولة تكاليفه من بيت المال . ولفت نظره أن النساء سافرات ، والرجال محجوبون .

اتصف الصينيون بالمهارات الصناعية كالنسيج ، والخزف ، والتصوير . وكان ذلك مثار اهتمام الرحّالة جميعهم ، إذ أورد المسعودي أنهم من أحذق خلق الله كفًا بنقش وصنعة ، وكلّ عمل لا يتقدّمهم فيه أحد من سائر الأمم ، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدّر أن غيره يعجز عنه ؛ فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع ، فيأمر الملك بنصبه على بابه ، من وقته ذلك إلى سنة ، فإن لم يُخرج أحد فيه عيبًا أجاز صانعه ، وأدخله في جملة صنّاعه ، وإن أخرج أحد فيه عيبًا طرحه ولم يُجِزه[1] . هذا اختبار قاسٍ للمهارة ، برع السرد في وصف أعرافه ، فالنقّاشون وأصحاب المهارات اليدوية ، كانوا يرهنون مصنوعاتهم لتجربة قلّ نظيرها من الاختبار ، إذ توضع بمدخل القصر مدّة سنة كاملة ، فإذا اكتشف أحد فيها عيبًا أُبعدت هي وصاحبها ، وفي حال لم يظهر فيها أيّ عيب ، تدرج ضمن المقتنيات الملكية ، ويصبح هو أحد صنّاع الملك .

وذُهِل ابن بطوطة وهو يرى ، في أقصى الشمال الشرقي للصين ، الدرجة العالية من الإتقان في كلّ شيء ، فقد دخل إحدى المدن التي يسكنها عامّة الناس ، فأعجب بأسواقها الحسان ، وبها الحذاق بالصنائع : ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست ، وهي من القصب ، وقد أُلصقت قطعه أبدع إلصاق ، ودُهِنت بصبغ أحمر مشرق ، وتكون هذه الأطباق عشرة واحدًا في جوف آخر ، لرقَتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ، ويصنعون غطاءً يغطّي

---

(١) مروج الذهب ١ : ١٤٦ .

جميعها ، ويصنعون من هذا القصب صحافًا ، ومن عجائبها أن تقع من العلوّ فلا تنكسر ، ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغيّر صباغها ، ولا يحول ، وتُجلَب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها .

ولكن الأمر الذي كان مثار عجبه عرض له بالصورة الآتية : وأهل الصين أعظم الأمم إحكامًا للصناعات ، وأشدّهم إتقانًا فيها ؛ وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم ، فأطنبوا فيه ، وأمّا التصوير فلا يجاريهم أحد في أحكامه من الروم ، ولا سواهم ، فإن لهم فيه اقتدارًا عظيمًا . ومن عجيب ما شاهدتُ لهم من ذلك أني ما دخلت ، قَطّ ، مدينة من مدنهم ، ثم عدت إليها إلاّ ورأيت صورتي ، وصورة أصحابي ، منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق . ولقد دخلت إلى مدينة السلطان ، فمررت على سوق النقّاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ، ونحن على زيّ العراقيين ، فلمّا عدت من القصر عشيًا مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت صورتي ، وصور أصحابي ، منقوشة في كاغد ، قد ألصقوه بالحائط ، فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئًا من شبهه . وذُكِر لي أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ، ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ، ويصوّرون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك ، وتلك عادة لهم في تصوير كلّ من يمرّ بهم . وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثت صورته إلى البلاد ، وبحث عنه ، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذه[1] .

جعلت الحذاقة الصينية في الخزفيات والتصوير رحّالة مجرّبًا مثل ابن بطوطة يصاب بالذهول . ولكن تلك المهارات اليدوية لها منفعة عملية تتحقق منها ، فصورة الغريب تكون وسيلة للتمكّن منه إذا ارتكب ذنبًا ، أو سقط في جرم . ولم يغب عن المعاينة أمر الوعي الصحّي الذي لحظه بجوانبه الجسدية والاجتماعية . فقال : وأهل الصين ، مهما وصفناهم ، يبولون من قيام ، وكذلك

---

(١) ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، المغرب ، ١٩٩٧ ، ج٤ ، ص ٣٢ .

سائر رعيتهم من أهل بلادهم، فأمّا الملوك والقواد والوجوه، فلهم أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشبة منها ذراع، وفي الطرفين ثقبتان، تتّسع العليا للحشفة، فيقف على رجله إذا أراد البول، ويباعدها عن نفسه، ويبول فيها. ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم، وأن سائر ما يعتري من وجع المثانة والبول من الاستحجار فيها (ترسّب الحجر)، إنما هو من الجلوس للبول، وأن المثانة لا تصفوا بما فيها إلاّ مع القيام لذلك... فأمّا المناكح ببلاد الصين، فلا يزوّج أحد منهم قريبًا، ولا ذا نسب، ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة في قبيلتها... ويدعون أن ذلك أنجب للولد[١].

تكاد هذه الملاحظات المترابطة تشمل الحياة الاجتماعية من نواحي الصحة، والتعليم، والتربية، وهي تعرض باعتبار ما تتميّز به الصين عن سواها. وينبغي أن نختمها بالطريقة التي يتظلّم بها الصينيون أمام ملوكهم، وهي ممّا لفت أيضًا انتباه سليمان التاجر الذي روى أن الملك يقعد في مدينته على كرسي في بهو عظيم، وبين يديه كرسيّ، وترفع إليه الكتب التي فيها أحكام الناس، ومن وراء الملك رجل قائم يدعى «لينجون» إذا زلَّ الملك في شيء ممّا يأمر به وأخطأ ردّه، وليس يعبؤون بالكلام ممن يرفع إليهم دون أن يكتبه في كتاب. وقبل أن يدخل صاحب القصّة على الملك يَنظُر في كتابه رجل قائم بباب الدار، ينظر في كتب الناس، فإن كان فيها خطأ ردّه، فليس يكتب إلى الملك إلاّ كاتب يعرف الحكم، ويكتب الكاتب في الكتاب: كتبه فلان بن فلان، فإن كان فيه خطأ رجع إلى الكاتب اللوم؛ فيضرب بالخشب، وليس يقعد الملك للحكم حتى يأكل، ويشرب، لئلا يغلط[٢].

يلاحظ مدى الدقة في ممارسة الأحكام، والبتّ في الخصومات، فالمستشار يقف خلف الملك، ويتولّى إطلاعه على التظلّمات، ويكون مسؤولاً عن تدوين

---

(١) رحلة السيرافي ص٧٧.

(٢) م. ن. ص٤٠.

الأحكام الملكية ، وتصويب ما فيها من أخطاء . وينبغي أن تُكتَب التظلّمات من طرف كاتب محترف على بيِّنة بأصول الأحكام ومعرفة بالشكاوى ، وكيفية صوغها بلغة واضحة ، على أن تُعرَض بأسلوب دقيق لا لبس فيه ؛ ليكون الملك على بيِّنة من القضية ، وإصدار الحكم الصحيح . ويتحمّل الكاتب مسؤولية كلّ ذلك ، وعند حدوث خطأ يُعاقَب ، فينبغي لذلك أن يذيل كتابه باسمه الصريح . ولا يجوز أن تُعرَض الشكاوى مشافهة ، فالحاشية الملكية ، والملك نفسه ، ينبغي أن يكونوا على اطِّلاع مسبق بفحوى أيّة شكوى ، قبل أن يحضر صاحبها بين يدي الملك لعرضها ، وتلقّي الحكم بشأنها . ولا ينبغي ، كذلك ، للملك النظر في شؤون الرعية إلاّ إذا كان في حالة مريحة لئلا يتحيّز ، أو يخطئ في حكمه .

واستطرد ابن بطوطة واصفًا الجوانب الاقتصادية في الصين : وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصّل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعًا ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كلّ قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان ، وتسمّى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت ، وهو بمعنى الدينار عندنا ، وإذا تمزّقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكّة عندنا ، فأخذ عوضها جددًا ، ودفع تلك ، ولا يعطي على ذلك أجرة ، ولا سواها ؛ لأن الذين يتولّون عملها لهم الأرزاق الجارية من قِبَل السلطان ، وقد وَكَّل بتلك الدار أميرًا من كبار الأمراء .

وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضّة أو دينار ، يريد شراء شيء ، لم يؤخَذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشت ، ويشتري به ما أراد . وجميع أهل الصين والخطا (بلاد شمال شرق الصين) إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ، ولونه لون الطفل ، تأتي الفيَلة بالأحمال منه فيقطِّعونه قطعًا على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه فيتّقد كالفحم ، وهو أشدَ حرارة من نار الفحم ، وإذا صار رمادًا عجنوه بالماء ويبّسوه ، وطبخوا به ثانية ، ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى . ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخّار

الصيني ، ويضيفون إليه حجارة سواه[1] .

الفحم الحجري ، كما يتّضح من حديث ابن بطوطة ، كان معروفًا في الصين ، ويُنتفع به في أكثر من أمر ، أمّا التبادلات المالية ، وصكّ النقود ، واستبدالها ، فتكشف تطوُّر الحياة الاقتصادية التي كانت مثار تقدير كلّ من يمرّ بهذه البلاد . ويتوسّع ابن بطوطة في كشف ذلك ، فيقول : وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خُيِّر في النزول عند تاجر ، من المسلمين المتوطّنين ، معيّن ، أو في الفندق ، فإن أحبّ النزول عند التاجر حصر ماله ، وضمنه التاجر المستوطن ، وأنفق عليه منه بالمعروف ، فإذا أراد السفر بحث عن ماله ؛ فإن وجد شيئًا منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه ، وإن أراد النزول بالفندق سلّم ماله لصاحب الفندق وضمنه ، وهو يشتري له ما أحبّ ويحاسبه ، فإن أراد التسرّي اشترى له جارية ، وأسكنه بدار ، يكون بابها في الفندق ، وأنفق عليهما .

والجواري رخيصات الأثمان ؛ لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم ، وبناتهم ، وليس ذلك عيبًا عندهم ، غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ، ولا يُمنعون ، أيضًا ، منه إن اختاروه ، وكذلك إن أراد التزوُّج تزوَّج ، وأمّا إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه . ويقولون : لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا ، فإنها أرض فساد وحسن فائت .

وبلاد الصين آمَنُ البلاد وأحسنها حالاً للمسافر ؛ فإن الإنسان يسافر منفردًا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها ، وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقًا عليه حاكم ، يسكن به في جماعة من الفرسان والرجالة ، فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ، ومعه كاتبه ، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، وختم عليها ، وأقفل باب الفندق عليهم ، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه ، فدعا كلّ إنسان

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج٤ ، ص١٢٩ .

باسمه ، وكتب به تفصيلاً وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له ، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه ، وإن لم يفعل طلبه بهم . وهكذا العمل في كلّ منزل ببلادهم من صين الصين في خان بالق ، وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد ، وخصوصًا الدجاج والإوزّ ، وأمّا الغنم فهي قليلة عندهم[1] .

ترتسم صورة الصين في أدب الارتحال أنموذجًا للتنظيم الذي يوفر أمنًا للجميع : الغرباء ، والأهالي ، فالملك وأتباعه في سهر دائم من أجل توفير حالة مثالية لحياتهم ، وقد نهض التمثيل السرديّ بمهمّة جليلة ، إذ رسم صورة دقيقة لأحوال الصين في القرون الوسطى ، دون أن يبدي تحاملاً ، ولم يتعثر بالمظاهر السلبية ، إنما احتفى بتلك البلاد ، وخصّ الأمن ، والتنظيم ، والرعاية الاجتماعية ، بكل ضروب التقدير ، فالقوة الإمبراطورية نذرت نفسها لحماية الأنفس ، وصارت تتعقّب قوافل التجّار والمسافرين لتأمين الحماية لها ، والتأكد من سلامتها ، وتحمّل أية مسؤولية تترتّب على ذلك ، إلى ذلك ، أشير إلى استقامة المجتمع الصيني ، ورفضه الفساد ، وإباحته المتع الحلال ، بما في ذلك قبول الغرباء ، والتصاهر معهم .

٤. عقائد أرضية:

وقد أبدى أبو دُلف مسعر بن مهلهل في رحلته إلى الصين إعجابًا كبيرًا بالعُمران ، وتلك البلاد مثال للاستقرار ، والتنظيم ، والعُمران ، فبعد أن شق الأصقاع الشمالية لآسيا مارّاً بالقبائل التركية ، قال : ثم انتهينا إلى مقام الباب ، وهو بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك ، وهو ملك الصين ، ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك ، وغيرهم ، فسرنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك ، يُغَيَّر لنا عند رأس كل فرسخ مركوب ، ثم انتهينا إلى وادي المقام ؛

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج٤ ، ص١٣٤ .

فاستؤذن لنا منه ، وتقدّمنا الرسل ، فأُذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادي ، وهو أنزه بلاد الله وأحسنها ، ثلاثة أيام في ضيافة الملك ، ثم عبرنا الوادي ، وسرنا يومًا تامًا ، فأشرفنا على مدينة سندابل ، وهي قصبة الصين ، وبها دار المملكة ، فبتنا على مرحلة منها .

ثم سرنا من الغد طول نهارنا حتى وصلنا إليها عند المغرب ، وهي مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم ، ولها ستون شارعًا ينفذ كل شارع منها إلى دار الملك ، ثم سرنا إلى باب من أبوابها ، فوجدنا ارتفاع سورها تسعين ذراعًا ، وعرضه تسعين ذراعًا ، وعلى رأس السور نهر عظيم يتفرّق على ستين جزءاً ، كل جزء منها ينزل على باب من الأبواب ، تتلقّاه رحى تصبّه إلى ما دونها ، ثم إلى غيرها ، حتى يصبّ في الأرض ، ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقي البساتين ، ويرجع نصفه إلى المدينة ، فيسقي أهل ذلك الشارع إلى دار الملك ، ثم يخرج في الشارع الآخر إلى خارج البلد ، فكل شارع فيه نهران ، وكل خلاء فيه مجريان ، كل واحد يخالف صاحبه ، فالداخل يسقيهم ، والخارج يخرج بفضلاتهم . ولهم بيت عبادة عظيم ، ولهم سياسة عظيمة ، وأحكام متقنة ، وبيت عبادتهم ، يقال إنه أعظم من مسجد بيت المقدس ، وفيه تماثيل ، وتصاوير ، وأصنام ، وبدّ عظيم (تمثال لبوذا) ، وأهل البلد لا يذبحون ولا يأكلون اللحوم أصلاً ، ومن قَتل منهم شيئًا من الحيوان قُتِل ، وهي دار مملكة الهند والترك معًا . ودخلتُ على ملكهم فوجدته فائقًا في فنّه كاملاً في رأيه(١) .

قدَّم أبو دُلف صورة شاملة للعاصمة الصينية ، وقد ركَّز اهتمامه على المدينة ، وتنظيم الطرقات ، وتوزيع الماء ، ثم الأسوار المنيعة التي تثير العجب بارتفاعها وعرضها ، ولا عجب ، فالصين محاطة من تخومها البرية بالسور المشهور ، وانتهى بالحديث عن الهيكل المقدَّس الخاصّ ببوذا ، وهو عُمران عظيم ، يفوق في حجمه مسجد القدس ، وفيه تتزاحم الأيقونات ، والتماثيل .

---

(١) معجم البلدان ، ص٤٤٤ .

ولكنّ المسعودي هو خير من فصّل القول في موضوع المعتقدات الدينية في الصين : فأمورهم منتظمة ، وأحوالهم مستقيمة ، والخصب والعدل لهم شامل ، والجور في بلادهم معدوم ، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع . . . وحروبهم على عدوهم قائمة ، وثغورهم مشحونة ، والرزق على الجنود دائر ، والتجار يختلفون إليهم في البرّ والبحر ، من كل بلد بأنواع الجهاز ، ودينهم دين مَنْ سَلَف ، وهي ملّة تدعى السمنية ، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام : يعبدون الصور ، ويتوجّهون نحوها بالصلوات ، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قِبْلَة ، والجاهل منهم ومَنْ لا علم له يشرك الأصنام بإلهية الخالق ، ويعتقدهما جميعًا .

وإن عبادتهم الأصنام تقرِّبهم إلى الله زُلْفَى ، وإن منزلتهم في العبادة تنقص عن عبادة البارئ لجلالته وعظمته وسلطانه ، وإن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه . وهذا الدين ، كان بدء ظهوره في خواصّهم من الهند لمجاورتهم إيّاهم ، وهو رأي الهند في العالم وفي الجاهل . . . ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية ، وأهل الدهر ، فتغيَّرت أحوالهم ، وبحثوا ، وتناظروا ، إلاّ أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرائع المقدمة[1] .

تظهر قضيّة المعتقد الديني لا بوصفها ضلالة ، بل نظامًا تعبديًا يحقِّق أغراضه الدنيوية ، ومعلوم أن الطقوس غير الإسلامية كانت مثار تبرّم الرحّالة المسلمين ، والأسلوب الذي تعرض به مختلف عن نظيره السابق ، فالمسعودي يصف أكثر ممّا يقدم حكم قيمة ، وتأخذ العبادة الصينية ثلاثة مظاهر : الأول عبادة الأصنام ، كما هو شأن العرب في الجاهلية ، وهذا المظهر هو الغالب ، ولكن ثمة فئة قليلة ، تعبّر عن عبادتها بمظهر مختلف هو التوجّه إلى الخالق ، وتؤدي الأصنام - بالنسبة إليه - مكان القبلة . وأخيرًا ، هناك فريق ثالث يخلط بين الخالق والأصنام . وعلى الرغم من هذا فالمسعودي يقرّ بأن هذه

(١) مروج الذهب . ج١ ، ص : ١٣٦-١٣٧ .

المظاهر العبادية الدنيوية إنما تهدف ، في النهاية ، إلى الاتصال بالذات الإلهية ، وطاعتها ، والتقرُّب إليها .

٥. هضاب سعيدة، ومسك فريد:

واستأثرت التبت برعاية المسعودي الذي اهتم بتفاصيل تخص أصل أهل التبت ، وطباعهم ، وعطورهم المميّزة : وبلاد التبت مملكة متميزّة من بلاد الصين ، والغالب عليهم حِمْيَر ، وفيهم بعض التبابعة . . . ولهم حضر وبدو ، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة ، ولا يقاومهم أحد من بوادي الأتراك ، وهم معظّمون في سائر أجناس الترك ؛ لأن الملك كان منهم في قديم الزمان ، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود إليهم .

ولبلاد التبت خواصّ عجيبة في هوائها وسمائها ومائها وجبلها ، ولا يزال الإنسان ، أبدًا ، ضاحكًا بها فرحًا مسرورًا ، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار . ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها ، وهي بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره ، ولا يكاد يُرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز ، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عامّ ، وفي أهلها رقّة طبع وبشاشة وأريحيّة تبعث على كثرة استعمال الملاهي ، والمعاقرة ، وأنواع إيقاع الرقص ، حتى أن واحدهم إذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن ممّا يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب ، ولهم تحنُّنٌ كثير ، من بعضهم على بعض ، والتتيّم فيهم عامّ ، وكذلك يظهر في سائر بلادهم(١) .

لو تأكّد صدق الأخبار التي أوردها المسعودي يكون أهل التبت أنموذجًا للمجتمع السعيد الذي يقابل صعاب الحياة بالمرح ، وقد تنكّب لأحزان الدنيا ، واختار الفرح الذي شمل بنعمته الجميع صغارًا وكبارًا . وكان المسعودي أرجع

---

(١) مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٥٧ .

أصول أهل التبت إلى اليمن السعيد ، قال : كانوا في قديم الزمان يسمّون ملوكهم تبّعًا ؛ إتباعًا لاسم تبّع ملك اليمن ، ثم إن الدهر ضرب ضرباته ، فتغيّرت لغاتهم عن الحميرية ، وحالت إلى لغة تلك البلاد ممّن جاورهم من الأمم ، فسمّوا ملوكهم بخاقان .

وفي بلادهم الأرض التي بها ظباء المسك التبتي الذي يفضل على الصيني بجهتين : إحداهما أن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب ، وأنواع الأفاويه ، وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشائش الطيب التي ترعاه التبتية ، والجهة الأخرى أن أهل التبت لا يتعرّضون لإخراج المسك من نوافجه ، ويتركونه على ما هو به ، وأهل الصين يخرجونه من النوافج ، ويلحقونه الغش بالدم وغيره من أنواع الغشّ ، وأن الصيني أيضًا يقطع به ما وصفنا من مسافة البحار وكثرة الأنداء واختلاف الأهوية ، وإن عَدِم من أهل الصين الغشّ في مسكهم ، وأُودع براني الزجاج ، وأحكم عفاصها ووكاؤها ، وأُورِد إلى بلاد الإسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار ، كان كالتبتي .

وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية في النضج ، وذلك أنه لا فرق بين غزلاننا هذه وبين غزلان المسك في الصورة والشكل واللون والقرن ، وإنما تتبيّن تلك بأنياب لها كأنياب الفيلة ، لكلّ ظبي نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان أبيضان نحو الشبر ، وأقل ، وأكثر ، فتُنصَب لها في بلاد التبت والصين الحبائل ، والأشراك ، والشِّباك فيصطادونها ، وربما رمَوها بالسهام فيصرعونها ، فيقطعون عنها نوافجها ، والدم في سررها حارّ لم ينضج ، وطريّ لم يدرك ، فيكون لريحته سهوكة ، فيبقى زمانًا حتى تزول منه تلك الرائحة السهكة الكريهة ، ويستحيل بموادّ من الهواء فيصير مسكًا ، وسبيل ذلك سبيل الثمار إذا أبينت عن الأشجار ، وقطعت قبل استحكام نضجها في شجرها ، واستحكام موادها فيه .

وخير المسك ما نضج في وعائه ، وأُدرك في سرّته ، واستحكم في حيوانه ، وتمام موادّه ، وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم إلى السرّة ، فإذا استحكم مون الدم

فيها ونضج آذاه ذلك وحكّه ، فيفرغ ، حينئذ ، إلى أحد الصخور والأحجار الحارة من حرّ الشمس ، فيحتك بها مستلذاً بذلك ، فينفجر حينئذ ، ويسيل على تلك الأحجار كانفجار الخراج والدمل إذا نضج ما فيه عند ترادف الموادّ عليه ، فيجد لخروجه لذّة ، فإذا فرغ ما في نافجته اندمل حينئذ ، ثم اندفعت إليه موادّ من الدم ، ويجتمع ثانية ككونها بدءاً ، فتخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الأحجار والجبال ، فيجدون الدم قد جفّ على تلك الصخور والأحجار ، وقد أحكمته الموادّ ، وأنضجته الطبيعة في حيوانه ، وجفّفته الشمس ، وأثّر فيه الهواء ، فيأخذونه ، فذلك أفضل المسك ، فيودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدّة معهم ؛ فذلك الذي تستعمله ملوكهم ، ويتهادونه بينهم ، ويحمله التجّار في النادر من بلادهم[١] .

٦. كبح الأهواء، ودرء الفوضى:

منع الهنود تداول الخمر ، وإشاعتها ؛ لأنها توهن السيطرة على أفعال البشر ، وتضعف السويّة الطبيعية ، قاصدين بذلك درء الفوضى ، وكانوا يعنّفون شارب الخمر ، لا على طريق التديّن ، لكن تنزُّهًا عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها ، ويزيلها عمّا وضعت له فيهم . وإذا صحّ عندهم ، عن ملك من ملوكهم ، شربها استحقّ الخلع عن ملكه ؛ إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط ، و-ربّما- يسمعون السماع ، والملاهي ، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالاً مرتَّبة ، من ضحك وبكاء ، و-ربّما- يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم ، فتطرب الرجال لطرب الجواري[٢] .

ولم يقتصر ذلك على الهند ، فقد لاحظ أبو عبدالله محمد بن إسحاق في رحلته إلى قُمار (كمبوديا) الطريقة الرادعة التي يعاقب بها الملكُ الزناةَ

---

(١) مروج الذهب ، ج١ ، ص : ١٥٨-١٥٩ .

(٢) م . ن . ١ : ٨٤ .

والمخمورين في مملكته ، فقال : دخلتُ مدينته ، وأقمت عنده بها سنتين ، فلم أرَ ملكًا أغيَرَ ، ولا أشدّ في الأشربة ، منه ، فإنّه يعاقب على الزنى والشرب ، بالقتل . وليس أحد من ملوك الهند ممّن خالطتهم ، وبايعتهم ، يسرف في شرب الشراب ، ما خلا ملك البهل ، فإنه بلغني أنه يشرب ، وهو ملك سرنديب . ينقل الخمر إليه من بلاد العرب فيشربها . ورأيت تجار الهند ، وسائرهم لا يشربون الشراب ، قليله ولا كثيره ، ويَعافُون الخلّ من الأشربة ، فخَلُّهم من ماء الأرزّ المطبوخ يُحمّضونه حتّى يصير بمنزلة الخلّ . ومن رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس ، لا يعبأون به ، ويزدَرُونه ، ويقولون : هذا رجل ليس له قدر في بلاده ، وليس ذلك منهم ديانة .

وذكر بعضهم ، قال : «كنتُ ببلاد قمار ، فأخبروني أن الملك بها جبّار شديد العقوبة . . . ومن عقوبة هذا الملك على الشرب أن مَنْ شرب من قوّاده وجيشه ، يُحَمى مئة حلقة من حديد بالنار ، ثم يوضع ذلك كلُّه على يد ذلك الرجل الشارب ، فربّما أتلفت نفسه . وهو ملك شديد الغيرة ، ليس في ملوك الهند أشدُّ غيرةً وعقوبةً منه ؛ ومن عقوبته قطع اليدين ، والرجلين ، والأنف ، والشفتين ، والأذنين . ولا يلتفت إلى الغرامة كسائر ملوك الهند . وأصل العبّاد من بلاد قمار ، يقال إن فيها مئة ألف عابد ، وللملك قمار ثمانون قاضيًا ، لو وردَ عليهم وَلَد الملك لأنصفوا منه ، وأقعدوه مقعد الخصم ، وله ثمانون ذكرًا ، لهم جَمال وهيئة ، يصلحون للملك[1] .

وانتبه سليمان التاجر إلى عدم تداول الخمر في الصين ، فقال : وشرابهم النبيذ المعمول من الأرزّ ، وليس في بلادهم خمر ، ولا تحمل إليهم ، ولا يعرفونها ، ولا يشربونها[2] . وجرى تفريق بين الملّتين الصينية والهندية ، فأهل الصين أهل ملاهٍ ، وأهل الهند يعيبون الملاهي ، ولا يتخذونها ، ولا يشربون

---

(١) الأعلاق النفيسة ، ص١٢٣ .

(٢) رحلة السيرافي ، ص٣٣ .

الشراب ، ولا يأكلون الخلّ لأنه من الشراب ، وليس ذلك دينًا ، ولكن أَنَفة ، ويقولون : أيّ ملك شرب الشراب فليس بملك ، وذلك أن حولهم ملوكًا يقاتلونهم ، فيقولون : كيف يدبّر أمر مُلكه مَنْ هو سكران؟[1] . ولفت ذلك انتباه ابن بطوطة ، بخاصة عند البراهمة : الذين لا يشربون الخمرة ، وهي عندهم أعظم المعائب ، وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين . ومَنْ شربها من المسلمين حُدّ ثمانين جلدة ، وسُجن في مطمورة ثلاثة أشهر ، لا تفتح[2] .

اندرج موضوع الخمور في إطار عامّ ، شملَ الأخلاقيات في الثقافات الشرقية القديمة التي لا تحبّذ التهتُّك ، والتبذّل ، والاستغراق في المتع الحسية ، لأن كل ذلك يخلخل من وظائف الطبيعة الإنسانية ، فيفقد المرء القدرة على ضبط أفعاله ، وتحديد أهدافه ، كما أن تعاطيها يحول دون ممارسة المسؤولية ، بمعناها العامّ ، ولهذا تشدّدوا كثيرًا في تعاطي الملوك لها ، فهم المثل الأعلى المحتذى .

وُضِعت الخمر في تعارض مباشر مع ممارسة الوعي الذي رأينا أنه أقام صرح الحكمة والعقل ، فلا يمكن تخريب قضيّة كلّيّة من أجل قضية جزئية ، والثقافات القديمة مشغولة بفكرة التجانس ، وانتظام العناصر ، والاهتمام بالتماسك الأخلاقي الذي عُدّ دعامّة للحضارات القديمة . وفي ضوء ذلك ، جرى قمع الأهواء الذاتية ، وكبحها ، وتهذيبها ، وتثقيفها ، وعدم السماح لها بالتضخُّم الذي يهدّد انسجام الجماعة الكبرى ، كما أن مفهوم الفردية لم يكن قد انبثق في أفق الفكر البشري ، فذلك من مكاسب الحداثة . وكان أقصى ما تتطلّع إليه المجتمعات القديمة ، وبخاصّة الشرقية ، هو أن يكون المرء جزءاً من كلّ ، في عِقد لا ينفرط .

---

(١) رحلة السيرافي ، ص ٤٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ج٤ ، ص ٢٧ .

٧. البغاء المقدّس والبغاء المدنّس:

لم يقتصر الأمر على ما ذكرنا ، فالرحّالة عيون مفتوحة على الظواهر : الاجتماعية ، والثقافية ، والدينية . وقد التفت سليمان التاجر إلى ظاهرة البغاء في الهند ، وقرن أمرها بروادع قاسية : إذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغتْ ، فعليها ، وعلى الباغي بها ، القتل ، في جميع بلاد الهند ، وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها ، قُتل الرجل وحدَه ، فإن فجر بامرأة على رضًا منها قُتلا جميعًا .

وأقرّ السيرافي ما أورده سليمان التاجر ، ولكنه أضاف إليه أمرًا آخرَ على غاية من الأهمية ، وهو طُرق عقاب الزناة ، واللصوص ، والقتلة ، فقال : إن سبيل المحصَّن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل ، وكذلك اللص والقاتل ، وسبيلهم في القتل ، أن تُشدّ يدا من يريدون قتله شداً وثيقًا ، ثم تطرح يداه في رأسه حتى تصيرا على عنقه ، ثم تدخل رجله اليمنى فيما ينفذ من يده اليمنى ، ورجله اليسرى فيما ينفذ من يده اليسرى ، فتصير قدماه جميعًا من ورائه ، ويتقبّض ، ويبقى كالكرة لا حيلة له في نفسه ، ويستغني عن ممسك يمسكه . وعند ذلك تزول عنقه عن مركبها ، وتتزايل خرزات ظهره عن بطنها ، وتختلف وركاه ، ويتداخل بعضه في بعض ، ويضيق نَفَسه ، ويصير في حال لو ترك على ما هو به بعض ساعة لتلف .

ولم يكتفِ السيرافي بالتوضيح الخاصّ بالعقاب ، إنما قدّم معلومة فريدة تبيِّن طريقة تنظيم الحياة الجنسية في تلك البلاد ، ويتعلّق الأمر بالبغاء : فيهم نساء لا يردن الإحصان ، ويرغبن في ممارسة البغاء ، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط ، فتذكر زهدها في الإحصان ، ورغبتها في الدخول في جملة الزواني ، وتسأل حملها على الرسم في مثلها . ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها ، وحليتها ، وموضع منزلها ، وتثبت في ديوان الزواني ، وتجعل في عنقها خيطًا فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك ، ويدفع إليها منشور يَذكَر فيه دخولها في جملة الزواني ، وإن عليها لبيت المال في كل

سنة كذا وكذا فلسًا ، وإن من تزوَّجها فعليه القتل ، فتؤدّي في كلّ سنة ما عليها ، ويزول الإنكار عنها . فهذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيّات عليهن ألوان الثياب من غير استتار ، فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين ، فيقمن عندهم ، وينصرفن بالغدوات(١) .

ديوان الزواني الذي ينهض بمهمّة تنظيم البغاء في الصين يكشف عن اهتمام في معرفة الحالة الاجتماعية في أدقّ تفاصيلها . وطبقًا لمعلومات السيرافي ، يكون البغاء قد نُظِّم في تلك الأصقاع ، واستُحدِث له ديوان يشرف عليه ، والبغايا يشهرن رغبتهن في العمل مقابل رسوم معروفة ، ويُزوَّدْن بوثيقة لممارسة المهنة ، ويحملن في أعناقهن ختمًا ملكيًا يجيز لهنّ امتهان الدعارة ، دون أن يتعرّض لهنّ أحد ، ويترتب عليهنّ ، في هذه الحالة ، الامتناع عن الزواج . ويُسمَح لهن بالتزيّن الدال عليهنّ ، والاتّصال بالوافدين من الغرباء والراغبين بهنّ من أهل البلاد .

وعُرف في الهند ضرب آخر من البغاء ، هو البغاء المقدَّس الذي يمارَس كطقس دينيّ في المعابد البوذية ، فمن شرائعهم التي يتقرّبون بها إلى الربّ : أن الرجل يبتني في طرقهم الخان للسابلة ، ويقيم فيه بقّالاً يبتاع المجتازون منه حاجتهم ، ويقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجري عليها لينال منها المجتازون ، وذلك عندهم ممّا يثابون عليه . وبالهند قحاب يعرفن بقحاب البُدّ (بوذا) والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذرًا ، ووُلِد لها جارية جميلة ، أتتْ بها البدّ ، وهو الصنم الذي يعبدونه ، فجعلتها له ، ثم اتخذت لها في السوق بيتًا ، وعلّقت عليه سترًا ، وأقعدتها على كرسيّ ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر المِلَل ممن يتجاوز في دينه ، فتمكن من نفسها بأجرة معلومة ، وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ؛ ليصرف في عمارة الهيكل(٢) .

---

(١) رحلة السيرافي ، ص٥٧ .

(٢) م . ن ، ص٨٤ .

ولم يكتفِ الرحّالة بهذه الملاحظات الخاصّة بطبيعة الحياة الجنسية في الهند ، والصين ، والبلاد المجاورة لهما ، إنما لفت اهتمام بعضهم أمر النساء ، والمنشِّطات الجنسية . وقد جرّب ابن بطوطة الحياة الجنسية هناك ، ممّا ذكره عن قبيلة (المالوة) الهندية ، في مدينة (مره) أن لنسائهم الجمال الفائق ، وهن مشهورات بطيب الخلوة ، ووفور الحظ من اللذة ، وكذلك نساء المرهتة ، ونساء جزيرة ذيبة المهل[1] ، وهي المعروفة ، حاليًا ، بجزر المالديف . وتحيل هذه الإشارة على ضرب من النساء الاستثنائيات في مجال المعاشرة الجسدية ترددت عند كثير من الرحّالة ، كما هو الأمر في إفريقية عند النوبيات ، وبعض بلاد الشمال ، وإلى ذلك أضاف ابن بطوطة أن بعض الجزر المجاورة للهند يعيش في بحارها نوع من السمك به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها ، ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك . ولم يكتفِ بذلك ، إنما جرؤ على تقديم رواية شخصية «كان لي بها أربع نسوة ، وجوارٍ سواهن ، فكنت أطوف على جميعهن كل يوم ، وأبيت عند من تكون ليلتها ، وأقمت بها سنة ونصفًا أخرى على ذلك»[2] .

يماثل هذا السمك في تأثيره المنشّط نبات الباه الذي كان يزرع في بلاد الفرويين في غرب إفريقية ، كما أشار إلى ذلك البكري ، وسيرد ذكره في الفصل القادم . وعلى الرغم من كل هذا ، فلا نعدم إشارات إلى شيوع اللواط الذي يأخذ كالبغاء ، طابعًا دينيًا أحيانًا ، فقد لاحظ سليمان التاجر ، أن أهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك ، بمنزلة زواني البددة[3] .

وتعامل المرأة الحائض في الهند والصين معاملة مختلفة ، فالهنود ، طبقًا لملاحظات سليمان التاجر لا يأتون النساء في الحيض ، ويخرجونهنّ عن منازلهم تقزُّزًا منهنّ . والصينيون يأتونهن في الحيض ولا يخرجونهن . وقد أشار أبو

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج٤ ، ١٧ .

(٢) م . ن ، ج٤ ، ص ٥٧ .

(٣) رحلة السيرافي ، ص٤٩ .

الريحان البيروني إلى ظاهرة البغاء ، بأسلوب لا ينقصه التحليل الدقيق : ويظن الناس بالزناء أنه مباح عندهم ، كما شرط «أصبهبذ كابل» أيام فَتَحها ، وإسلامه أن لا يأكل لحم بقر ، ولا يتلوّط . وليس الأمر عندهم كما يُظن ؛ ولكنهم لا يشدِّدون في العقوبة عليه . والآفة فيه من جهة ملوكهم ، فإن اللواتي يكنَّ في بيوت الأصنام هنّ للغناء ، والرقص ، واللعب ، لا يرضى منهن «برهمن» ولا سادن بغير ذلك ، ولكن ملوكهم جعلوهنّ زينة للبلاد ، وفرحًا ، وتوسعة على العباد . وغرضهم فيهن بيت المال ، ورجوع ما يخرج منه إلى الجند إليه ، من الحدود والضرائب . هكذا كان عمل عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعية عن عزاب الجند[1] .

٨. حرق الأجساد:

ولعلّ طقوس حرق الأجساد هي أشهر ما لفت اهتمام الرحّالة المسلمين من ظواهر ، ليس في الهند والصين ، إنما في روسيا ، وبعض البلاد الشمالية . ولا يقتصر ذلك على النساء أو العامّة ، إنما قد يكون من نصيب الملوك ، كما يظهر ذلك في مملكة بلهرا في الهند ، حيث يقوم الملوك بحرق أنفسهم بالنار لقولهم بالتناسخ ، وتمكنه في قلوبهم ، وزوال الشكّ فيه عنهم . وفي ملوكهم مَنْ إذا قعد للملك طُبخ له أرزّ ، ثم وضع بين يديه على ورق الموز ، وينتدب من أصحابه الثلاثمئة والأربعمئة ، باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم ، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه ، ويتقرب رجل منهم فيأخذ منه شيئًا يسيرًا فيأكله ، فيلزم كل من أكلوا من هذا الأرزّ إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم في اليوم الذي مات فيه ، لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر .

وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن ، ثم دار في

---

(١) في تحقيق ما للهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة ، ص :٤٧١ و٤٧٢ .

الأسواق ، وقد أجّجت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابًا ، ثم يعدو ، وبين يديه الصنوج دائرًا في الأسواق ، وقد احتوشه أهله وقرابته ، وبعضهم يضع على رأسه إكليلاً من الريحان يملؤه جمرًا ، ويصبّ عليه السندروس (مادة صمغية) وهو مع النار كالنفط ، ويمشي وهامته تحترق ، وروائح لحم رأسه تفوح ، وهو لا يتعثّر في مشيته ، ولا يظهر منه جزع ، حتى يأتي النار فيثب فيها فيصير رمادًا . فذكر بعض من حضر رجلاً منهم يريد دخول النار ، أنه لـمّا أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقه بيده إلى عانته ، ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده ، فجذب منها ما تهيّأ له ، وهو يتكلم ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت ، وصبرًا على الألم ، ثم زجّ بنفسه في النار[١] .

ويكشف لنا المشهد الآتي الذي نقله شاهد عيان للرام هرمزي عن القدرة الهائلة في تحمُّل العذاب ، وهو لا يقل قسوة عن سابقه ، قال : وحدّثني من أثق لقوله أنه شاهد ببعض بلاد الهند ، رجلَيْن . . . حفر كل واحد منهما بئرًا (في جسده) وملأها ، بعد أن قام فيها على رجله سرجينًا (وقف بنفسه على وضع بَعر الجمال فيها) ، وجعلا فيه نارًا ، ووسَّطا بينهما نَردًا ، وجعلا يلعبان بهما ، ويمضغان التانبول ويغنّيان ، والنار تعمل فيهما من أسفل إلى أن بلغت إلى قلوبهما فطفيا ، ولم يظهر منهما تألُّم ولا تغيُّر . وقال إنه لا يعلم هل حدّثه هذا الرجل أنهما ماتا في اليوم الأول ، أو جلسا يلعبان إلى اليوم الثاني ، وماتا فيه[٢] .

وقد عَلَّل المسعودي ذلك عند الهنود : والهند تعذِّب أنفسها . . . بأنواع العذاب من دون الأمم ، وقد تيقنتْ أن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجَّلاً لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها في هذه الدار معجَّلاً ، ومنهم من

---

(١) رحلة السيرافي ، ص٧٨ .

(٢) الرام هرمزي ، عجائب الهند ، تحقيق : فان دي ليث ، ليدن ، بريل ، ص١٣٣ .

يصير إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسه ، فيدور في الأسواق وقد أُجّجت له النار العظيمة ، وعليها مَنْ قد وُكِّل بإيقادها ، ثم يسير في الأسواق وقدّامه الطبول والصنوج ، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه ، وحوله أهله وقرابته ، وعلى رأسه إكليل من الريحان ، وقد قشّر جلده عن رأسه ، وعليها الجمر ، وعليها الكبريت ، والسندروس ، فيسير وهامته تحترق ، وروائح دماغه تفوح ، وهو يمضغ ورق التنبول ، وحب الفوفل . .فإذا طاف هذا المعذِّب لنفسه بالنار في الأسواق ، انتهى إلى تلك النار ، وهو غير مكترث ، ولا متغير في مشيته ، ولا متهيب في خطوته ، ففيهم من إذا أشرف على النار ، وقد صارت جمرًا كالتل العظيم ، يتناول بيده خنجرًا- ويدعى الجريء عندهم- فيضعه في لبّته .

وزعم المسعودي أنه حضر أحد مشاهد الحرق ، وهو المشهد ذاته الذي ورد على لسان سليمان التاجر في كتاب السيرافي : وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند ، من أرض اللار من مملكة البلهرا ، وذلك في سنة أربع وثلثمئة . . . فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم ، فلمّا دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقّه ، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده ، فجذب منها قطعة ، وهو يتكلّم ، فقطعها بالخنجر ، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاونًا بالموت ، ولذة بالنقلة ، ثم هوى بنفسه في النار . وإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته ، يُدعى هؤلاء (البلانجرية) ، وأحدهم بلانجري . وتفسير ذلك المصادق لمن يموت ؛ فيموت بموته ، ويحيا بحياته[1] .

وأرجَعَ اليعقوبي أصل حرق الأجساد في الصين إلى تعلُّق الرعية بالملك «توتال» الذي أشرنا من قبل إلى دوره في ترسيخ السنن الحسنة في مطلع هذا الفصل ، وقال : إن أهل الصين يقولون إنهم وجدوا مكتوبًا على أبواب مدنهم أنه

---

(١) مروج الذهب ، ج١ ، ص ٢٠٩ .

لم يملكهم ملك ، قَطّ مثله ، ورضوا به رضًا لم يرضَوا مثله بأحد قَطّ ، وهو الذي سنّ لهم كل سنّة هم عليها ، في أديانهم وأفعالهم ، وصناعاتهم ، وشرائعهم ، وأحكامهم . وكان مُلكه ثمانيًا وسبعين سنة . فلمّا مات أقاموا يبكون عليه زمانًا طويلاً ، ويحملونه على أسرّة الذهب ، وعَجَل الفضة ، ثم جمعوا له العود ، والعنبر ، والصندل ، وسائر الطيب ، وألهبوه بالنار ، وطرحوه فيها ، وجعل خاصّته يلقون أنفسهم في تلك النار أسفًا عليه ، ووفاءً له . وصار هذا سُنّة فيهم ، وجعلوا صورته على دنانيرهم[1] .

أمّا الدمشقي فلخّص القيمة الاعتبارية للحرق : ومن شأن البركة أيضًا أنهم يتولّون حرق جثث ملوكهم ، وعظامهم ، ويدخرون رمادهم في موضع حريز ، فإذا ركب ملك الوقت كان في موكبه منهم اثنان ، بيد كلّ واحد منهما صحفة من ذهب فيها من ذلك الرماد ، ويذرون منه على وجوههم ، وأبدانهم ، شيئًا فشيئًا ، إشارة إلى : أَنْ هذا مصيرك أيها الملك ، ففكِّرْ فيه ، ولا تظلم ، ولا تفعل فيه إلاّ الخير[2] .

لم يكتفِ الدمشقي بالتفسير ، إنما ضرب مثلاً على ذلك انتهى بخلاصة اعتبارية أهم : في كرورا صنم مقصود من الهند يأتونه من مسيرة سنة بأنواع من التعبّدات التي يرَونها ، فمنهم من يمشي على ركبه زحفًا أبدًا من مكانه حتى يصل إليه ، ومنهم من يلقي نفسه من قامته على وجهه إلى الأرض ، ثم يقوم ويفعل ذلك أبدًا حتى يصل أو يموت في طريقه ، ومنهم من يضفر شعره قرونًا ملفوفة بالمشاق والقطن ، ويسقيها بما أمكن من السليط ، والسمن ، والدهن ، ويأخذ بيده خنجرًا ماضيًا ، ثم يقصد بيت النار ، ومعه جماعة من أصحابه ، ومحبيه ، ومن السدنة ، يزفونه إلى النار ، فإذا قاربها أخذ النار بيده فيشعل قرونه ، ثم يمدّ يده إلى جلدة بطنه ويقطعها ستًا بالخنجر ، ويدخل يده إلى كبده

---

(١) تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ١٨١ .

(٢) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص١٧٢ .

ويخرجها ، ويقطع منها قطعة يعطيها لأخصّ أصحابه ، ويلقي نفسه في النار فتحرقه النار . ثم إذا صار رمادًا أخذوا رماده وذرّوه في نهر الكنج أو جعلوه في ماء من نهر الكنج وذروه على أجسامهم يتبرّكون بذلك ، والهنود بجملتهم قائلون بالتناسخ . .يرَون أنهم في سجن ضيق في حال حياتهم ، وأنهم إذا ماتوا صارت أرواحهم إلى أجساد غير أجسادهم ، فتنشأ فيها كما نشأت من قبل ، وتكون أسعد ممّا كانت ، ويرَون أن الموت هو الحياة ؛ فلذلك هان عليهم القتل[1] .

علّل البيروني ذلك بالصورة الآتية : فأمّا الهند فيرَون من حقّ جثّة الميت على الورَثة أن تُغسَل ، وتعطّر ، وتُكفَّن ، ثم تُحرَق بما أمكن من صندل ، أو حطب ، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر «كنك» وتُلقى فيه ، ليجري عليها كما جرى على عظام أولاد «سكر» المحترقة ، فأنقذهم من جهنم ، وحصّلهم في الجنة ، وباقي رماده يطرح في بعض الأودية الجارية ، ويقبر موضع احتراقه ببناء شبه ميل عليه مجصّص ، ولا يحرق من الأطفال ما قصر سنّه من ثلاث ، ثم يغتسل من يتولّى ذلك مع ثيابه يومين بسبب جنابة الميّت ، ومن عجز عن الإحراق مال به إلى الإلقاء في الصحراء أو في الماء الجاري ؛ وأمّا حقّ الحيّ في جسده فلا يميل فيه إلى الإحراق إلاّ الأرملة التي تؤثر اتباع زوجها أو الذي ملّ حياته ، وتبرّم بجسده من مرض عياء ، وزمانة لازمة ، أو شيخوخة ، وضعف ، ثم لا يفعله مع ذلك ذو فضيلة ، وإنما يؤثره «بيش» أو «شودر» في الأوقات المرجوّة الفاضلة طلبًا لحال أفضل ممّا هو عليه عند العود . ولا يجوز ذلك بالنص لـ«برهمن» أو «كتشر» ، ولأجل هذا يقتل نفسه من يقتلها منهم في أوقات الكسوف ، أو يستأجر من يغرقه في نهر «كنك» ويتولّى إمساكه حتى يموت[2] .

لكنّ ابن بطوطة ، وقد خبر التقاليد الهندية مدة طويلة ، عرض بتفصيل ممزوج بالدهشة تلك الطقوس التي كادت تفقده وعيه : كنتُ بمدينة أكثر سكانها

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص١٧٤ .

(٢) في تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة ، ص٤٨١ .

الكفار تعرف بأمجرى (حاليًا في إقليم ماديا-براديش) ، وأميرها مسلم من سامرة السند ، وعلى مقربة منها الكفار العصاة ، فقطعوا الطريق يومًا ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجتْ معه رعية من المسلمين ومن الكفار ، ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر ، وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات ، فاتّفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب ، لكن مَن أحرقت نفسها بعد زوجها أحْرَزُ أهل بيتها شرفًا بذلك ، ونُسبوا إلى الوفاء ، ومَن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب ، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تُكرَه على إحراق نفسها . ولمّا تعاهدت النسوة الثلاث اللائي ذكرناهنّ على إحراق أنفسهنّ ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء ، وطرب ، وأكل ، وشرب ، كأنهن يودّعن الدنيا ، وتأتي إليهن النساء من كل جهة .

وفي صبيحة اليوم الرابع ، أُتيتْ كلّ واحدة منهن بفرس ، فركبته ، وهي متزيِّنة متعطِّرة ، وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها ، والبراهمة يحفّون بها ، وأقاربها معها ، وبين يديها الأطبال ، والأبواق ، والأنفار ، وكل إنسان من الكفار يقول لها : أبلغي السلام إلى أبي ، أو أخي ، أو أمي ، أو صاحبي ، وهي تقول : نعم ، وتضحك إليهم . وركبتُ مع أصحابي لأرى كيفية صنعهنّ في الاحتراق ، فسرنا معهنّ نحو ثلاثة أميال ، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال ، وبين أشجاره أربع قباب ، في كل قبة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج ماء ، قد تكاثفت عليه الظلال ، وتزاحمت الأشجار ، فلا تتخلّلها الشمس ؛ فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنّم ، أعاذنا الله منها .

ولمّا وصلن إلى تلك القباب ، نزلن إلى الصهريج ، وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن من ثياب وحلي فتصدّقن به ، وأُتِيَت كل واحدة منهنّ بثوب قطن خشن غير مخيط ، فرُبِط بعضه على وسطها ، وبعضه على رأسها ، وكتفيها ، والنيران قد أضرِمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض ، وصُبَّ عليها «روغن

كنجُت» ، وهو زيت الجلجلان ، فزاد في اشتعالها ، وهنالك نحو خمسة عشر رجلاً ، بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة ، بأيديهم خشب كبار ، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حُجبتْ النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها ، فرأيتُ إحداهن لـمّا وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف ، وقالت لهم : «مارا ميترساني أزاطش مَن ميدانم أواطش أست رها كُني مارا» ، وهي تضحك ، ومعنى هذا الكلام «أبالنار تخوفوني ، وأنا أعلم أنها نار محرقة؟» . ثم جمعت يديها على رأسها خدمةً للنار ، ورمت بنفسها فيها ، وعند ذلك ضُرِبت الأطبال ، والأنفار ، والأبواق ، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها ، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرّك ، وارتفعت الأصوات ، وكثر الضجيج . ولّما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أن أصحابي تداركوني بالماء فغسلوا وجهي ، وانصرفت .

وأردف ابن بطوطة بطقوس الحرق ، القول بطقوس التغريق : كذلك يفعل أهل الهند أيضًا في الغرق ، يُغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك (النهر المقدَّس عند الهندوس) ، وهو الذي إليه يحجّون ، وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرّقين . وهم يقولون : إنه من الجنة ، وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه ، يقول لمن حضره : لا تظنوا أني أُغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا ، أو لقلة مال ، إنما قصدي التقرب إلى كساي (كريشنا) ، وكساي اسم الله ، عز وجل ، بلسانهم ، ثم يغرق نفسه ، فإذا مات أخرجوه ، وأحرقوه ، ورمَوا برماده في البحر المذكور[1] .

وأكّد ابن بطوطة أن أهل الصين يحرقون موتاهم أيضًا كما يفعل الهنود ، والمشهد الذي حضره ابن بطوطة مرّ بنا ما يناظره تمامًا عند ابن فضلان الذي مرّ بتجربة مشابهة في بلاد الشمال ، حين شاهد طقوس الحرق في البلاد الروسية .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج٤ ، ص : ١٠٠-١٠١ .

٩. أكلة لحوم البشر:

وتردد على ألسنة بعض الرحّالة أمر أَكَلة لحوم البشر في الجزر النائية في جنوب شرق آسيا، ولكن المرويّات السردية لا تأخذ شكلاً موثَّقًا، في كل ما يتّصل بهذه الأخبار، إنما تمثّل جانبًا من الصورة المتشكلة لـ«لآخر»، في أذهان المسلمين، فقد أورد الرام هرمزي، الربان الخليجي الذي كان يجوب الشواطئ الإفريقية والهندية، حكايةً عن أكل البشر في سفالة الزنج، على السواحل الجنوبية الشرقية من إفريقية، إذ أبلغه بعض ربابنة البحر، بأن المركب إذا مضت إلى سفالة الزنج، فأكثر ما يبلغون إلى بلد فيه زنج يأكلون الناس، وإنما يقع المركب إليهم على سبيل الغلط؛ لأن الماء والريح يحدرانه (يدفعانه) فلا يقدر الربان على ضبطه، ويغلبهم فيقع إليهم [(١)].

هذا في إفريقية، أمّا في الشرق فتتناثر الأخبار الخاصّة بذلك، وقد أورد سليمان التاجر ذلك في أخبار جزيرتَيْن من جزر المحيط الهندي، أهلهما يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعور، مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، فرج أحدهم مثل الذراع، يعني ذكره، عراة ليست لهم قوارب، ولو كانت لهم لأكلوا كلّ من مرّ بهم، وربما أبطأت المراكب في البحر، وتأخَّر بهم المسير بسبب الريح، فينفِد ما في المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء، وربما أصابوا منهم ويفلتون أكثر[(٢)]. وأهل جزيرة ملجان جوار سرنديب يقومون بذلك، إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علَّقوه منكَّسًا، وقطّعوه، وأكلوه نيًا، وعدد هؤلاء كثير[(٣)].

قال الرام هرمزي: وسمعت من حكى أن رجلاً من أهل البصرة كان ينزل في وسط سكّة قريش، خرج من البصرة قِبَل الزابج (إندونوسيا) فوقع إلى

---

(١) عجائب الهند، ص١٤٣.

(٢) رحلة السيرافي، ص٢١-٢٢.

(٣) م. ن، ص٣٠.

جزيرة . قال : فصعدتُ تلك الجزيرة ، وتعلّقت بشجرة كبيرة ، فواريت شخصي بين أوراقها ، وبتّ ليلتي . فلمّا أصبحت رأيت غنمًا قد أقبلت نحو مئتي رأس في قدر العجاجيل (العجول) يسوقها رجل لم أرَ مثله ، عظيم الخلقة ، طويل ، عريض ، بشع المنظر ، ومعه عصاه يسوق بها الغنم . فقعد على ساحل البحر ساعة ، والغنم ترعى بين ذلك الشجر ، ثم طرح نفسه على وجهه ، فنام إلى حدود نصف النهار ، ثم قام فرمى بنفسه في الماء ، واغتسل ، وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلاّ ورقة تشبه ورق الموز إلاّ أنها أعرض منه ، قد جعلها في وسطه كالميزر ، ثم عاد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فيه ، ومصّه إلى أن شرب ما فيه ، ثم فعل ذلك بعدة من الغنم . ثم استلقى في ظل شجرة ، ففي تأمُّله الشجرة ؛ وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها ، فأخذ حجرًا ثقيلاً وحذف الطائر فلم يكذب فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب مني ، فأومى (أشار) إليَّ بيده أن أنزل ؛ فلخوفي منه بادرت ، وأنا ضعيف ميت خوفًا وجوعًا .

وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض ، فقدرت أن وزن الطائر نحو مئة رطل ، ثم نتف ريشه وهو حيّ يضطرب ، فلمّا نتفه أخذ حجرًا قدر عشرين رطلاً ، فضرب به رأسه ، وتركه حتى مات ، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه ، ثم جعل ينهشه بأسنانه ، ويأكل كما تأكل السباع ، حتى أتى عليه ، ولم يبقَ إلاّ عظامه . فلمّا اصفرّت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم ، بعد أن صاح صيحة أفزعتني ؛ فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد ، وأوردهم خليجًا في الجزيرة ، فيه ماء عذب فسقاهم ، وشرب وشربت ، وقد أيقنت بالموت .

ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعًا قد علمه بين الأشجار ، وحوله الخشب طولاً وعرضًا ، وله شبه باب . ودخلت الغنم ، ودخلتُ معها ، وإذا في وسط ذلك الموضع مثل الغزالة (ربما يقصد خيمة) في ارتفاع نحو عشرين ذراعًا على خشب وثيق ، والغزالة شبيه بالبيت ، فما عمل شيئًا دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها ، فدقّ رأسها بحجر ، ثم أجّج نارًا ، وجعل يقطِّع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ، ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار ،

فأكل كل ما في جوف الشاة نيًا ، ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدد كبير ، ثم أخذ شاة من أكبر الغنم ، فقبض بيديه على وسطها ففسخها ، وهي تصيح ، ثم أخذ أخرى ففعل بها مثل ذلك ، ثم صعد فأخذ شيئًا كان يشربه ، ثم نام فجعل يغظ (يشخر) كما يغظ الثور . فلمّا انتصف الليل جعلت أدبّ قليلاً إلى موضع النار ، وتتبّعت ما بقى من اللحم ، فأكلت ما يمسك رمقي ، وخفت أن تنفر الغنم ، فينتبه ، فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة . وبقيت مطروحًا إلى الغد ، فلمّا أصبح نزل وساق الغنم ، وساقني معهم ، وهو يوحي إليّ بكلام لا أفهمه ، فأتكلّم بما أعرف من اللغات فلا يفهم مني ، وقد صار عليّ شعر عظيم ، وأظنه لـمّا رآني على الصورة ، عافتني نفسه ؛ وكان ذلك سبب تأخير أكلي .

ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام ، يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله ، ولا يمضي يوم إلاّ ويصطاد فيه الطير والطيرين ، فإن حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئًا من الغنم ، وإن اقتصرت (قلّت) الطيور أكل شاة . وصرت أعاونه في وقيد النار ، وجمع الحطب ، وأخدمه ، وأدبِّر الحيلة لنفسي إلى أن مضى لي عنده شهران ، وصلح جسمي ، ورأيت في وجهه آثار السرور . وفهمت أنه عزم على أكلي . وكان يأخذ من شجر في الجزيرة ثمرًا ينقعه في الماء ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل ، وكنت أرى في تلك الجزيرة طيورًا كبارًا كالفيل والجاموس ، وأكبر وأصغر ، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه ، وإنما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفًا من تلك الطيور لأنها بين شجر كبار ، وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب ، من وثاقه ما قد عمل ، والطير يفزع أن ينزل إلى هناك فيتعوّق في الأشجار .

فلمّا كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام ، فقمت وتعلّقت بشجرة ودلّيت غصنًا من أغصانها إلى الأرض ، ومضيت على وجهي أطلب الصحراء ، قد كنت أشرفت عليها من تلك الشجرة . فلم أزل أمشي إلى الصباح ، ثم خفت ، وتعلّقت بشجرة عظيمة الساق ، ومعي خشبة قد أعددتها ،

وعملت على أنه إن لحقني ضربت رأسه ؛ فإمّا أن أدافع عن نفسي ، وإمّا أن يقتلني ، فالموت لا بدَّ منه .

فمكثت يومي في الشجرة فلم أره ، وقد كنت أخذت معي قطعة من اللحم ، فلمّا أمسيت أكلتها ونزلت ، فمشيت ليلتي إلى الصباح ؛ فوجدت نفسي في صحراء ، وفيها أشجار متفرقة ، فمشيت وما أرى أحدًا إلاّ الطيور ، ووحوشًا لا أعرفها ، وحيّات ، ورأيت ماءً عذبًا فأقمت بمكاني ، وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز فآكل ، وأشرب ، والطيور تطوف بالغوطة ، فعاينت طيرًا منها ، فأعددت شيئًا من قشور الشجر مثل الحبال ، ولم أزل أرصد ذلك الطائر حتى سقط يرعى ، ودرت من خلفه ، فتعلقت بساقه وهو مشغول يرعى ، فشددت نفسي ، فلمّا فرغ من أكله شرب ماء وتحلّق في الهواء ، فأشرفنا على البحر ، فاستسلمت للموت على أي حال كان ، لا محالة ، فانحطّ على جبل في الجزيرة ، فحللت نفسي من ساقه ، وأنا ضعيف ، فجعلت أجرّ نفسي خوفًا منه ، ونزلت من الجبل فتعلّقت بشجرة ، وأخفيت شخصي فيها .

فلمّا أصبحت رأيت دخانًا فعلمت أن الدخان مع الناس ، فنزلت أمشي إلى ناحية الدخان ، فما مشيت قليلاً حتى استقبلني جماعة ، فأخذوني ، وكلموني كلامًا لم أعرفه ، فحملوني إلى القرية ، فأدخلوني إلى منزل ، وحبسوني مع ثمانية أنفس ، فسألوني عن خبري فحدثتهم ، وسألتهم فخبّروني أنهم أهل مركب فلان . وكان قد خرج من الصنف إلى الزابج ، فوقع عليهم الخب ، فتخلّصوا في قارب المركب نحو عشرين رجلاً ، فوقعوا إلى هذه الجزيرة ، فأخذهم قوم ، فاقتسموهم ، فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت . فنظرت ، وإذا مقامي عند صاحب الغنم كان أصلح ، فجعلت أتأسّى بالقوم ، وإن كنت أؤكل فقد كان عليّ الموت ، وبعضنا يتأسّى ببعض .

فلمّا كان من الغد جاؤونا بسمسم ، أو بشيء يشبهه ، وموز ، وسمن ، وعسل ، وضعوه عندنا ، فقالوا : هذا طعامنا منذ وقعنا هاهنا ، فأكلنا مقدار ما يمسك رمقنا ، ثم جاؤوا فنظروا إلينا ، وأخذوا أحسننا حالاً في جسده ، فودّعناه

وقد كان بعضنا أوصى ببعض ، فأخرجوه إلى وسط المنزل ، ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسمن ، ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين ، ثم اجتمعوا عليه ، فذبحوه ، وقطّعوه قطعًا ، ونحن نرى ، ثم شووه وأكلوه ، وطبخوا بعضه ، وأكلوا بعضه نيًا مملَّحًا ، ثم شربوا شرابًا وسكروا ، فناموا ، فقلت لهم : قوموا فنقتل هؤلاء فإنهم سكارى ، ونخرج على وجوهنا ، فإن سلمنا فالحمد لله ، وإن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذي يحلّ بنا ، وإن لحقنا أهل القرية فهي موتة واحدة ، فاختلف رأينا بقية يومنا . وأظلّنا الليل ، وأصبحنا ، فجاؤونا بما نأكل على الرسم المعتاد .

ومضى أول يوم ، وثاني يوم ، وثالث يوم ، ورابع يوم ، ونحن على تلك الحالة ، فلمّا كان في اليوم الخامس جاؤونا ، فأخذوا منا واحدًا ، ففعلوا به مثل الأول ، فلمّا سكروا وناموا ، قمنا إليهم فذبحناهم بأسرهم ، وأخذ كلّ واحد منا سكينًا وشيئًا من العسل ، والسمن ، والسمسم . فلمّا أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل ، وقد كنا ميّزنا بالنهار (عرفنا المكان) فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر ، لا من شَطّ القرية ، ودخلنا غوطة ، فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة أو ثمانية ؛ خوفًا من القوم ، فلمّا جنّ الليل نزلنا ومشينا ، ونحن نأخذ الطريق على الكواكب ، وأخذنا نمشي الساحل يومنا ، ثم أمِنّا القوم ، فكنا الآن نمشي ، ونستريح ، ونأكل من ثمار الغيط ، وهي كثيرة الموز زمانًا طويلاً ، إلى أن وقعنا في غوطة حسنة ، وفيها ماء عذب طيّب ، فعزمنا على المقام بها أبدًا إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها ، فمات منا ثلاثة ، وبقينا أربعة .

فبينما نحن في بعض الأيام نمشي ، وإذا بقارب خَلِق (عتيق) قد قذف به الموج ، وفيه جماعة موتى قد تقطّعوا ، والقارب جانب في الطين والموج يضربه وهو مطروح ، فاحتلنا في رميهم إلى البحر ، وغسلنا القارب ، وأخذنا معنا طينًا من طين الجزيرة مثل الغري (الصلصال) وأصلحنا فيه دقلاً من الشجر ، وسوَّينا حبالاً من خوص النارجيل ، وشراعًا ليفًا ، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة وملأنا معنا ماء ، وبعضنا يدري (يعرف) سفر البحر . وسرنا نحو

خمسة عشر يومًا ، ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد أهوال وعجائب مرَّت بنا ، وسرنا من تلك القرية إلى أن وصلنا الصنف . وخبّرنا الناس بأخبارنا ، فجمعوا لنا زوّادًا ، وخرج كل واحد منا يقصد بلدًا . فرجع إلى البصرة بعد أربعين سنة من غيبته ، وقد مات أكثر أهله ، ووجد لولده وِلْدا فأنكروه . وقد كانوا لما انقطع خبره قسّموا ماله ، وكان موسرًا ، وحاله حسن ، فلم يصل من ماله إلى شيء ، ثم مات بعد ذلك[1] .

رسمت هذه المرويّات العجيبة في المخيِّلة صورًا لأقوام مستغرقة في وحشيتها ، فظهرت تعيش البداهة الأولى حيث لم يكن ثمة تفريق واضح بين الإنسان والحيوان بسبب غموض الحد الفاصل بين الروح البشري والحيواني في الوعي العامّ ، أو -ربمًا- عدم وجود ذلك الوعي بحكم الاندماج الكامل بالطبيعة . كل هذا في حال صدق مضمونها ، ولكن المؤكد ، بالنسبة لنا ، هو أنها انبثقت في سياق من الذم على خلفية موقف ثقافي من الآخر ، والبحث عن الاختلاف المنقوص عند جماعات صغرى نائية في سكنها ، ومنكفئة على ذاتها في طقوس خاصّة -ربمًا- ، وربما كان بعضها يحترف السلب ، والنهب ، والقتل ، لخطف القوارب التجارية العابرة بين الجزر ، والبلدان ، وينكِّل بالغرباء ، ويروِّعهم ، فيثيرون هلعًا بين البحّارة ، والتجّار ، ثم تتضخم هذه المرويّات ، فتدمغ تلك الجماعات بصور بدائية متوحِّشة .

وفي جميع الأحوال ، تمثّل هذه المرويّات مستندات رمزية ، تعبّر عن نوع الثقافة السائدة المتحكِّمة بكيفية إنتاج الصور ، وترتيب العناصر الفاعلة فيها . وتأتي أخبار أَكَلة لحوم البشر على هامش المتون الرئيسة المكرَّسة لوصف العالم الشرقي .

---

(١) عجائب الهند ، ص :١٤٥-١٥٠ .

١٠. إغماءات ابن بطوطة:

تُعَدّ الرحلات المشرقية لابن بطوطة أشمل ما دوِّن في أدب الارتحال، فقد استثاره العالم الشرقي الذي طاف في أرجائه، وعرض لمواقف غريبة مرّ بها، فمن ذلك بعض المظاهر السحرية التي تسبّبت في ترويعه. قال: رحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة برون (نرور) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار، أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل، والسباع بها كثيرة. وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلاً وأبوابها مغلقة، فيفترس الناس، حتى قتل من أهلها كثيرًا، وكانوا يعجبون في شأن دخوله.

وأخبرني محمد التوفيري من أهلها، وكان جارًا لي بها، أنه دخل داره ليلاً، وافترس صبيًا من فوق السرير. وأخبرني غيره، أنه كان مع جماعة في دار عرس، فخرج أحدهم لحاجة فافترسه، فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطرحًا بالسوق، وقد شرب دمه، ولم يأكل لحمه، وذكروا أنه كذلك فعله بالناس. ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع، وإنما هو آدمي من السحَرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع، ولمّا أُخبِرت بذلك أنكرته، وأخبرني به جماعة.

وقد شحذ صدى هذه المرويّات ذهن ابن بطوطة بالفضول والمخاوف، فأورد نبذًا منها: ولنذكر بعضًا من أخبار هؤلاء السحرة، وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب، وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض، وتبنى عليه، فلا يترك له إلاّ موضع يدخل منه الهواء، ويقيم به الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة. ورأيت بمدينة منجرور رجلاً من المسلمين ممن يُتَعَلَّم منهم، قد رفعت له طبلة، وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يومًا، وتركته كذلك فلا أدري كم أقام بعدي.

والناس يذكرون أنهم يركِّبون حبوبًا يأكلون الحبّة منها لأيام معلومة أو شهر؛ فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب، ويخبرون بأمور مغيّبة، والسلطان يعظّمهم ويجالسهم، ومنهم من يقتصر في أكله على البقل، ومنهم من لا يأكل

اللحم ، وهم الأكثرون ، والظاهر من حالهم أنهم عوّدوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها ، ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميّتًا من نظرته . وتقول العامّة : إنه إذا قُتِل بالنظر وشُقّ عن صدر الميت وُجِد دون قلب ، ويقولون أُكل قلبه ، وأكثر ما يكون هذا في النساء ، والمرأة التي تفعل ذلك تسمّى كفتار .

ولمّا وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط ، والسلطان ببلاد التِّلنك (مملكة هندية ، عاصمتها وارانكل) نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوّتهم ، بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم ، فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولّوا إطعامهم ، فكان عندي منهم خمسمئة نفس ، فعمّرت لهم سقائف في دارين ، وأسكنتهم بها ، وكنت أعطيهم نفقة في خمسة أيام .

فلمّا كان في بعض الأيام أتوني بامرأة منهم ، وقالوا : إنها كفتار ، وقد أكلتْ قلب صبيّ كان إلى جانبها ، وأتوا بالصبيّ ميّتًا ، فأمرتهم أن يذهبوا إلى نائب السلطان فأمر باختبارها ؛ وذلك بأن ملؤوا أربع جرّات بالماء ، وربطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها في نهر الجون فلم تغرق ، فعُلم أنها كفتار . ولو لم تطفُ على الماء لم تكن بكفتار ، فأُمِر بإحراقها بالنار ، وأتى أهل البلد رجالاً ونساءً ، فأخذوا رمادها ، وزعموا أنه مَن تبخّر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار .

بعث إليّ السلطان يومًا وأنا عنده بالحضرة ، فدخلت عليه وهو في خلوة ، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية ، وهم يلتحفون بالملاحف ، ويغطّون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم ، فأمرني بالجلوس ، فجلست ، فقال لهما : إن هذا العزيز من بلاد بعيدة ، فأرِياه ما لم يرَه ، فقالا : نعم . فتربّع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعًا ، فعجبت منه ، وأدركني الوهم ، فوقعت على الأرض . فأمر السلطان أن أُسقى دواءً عنده ، فأفقت ، وقعدت ، وهو على حاله متربّع ، فأخذ صاحبه نعلاً له من شكارة كانت معه ، فضرب بها الأرض كالمغتاظ ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربّع ، وجعلت تضرب في عنقه ، وهو ينزل قليلاً قليلاً حتى جلس

معنا . فقال السلطان : إن المتربّع هو تلميذ صاحب النعل ، ثم قال : لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم ممّا رأيت ، فانصرفت عنه ، وأصابني الخفقان ، ومرضت حتى أمر لي بشربة ، أذهبت ذلك عني[1] .

١١ . ذخيرة غرائب:

رأينا كيف جرى تحوُّل في الصورة المثالية المقدَّمة عن الهند والصين والجزر المتاخمة لهما ، بدايةً من أخبار أَكَلة لحوم البشر ، ثم تطورت مع السحرة الجوكية والكفتار الذين تسبّبوا في ذعر ابن بطوطة ، وسنتابع الأمر مع العجائب التي غزت مرويّات الرحلة ، لتقديم شذرات تشبع الحاجة الدفينة في الثقافات المستقرّة ، عقائديًا وقيميًا ، تلك الحاجة التي يدفع بها التخيُّل والرغبة ، بهدف الانتقاص ، من جهة ، والتنويع السالب الذي يراد منه عرض جوانب متنوِّعة من الصور الخاصّة بالآخر ، من جهة ثانية .

سيقودنا السحر الهندي إلى الغرائب التي شاهدها الرحّالة أو سمعوا بها . وكثير منها تردَّد في المخيّلة ، بوصفه جزءاً من مرويّات عوالم غريبة وبعيدة عن دار الإسلام : أورد القزويني عن ابن الفقيه قوله : إن في إندونوسيا سكّانًا شبه آدميين إلاّ أن أخلاقهم بالوحش أشبه ، ولهم كلام لا يُفهم ، وبها أشجار ، وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة ، وبها نوع من النسانيس له أجنحة كأجنحة الخنافس من أصل الأذن إلى الذنب . وفيها وعول كالبقر الوحشية ، ألوانها حمر منقَّطة بالبياض ، وأذنابها كأذناب الظباء ، ولحومها حامضة[2] .

وتضمَّنت مرويّات سليمان التاجر ذخيرة من العجائب عن بعض سكّان الجزر في المحيط الهندي : ذكروا أن في ناحية البحر سمكًا صغيرًا طيّارًا يطير

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج٤ ، ص : ٢٠-٢١ .

(٢) القزويني ، عجائب المخلوقات ، بيروت ، دار الآفاق الجديدة ، ص٤١٠ .

على وجه الماء يسمّى جراد المو ، وذكروا أن بناحية البحر سمكًا يخرج حتى يصعد على النارجيل فيشرب ما في النارجيل من الماء ، ثم يعود إلى البحر . وذكروا أن في البحر حيوانًا يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجرًا ، قال : يُتَّخذ منه كحل لبعض علل العين[1] .

ولم يقتصر الأمر على أهل الجزر النائية ، إنما شمل ذلك أهل البرّ ، فبالهند قوم يُعرَفون بالبيكرجيين ، عراة قد غطّت شعورهم أبدانهم وفروجهم ، وأظفارهم مستطيلة كالحراب ، إذ كانت لا تُقَصّ إلاّ ما ينكسر منها ، وهم على سبيل سياحة ، وفي عنق كلّ رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الإنس ، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرزّ المطبوخ مستبشرين به ، فيأكل في تلك الجمجمة ، فإذا أشبع انصرف ، فلا يعود لطلب الطعام إلاّ في وقت حاجته[2] .

ومن طوائف المتعبدين والعلماء طائفة يسمَّون الجوكية أصحاب مخارق ، وشعبذة ، وتخييلات . وطائفة يسمَّون بوكية أصحاب رياضات وتجريد ، يزيلون بالنورة ما على أبدانهم من الشعر ، ولا يمشون حيث مشَوا ، ولا يوجدون حيثما وجدوا أبدًا إلاّ وهم أزواج صاحب ومصحوب ، ومن خِلَّتهم أن أحدهما يستمتع بالآخر فيما بين فخذيه طبًا منه وإخراجًا للفضلة المؤذية من المني على الوجه الطبيعي . وفي رقبة المصحوب جرس معلّق إذا وجد الجوع جاء إلى درب أو سوق أو زقاق أو باب البُد ، ثم يحرك الجرس تحريكًا مخصوصًا ، فيتبادر إليه من سبق من سامعيه ، ويغرف له كشلى ، ويناوله أيّاه ، فيأتي به إلى صاحبه ، فيضعه بين يديه ، ثم يتأخّر عنه المصحوب ، فيأكل ذلك الصاحب منه ما شاء ثم يتأخر ، فيأتي المصحوب فيأكل ما شاء ، ثم يقوم ، ويترك الباقي ، فيأتي

---

(١) رحلة السيرافي ، ص ٣٠ و٣١ .

(٢) م . ن ، ص٨٤ .

الدافع له ، فيأخذ ما بقي بركة له ولأهله[1] .

وفي رحلته من البنغال إلى جزيرة جاوة ، مرّ ابن بطوطة في بلاد البرهنكار ، وهي جزر أنداماان التابعة لبورما الآن ، فشاهد قومًا أفواههم كأفواه الكلاب ، وهذه الطائفة من الهمج ، كما يقول ابن بطوطة ، لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره ، وسكناهم في بيوت قصب مسقّفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر ، وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير ، ورجالهم على مثل صورتنا إلاّ أن أفواههم كأفواه الكلاب ، وأمّا نساؤهم فلسن كذلك ، ولهنّ جمال بارع ، ورجالهم عرايا لا يستترون إلاّ أن الواحد منهم يجعل ذَكَره وأنثييه في جعبة من القصب منقوشة معلّقة من بطنه ، ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر[2] .

١٢. قيم متواشجة:

لاحظنا كيف أن الرحّالة الذين توغّلوا في شرق العالم ، واهتموا بالمجتمعات والثقافات : الهندية ، والصينية ، وما جاورها ، قد ركّزوا اهتمامهم على البشر في مرويّاتهم السردية ، أمّا الحيوان ، والنبات ، فجاء بالدرجة الثانية ، إذ انصرفت عنايتهم إلى النسيج الاجتماعي من مُلك ، وعدالة ومهارات وعادات وتقاليد ، بما يرجّح القول بأن صورة الشرق تشكّلت استنادًا إلى معطيات إنسانية متنوّعة وشاملة .

ولو فحصنا الصورة التي رُكّبت للشرق لوجدناها شاملة لجوانب الحياة كافّة ، وفي مقدمة ذلك الجانب البشري الذي يؤلّف لبّ الجغرافيا الإسلامية ، ويتنزّل في صلب اهتمام الرحّالة ، والواقع أن الرحّالة اتّصفوا بتفهّم لا ينكر لتقاليد الشعوب الشرقية . ومع أن كثيرًا من عاداتها يختلف عمّا هو معروف في دار الإسلام ، فضلاً عن اختلاف منظومة العقائد فإن الرحّالة المسلمين - باستثناء

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص١٧٢ .

(٢) رحلة ابن بطوطة ، ج٤ ، ص : ١٠٧-١٠٨ .

ملاحظات عابرة ، وردت أحياناً في سياق المثير والعجيب - قدموا وصفاً مفصلاً يكاد يخلو من الأحكام الانتقاصية التي ظهر شيء منها لدى نظرائهم الرحّالة ممن جابوا أقاليم الشمال أو الجنوب ، ولهذا عُدَّت مدوّناتهم من المصادر المعترف بها لدى كثير من الشعوب . وكان «بارتولد» المتخصِّص في دراسة المشرقيّات الإسلامية في آسيا الوسطى قد ذهب إلى أنه من العسير العثور على مصنفّات تاريخية تعنى بتلك المناطق قبل الوجود الإسلامي فيها[1] ؛ فتاريخ تلك الأصقاع صاغ جزءاً كبيراً منه المسلمون من جغرافيين ، ورحّالة ، ومؤرِّخين .

ولعلّ الشرق اتّصف بأنه يحتوي باستمرار مَنْ له صلة بعالم المسلمين ، وبخاصة من التجار الذين كانوا يجوبون بلاد الشرق ، إلى درجة تزايد معها نفوذهم ، وأصبحت لهم في الصين مستوطَنة خاصّة بهم ، أمّا الشواطئ الهندية الطويلة والمتعرِّجة ، والجزر المرميّة في المحيط الهندي ، فقد كانت أماكن مألوفة للمسلمين منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . فلم يكن الشرق في منأى عن تصوُّر المسلمين ، ولم يندهشوا باكتشافه كما حصل بشأن المناطق الأخرى ، إلى ذلك ، فالشرق كان ، منذ وقت مبكر ، مزيجًا من أقوام ، وعقائد متداخلة ومختلفة ، ولم يكن الدين الإسلامي ، ولا العرق العربي ، غريبَيْن عنه .

---

(١) بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ترجمة صلاح الدين عثمان ، الكويت ،١٩٨١ ، ص٥٩ .

النصوص الرديفة

١ ـ رحلة أبي عبدالله بن إسحاق إلى جنوب شرق آسيا:

ذكر أبو عبد الله محمّد بن إسحاق : أن عامّة ملوك الهند يرون الزنى مباحًا ما خلا ملك قُمار (كمبوديا) ، فإنّي دخلتُ مدينته ، وأقمت عنده بها سنتين ، فلم أرَ ملكا أغيَر ولا أشدّ في الأشربة منه ، فإنّه يعاقب على الزنى والشرب بالقتل ، وليس أحد من ملوك الهند ممن خالطتهم وبايعتهم يسرف في شرب الشراب ما خلا ملك البهل ، فإنه بلغني أنه يشرب ، وهو ملك سرنديب ، ينقل الخمر إليه من بلاد العرب فيشربها .

ورأيت تجّار الهند ، وسائرهم لا يشربون الشراب قليله ولا كثيره ، ويَعافُون الخلّ من الأشربة ، فخلُّهم من ماء الأرزّ المطبوخ يُحمضونه حتّى يصير بمنزلة الخلّ ، ومَنْ رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس لا يعبؤون به ، ويزدَرُونه ، ويقولون : هذا رجل ليس له قدر في بلاده ، وليس ذلك منهم ديانة . وذكر بعضهم ، قال : «كنتُ ببلاد قمار ، فأخبروني أن الملك بها جبّار شديد العقوبة ، لا يكلّم العرب ، ومَنْ دخل بلاده فأهدى له شيئًا كافأه بأضعاف ما أهدى له ، يكافئ بالجزء مئة جزء» .

ولم أرَ من الملوك فيما عاملته أحسن مكافأة من ملك قُمار . والهند يقولون إن أصل كتب الهند من قُمار . ومن عقوبة هذا الملك على الشرب أنّ من شرب من قوّاده وجيشه يُحَمّي مئة حلقة من حديد بالنار ثم يوضع ذلك كلُّه على يد ذلك الرجل الشارب ، فربّما أتلفت نفسه . وهو ملك شديد الغيرة ، ليس في ملوك الهند أشدُّ غيرةً وعقوبةً منه ؛ ومن عقوبته قطع اليدين ، والرجلين ، والأنف ، والشفتين ، والأذنين ، ولا يلتفت إلى الغرامة كسائر ملوك الهند .

وأصل العبّاد من بلاد قمار، يقال إن فيها مئة ألف عابد، ولملك قمار ثمانون قاضيًا، لو وَرَد عليهم وَلَد الملك لأنصفوا منه، وأقعدوه مقعد الخصم. وله ثمانون ذكرًا، لهم جَمال وهيئة، يصلحون للملك. ويليه بلاد الأرمن، ولهم جمال، ويزوّجون أولادهم الذكورة صغارًا، ويزعمون أن ذلك خير وأصدُّ من الزناء. وملك قمار، مع غيرته، يقول لأصحابه إذا خرجتم إلى الحرب فلا يصحبنّكم النساء، فدخل ذلك على أنه قد أباح لهم ما لأعدائهم.

ورأيت ملك قمار، ورأيت العابدي، وهو ملك رتيلا، وملكًا يليه يقال له العارطي، وملكًا يقال له الصّيلمان، وهذا أكبر من هذين وأكثر جيشًا. يقولون إن جيشه نحو سبعين ألفًا، وله فيلة قليلة إلاّ أن الهند يقولون إن فيلة الصّيلمان أجرأ على القتال من جميع فيلة أهل الهند. ورأيت له فيلاً يقال له النمران، ما رأيت لأحد من الملوك ببلاد الهند فيلاً مثله أبيض منقَّطًا بسواد، ولا أجرأ على القتال والدماء منه، وذلك أنهم يوقدون النار العظيمة، ويحملون الفيلة عليها فإذا اجترأ عليها، واقتحمها، فإنه جريء على القتال والدماء وما جَبُنَ عن النار لم يصلح للقتال ولا للركوب، بل ينقل عليه المتاع كما ينقل على الإبل.

ورأيت هذا الملك الذي يقال له العابدي، وليس في بلاده فيلة، يشتري الفيلة، ولا يشتري ما ارتفاعه خمس أذرع، ويبتاع كلّ ذراع تزيد على خمس أذرع بألف دينار إلى تسع أذرع، ولم أرَ منها شيئًا يزيد على تسع، غير أنه بلغني أن ببلاد الأغباب بلادًا تدعى أورفسين، وملكتهم امرأة، يقال لها الرابية، ويكون بمملكتها في موضع يدعى بَراز، لها فيلة تكون عشرة أذرع إلى إحدى عشرة ذراعًا، فهذا ما بلغني من ارتفاع فيلة بلاد الهند. وهؤلاء الملوك جميعًا يرون الزنى مباحًا غير أن من أحصن منهم بامرأة، فعرض لها عارض، وزنَيا، قُتِل الرجل والمرأة.

وبعده ملك من ملوك الهند يقال له بَلْهَرا، ومعنى بلهرا أنه مَلك ملوك الهند، وهو في بلاده يقال له الكمكم. اسم هنديّ وبلاده بلاد الساج، ومنها يجلب. وهو ملك واسع المملكة كثير الجيش ومن حوله من الملوك يصلُّون له.

ومن ورد من رسله على هؤلاء الملوك الذين حوله صلّوا له إعظامًا لصاحبه . ويلي هذا الملك ملوك ، أحدهم يقال له ملك الطافن ، وهو قليل المملكة كثير المال عامر البلاد ، وأهل مملكته سمر ، ولهم بياض وجمال مستفيض .

وفي رقيق بلادهم جمال ليس يشركه في ذلك أحد من الملوك ممن يليه . وبعده ملك يقال له نجابه ، وهو شريف فيهم ، وبلهرا الملك يتزوَّج فيهم ، وهم السلوقيون ، ولا يتزوّجون إلاّ فيهم لشرفهم ، وهذه الكلاب السلوقيَّة يقال إنها وقعت من بلادهم . ولهم الصندل الأحمر في بلادهم وغياضهم .

ويلي هؤلاء ملك يقال له الجُرْزة ، العدل في مملكته مستفيض لو طرح الذهبُ في وسط الطريق ما خافوا عليه أحدًا يأخذه من عَدلهم ، وبلاده واسعة . والعرب يرحلون إليه في تجاراتهم ، فيبرُّهم ، ويشتري منهم ، ومعاملاته لهم بالذهب القطع والدراهم التي يقال لها الطاطري ، عليها تمثال صورة الملك ، وزنها مثقال ؛ فإذا بايعوهم قالوا للملك ابعث معنا من يخرجنا من بلادك ، ويحفظ متاعنا ، فيقول : «ليس في بلادي لصٌ ، اخرجوا فإن حدث بأموالكم حدث فخذوه مني ، وأنا الضامن لكم» . وهو ملك له جسم كبير ، وليس حوله ملك أشجع منه في الحرب كثير المكيدة ، وهو يقاتل بلهرا وملك الطافن ونجابه .

والملتان البلد الذي ينشقُّ له نهر مهران ، وهو نهر مثل دجلة وأكبر ، وبالملتان قوم يزعمون أنهم من ولد أسامة بن لُؤيّ ، يقال لهم بنو منبّه ، وهم الملوك على الهند فيها ، وهم يَدْعون لأمير المؤمنين ، وهي تلي المنصورة من السند . وبالملتان صنم (تمثال لبوذا) له دَخل مال عظيم مُلك بني منبّه هؤلاء ، وأموالهم من دخل هذا الصنم ، ودخله ، فيما أخبرني به من أثق بقوله ممن دخل البلاد وأقام بها ، لا يُحصى كثرة ، وربَّما غزا ملوك الهند بني منبّه فيخرجون إلى الملتان في جيش عظيم ، فيقاتلونهم ، فتغلبهم بنو منبّه ليسارهم وقوَّتهم وكثرة أموالهم .

وهذا الصنم أخبر عنه من أتاهم ونظر إليهم أن طوله أرجح من عشرين ذراعًا على صورة رجل ، وله بيت عليه سقف عظيم لا يدري من بناه . ويقال إنه بُني منذ ألفي سنة . والهند يقولون إن هذا الصنم نزل من السماء ، وأُمرنا بعبادته ،

وله سدنة يقومون عليه ، وله نفقات من دخل الصنم سوى ما يجري على سَدَنَته ، يطعمون ، ويُسقون ، ويكسون . والهند كلُّها ترى الحجَّ إليه ، وإذا مات الرجل مُوسرًا أوصى له بشطر ماله ، أو بماله أجمع . يتقرَّب الناس إلى ذلك الصنم ويحجُّون إليه من مسيرة سنة وأكثر ، ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويطوفون سبعًا على اليسار تقرُّبًا إليه ، وتضرّعًا ، ويتمرَّغون بين يديه ، ويخشعون . وله أربعة أوجه حيثما دار استقبله وجهه ، ويقولون هذا إله يُعبد ، له أقبال ولا أدبار ، حيثما رأيته استقبلك بوجهه . وإذا طافوا حوله سجدوا له عند كلّ وجه يستقبله ، فمنهم من يقلع عينه فيضعها في كُمّه ، فيقول : أيُّها البُدُّ (بوذا) قد تقرَّبت إليك بها ، فأطل عُمُري ، وارزقني ، وافعل بي كذا وكذا .

وفيما أخبرني مَنْ رأى أن منهم من يحمل قطعتَيْ صندل أحمر على عاتقه كلُّ واحدة حمل رجل من مسيرة سنة ، فيضع على قدر فرسخ من مخرجه واحدةً ، ويتقدَّم بأخرى ، فيضعها ، ويرجع إلى الأخرى ، فيحملها ، فيتقدَّم بها ، فلا يزال يقدّم واحدة ، ويؤخِّر أخرى مسيرة سنة حتّى يصير بهما إلى هذا الصنم الذي بالملتان . ومنهم من يستأذن الصنم ، ويقول ائذن لي في الموت ، فيعمد إلى خشبة طويلة فيحدّد رأسها ، وينصبها في الأرض ، ثم يصعد إلى فوقها فيُدخل رأس الخشبة الحادّة في بطنه حتى يخرج من ظهره ، فيموت ، ويزعم أنه قد تقرَّب إلى الصنم .

ومنهم من يأتي بالمال العظيم فيطرحه بين يدَي الصنم ، ويقول : يا إلهه وسيّده أقبل هذا معونة من مالي . ولهذا الصنم وغيره من الأصنام سدنة لا يأتون النساء ولا يأكلون اللحم ، ولا يذبحون الذبائح ، ولا يلبسون الثياب الدنِسة ، ويتطيّبون إذا صاروا إلى الأصنام . وليس يدخل عليها غيرهم ممن يطيّبها بيده ، وينالها بكفّه ، فإذا دخل عليها برك على ركبتيه وجمع كفَّيه وبسطهما ، وسأله أن ينظر إليه ويرحمه ويبكي ويتضرع إليه ويدعو . وله مطبخ يطبَخ فيه الأرزُّ الأبيض الجيّد ، ويُعمل له أطعمة من السمك والحشيش وتُجوَّد وتطيَّب ، ثم يُعمد إلى ورق مَوز عندهم عريض مقدار ما يُلَفّ فيه الرجل

والرجلان، فيُبسط بين يدي الصنم، ثم يصبُّ الأرزُّ عليه بقدر نصف قامة رجل.

ويعمد أفضل هؤلاء القوم رجلاً في نفسه فيأخذ ورقة مَوز، فيروّح فور الأرزّ وحرارته في وجه الصنم، فيقول إنه قد أكل، وإنه لا يطعم بكفّه وراحته، وقبل أن يطعم يدار حول البيت الذي فيه الصنم بالصنوج والزمر والطبول. وربَّما دارت حوله مئة جارية لهنّ أقدار فيقلن، نحن نُرقصه ونترضّاه، ثم يطعم، ويرى الطعام لا ينقص، فيغلقون عليه الباب، ثم يفتحونه، وينقل ذلك الطعام من بين يديه، يقولون قد تصدَّق به. فلا يبقى صنف مارّ ببيت ذلك الصنم إلاّ انتفع بذلك الأرزّ حتّى الطير والكلاب، ولا يمنعون منه أحدًا، ويقولون هذه صدقته في كلّ يوم، وربَّما غُسل بدن الصنم باللبن، وربَّما غسل بالسمن، فيغسل به بعد ذلك مرضاهم، ويستشفون به.

ومن ورائه ملوك حتى ينتهي إلى بلاد الزابج (إندونوسيا) فالملك الكبير يقال له المَهَراج، وتفسير المهراج ملك الملوك، وليس يُعَدُّ في ملوك الهند أعظم منه لأنه في جزائر، ولا يُعلَم أكثر خيرًا منه، ولا أقوى وأكثر دخلاً، ويقال إن دخل قمار الديوك يبلغ له في كلّ يوم خمسين منًا ذهبًا، وذلك إن عاَقَر ديك مع ديك غيره له أخذ الديك الغالب، فيفتديه صاحبه بمثقال ذهب، أو أقلّ، أو أكثر، وهذا في مملكته كثير. وتليه جزيرة يقال لها سلاهوا، يقع فيها العنبر الكثير الذي ليس في البحر أجوَد منه، وبها يكون الكبّاية من الأفواه. ويليه جزيرة يقال لها هرلج، وإنَّما تسمَّى الجزيرة باسم قائدها وليس هذا اسمها. وهرلج هذا صاحب جيش المهراج، وله جزيرة يقال لها طواران، منها الكافور، وإنَّما ظهر بهذه الجزيرة كافور منذ سنة ٢٢٠ للهجرة.

ويتحالف أهل بلاد مهراج بالنار، وبلد بالهند يقال له فَنْصور مستفيض فيه، إذا خاصم الرجلُ الرجلَ عند السلطان أن يقول إنا حاصل النار، يقال للمدَّعى عليه في الدَّين، أو الزنى بالمحصّنة، أو السَرِقة، وما يجب فيه القتل، فيأتون السلطان، فيأمر، فيأخذ وزن رطل أو أكثر حديد، فيحمى بالنار، ثم

يعمدون إلى ورق يكون عندهم يُشبه ورق الغار في الغلظ والمتانة ، فيوضع على كّفه منها سبع ورقات ، بعضها فوق بعض ، ثم توضع تلك الحديدة فوقها بكلبتين ، فيمضي به سبع مرّات ذاهبًا وجايئًا قدر مئة خطوة ، فإن أحرق يده والورق جميعًا ألزم الذنب ، فإن كان عليه القتل قُتِل ، وإن كان عليه الغرم غُرم ، وإن يكن له مال كان عبدًا للسلطان يبيعه ، وإن لم تحرقه النار قيل للمدَّعى عليه إنك مبطل قد أخذ خصمك النار ، فيلزم ما كان يُدعي عليه . وجملة أحكام الهند إن من ذَبَح بقرة ذُبح بها .

٢ . رحلة ابن بطوطة إلى المليبار:

وبعد ثلاثة أيّام ، وصلنا إلى بلاد المليبار ، وهي بلاد الفلفل ، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر ، من سندابور إلى كولم ، والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار ، وفي كل نصف ميل بيت من الخشب ، فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وكلّ صادر من مسلم وكافر ، وعند كلّ بيت منها بئر يشرب منها ، ورجل كافر موكل بها ، فمَن كان كافرًا سقاه في الأواني ، ومَن كان مسلمًا سقاه في يديه ، ولا يزال يصبّ له حتى يشير له أن يكف .

وعادة الكفار ببلاد المليبار ألاّ يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في آنيتهم ، فإن طعم فيها كسروها أو أعطوها للمسلمين . وإذا دخل المسلم موضعًا منها لا يكون فيه دار للمسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الأدام ، وما فضل عنه يؤكلونه الكلاب والطير . وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ، ينزل عندهم المسلمون ، فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه ، ويطبخون لهم الطعام ، ولولاهم لما سافر فيه مسلم . وهذا الطريق الذي ذكرنا أنه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة . وكل إنسان له بستانه على حدة ، وداره في وسطه ، وعلى الجميع حائط خشب . والطريق يمر في البساتين ، فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك دَرَج خشب يصعد عليها ، ودَرَج آخر ينزل عليها إلى البستان الآخر هكذا مسيرة الشهرين .

ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابّة ، ولا تكون الخيل إلاّ عند السلطان ، وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومَن لم يركب في دولة مشى على قدميه ، كائنًا مَن كان ، ومَن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالاً يحملونه على ظهورهم ، فترى هنالك التاجر ومعه المئة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته ، وبيد كلّ واحد منهم عود غليظ ، له زجٌّ حديد ، وفي أعلاه مخطاف حديد ، فإذا أعيا ولم يجد دكّانة يستريح عليها ركز عوده بالأرض ، وعلّق حمله منه ، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به . ولم أرَ طريقًا آمن من هذا الطريق . وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة ؛ فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه .

وأخبرت أن بعض الهنود مرّوا على الطريق ، فالتقط أحدهم جوزة ، وبلغ خبره إلى الحاكم ، فأمر بعود ، فرُكز في الارض ، وبُري طرفه الأعلى ، وأدخل في لوح خشب حتى برز منه ، ومُد الرجل على اللوح ورُكز في العود ، وهو على بطنه حتى خرج من ظهره ، وتُرك عبرة للناظرين . ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق ، كثير ، ليراها الناس فيتّعظوا . ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق ، فإذا رأونا تنحّوا عن الطرق حتى نجوز . والمسلمون أعزّ الناس بها غير أنهم كما ذكرناه لا يؤاكلونهم ، ولا يدخلونهم دورهم .

وفي بلاد المليبار اثنا عشر سلطانًا من الكفّار ، منهم القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفًا ، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف . ولا فتنة بينهم البتة ، ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف . وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته ، ويسمونه باب أمان فلان . وإذا فرّ مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ، ووصل باب أمان الآخر ، أمنَ على نفسه ، ولم يستطع الذي هرب عنه أخْذَه ، وإن كان القوي صاحب العدد والجيوش ، وسلاطين تلك البلاد يورّثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم (لأن الانتساب إلى الأمّ) ولم أرَ من يفعل ذلك إلاّ مسوّفة أهل اللثام (يقصد ابن بطوطة قبائل البربر من الطوارق غرب الصحراء الكبرى) ،

فإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها ، فلا يبيع أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان .

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب ، وهم يغرسونها إزاء النارجيل ، فتصعد فيها كصعود الدوالي إلاّ أنها ليس لها عسلوج ، وهو الغزل كما للدوالي ، وأوراق شجره تشبه آذان الخيل ، وبعضها يشبه أوراق العليق ، ويثمر عناقيدَ صغارًا حَبّها كحَبّ أبي قُنَينَة (نبات جبلي مغربي) إذا كانت خضراء ، وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ، ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ويسود ، ثم يبيعونه للتجار . والعامّة ببلادنا (المغرب) يزعمون أنهم يغلونه بالنار ؛ وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش ، وليس كذلك ، وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس ، ولقد رأيته بمدينة قالقوط (كاليكوت) يصبّ للكيل كالذرة ببلادنا . وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور (بارسيلور) ، وهي صغيرة ، على خور كبير كثيرة أشجار النارجيل . وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بأبي ستة ، أحد الكرماء ، أنفق أمواله على الفقراء والمساكين . وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكنور (باركور) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثل له بتلك البلاد ، وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم حسين السلاط ، وبها قاضٍ وخطيب ، وعمّر بها حسين المذكور مسجدًا لإقامة الجمعة .

وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو ، وله نحو ثلاثين مركبًا حربية قائدها مسلم يسمى لولا ، وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار . ولمّا أرسينا على فاكنور بعث سلطانها إلينا ولده ، فأقام بالمركب كالرهينة ، ونزلنا إليه ، فأضافنا ثلاثًا بأحسن ضيافة تعظيمًا لسلطان الهند ، وقيامًا بحقه ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا . ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد لا بدَّ من إرسائه بها ، وإعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر . ومن لم يفعل ذلك خرجوا في أتباعه بمراكبهم ، وأدخلوه المرسى قهرًا ، وضاعفوا عليه

المغرم ، ومنعوه من السفر ما شاؤوا . وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام مدينة منجرور (مانجالور) ، مدينة كبيرة على خور يسمّى خور الدنب ، وهو أكبر خور ببلاد المليبار ، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن . والفلفل والزنجبيل بها كثير جداً .

وسلطانها هو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو . وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضًا بناحية المدينة ، و-ربمّا- وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة ، فيصلح السلطان بينهم لحاجته إلى التجار . وبها قاضٍ من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمّى بدر الدين المعبري ، وهو يقرئ العلم . صعد إلينا إلى المركب ورغب في النزول إلى بلده ، فقلنا : حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب ، فقال : إنما فعل ذلك سلطان فاكنور لأنه لا قوة للمسلمين في بلده ، وأمّا نحن فالسلطان يخافنا ، فأبينا عليه إلاّ إن بعث السلطان ولده فبعث ولده كما فعل الآخر . ونزلنا إليهم ، وأكرمونا إكرامًا عظيمًا ، وأقمنا عنده ثلاثة أيام .

ثم سافرنا إلى مدينة هيلي (إيلي) فوصلناها بعد يومين ، وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار ، وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين ، ولا تدخل إلاّ مرساها ومرسى كولم وقالقوط . ومدينة هيلي معظّمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فإنه عظيم البركة مشرق النور ، وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة ، وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين ، وحسن الوزان كبير المسلمين . وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ، ولهم مرتبات من مال المسجد ، وله مطبخة فيها الطعام للوارد وللصادر ولإطعام الفقراء من المسلمين بها . ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحًا من أهل مقدشو (في الصومال) يسمّى سعيدًا حسن اللقاء والخلق يسرد الصوم . وذكر لي أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة ، ومثلها بالمدينة ، وأدرك الأمير بمكة أبا نُمّي ، والأمير بالمدينة منصور بن جماز ، وسافر في بلاد الهند والصين .

ثم سافرنا من هيلي إلى مدينة جُرفتين ، وبينها وهيلي ثلاثة فراسخ . . وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرَّضون لمال الميت ولو ترك الآلاف إنما يبقى

ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقّه شرعًا . وسلطانها يسمى بكويل ، وهو من أكبر سلاطين المليبار ، وله مراكب كثيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن ، ومن بلاده دَه فتّن ، وبُدَّفتّن ، وسنذكرهما .

وسرنا من جرفتن إلى مدينة دَهْ فتّن وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين ، وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول ، وبها القلقاس الكثير ، ويطبخون به اللحم ، وأمّا الموز فلم أرَ في البلاد أكثر منه بها ، ولا أرخص ثمنًا ، وفيها الباين الأعظم (الصهريج) طوله خمسمئة خطوة ، وعرضه ثلاثمئة خطوة ، وهو مطوي بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبة ثمان وعشرون قبة من الحجر في كل قبة أربع مجالس من الحجر ، وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة ، وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات في كل طبقة أربع مجالس .

وذُكر لي أن والد هذا السلطان كويل هو الذي عمّر هذا الباين ، وبإزائه مسجد للمسلمين ، وله أدراج يُنزَل منها إليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون . وحدثني الفقيه حسين أن الذي عمّر المسجد والباين أيضًا هو أحد أجداد كويل ، وأنه مسلم . ولإسلامه خبر عجيب نذكره . ورأيت أنا ، بإزاء هذا الجامع ، شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلاّ أنها لينة وعليها حائط يطيف بها ، وعندها محراب صلّيت فيه ركعتين ، واسم هذه الشجرة عندهم دَرَخْت الشهادة . وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد واحدة بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ، ثم إلى الحمرة ، ويكون فيها مكتوب بقلم القدرة «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله» .

وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة ، وقرؤوا المكتوب الذي فيها . وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين ومن الكفار ، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها ، وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر ، وهم يستشفون بها للمرضى ، وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذي عمّر المسجد والباين ؛ فإنه كان يقرأ الخط العربي ، فلمّا قرأها ، وفهم ما فيها ، أسلم ، وحسن إسلامه . وحكايته عندهم متواترة .

وحدثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه ، وطغى ، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها ، فاقتُلعت ، ولم يُترك لها أثر ، ثم إنها نبتت بعد ذلك ، وعادت كأحسن مّما كانت عليه ، وهلك الكافر سريعًا .

ثم سافرنا إلى مدينة بُدَّفتَّن ، وهي مدينة كبيرة على خور كبير ، وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين لأنه لا مسلم بهذه المدينة ، ومرساها من أحسن المراسي ، وماؤها عذب ، والفوفل بها كثير ، ومنها يحمل للهند والصين ، وأكثر أهلها براهمة ، وهم معظّمون عند الكفار مبغضون في المسلمين ؛ ولذلك ليس بينهم مسلم . أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم أن أحد البراهمة خرّب سقفه ليصنع منه سقفًا لبيته ، فاشتعلت النار في بيته ، فاحترق هو وأولاده ومتاعه ؛ فاحترموا هذا المسجد ، ولم يتعرّضوا له بسوء بعدها ، وخدموه ، وجعلوا بخارجه الماء ، يشرب منه الصادر والوارد ، وجعلوا على بابه شبكة لئلاّ يدخله الطير .

ثم سافرنا من مدينة بُدَّفتَّن إلى مدينة فندرينا (بانتالايني) مدينة كبيرة ذات بساتين وأسواق ، وبها للمسلمين ثلاث محلات ، وفي كلّ محلة مسجد ، والجامع بها على الساحل ، وهو عجيب ، له مناظر ومجالس على البحر ، وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان ، وله أخ فاضل . وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين . ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوط ، وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار ، يقصدها أهل الصين ، والجاوة ، وسيلان ، والمهل ، وأهل اليمن ، وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ، ومرساها من أعظم مراسي الدنيا ، وسلطانها كافر يعرف بالسَّامري : شيخ مسنّ يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيته بها . . . وبهذه المدينة الناخوذة مثقال الشهير الاسم ، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس .

ولّما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر ، والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ، ونائب السلطان الكافر المسمّى بقلاج ، ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم ، ودخلنا المرسى في بروز عظيم

ما رأيت مثله بتلك البلاد ، فكانت فرحة لا تتبعها ترحة . وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة من مراكب الصين ، ونزلنا بالمدينة وجُعل كل واحد منا في دار ، وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر ، ونحن في ضيافة الكافر .

وبحر الصين لا يسافر فيه إلاّ بمراكب الصين ، ولنذكر ترتيبها . ومراكب الصين ثلاثة أصناف : والكبار منها تسمّى الجنوك ، وأحدها جنك ، والمتوسطة تسمى الزو ، والصغار يسمّى أحدها الككم . ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعًا فما دونها إلى ثلاثة ، وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدًا ,ويديرونها بحسن دوران الريح ، وإذا أرسَوا تركوها واقفة في مهبّ الريح ، ويخدم في المركب منها ألف رجل ، منهم البحرية ستمئة ، ومنهم أربعمئة من المقاتلة ، تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية ، وهم الذين يرمون بالنفط ، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة : النصفي ، والثلثي ، والربعي ، ولا تصنع هذه المراكب إلاّ بمدينة الزيتون من الصين ، أو بصين كلان ، وهي صين الصين (كانتون) .

وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جداً موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسمار منها ثلاثة أذرع ، فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ودفعوهما في البحر ، وأتمّوا عمله ، وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية للماء ينزلون إليها ، فيغتسلون ، ويقضون حاجتهم ، وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم ، وهي كبار كالصواري ، يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلاً ، ويجذفون وقوفًا على أقدامهم ، ويجعلون للمركب أربعة ظهور ، ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجارة ، والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ، ويحمل معه الجواري والنساء . وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا بعض البلاد . والبحرية يسكنون فيها أولادهم ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب ، ووكيل المركب كأنه أمير كبير ، وإذا نزل إلى البر

مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق والأنفار أمامه ، وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ، ركزوا رماحهم على جانبي بابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين مَن تكون له المراكب الكثيرة ، بعث بها وكلاؤه إلى البلاد ، وليس في الدنيا أكثر أموالاً من أهل الصين .

ولمّا حان وقت السفر إلى الصين جهّز لنا السلطان السامري جنكًا من الجنوك الثلاثة عشر التي بمرسى قالقوط . وكان وكيل الجنك يسمّى بسليمان الصفدي الشامي ، وبيني وبينه معرفة ، فقلت له : أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد لأجل الجواري . ومن عادتي ألاّ أسافر إلاّ بهن ، فقال : إن تجار الصين قد اكترَوا المصاري ذاهبين وراجعين ، ولصهري مصرية أعطيكها ، لكنها لا سنداس فيها ، وعسى أن تمكن معاوضتها . فأمرت أصحابي ، فأوسقوا ما عندي من المتاع ، وصعد العبيد والجواري إلى الجنك ، وذلك في يوم الخميس . وأقمت لأصلّي الجمعة ، وألحق بهم ، وصعد الملك سنبل ، وظهير الدين مع الهدية ، ثم إن فتى لي يسمّى بهلال أتاني غدوة الجمعة ، فقال : إن المصرية التي أخذنا بالجنك ضيّقة لا تصلح ، فذكرت ذلك للناخودة ، فقال : ليست في ذلك حيلة ، فإن أحببت أن تكون في الككم ففيه المصاري على اختيارك ، فقلت : نعم ، وأمرت أصحابي فنقلوا الجواري والمتاع إلى الككم ، واستقروا به قبل صلاة الجمعة .

وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه ، وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبقَ منها إلاّ الذي فيه الهدية ، وجنك عزم أصحابه على أن يشتوا بفندرينا ، والككم المذكور ، فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الككم ، ولا يستطيع مَن فيه النزول إلينا ، ولم يكن بقي معي إلاّ بساط أفترشه ، وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى ، ورمى البحر بالجنك الذي كان أهله يريدون فندرينا ، فتكسّر ، ومات بعض أهله ، وسلم بعضهم ، وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب في إعطاء عشرة دنانير ذهبًا لمن يُخرجها ، وكانت قد التزمت خشبة في مؤخّرة الجنك ، فانتدب لذلك بعض البحرية الهُرمُزيين ، فأخرجها ، وأبى أن

يأخذ الدنانير ، وقال : إنما فعلت ذلك لله تعالى . ولمّا كان الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية ، فمات جميع من فيه . ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم ، ورأيت ظهير الدين قد انشقّ رأسه وتناثر دماغه ، والملك سنبل قد ضرب مسمار في أحد صدغيه ونفذ من الآخر ، وصلّينا عليهما ، ودفنّاهما .

ورأيت الكافر سلطان قالقوط ، وفي وسطه شقة بيضاء كبيرة ، قد لفّها من سرّته إلى ركبته ، وفي رأسه عمامة صغيرة ، وهو حافي القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه ، والنار توقد بين يديه في الساحل ، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر . وعادة بلاد المليبار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن إلاّ في هذا البلد ، خاصّة ، فإن ذلك يأخذه أربابه ؛ ولذلك عمرت وكثر تردّد الناس إليها . ولمّا رأى أهل الككم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم ، وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواريّ ، وبقيت منفردًا على الساحل ، ليس معي إلاّ فتى كنت أعتقته ، فلمّا رأى ما حلّ بي ذهب عني ، ولم يبقَ عندي إلاّ العشرة دنانير التي أعطانيها الجوكي ، والبساط الذي كنت أفترشه .

وأخبرني الناس أن ذلك الككم لا بدَّ له أن يدخل مرسى كولم ، فعزمت على السفر إليها ، وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضًا لمن أراد ذلك ، فسافرت في النهر ، واكتريت رجلاً من المسلمين يحمل لي البساط . وعادتهم إذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشي ، فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه ، ثم يعودوا إلى المركب بالغدوّ ، فكنّا نفعل ذلك ، ولم يكن بالمركب مسلم إلاّ الذي اكتريته ، وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا ، ويعربد عليّ ، فيزيد تغيّر خاطري . ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا إلى كنجي كري ، وهي بأعلى جبل هنالك ، يسكنها اليهود ، ولهم أمير منهم ، ويؤدّون الجزية لسلطان كولم ، وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم ، وهي حطبهم هنالك ، ومنها كنا نوقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق .

وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كولم (كويلون) وهي أحسن بلاد المليبار

وأسواقها حسان وتجارها يعرفون بالصُّوليين (مسلمون من الطائفة الإمامية) لهم أموال عريضة يشتري أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع ، وبها من التجار المسلمين جماعة ، كبيرهم علاء الدين الآوجي من أهل آوة من بلاد العراق . . .وهذه المدينة أول ما يوالي الصين من بلاد المليبار وإليه يسافر أكثرهم والمسلمون بها أعزة محترمون ، وسلطانها كافر يعرف بالتيروري ، وهو يعظِّم المسلمين ، وله أحكام شديدة على السرّاق والدعّار . وممّا شاهدت بكولم أن بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم ، وفرّ إلى دار الآوجي ، وكان له مال كثير وأراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك ، وقالوا : لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيُقتَل به ، وتركوه في تابوته على باب الآوجي حتى أنتن وتغيّر ، فمكّنهم الآوجي من القاتل ، ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ، ويتركوه حيًا ، فأبَوا ذلك وقتلوه ، وحينئذ ، دُفِن المقتول .

أُخبرت أن سلطان كولم ركب يومًا إلى خارجها ، وكان طريقه فيما بين البساتين ، ومعه صهره زوج بنته ، وهو من أبناء الملوك ، فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين ، وكان السلطان ينظر إليه ، فأمر به عند ذلك فوسّط وقسّم نصفين ، وصلب نصفه عن يمين الطريق ، ونصفه الآخر عن يساره ، وقسّمت حبة العنبة نصفين ، فوُضِع على كل نصف منها ، وتُرِك عبرة للناظرين . وممّا اتفق نحو ذلك بقالقوط أن ابن أخ للنائب عن سلطانها غصب سيفًا لبعض تجار المسلمين ، فشكا بذلك إلى ابن عمه ، فوعده بالنظر في أمره ، وقعد على باب داره ، فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف ، فدعاه ، فقال : هذا سيف المسلم؟ قال : نعم قال : «اشتريته منه؟» قال : لا . فقال لأعوان : أمسكوه ، ثم أمر به ، فضُربت عنقه بذلك السيف .

وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين بن الشيخ شهاب الدين الكزورني شيخ قالقوط فلم أتعرف للككم خبرًا ، وفي أثناء مقامي بها دخل إليها أرسال ملك الصين الذين كانوا معنا ، وكانوا ركبوا في أحد تلك الجنوك فانكسر أيضًا فكساهم تجار الصين ، وعادوا إلى بلادهم ، ولقيتهم بها بعد ، وأردت أن

أعود من كولم إلى السلطان لأعلمه بما اتّفق على الهدية ، ثم خفت أن يتعقَّب فعلي ، ويقول لِمَ فارقت الهدية ، فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهنوري ، وأقيم عنده حتى أتعرَّف خبر الككم .

فعدت إلى قالقوط ، ووجدت بها بعض مراكب السلطان ، فبعث فيها أميرًا من العرب ، يُعرَف بالسيد أبي الحسن ، وهو من البرددارية (الحاجب السلطاني) وهم خواصّ البوابين ، بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف ؛ لمحبته في العرب ، فتوجهت إلى هذا الأمير ورأيته عازمًا على أن يشتو بقالقوط ، وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب ، فشاورته في العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك ، فسافرت بالبحر من قالقوط ، وذلك آخر فصل السفر فيه ، فكنّا نسير نصف النهار الأول ، ثم نرسو إلى الغد ، ولقينا في طريقنا أربعة أجفان غزوية فخفنا منها ، ثم لم يعرضوا لنا بشرّ .

ووصلنا إلى مدينة هنور فنزلت إلى السلطان ، وسلَّمت عليه ، فأنزلني بدار ، ولم يكن لي خديم ، وطلب مني أن أصلّي معه الصلوات . وكنت أختم القرآن كلّ يوم ، ثم كنت أختم مرتين في اليوم أبتدئ القراءة بعد صلاة الصبح فأختم عند الزوال ، وأجدِّد الوضوء ، وأبتدئ القراءة فأختم الختمة الثانية عند الغروب ، ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر ، واعتكفت فيها أربعين يومًا .

وكان السلطان جمال الدين قد جهّز اثنين وخمسين مركبًا وسفرته برسم غزو سندابور ، وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف ؛ فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجّه لفتح سندابور ، ويسلّم الولد المذكور ، ويزوّجه السلطان أخته ، فلمّا تجهزت المراكب ظهر لي أن أتوجّه فيها إلى الجهاد ، ففتحت المصحف أنظر فيه ، فكان في أول الصفح يذكر فيها اسم الله كثيرًا «ولينصرن الله من ينصره» .

فاستبشرت بذلك ، وأتى السلطان إلى صلاة العصر ، فقلت له : إني أريد السفر ، فقال : فأنت إذًا تكون أميرهم ، فأخبرته بما خرج لي في أول الصفح فأعجبه ذلك ، وعزم على السفر بنفسه ، ولم يكن ظهر له ذلك قبل ، فركب

مـركبًـا منهـا وأنا مـعـه ، وذلك في يوم السـبت ، فـوصلنا عـشيّ الإثنين إلى سندابور ، ودخلنا خورها ، فوجدنا أهلها مستعدّين للحرب وقد نصبوا المجانيق ، فبتنا عليها تلك الليلة ، فلمّا أصبح ضربت الطبول والأنفار والأبواق ، وزحفت المراكب ، ورمَوا عليها بالمجانيق ، فلقد رأيت حجرًا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان ، ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء ، وبأيديهم الترسة والسيوف ، ونزل السلطان إلى العكيري (سفينة شراعية) ، وهو شبه الشلي (مركب) ورميت بنفسي في الماء في جملة الناس . وكان عندنا طريدتان مفتوحتا المواخر ، فيها الخيل ، وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ، ويتدرّع ويخرج ، ففعلوا ذلك ، وأذن الله في فتحها ، وأنزل النصر على المسلمين .

فدخلنا بالسيف ، ودخل معظم الكفار في قصر سلطانهم فرمَينا النار فيه فخرجوا ، وقبضنا عليهم ، ثم إن السلطان أمّنهم وردّ لهم نساءهم وأولادهم ، وكانوا نحو عشرة آلاف ، وأسكنهم بربض المدينة ، وسكن السلطان القصر ، وأعطى الديار بمقربة منه لأهل دولته ، وأعطاني جارية منهن ، تسمى لَـمْكي ، فسميتها مباركة ، وأراد زوجها فداءها فأبيتُ ، وكساني فرجية مصرية ، وجدت في خزائن الكافر . وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها ، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى إلى منتصف شعبان (من١٥ تشرين الأول/أكتوبر١٣٤٢ لغاية١٣ كانون الثاني/يناير ١٣٤٣) وطلبت منه الإذن في السفر فأخذ عليَّ العهد في العودة إليه .

وسافرت في البحر إلى هنور ، ثم إلى فاكنور ، ثم إلى منجرور ، ثم إلى هيلي ، ثم إلى جرفتن ، وده فتن ، وبدفتن ، وفندرينا ، وقالقوط ، وقد تقدم ذكر جميعها ، ثم إلى مدينة الشاليات (شاليام) مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة إليها ، وأقمت بها فطال مقامي ، فعدت إلى قالقوط ، ووصل إليها غلامان كانا لي بالككم ، فأخبراني أن الجارية التي كانت حاملاً وبسببها كان تغيّر خاطري توفيت ، وأخذ صاحب الجاوة سائر الجواري ، واستولت الأيدي على المتاع ، وتفرق أصحابي إلى الصين والجاوة وبنجالة ، فعدت لـمّا تعرّفتُ هذا

إلى هنور إلى سندابور، فوصلتها في آخر المحرم، وأقمت بها إلى الثاني من شهر ربيع الآخر (من عام ٧٤٤هـ الموافق ٢٤ حزيران/يونيو لغاية ٢٤ آب/ أغسطس ١٣٤٣) وقدم سلطانهم الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها وهرب إليه الكفار كلهم وكانت عساكر السلطان متفرّقة في القرى فانقطعوا عنا، وحصرنا الكفار وضيّقوا علينا، ولـمّا اشتدّ الحال خرجت عنها، وتركتها محصورة، وعدت إلى قالقوط وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل، وكنت أسمع بأخبارها.

٣. رحلة ابن بطوطة إلى جزر المالديف:

بعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل (جزر المالديف). وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا، وهي نحو ألفي جزيرة، ويكون منها مئة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلاّ منه، وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بدّ له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر، وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي بإحداها عند الخروج من الأخرى، فإن أخطأ المركب سَمْتها لم يمكنه دخولها، وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان (جنوب الهند). وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح، وهي منقسمة إلى أقاليم على كل إقليم والٍ يسمّونه الكردوبي، ومن أقاليمها: إقليم بالبور، ومنها كنلوس، ومنها إقليم المهل وبه تُعرَف الجزائر كلها، وبها يسكن سلاطينها، ومنها إقليم، تلاديب، ومنها إقليم كرايدوا، ومنها إقليم التيم، ومنها إقليم تلدمتي، ومنها إقليم هلدمتي، ومنها إقليم بريدوا، ومنها إقليم كند كل، ومنها إقليم ملوك، ومنها إقليم السويد، وهو أقصاها.

وهذه الجزائر كلها لا زرع بها إلاّ أن في إقليم السويد منها زرعًا يشبه أنلي (نوع من الحبوب) ويجلب منه إلى المهل وإنّما أكل أهلها سمك يشبه البيرون (سمك التن) يسمونه قلب الماس، ولحمه أحمر ولا زفر له إنما ريحه كريح لحم الأنعام، وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوها يسيرًا، ثم جعلوه

في مكاتيل من سعف النخل ، وعلقوه للدخان ، فإذا استحكم يبسه أكلوه (تصبير السمك) ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن ، ويسمونه قلب الماس .
ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل (جوز الهند) ، وهو من أقواتهم مع السمك . . وأشجار النارجيل شأنها عجيب وتثمر النخلة منها اثني عشر عذقًا في السنة يخرج في كل شهر عذق ، فيكون بعضها صغيرًا ، وبعضها كبيرًا ، وبعضها يابسًا ، وبعضها أخضرَ هكذا أبدًا ، ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل . . ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ، ولذلك كله وللسمك الذي يتغذون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها ، ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك ، ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوارٍ سواهن ، فكنت أطوف على جميعهن كل يوم ، وأبيت عند من تكون ليلتها ، وأقمت بها سنة ونصف سنة أخرى على ذلك . ومن أشجارها الجمون ، والأترج ، والليمون والقلقاص ، وهم يصنعون من أصوله دقيقًا يعملون منه شبه الأطرية ، ويطبخونها بحليب النارجيل ، وهي من أطيب الطعام . كنت أستحسنها كثيرًا وآكلها .

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح ، وديانة ، وإيمان صحيح ، ونية صادقة ، أكلهم حلال ، ودعاؤهم مجاب ، وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له : الله ربّي ، ومحمد نبيٌّ ، وأنا أميّ مسكين . وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ، ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس ، ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم ، لأنهم جرّبوا أن من أخذ لهم شيئًا أصابته مصيبة عاجلة . وإذا أتت أجفان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ، ولم يعرضوا لأحد منهم بسوء ، وإن أخذ أحد الكفّار ولو ليمونة عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرِّح خوفًا من عاقبة ذلك ، ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم .

وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة ، وأكثر عمارتهم الخشب ، وهم أهل نظافة وتنزّه عن الأقذار ، وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفًا لشدة الحر بها ، وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها ،

ويتلطّخون بالغالية المجلوبة من مقدشو . ومن عادتهم أنهم إذا صلّوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية ، فيكحِّل عينيه ، ويدهن بماء الورد ودهن الغالية (مزيج العنبر والمسك) فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه . ولباسهم فُوَط يشدّون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ، ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان (الصداري) ، وهي شبه الأحارم ، وبعضهم يجعل عمامة ، وبعضهم منديلاً صغيرًا عوضًا منها . وإذا لقي أحدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه ، وكشف ظهره ومضى معه ، كذلك حتى يصل إلى منزله .

ومن عوائدهم أنه إذا تزوَّج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته ، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت ، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت ، وعن شماله ، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره ، فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبًا يأخذه خدّامه ، وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت داره ، وجعل فيها الودع ، ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه ، وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم ؛ لا بدَّ من ثوب يرمى عند ذلك .

وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقّيًا من الرطوبات لأن أرضهم ندية ، وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ، ويجعلونها صفوفًا ، ويعرضون عليها خشب النارجيل ، ثم يضعون الحيطان من الخشب . ولهم صناعة عجيبة في ذلك ، ويبنون في أسطوان الدار بيتًا يسمونه المالم (المضيف) . يجلس الرجل به مع أصحابه ، ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الأسطوان يدخل منه الناس ، والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها . ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه الولنج هو من قشر جوز النارجيل ، وله نصاب طوله ذراعان ، وبه يسقون الماء من الآبار لقربها . وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ، فالماشي بها كأنه في بستان ، ومع ذلك لا بدَّ لكل داخل

إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ، ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ، ثم يدخل بيته ، وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد .

ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه الكنادر ، وهي القوارب الصغار ، واحدها كندرة ، وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول أو الكرنبة ، وهي جوز النارجيل الأخضر ، فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ، ويكون نزيله ، ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه ، ومن أراد التزوُّج من القادمين عليهم تزوج ، فإذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهنّ ، ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر ، وترضى منه في مقابله بأيسر شيء من الإحسان ، وفائدة المخزن ، ويسمّونه البندر ، أن يشتري من كل سلعة بالمركب خطًا بسوم معلوم سواءاً كانت السلعة تساوي ذلك أم أكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب ، يسمونه البجنصار (المستودع) يجمع به الوالي ، وهو الكردوري ، جميع سلعه ، ويبيع بها ويشتري .

وهم يشترون الفخّار ، إذا جُلِب إليهم ، بالدجاج ، فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست ، وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعمائم ، وهي من القطن ، ويحملون منها أواني النحاس فإنها عندهم كثيرة ، ويحملون الودع ، ويحملون القنبر ، وهو ليف جوز النارجيل ، وهم يدبغونه في حفر على الساحل ، ثم يضربونه بالمرازب ، ثم تغزله النساء ، وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب ، وتُحمَل إلى الصين والهند واليمن ، وهو خير من القنّب . وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن ؛ لأن ذلك البحر كثير الحجارة ، فإن كان المركب مسمّرًا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر ، وإذا كان مخيطًا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر .

وصرف أهل هذه الجزائر الودع ، وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه في حفر هنالك ، فيذهب لحمه ، ويبقى عظمه أبيض ، ويسمّون المئة منه : سِياه ، ويسمّون السبعمئة : منه الفال ، ويسمون الاثني عشر ألفا منه : الكتي ، ويسمون

المثة ألف منه : بستوا . ويباع بها ، بقيمة أربعة بساتي ، بدينار من الذهب ، وربّما رخص حتى يُباع عشر بساتي منه بدينار ، ويبيعونه من أهل اليمن ، فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم .

وهذا النوع أيضًا هو صرف السودان في بلادهم ، رأيته يباع بمالي وجوجو بحساب ألف ومئة وخمسين للدينار الذهبي . ونساؤها لا يغطّين رؤوسهنّ ، ولا سلطانتهم تغطي رأسها ، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبسن أكثرهنّ إلاّ فوطة واحدة تسترهن من السرّة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة ، وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها .

ولقد جهدت ، لمّا وليت القضاء بها ، أن أقطع تلك العادة ، وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك ، فكنتُ لا تدخل إليّ منهن امرأة في خصومة إلاّ مستترة الجسد ، وما عدا ذلك لم تكن لي عليهنّ قدرة . ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة ، وقمصهن قصار الأكمام عراضها . وكان لي جوارٍ ، كسوتهن لباس أهل دهلي تغطّين رؤسهنّ فعابهنّ ذلك أكثر ممّا زانهنّ ، إذ لم يتعوّدنه . وحليهنّ الأساور ، وتجعل المرأة منها جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق ، وهي من الفضّة ، ولا يجعل أساور الذهب إلاّ نساء السلطان وأقاربه ، ولهنّ الخلاخيل ويسمونها البايل ، وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهنّ ، ويسمونها البسدرد .

ومن عجيب أفعالهنّ أنهنّ يستأجرن أنفسهن للخدمة بالديار ، على عدد معلوم ، من خمسة دنانير فما دونها ، وعلى مستأجرهن نفقتهنّ ، ولا يرين ذلك عيبًا ، ويفعله أكثر بناتهم ، فتجد في دار الإنسان الغني منهن العشر والعشرين ، وكل ما تكسره من الأواني يُحسَب عليها قيمته . وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج إليها العدد الذي هي مرتهنة فيه ، فتدفعه لأهل الدار التي خرجت منها ، ويبقى عليها للآخرين ، وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر .

والتزوُّج بهذه الجزائر سهل ؛ لنزارة الصَّداق ، وحسن معاشرة النساء . وأكثر

الناس لا يسمّي صداقًا، إنما تقع الشهادة، ويعطى صداق مثلها، وإذا قدمت المراكب تزوَّج أهلها النساء فإذا أرادوا السفر طلقوهنّ، وذلك نوع من نكاح المتعة. وهنّ لا يخرجن عن بلادهنّ أبدًا. ولم أرَ في الدنيا أحسن معاشرة منهنّ، ولا تَكِلُ المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها، بل هي تأتيه بالطعام، وترفعه من بين يديه، وتغسل يده، وتأتيه بالماء للوضوء، وتغمّ رجليه عند النوم. ومن عوائدهن ألاّ تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة. ولقد تزوَّجت بها نسوة فأكل معي بعضهنّ، بعد محاولة، وبعضهنّ، لم تأكل معي، ولا استطعت أن أراها تأكل، ولا نفعتني حيلة في ذلك.

حدَّثني الثقات من أهلها كالفقية عيسى اليمني، والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله، وجماعة سواهم، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفّارًا، وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجنّ، يأتي ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل، وكانت عادتهم إذا رأوه أخذوا جارية بكرًا فزيّنوها وأدخلوها إلى بُدّخانة (معبد بوذا)، وهي بيت الأصنام، وكان مبنيًا على ضفّة البحر، وله طاق ينظر إليه منه، ويتركونها هنالك ليلة، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضّة ميّتة.

ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم، فمن أصابته القرعة أعطى بنته، ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمّى أبا البركات البربري، وكان حافظًا للقرآن العظيم، فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يومًا، وقد جمعت أهلها، وهن يبكين كأنهنّ في مأتم، فاستفهمهنّ عن شأنهنّ فلم يفهمنه، فأتى ترجمان، فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها، وليس لها إلاّ بنت واحدة يقتلها العفريب. فقال لها أبو البركات: أنا أتوجّه عوضًا من بنتك بالليل، وكان سِناطًا لا لحية له، فاحتملوه تلك الليلة، وأدخلوه إلى بُدّخانة، وهو متوضّئ، وأقام يتلو القرآن، ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة، فلمّا كان بحيث يسمع القراءة غاص في البحر.

وأصبح المغربي، وهو يتلو على حاله، فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة

ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها ، فوجدوا المغربي يتلو ، فمضَوا إلى ملكهم ، وكان يسمى شنورازه ، وأعلموه بخبره فعجب منه ، وعرض المغربي عليه الإسلام ، ورغّبه فيه ، فقال له : أقم عندنا إلى الشهر الآخر ، فإن فعلت كفعلك ، ونجوت من العفريت ، أسلمتُ . فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر ، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته ، ثم حمل المغربي لـمّا دخل الشهر إلى بُدّخانة ، ولم يأت العفريت ، فجعل يتلو حتى الصباح ، وجاء السلطان ، والناس معه ، فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الأصنام ، وهدموا البدّخانة ، وأسلم أهل الجزيرة ، وبعثوا إلى سائر الجزائر ، فأسلم أهلها ، وأقام المغربي عندهم معظّمًا ، وتمذهبوا بمذهبه ، مذهب الإمام مالك رضي الله عنه ، وهم إلى هذا العهد يعظّمون المغاربة بسببه . وبنى مسجدًا هو معروف باسمه ، وقرأت على مقصورة الجامع منقوشًا في الخشب : أسلم السلطان أحمد شنورازه على يد أبي البركات البربري المغربي ، وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل ، إذ كان إسلامه بسببهم ، فسمّي على ذلك حتى الآن ، وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام .

ولـمّا دخلناها لم يكن لي علم بشأنه ، فبينا أنا ليلة في بعض شأني سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ، ورأيت الأولاد ، وعلى رؤوسهم المصاحف ، والنساء يضربون في الطسوت وأواني النحاس فعجبت من فعلهم ، وقلت : ما شأنكم؟ فقالوا : ألا تنظر إلى البحر؟ فنظرت ، فإذا مثل المركب الكبير ، وكأنه مملوء سرجًا ومشاعل ، فقالوا : ذلك العفريت ، وعادته أن يظهر مرة في الشهر ، فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ، ولم يضرنا .

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة ، وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي ، وكان المُلك لجدّها ثم لأبيها ، فلمّا مات أبوها وليَ أخوها شهاب الدين ، وهو صغير السنّ ، فتزوّج الوزير عبدالله بن محمد الحضرمي أمّه ، وغلب عليه ، وهو الذي تزوج أيضًا هذه

السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين . فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ، ونفاه إلى جزائر السويد ، واستقلّ بالملك ، واستوزر أحد مواليه ، ويسمّى علي كلكي ، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ، ونفاه إلى السويد (جزيرة على مقربة من خطّ الاستواء) .

وكان يُذكَر عن السلطان شهاب الدين المذكور أنه يختلف إلى حرم أهل دولته وخواصّه بالليل ، فخلعوه لذلك ، ونفَوه إلى إقليم هلدتني ، وبعثوا من قتله بها ، ولم يكن بقي من بيت الملك إلاّ أخواته خديجة الكبرى ، ومريم ، وفاطمة ، فقدّموا خديجة سلطانة ، وكانت متزوِّجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرًا ، وغالبًا على الأمر ، وقدّم ولده محمّدًا للخطابة عوضًا عنه ، ولكن الأوامر إنما تُنفَّذ باسم خديجة ، وهم يكتبون الأوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ، ولا يكتبون في الكاغد إلاّ المصاحف وكتب العلم ، ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها ، فيقول : اللهم ؛ انصر أَمَتك التي اخترتها على علم العالمين ، وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين .

ولمّا وصلت إليها ، نزلت منها بجزيرة كنلوس (يغلب أن ابن بطوطة وصلها في نهاية عام ١٣٤٣م) . وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ، ونزلت بدار رجل من صلحائها ، وأضافني بها الفقيهُ علي ، وكان فاضلاً ، له أولاد من طلبة العلم ، ولقيت بها رجلاً اسمه محمد من أهل ظفار الحموض ، فأضافني ، وقال لي : إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها ، فإنهم لا قاضيَ عندهم . وكان غرضي أن أسافر منها إلى المعبر ، وسرنديب ، وبنجالة ، ثم إلى الصين . وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة عمر الهنوري ، وهو من الحجّاج الفضلاء .

ولـمّا وصلنا كنلوس أقام بها عشرًا ، ثم اكترى كندرة يسافر فيها إلى المهل بهدية للسلطانة وزوجها ، فأردت السفر معه ، فقال : لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك ، فإن شئت السفر منفردًا عنهم فدونك . فأبيت ذلك ، وسافر ، فلعبت به الريح ، وعاد إلينا بعد أربعة أيام ، وقد لقي شدائد ، فاعتذر لي وعزم علي في

السفر معه بأصحابي ، فكنا نرحل غدوة فننزل في وسط النهار لبعض الجزائر ، ونرحل فنبيت بأخرى ، ووصلنا بعد أربعة أيام إلى إقليم التيم ، وكان الكردوي يسمّى بها هلالاً ، فسلّم عليّ ، وأضافني ، وجاء إليّ ومعه أربعة رجال ، وقد جعل اثنان منهم عودًا على أكتافهما وعلّقا منه أربع دجاجات ، وجعل الآخران عودًا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل ، فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير ، فأُخبِرت أنهم صنعوه على جهة الكرامة والإجلال .

ورحلنا عنهم ، فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان ، وهو رجل فاضل من خيار الناس ، فأكرمنا ، وأضافنا . وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمدي . وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهل حيث السلطانة وزوجها ، وأرسينا بمرساها . وعادتهم ألاّ ينزل أحد من المرسى إلاّ بإذنهم ، فأذنوا لنا في النزول . وأردت التوجّه إلى بعض المساجد ، فمنعني الخدّام الذين بالساحل ، وقالوا : لا بدَّ من الدخول إلى الوزير . وكنت أوصيت الناخوذة أن يقول إذا سئل عني : لا أعرفه ؛ خوفًا من إمساكهم إيّاي . ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب إليهم معرّفًا بخبري ، وأني كنت قاضيًا بدهلي ، فلمّا وصلنا إلى الدار ، وهو المشور ، نزلنا في سقائف على الباب الثالث منه .

وجاء القاضي عيسى اليمني فسلّم عليّ ، وسلّمت على الوزير ، وجاء الناخوذة إبراهيم بعشرة أثواب فخدم لجهة السلطانة ، ورمى بثوب منها ، ثم خدم للوزير ورمى بثوب آخر ، ورمى بجميعها . وسئل عني فقال : لا أعرفه ، ثم أخرجوا إلينا التنبول ، وماء الورد ؛ وذلك هو الكرامة عندهم ، وأنزلنا بدار ، وبعث إلينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الأرزّ ، وتدور بها صحاف فيها اللحم والدجاج والسمن والسمك . ولمّا كان بالغد مضيت مع الناخوذة والقاضي عيسى اليمني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة ، عمّرها الشيخ الصالح نجيب ، وعُدنا ليلاً ، وبعث الوزير إليّ صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة ، فيها الأرزّ والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها ، وهم يسمّونه القرباني ، ومعنى ذلك ماء السكر ، وأتوا بمئة ألف ودعة للنفقة .

وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفوني ، فعرَّفوا خدام الوزير بأمري ، فزاد اغتباطًا بي ، وبعث عني عند استهلال رمضان (١٦ كانون الثاني/يناير ١٣٤٤) فوجدت الأمراء والوزراء ، وأحضر الطعام في موائد يجتمع على المائدة طائفة ، فأجلسني الوزير إلى جانبه ، ومعه القاضي عيسى ، والوزير الفاملداري ، والوزير عمر دهرد ، ومعناه مقدم العسكر . وطعامهم الأرزّ ، والدجاج ، والسمن ، والسمك ، والخليع ، والموز المطبوخ ، ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطًا بالأفاويه ، وهو يهضم الطعام .

وفي التاسع من شهر رمضان ، مات صهر الوزير زوج بنته ، وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ، ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها ، فردّها أبوها لداره ، وأعطاني دارها ، وهي من أجمل الدور ، واستأذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم (من سيلان) ، فأذن لي في ذلك ، وبعث إليّ خمسًا من الغنم ، وهي عزيزة عندهم لأنها مجلوبة من المعبر ، والمليبار ، ومقدشو ، وبعث الأرزّ ، والدجاج ، والسمن ، والأبازير ، فبعثت ذلك كلّه إلى دار الوزير سليمان مانايك ، فطبخ لي بها فأحسن في طبخه ، وزاد فيه ، وبعث الفرش وأواني النحاس ، وأفطرنا ، على العادة ، بدار السلطانة مع الوزير ، واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة ، فقال لي : وأنا أحضر أيضًا ، فشكرته ، وانصرفت إلى داري ، فإذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة ، فجلس في قبّة خشب مرتفعة ، وكان كل من يأتي من الأمراء والوزراء يسلِّم على الوزير ، ويرمي بثوب غير مخيط حتى اجتمع مئة ثوب أو نحوها ، فأخذها الفقراء ، وقدم الطعام ، فأكلوا ثم قرأ القرّاء بالأصوات الحسان ، ثم أخذوا في السماع والرقص ، وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ، ويطؤونها بالأقدام ، ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن خمدت .

ولمّا تمّت الليلة ، انصرف الوزير ومضيت معه ، فمررنا ببستان للمخزن ، فقال لي الوزير : هذا البستان لك ، وسأعمّر لك فيه دارًا لسكناك ، فشكرت فعله ، ودعوت له ، ثم بعث لي من الغد بجارية ، وقال لي خديمه : يقول لك

الوزير إن أعجبتك هذه هي لك وإلا بعث لك جارية مرهتية . وكانت الجواري المرهتيات تعجبنني ، فقلت له : إنما أريد المرهتية ، فبعثها لي . وكان اسمها «قل أستان» . ومعناه زهر البستان ، وكانت تعرف اللسان الفارسي فأعجبتني .

وأهل تلك الجزائر لهم لسان ، لم أكن أعرفه ، ثم بعث إليّ في غد ذلك بجارية معبرية تسمّى عنبري ، ولمّا كانت الليلة بعدها ، جاء الوزير إليّ بعد العشاء الأخيرة في نفر من أصحابه ، فدخل الدار ومعه غلامان صغيران ، فسلّمت عليه ، وسألني عن حالي فدعوت له وشكرته ، فألقى أحد الغلامين بين يديه لقشة ، وهي شبه السبنية (صرّة كبيرة من القماش) ، وأخرج منها ثيابَ حرير وحقًا فيه جوهر وحلي ، فأعطاني ذلك ، وقال لي : لو بعثته لك مع الجارية ، لقالت : هو مالي جئت به من دار مولاي ، والآن ، هو مالك فأعطه إيّاها ، فدعوت له ، وشكرته . وكان أهلاً للشكر ، رحمه الله .

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث إليّ أن أتزوَّج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنًا في ذلك ، فعاد إليّ الرسول ، وقال : لم يعجبه ذلك ، وهو يحب أن يزوِّجك بنته إذا انقضت عدتها ، فأبيت أنا ذلك وخفت من شؤمها ؛ لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول ، وأصابتني في أثناء ذلك حمّى مرضت بها ، ولا بدَّ لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يحمّ (يصاب بحمّى المالديف المشهورة) فقوي عزمي على الرحلة عنها ، فبعت بعض الحلي بالودع ، واكتريت مركبًا أسافر فيه لبنجالة ، فلمّا ذهبت لوداع الوزير خرج إليّ القاضي ، فقال الوزير : يقول لك إن شئت السفر فأعطنا ما أعطيناك وسافر ، فقلت له : إن بعض الحلي اشتريت به الودع فشأنكم وإيّاه ، فعاد إليّ فقال : يقول إنّما أعطيناك الذهب ، ولم نعطك الودع ، فقلت له : أنا أبيعه وآتيكم بالذهب ، فبعثت إلى التجار ليشتروه مني فأمرهم الوزير ألاّ يفعلوا ، وقصده بذلك كلّه ألاّ أسافر عنه .

ثم بعث إليّ أحد خواصّه ، وقال : الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كلّ ما أحببت ، فقلت في نفسي : أنا تحت حكمهم ، وإن لم أقم مختارًا أقمت مضطرًا ، فالإقامة باختياري أولى . وقلت لرسوله : نعم أنا أقيم معه ، فعاد إليه

ففرح بذلك واستدعاني ، فلمّا دخلت إليه قام إليّ وعانقني ، وقال : نحن نريد قربك ، وأنت تريد البعد عنا ، فاعتذرت له ، فقبل عذري ، وقلت له : إن أردتم مقامي فأنا أشترط عليكم شروطًا ، فقال : نقبلها فاشترط . فقلت له : أنا لا أستطيع المشي على قدمي ، ومن عادتهم ألاّ يركب أحد هنالك إلاّ الوزير .

ولقد كنت لـمّا أعطوني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالاً وصبيانًا يعجبون منّي حتى شكوت له ، فضربت الدُّنقُرة وبرح في الناس ألاّ يتبعني أحد ، والدنقرة شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد ، فإذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد ، فقال لي الوزير : إن أردت أن تركب الدولة وإلا فعندنا حصان ورمْكة ، فاختر أيّهما شئت ، فاخترت الرمكة ، فأتوني بها في تلك الساعة ، وأتوني بكسوة ، فقلت له : وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته؟ فقال ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة ، فقلت له : على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك ، فقال : نعم ، فبعثت ، حينئذ ، رفيقي أبا محمد بن فرحان ، وبعثوا معه رجلاً يسمّى الحاج عليًا ، فاتّفق أن هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقربة ، وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره ، ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد ، وقدم علي صاحبي أبو محمد بعد سنة ، وقد زار القدم ، وزارها مرة ثانية معي .

ولـمّا تم شهر رمضان بعث الوزير إليّ بكسوة ، وخرجنا إلى المصلّى ، وقد زُيّنت الطريق التي يمرّ الوزير عليها من داره إلى المصلى ، وفرشت الثياب فيها ، وجعلت كتاتي الودع يمنة ويسرة ، وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز ومدَّ من شجر إلى أخرى شرائط ، وعلّق منها الجوز الأخضر ، ويقف صاحب الدار عند بابها ، فإذا مرّ الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن ، فيأخذها عبيده مع الودع الذي يُجعَل على طريقه أيضًا ، والوزير ماشٍ على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة ، وهو متقلد فوطة حرير ، وفوق رأسه أربعة شطور ، وفي رجليه النعل ، وجميع الناس سواه حفاة ، والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه

والعساكر أمامه وخلفه ، وجميعهم يكبّرون حتى أتَوا المصلّى ، فخطب ولده بعد الصلاة ، ثم أتى بمحفّة فركب فيها الوزير وخدم الأمراء والوزراء ، ورمَوا بالثياب ، على العادة .

ولم يكن ركب في المحفّة قبل ذلك لأن ذلك لا يفعله إلاّ الملوك ، ثم رفعه الرجال ، وركبت فرسي ، ودخلنا القصر ، فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء ، ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعِصيّ ، ثم أُتِي بالطعام ثم بالفوفل والتنبول ، ثم أُتِي بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصري ، فإذا أكلت جماعة من الناس تلطّخوا بالصندل ، ورأيت على بعض طعامهم ، يومئذ ، حوتًا من السردين مملوحًا غير مطبوخ أهدي لهم من كولم ، وهو ببلاد المليبار كثير فأخذ الوزير سردينة ، وجعل يأكلها ، وقال لي : كل منه فإنه ليس ببلادنا ، فقلت : كيف آكله ، وهو غير مطبوخ؟ فقال : إنه مطبوخ ، فقلت : أنا أَعرَف به ؛ فإنه ببلادي كثير .

وفي الثاني من شوال (١٧ شباط/فبراير ١٣٤٤) اتفقت مع الوزير سليمان ماناياك على تزوُّج بنته ؛ فبعث إلى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر ، فأجاب إلى ذلك وأحضر التنبول على العادة والصندل ، وحضر الناس ، وأبطأ الوزير سليمان ، فاستدعي فلم يأتِ ، ثم استدعي ثانية فاعتذر بمرض البنت ، فقال لي الوزير سراً : إن بنته امتنعت ، وهي مالكة أمر نفسها ، والناس قد اجتمعوا ، فهل لك أن تتزوَّج بربيبة السلطانة زوجة أبيها ، وهي التي ولده متزوِّج بنتها ، فقلت له : نعم ، فاستدعى القاضي والشهود ، ووقعت الشهادة ، ودفع الوزير الصَّداق ، ورفعت إليّ بعد أيام فكانت من خيار النساء .

وبلغ حُسْن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجتُ عليها تطيِّبني وتبخّر أثوابي ، وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغيّر ، ولمّا تزوّجتها أكرهني الوزير على القضاء ، وسبب ذلك اعتراضي على القاضي ، ولكونه كان يأخذ العشر من التركات إذا قسمها على أربابها ، فقلت له : إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة ، ولم يكن يحسن شيئًا ، فلمّا وُلِّيت اجتهدت جهدي في إقامة رسوم الشرع . وليست

هنالك خصومات كما هي ببلادنا ، فأول ما غيّرت من عوائد السوء مكث المطلّقات في ديار المطلّقين ، وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره ، فحسمت علة ذلك ، وأتي إليّ بنحو خمسة وعشرين رجلاً ممّن فعلوا ذلك فضربتهم ، وشهرتهم الأسواق ، وأخرجت النساء عنهم . ثم اشتددت في إقامة الصلوات ، وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة ، فمن وجدوه لم يصلّ ضربته وشهرته ، وألزمت الأئمّة والمؤذّنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله ، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك ، وجهدت أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك .

وكنت قد تزوّجت ربيبة بنت زوجة الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي ، وأحببتها حبًا شديدًا ، ولـمّا بعث الوزير عنه ، وردّه إلى جزيرة المهل ، بعثت له التحف ، وتلقّيته ، ومضيت معه إلى القصر ، فسلّم على الوزير ، وأنزله في دار جيدة ، فكنت أزوره بها ، واتّفق أن اعتكفت في رمضان ، فزارني جميع الناس إلاّ هو ، وزارني الوزير جمال الدين فدخل هو معه بحكم الموافقة ، فوقعت بيننا الوحشة ، فلمّا خرجت من الاعتكاف شكا إليّ أخوال زوجتي ربيبة أولاد الوزير جمال الدين السنجري ، فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله ، وإن مالهم باقٍ بيده ، وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع ، وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم ، وكانت عادتي إذا بعثت عن خصم من الخصوم أبعث له قطعة كاغد ، مكتوبة أو غير مكتوبة ، فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي وإلا عاقبته ، فبعثت إليه على العادة ، فأغضبه ذلك ، وحَقَدَها لي ، وأضمر عداوتي ، ووكل من يتكلّم عنه ، وبلغني عنه كلام قبيح .

وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين خدمتهم أن يواصلوا السبابة إلى الأرض ثم يقبّلونها ويضعونها على رؤوسهم ، فأمرت المنادي فنادى بدار السلطان على رؤوس الأشهاد أنه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد ، وأخذت عليه ألاّ يترك الناس لذلك فزادت عداوته . وتزوجت أيضًا زوجة أخرى بنت

وزير معظَّم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازة ، ثم تزوَّجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين ، وعمّرتُ ثلاث ديار بالبستان الذي أعطانيه الوزير . وكانت الرابعة ، وهي ربيبة الوزير عبد الله ، تسكن في دارها ، وهي أحبّهن إليّ ، فلمّا صاهرت من ذكرته هابني الوزير ، وأهل الجزيرة ، وتخوّفوا منّي لأجل ضعفهم ، وسعَوا بيني وبين الوزير بالنمائم ، وتولّى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكّنَت الوحشة .

واتّفق ، في بعض الأيام ، أن عبدًا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته إلى الوزير وأعلمته أنه عنده سُرِّيّة من سراري السلطان يزني بها ، فبعث الوزير الشهود ، ودخلوا دار السُرّية فوجدوا الغلام نائمًا معها في فراش واحد ، وحبسوهما ، فلمّا أصبحتُ وعلمتُ بالخبر ، توجهتُ إلى المشور ، وجلستُ في موضع جلوسي ، ولم أتكلّم في شيء من أمرها ، فخرج إليّ بعض الخواصّ ، فقال : يقول لك الوزير ألك حاجة؟ فقلت : لا ، وكان قصده أن أتكلّم في شأن السرّية والغلام إذ كانت عادتي ألاّ تقع قضية إلاّ حكمت فيها ، فلمّا وقع التغيُّر والوحشة قصّرت في ذلك . فانصرفت إلى داري بعد ذلك ، وجلست بموضع الأحكام ، فإذا ببعض الوزراء ، فقال لي : الوزير يقول لك إنه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرّية والغلام فاحكم فيهما بالشرع ، فقلت له هذه قضية لا ينبغي الحكم أن يكون فيها إلاّ بدار السلطان ، فعدت إليها ، واجتمع الناس ، وأحضرت السرّية والغلام ، فأمرت بضربهما للخلوة ، وأطلقت سراح المرأة ، وحبست الغلام ، وانصرفت إلى داري . فبعث الوزير إليّ جماعة من كبراء ناسه في شأن تسريح الغلام ، فقلت لهم : أتشفع في غلام زنجيّ يهتك حرمة مولاه ، وأنتم ، بالأمس ، خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له؟

وأمرت بالغلام عند ذلك فضُرب بقضبان الخيزران ، وهي أشدّ وقعًا من السياط ، وشهرته بالجزيرة وفي عنقه حبل ، فذهبوا إلى الوزير فأعلموه فقام وقعد ، واستشاط غضبًا ، وجمع الوزراء ، ووجوه العسكر وبعث عني فجئته . وكانت عادتي أن أخدَم فلم أخدِم ، وقلت : سلام عليكم ، ثم قلت للحاضرين

اشهدوا عليّ أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزي عنه ، فكلّمني الوزير ، فصعدت ، وقعدت بموضع أقابله فيه ، وجاوبته أغلظ جواب ، وأذَّنَ مؤذن المغرب ، فدخل إلى داره وهو يقول ويقولون إني سلطان وهأناذا طلبته لأغضب عليه فغضب عليّ ، وإنما كان اعتزازي عليهم بسبب سلطان الهند لأنهم تحقّقوا مكانتي عنده ، وإن كانوا على بعد منه فخوفه في قلوبهم متمكّن .

فلمّا دخل إلى داره بعث إليّ القاضي المعزول ، وكان جريء اللسان فقال لي : إن مولانا يقول لك كيف هتكت حرمته على رؤوس الأشهاد ، ولم تخدم له؟ فقلت له : إنّما كنت أخدِم له حين كان قلبي له طيبًا ، فلمّا وقع التغير تركت ذلك ، وتحية المسلمين إنما هي السلام ، وقد سلّمتُ . فبعثه إليّ ثانية فقال : إنّما غرضك الرحيل عنا فأعطِ صدقات النساء ، وديون الناس ، وانصرف إذا شئت ، فخدمت له على هذا القول ، وذهبت إلى داري ، فخلّصت ممّا عليّ من الدين ، وكان قد أعطاني في تلك الأيام فرش دار وجهازها من أواني نحاس وسواها ، وكان يعطيني كل ما أطلبه ، ويحبّني ، ويكرمني ، ولكنه غيَّرَ خاطره ، وخوّف مني ، فلمّا عرف أني قد خلصت الدين وعزمت على السفر ندم على ما قاله ، وتلكّأ في الإذن لي في السفر ، فحلفت بالإيمان المغلظة ألاّ بدَّ من سفري ، ونقلت ما عندي إلى مسجد على البحر ، وطلَّقت إحدى الزوجات ، وكانت إحداهن حاملاً فجعلت لها أجلاً تسعة أشهر إن عدت فيها وإلاّ فأمرها بيدها .

وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلّمها لأبيها بجزيرة ملوك ، وزوجتي الأولى التي بنتها أخت السلطان . وتوافقت مع الوزير عمر دهرد والوزير حسن قائد البحر على أن أمضي إلى بلاد المعبر ، وكان ملكها سلفي ، فأتي منها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه ، وأنوب أنا عنه فيها . وجعلت بيني وبينهم علامة رفع أعلام بيض في المراكب ، فإذا رأوها ثاروا في البرّ . ولم أكن حدثت نفسي بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغيُّر .

وكان الوزير خائفًا مني يقول للناس لا بدَّ لهذا أن يأخذ الوزارة إمّا في حياتي أو بعد موتي ، ويُكثر السؤال عن حالي ، ويقول : سمعت أن ملك الهند

بعث إليه الأموال ليثور بها عليّ ، وكان يخاف من سفري لئلا آتي بالجيوش من بلاد المعبر ، فبعث إليّ أن أقيم حتى يجهِّز لي مركبًا فأبَيت ، وشكت أخت السلطانة إليها بسفر أمها معي ، فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك ، فلمّا رأت عزمها على السفر ، قالت لها : إن جميع ما عندك من الحلي هو من مال البندر ، فإن كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك ، وإلا فردّيه ، وكان حليًا له خطر ، فردّته إليهم .

وأتاني الوزراء والوجوه ، وأنا بالمسجد ، وطلبوا منّي الرجوع ، فقلت لهم : لولا أني حلفت لعدت ، فقالوا : تذهب إلى بعض علماء الجزائر ليبرّ قسمك ، وتعود . فقلت لهم : نعم ؛ إرضاءً لهم ، فلمّا كانت الليلة التي سافرت فيها أتيت لوداع الوزير ، فعانقني وبكى حتى قطرت دموعه على قدمي ، وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه ؛ خوفًا أن يثور عليه أصهاري وأصحابي . ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير علي ، فأصابت زوجتي أوجاع عظيمة ، وأحبّت الرجوع ، فطلّقتها ، وتركتها هنالك ، وكتبت للوزير بذلك لأنها أمّ زوجة ولده ، وطلّقت التي كنت ضربت لها الأجل ، وبعثت عن جارية كنت أحبّها ، وسرنا في تلك الجزائر ، من إقليم إلى إقليم .

وفي بعض تلك الجزائر رأيت امرأة ، لها ثدي واحد في صدرها ، ولها بنتان إحداهما كمثلها ذات ثدي واحد والأخرى ذات ثديين إلاّ أن أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه ، فعجبت من شأنهن . ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس لها إلاّ دار واحدة فيها رجل حائك له زوجة وأولاد ونخيلات نارجيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ، ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر ، وفي جزيرته أيضًا شجيرات موز . ولم نرَ فيها من طيور البرّ غير غرابَين خرجا إلينا ، لـمّا وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت- والله- ذلك الرجل ، ووددت أن لو كانت تلك الجزيرة لي ، فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين .

ثم وصلت إلى جزيرة ملّوك حيث المركب الذي للناخوذة إبراهيم ، وهو الذي عزمت على السفر فيه إلى المعبر فجاء إليّ ومعه أصحابه ، وأضافوني ضيافة

حسنة ، وكان الوزير قد كتب لي أن أعطى بهذه الجزيرة مئة وعشرين بستوا من الكودة ، وهي الودع وعشرين قدحًا من الأطوان ، وهو عسل النارجيل وعددًا معلومًا من التنبول والفوفل والسمك في كل يوم . وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يومًا ، وتزوّجت بها امرأتين ، وهي من أحسن الجزائر خضرة ونضرة . رأيت من عجائبها أن الغصن يُقتطع من شجرها ، ويركز في الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة . ورأيت الرمّان بها لا ينقطع له ثمر بطول السنة . وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة إبراهيم أن ينهبهم عند سفره ، فأرادوا إمساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره ، فوقعت المشاجرة بسبب ذلك .

٤. رحلة ابن بطوطة إلى سيلان:

خرجنا إلى جزيرة سيلان (ربيع الثاني ٧٤٥هـ آب/أغسطس ١٣٤٤م) ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبًا في السماء كأنه عمود دخان ، ولـمّا وصلناها قال البحرية : إن هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار إلى بلاده آمنين ، إنما هذا مرسى في بلاد السلطان أيري شكروتي ، وهو من العتاة المفسدين ، وله مراكب تقطع في البحر ، فخفنا أن ننزل بمرساه . ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق ، فقلت للناخوذة : نزّلني إلى الساحل ، وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان ، ففعل ذلك ، وأنزلني بالساحل ، فأتانا الكفّار فقالوا : ما أنتم؟ فأخبرتهم أني سلف سلطان المعبر ، وصاحبه ، جئت لزيارته ، وأن الذي في المركب هدية له ، فذهبوا إلى سلطانهم ، فأعلموه بذلك ، فاستدعاني ، فذهبت له إلى مدينة بطالة (بوطالام) ، وهي حضرته . مدينة صغيرة حسنة ، عليها سور خشب وأبراج خشب ، وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة ، تأتي بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابي ، ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن إلاّ أنهم يهدون للسلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه ، وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة ، وبها أيضًا من خشب البقم كثير ، ومن العود الهندي المعروف بالكلخي إلاّ أنه ليس كالقماري والقاقلي (أنواع من البخور) . . .

واسم سلطان سيلان أيري شكروتي ، وهو سلطان قويّ في البحر . رأيت مرة وأنا بالمعبر ، مئة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت إلى هنالك ، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن ، فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه ، فلمّا يئسوا من انتهاز الفرصة فيها ، قالو : إنّما جئنا في حماية مراكب لنا ، تسير أيضًا إلى اليمن ، ولمّا دخلت على هذا السلطان الكافر قام إليّ ، وأجلسني في جانبه ، وكلّمني بأحسن كلام ، وقال : ينزل أصحابك على الأمان ، ويكونون في ضيافتي إلى أن يسافروا ، فإن سلطان المعبر بيني وبينه الصحبة .

ثم أمر بإنزالي ، فأقمت عنده ثلاثة أيام في إكرام عظيم متزايد في كل يوم ، وكان يفهم اللسان الفارسي ، ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد ، ودخلت عليه يومًا ، وعنده جواهر كثيرة أتي بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده ، وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره ، فقال لي : هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها؟ فقلت له : نعم ، رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التي لابن السواملي ، فقال : سمعت بها ، ثم أخذ حبات منه ، فقال : أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه؟ فقلت له : رأيت ما هو دونها ، فأعجبه ذلك ، وقال : هي لك ، وقال لي : لا تستحْي ، واطلب مني ما شئت ، فقلت له : ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلاّ زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام ، وهم يسمّونه بابا ، ويسمّون حواء ماما ، فقال : هذا هيّن ، نبعث معك من يوصلك ، فقلت : ذلك أريد ، ثم قلت له : وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمنًا إلى المعبر ، وإذا عدت أنا بعثتني في مراكبك ، فقال : نعم ، فلمّا ذكرت ذلك لصاحب المركب ، قال لي : لا أسافر حتى تعود ، ولو أقمت سنة بسببك ، فأخبرت السلطان بذلك ، فقال : يقيم في ضيافتي حتى تعود ، فأعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم ، وبعث معي أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلاً يحملون الزاد ، وأمّا الماء فهو بتلك الطريق كثير .

ونزلنا ذلك اليوم على وادٍ ، جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران ، ثم رحلنا من هنالك إلى منار مندلي (ميناري مانديل) مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان أضافنا أهلها ضيافة حسنة ، وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك ويأتون بها أحياء ، ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن ، ولم نرَ بهذه المدينة مسلمًا غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه ، فسافر معنا . ورحلنا إلى بندر سلاوات (جيلام) بلدة صغيرة . وسافرنا في أوعار كثيرة المياه ، بها الفيلة الكثيرة إلاّ أنها لا تؤذي الزوار والغرباء ، وذلك ببركة الشيخ أبي عبدالله بن خفيف رحمه الله . وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم .

وكان هؤلاء الكفّار يمنعون المسلمين من ذلك ، ويؤذونهم ، ولا يؤاكلونهم ، ولا يبايعونهم ، فلمّا اتّفق للشيخ أبي عبد الله . . من قتل الفيلة لأصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره ، صار الكفّار ، من ذلك العهد ، يعظّمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ، ويطعمون معهم ، ويطمئنون لهم بأهلهم وأولادهم ، وهم ، إلى الآن ، يعظّمون الشيخ المذكور أشدّ تعظيم ، ويسمّونه الشيخ الكبير .

ثم وصلنا ، بعد ذلك ، إلى مدينة كنكار ، وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبناؤها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمّى خور الياقوت لأن الياقوت يوجد به ، وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاوش ، وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظّمونه ، وهو كان الدليل إلى القدم ، فلمّا قطعت يده ورجله صار الأدلاء أولاده وغلمانه ، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ، وحكمُ كفار الهنود أنه مَنْ ذبح بقرة ذُبح كمثلها أو جُعل في جلدها وحُرِق . وكان الشيخ عثمان معظَّمًا عندهم ، فقطعوا يده ورجله ، وأعطوه مجبى بعض الأسواق . وسلطانها يُعرف بالكنار ، وعنده الفيل الأبيض ، ولم أرَ في الدنيا فيلاً أبيض سواه يركبه في الأعياد ، ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة ، واتّفق له أن قام عليه أهل دولته ، وكحّلوا عينيه ، وولّوا ولده ، وهو هنالك أعمى .

والياقوت العجيب البهرمان (الأحمر) إنما يكون بهذه البلدة ، فمنه ما يخرج من الخور ، وهو عزيز عندهم ، ومنه ما يُحفَر عنه ، وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها ، وهي متملَّكة فيشتري الإنسان القطعة منها ، ويحفر عن الياقوت فيجد أحجارًا مشعبة ، وهي التي يتكوّن الياقوت في أجوافها ، فيعطيها الحكّاكين فيحكّونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت ، فمنه الأحمر ، ومنه الأصفر ، ومنه الأزرق ويسمونه النيلم (الأزرق) ، وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مئة فَنَم ، فهو للسلطان يعطي ثمنه ، ويأخذه ، وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه ، وصرف مئة فَنَم ستة دنانير من الذهب . وجميع النساء بجزيرة سيلان لهنّ القلائد من الياقوت الملوّن ، ويجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضًا من الأسورة والخلاخيل . وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤوسهن ، ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر أعظم من بيضة الدجاج ، ورأيت عند السلطان أيري شكروتي سكرجة على مقدار الكفّ من الياقوت فيها دهن العود ، فجعلت أعجب منها ، فقال : إن عندنا ما هو أضخم من ذلك .

ثم سافرنا من كنكار (كورونكالا) ، فنزلنا بمغارة تعرف باسم أسطا محمود اللوري ، وكان من الصالحين ، واحتفر تلك المغارة في سفح جبل عند خور صغير هنالك ، ثم رحلنا عنها ، ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنة ، وبوزنة هي القرود ، والقرود بتلك الجبال كثيرة جداً ، وهي سود الألوان ، لها أذناب طوال ، ولذكورها لحى كما هي للآدميين . وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن هذه القرود لها مقدّم ، تتبعه كأنه سلطان يشدّ على رأسه عصابة من أوراق أشجار ، ويتوكّأ على عصا ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود ، لها عِصيّ بأيديها ، وأنه إذا جلس القرد المقدّم تقف القرود الأربعة على رأسه ، وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم ، وتأتي القرود فتقعد على بعد منه ، ثم يكلّمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلها ، ثم يأتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك ، فيأكل القرد المقدّم وأولاده والقرود الأربعة .

وأخبرني بعض الجوكية أنه رأى القرود الأربعة بين يدي مقدّمها ، وهي تضرب بعض القرود بالعِصيّ ، ثم نتفت وبره بعد ضربه . وذكر لي الثقات أنه إذا ظفر قرد من هذه القرود بصبيّة ، لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها . وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة أنه كان بداره قرد منها ، فدخلت بنت له بعض البيوت ، فدخل عليها ، فصاحت به ، فغلبها . قال : ودخلنا عليها ، وهو بين رجليها ، فقتلناه .

ثم كان رحيلنا إلى خور الخيزران ، ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتتين اللتين أعطاهما لسلطان هذه الجزيرة . ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز ، وهو آخر العمارة . ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر ، وكان من الصالحين . ثم رحلنا إلى مغارة السبيك ، وكان السبيك من سلاطين الكفار وانقطع للعبادة هنالك . وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ، ويسمونه الزلو ، ويكون بالأشجار والحشائش التي تقرب من الماء فإذا قرب الإنسان منه وثب عليه ، فحينما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير ، والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم ، ويجرّدون الموضع الذي يقع عليه بسكّين خشب مُعَدّ لذلك ، ويُذكَر أن بعض الزوار مرّ بذلك الموضع فتعلّقت به العلق ، فأظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون ، فنزف دمه ومات ، وكان اسمه بابا خوزي . وهنالك مغارة تُنسَب إليه .

ثم رحلنا إلى السبع مغارات ، ثم إلى عقبة إسكندر ، وثم مغارة الأصفهاني ، وعين ماء وقلعة غير عامرة تحتها خور يُعرَف بغوطة كاه عارفان ، وهنالك مغارة النارنج ومغارة السلطان وعندها دروازة الجبل أي بابه ، وهو من أعلى جبال الدنيا (جبل آدم ، ارتفاع قمته ٢٢٤٣م) ، رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ، ولمّا صعدناه كنّا نرى السحاب أسفل منّا ، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله ، وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق والأزاهير الملوّنة والورد الأحمر على قدر الكفّ ، ويزعمون أن في ذلك الورد كتابة ، يُقرَأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام ، وفي الجبل طريقان إلى

القدم أحدهما يُعرَف بطريق بابا والآخر بطريق ماما ؛ يعنون آدم وحواء ، عليهما السلام ؛ فأمّا طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار إذا رجعوا ، ومَن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر ، وأمّا طريق بابا فصعب وعر المرتقى . وفي أسفل الجبل حيث دروازته ، مغارة تُنسَب أيضًا للإسكندر ، وعين ماء .

ونحت الأوّلون في الجبل شبه درَج ، يُصعَد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلّقوا منها السلاسل ليتمسّك بها من يصعده ، وهي عشر سلاسل ثنتان في أسفل الجبل إلى حيث الدروازة ، وسبع متوالية بعدها ، والعاشرة هي سلسلة الشهادة ؛ لأن الإنسان إذا وصل إليها ، ونظر إلى أسفل الجبل ، أدركه الوهم ، فيتشهّد خوف السقوط . ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقًا مهملاً ، ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخضر سبعة أميال ، وهي في موضع فسيح ، عندها عين ماء تنسب إليه أيضًا ملأى بالحوت ولا يصطاده أحد ، وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جنبتي الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوّار ما عندهم ، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل ، حيث القدم ، وأثر القدم الكريمة ، قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعًا منخفضًا ، وطولها أحد عشر شبرًا .

وأتى إليها أهل الصين قديمًا فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه ، وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد ، وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزوّار من الكفّار فيها الذهب واليواقيت والجواهر ، فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر ، ولم نجد نحن بها إلاّ يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل . والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوةً وعشيًا ، وكذلك فعلنا .

ولـمّا تمّت الأيام الثلاثة عدنا على طريق ماما بمغارة شيم ، وهو شيث بن آدم عليهما السلام ، ثم إلى خور السمك ، ثم إلى قرية كرملة ، ثم إلى قرية جبر كاوان ، ثم إلى قرية دل دينوة ، ثم إلى قرية آت قلنجة ، وهنالك كان يشتّي

الشيخ أبو عبد الله بن خفيف . وكلّ هذه القرى والمنازل هي بالجبل ، وعند أصل الجبل في هذا الطريق درخت روان ، وهي شجرة عادية ، لا يسقط لها ورق . ولم أرَ من رأى ورقها ، ويعرفونها أيضًا بالماشية ؛ لأن الناظر إليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل ، والناظر إليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك . ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ، ينتظرون سقوط ورقها ، وهي بحيث لا يمكن التوصُّل إليها البتّة ، ولهم أكاذيب في شأنها ، من جملتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب ، إن كان شيخًا ، وذلك باطل . وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت ، وماؤه يظهر في رأي العين شديد الزرقة .

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دينور (دوندره) مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجّار وبها الصنم المعروف بدينور في كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمئة من النساء بنات الهنود ، ويغنّين كل ليلة عند الصنم ويرقصن ، والمدينة ومجابيها وقف على الصنم ، وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك ، والصنم من ذهب على قدر الآدمي ، وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان ، أُخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلَيْن . ثم رحلنا إلى مدينة قالي (كالي) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخوذة إبراهيم أضافنا بموضعه ، ورحلنا إلى مدينة كلنبو (كولومبو ، عاصمة جزيرة سريلانكا في الوقت الحاضر) وهي من أحسن بلاد سرنديب ، وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جَالَسْتي ، ومعه نحو خمسمئة من الحبشة ، ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطالة . .

فسافرنا بقصد بلاد المعبر ، وقويت الريح وكاد الماء يدخل في المركب ، ولم يكن لنا رائس عارف ، ثم وصلنا إلى حجارة كاد المركب ينكسر فيها ، ثم دخلنا بحرًا قصيرًا فتجلّس المركب ، ورأينا الموت عيانًا ، ورمى الناس بما معهم وتوادعوا ، وقطعنا صاري المركب فرمينا به ، وصنع البحرية معدية من الخشب ، وكان بيننا وبين البر فرسخان ، فأردت أن أنزل في المعدية ، وكان لي جاريتان وصاحبان من

أصحابي ، فقالا : أتنزل وتتركنا؟ فآثرتهما على نفسي ، وقلت : انزلا أنتما ، والجارية التي أحبّها ، فقالت الجارية : إني أحسن السباحة فأتعلّق بحبل المعدية ، وأعوم معهم ، فنزل رفيقاي ، وأحدهما محمد بن فرحان التوزري ، والآخر رجل مصري ، والجارية معهم ، والأخرى تسبح ، وربط البحرية في المعدية حبالاً وسبحوا بها ، وجعلت معهم ما عزّ عليّ من المتاع والجواهر والعنبر ، فوصلوا إلى البرّ سالمين ؛ لأن الريح كانت تساعدهم .

وأقمت بالمركب ، ونزل صاحبه إلى البرّ على الدفّة ، وشرع البحرية في عمل أربع من المعادي ، فجاء الليل قبل تمامها ، ودخل معنا الماء ، فصعدت إلى المؤخّر ، وأقمت به حتى الصباح ، وحينئذ ، جاء إلينا نفر من الكفار في قارب لهم ، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر ، فأعلمناهم أنّا من أصحاب سلطانهم ، وهم تحت ذمّته ، فكتبوا إليه بذلك ، وهو على مسيرة يومين في الغزو . وكتبت أنا إليه أعلمه بما اتّفق عليّ ، وأدخلنا أولئك الكفار إلى غيضة عظيمة ، فأتوا بفاكهة تشبه البطيخ ، يثمرها شجرة المقل ، وفي داخلها شبه قطن ، فيه عسلية ، يستخرجونها ، ويصنعون منها حلواء يسمونها التل ، وهي تشبه السكّر ، وأتوا بسمك طيب .

وأقمنا ثلاثة أيام ، ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين ، معه جماعة فرسان ورجال ، وجاؤوا بالدولة وبعشرة أفراس ، فركبت ، وركب أصحابي وصاحب المركب وإحدى الجاريتين ، وحُمِلت الأخرى في الدولة . ووصلنا إلى حصن هركاتو ، وبتنا به ، وتركت فيه الجواري وبعض الغلمان والأصحاب . ووصلنا في اليوم الثاني إلى محلّة السلطان ، وهو غياث الدين الدامغاني .

وكان أول أمره فارسًا من فرسان الملك مجير بن أبي الرجا أحد خدّام السلطان محمد ، ثم خدم الأمير حاجي بن السيد السلطان جلال الدين ، ثم وليّ الملك ، وكان يدعى سراج الدين قبله ، فلمّا ولي تسمّى غياث الدين ، وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي ، ثم ثار بها صهري

الشريف جلال الدين أحسن شاه وملك بها خمسة أعوام ، ثم قُتِل ووُلِّي أحد أمرائه ، وهو علاء الدين أديجي ، فملك سنة ، ثم خرج إلى غزو الكفار ، فأخذ لهم أموالاً كثيرة ، وغنائم واسعة ، وعاد إلى بلاده ، وغزاهم في السنة الثانية فهزمهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة . واتفق يوم قتله لهم أن رفع المغفر عن رأسه ليشرب فأصابه سهم غَرَب ، فمات من حينه ، فولّوا صهره قطب الدين ، ثم لم يحمدوا سيرته ، فقتلوه بعد أربعين يومًا ، ووُلِّي بعده السلطان غياث الدين ، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التي كنت متزوِّجًا أختها بدهلي .

ولمّا وصلنا إلى قرب من منزل السلطان غياث الدين بعث بعض الحجاب ، لتلقّينا ، وكان قاعدًا في برج خشب ، وعادتهم بالهند كلّها ألاّ يدخل أحد على السلطان دون خفّ ، ولم يكن عندي خفّ ، فأعطاني بعض الكفار خفًا ، وكان هنالك من المسلمين جماعة ، فعجبت من كون الكافر كان أتمّ مروءة منهم ، ودخلت على السلطان فأمرني بالجلوس ، ودعا القاضي الحاجّ صدر الزمان بهاء الدين ، وأنزلني في جواره في ثلاثة من الأخبية ، وهم يسمّونها الخيام ، وبعث بالفرش وبطعامهم وهو الأرزّ واللحم . وعادتهم ، هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يُفعَل ببلادنا ، ثم اجتمعت به ، بعد ذلك ، وألقيت له أمر جزائر ذيبة المهل ، وأن يبعث الجيش إليها ، فأخذ في ذلك بالعزم ، وعيّن المراكب لذلك ، وعيَّن الهديّة لسلطانتها ، والخلع للوزراء والأمراء ، والعطايا لهم ، وفوّض إليّ في عقد نكاحه مع مريم أخت السلطانة ، وأمر بوثق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر .

وقال لي : يكون رجوعك بعد خمسة أيام ، فقال له قائد البحر خواجة سرلك : لا يمكن السفر إلى الجزائر إلاّ بعد ثلاثة أشهر من الآن ، فقال لي السلطان : أمّا إذا كان الأمر هكذا فامض إلى فتَنّ حتى تقضي هذه الحركة ، وتعود إلى حضرتنا مُتْرَة (مادورا) ، ومنها تكون الحركة ، فأقمت معه بخلال ما بعثت عن الجواري والأصحاب .

وكانت الأرض التي نسلكها غيضة واحدة من الأشجار والقصب بحيث لا

يسلكها أحد ، فأمر السلطان أن يكون لكل واحد ممّن في الجيش ، من كبير وصغير قادوم لقطع ذلك ، فإذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة ، والناس معه ، فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال ، ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس ، طائفة بعد أخرى ، ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشيّ ، وكلّ من وجدوه من الكفّار في الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محدَّدة الطرفين فجعلوها على كتفيه ، يحملها ومعه امرأته وأولاده ، ويؤتى بهم إلى المحلّة .

وعادتهم أن يصنعوا على المحلّة سورًا من خشب ، يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكتكر ، ويصنعون على دار السلطان كتكرًا ثانيًا ، ويصنعون خارج الكتكر الأكبر مصاطبَ ارتفاعها نحو نصف قامة ، ويوقدون عليها النار بالليل ، ويبيت عندها العبيد والمشّاؤون ، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب ، فإذا أتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلاً أوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء ، وخرجت الفرسان في اتّباع الكفار ، فإذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام ، وأتي إلى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم ، فركزت الخشب التي كانوا يحملونها بالأمس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ، ثم تُذبح نساؤهم ، ويربطن بشعورهنّ إلى تلك الخشبات ، ويُذبح الأولاد الصغار في حجورهنّ ، ويتركون هنالك ، وتنزل المحلّة ، ويشتغلون بقطع غيضة أخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك ، وذلك أمر شنيع ، ما علمته لأحد من الملوك ؛ وبسببه عجَّل الله حينه .

ولقد رأيته يومًا والقاضي عن يمينه وأنا عن شماله وهو يأكل معنا ، وقد أتي بكافر معه امرأته وولده سنه سبع ، فأشار إلى السيّافين بيده أن يقطعوا رأسه ، ثم قال له : «وَزْنِ أُو وَبّسر أُو» . معناه : «وابنه وزوجته» فقطعت رقابهم ، وصَرَفت بصري عنهم ، فلمّا قمت وجدت رؤوسهم مطروحة بالأرض . وحضرت عنده يومًا وقد أُتي برجل من الكفار فتكلّم بما لم أفهمه ، فإذا بجماعة من الزبانية قد استلّوا سكاكينهم ، فبادرت القيام ، فقال لي : إلى أين؟ فقلت أصلّي العصر ، ففهم عني ، وضحك ، وأمر بقطع يديه ورجليه ، فلمّا عدت وجدته متشحِّطًا في

دمائه . وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمّى بلال ديو ، وهو من كبار سلاطين الكفّار يزيد عسكره على مئة ألف ، ومعه نحو عشرين ألفًا من المسلمين : أهل الدعارة وذوي الجنايات والعبيد الفارّين ، فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر ، وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف ، منهم النصف من الجياد ، والنصف الثاني لا خير فيهم ولا غناء عندهم ، فلقوه بظاهر مدينة كبان (كونور كوبام أقصى جنوب ولاية أندرابراديش) فهزمهم ، ورجعوا إلى حضرة مترة .

ونزل الكافر على كبان ، وهي من أكبر مدنهم وأحصنها ، وحاصرها عشرة أشهر ، ولم يبقَ لهم من الطعام إلاّ قوت أربعة عشر يومًا ، فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان ، ويتركوا له البلد ، فقالوا له : لا بدَّ من مطالعة سلطاننا بذلك ، فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يومًا ، وكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم ، فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة ، فبكوا ، وقالوا : نبيع أنفسنا من الله فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا ، فالموت تحت السيوف أولى بنا ، فتعاهدوا على الموت ، وخرجوا من الغد ، ونزعوا العمائم عن رؤوسهم ، وجعلوها في أعناق الخيل ، وهي علامة من يريد الموت ، وجعلوا ذوي النجدة والأبطال منهم في المقدمة ، وكانوا ثلاثمئة ، وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور ، وكان فقيهًا ورعًا شجاعًا ، وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار ، وركب السلطان في القلب ، ومعه ثلاثة آلاف وجعل الثلاثة آلاف الباقين ساقة لهم وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي ، وقصدوا محلة الكافر عند القائلة وأهلها على غرة ، وخيلهم في المرعى فأغاروا عليها ، وظنّ الكفار أنهم سرّاق ، فخرجوا إليهم على غير تعبية وقاتلوهم ، فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة ، وأراد سلطانهم أن يركب وكان ابن ثمانين فأدركه ناصر الدين بن أخي السلطان الذي ولي الملك بعده فأراد قتله ، ولم يعرفه فقال له أحد غلمانه : هو السلطان فأسره وحمله إلى عمه ، فأكرمه في الظاهر حتى جبى منه الأموال والفيلة والخيل ، وكان يَعده السراح فلمّا استصفى ما عنده ذبحه وسلخه ، ومُلئ جلده بالتبن ، فعُلِّق على سور مترة . ورأيته بها معلَّقًا .

ولنعد إلى كلامنا ، فنقول : ورحلت عن المحلّة ، فوصلت إلى مدينة فتن ، وهي كبيرة حسنة على الساحل ، ومرساها عجيب ، قد صنعت فيه قبة من الخشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يُصعَد إليها على طريق خشب مسقف ، فإذا جاء العدو ضمّوا إليها الأجفان التي تكون بالمرسى وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدوّ فرصة . وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة ، وبها العنب الكثير والرمّان الطيب ، ولقيت بها الشيخ الصالح محمد النيسابوري أحد الفقراء المولّهين الذين يسدلون أكتافهم ، ومعه سبعٌ ، ربّاه يأكل مع الفقراء ، ويقعد معهم ، وكان معه نحو ثلاثين فقيرًا ، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد ، فلا يعرض لها .

وأقمت بمدينة فتن ، وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الجوكية حبوبًا للقوة على الجماع ، وذكروا أن من جملة أخلاطها برادة الحديد ، فأكل منها فوق الحاجة فمرض ، ووصل إلى فتن ، فخرجت إلى لقائه ، وأهديت له هدية ، فلمّا استقر بها بعث عن قائد البحر خواجة سرور ، فقال له : لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر ، وأراد أن يعطيني قيمة الهدية فأبيت ، ثم ندمت لأنه مات فلم آخذ شيئًا ، وأقام بفتن نصف شهر ، ثم رحل إلى حضرته ، وأقمت أنا بعده نصف شهر .

ثم رحلت إلى حضرته ، وهي مدينة مترة مدينة كيرة مُتّسعة الشوارع ، وأوّل من اتّخذها حضرة صهري السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه ، وجعلها شبيهة بدهلي (دلهي) وأحسن بناءها ، ولـمّا قدمتها وجدت بها وباءً ، يموت منه الناس موتًا ذريعًا ، فمن مرض مات من ثاني يوم مرضه أو ثالثه ، وإن أبطأ موته فإلى الرابع ، فكنت إذا خرجت لا أرى إلاّ مريضًا أو ميّتًا . واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت في يوم آخر . ولقد جاءت إليّ في بعض الأيام امرأة ، كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ، ومعها ابن لها ، سنُّه ثمانية أعوام ، نبيل ، كيّس ، فطن ، فشكت ضعف حالها فأعطيتهما نفقة ، وهما صحيحان سويّان ، فلمّا كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنًا ، وإذا به قد توفّي من حينه .

وكنت أرى بمشور السلطان ، حين مات ، المئين من الخدم اللاتي أتي بهنّ لدقّ الأرزّ المعمول منه الطعام لغير السلطان ، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس . ولـمّا دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضى ، فأقام بالمدينة ثلاثة أيام ، ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة الكفار ، وخرجت إليه في يوم خميس ، فأمر بإنزالي إلى جانب القاضي ، فلمّا ضُرِبت لي الأخبية رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم في بعض ، فمن قائل إن السلطان مات ، ومن قائل إن ولده هو الميت ، ثم تحقّقنا ذلك فكان الولد هو الميّت ، ولم يكن له سواه فكان موته ممّا زاد في مرضه .

وفي الخميس ، بعده ، توفيت أمّ السلطان ، وفي الخميس الثالث توفِّي السلطان غياث الدين وشعرت بذلك ، فبادرت الدخول إلى المدينة خوف الفتنة ، ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالي بعده خارجًا إلى المحلّة ، قد وُجّه عنه ، إذ ليس للسلطان ولد ، فطلبني بالرجوع معه فأبيت ، وأثّر ذلك في قلبه .

٥. رحلة ابن بطوطة إلى بلاد البنغال:

ثم وصلنا إلى بلاد بنجالة (البنغال) ، وهي بلاد مُتَّسعة كثيرة الأرزّ ، ولم أرَ في الدنيا أرخص أسعارًا منها لكنها مظلمة ، وأهل خراسان يسمونها «دوز خست بور نعمة» ، معناه «جهنّم ملأى بالنعم» . رأيت الأرزّ يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلاً دهلية بدينار فضي ، والدينار الفضي هو ثمانية دراهم ، ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء ، والرطل الدهلي عشرون رطلاً مغربية ، وسمعتهم يقولون إن ذلك غلاء عندهم . وحدّثني محمد المصمودي المغربي ، وكان من الصالحين ، وسكن هذا البلد قديمًا ، ومات عندي بدهلي ، أنه كانت له زوجة وخادم ، فكان يشتري قوت ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم ، وأنه كان يشتري الأرزّ في قشره بحساب ثمانين رطلاً دهلية بثمانية دراهم ، فإذا دقّه خرج منه خمسون رطلاً صافية ، وهي عشرة قناطير .

ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة وبقرهم الجواميس ، ورأيت

الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد ، وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم ، ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين ، ورطل السكّر بأربعة دراهم ، وهو رطل دهلي ، ورطل الجلاب بثمانية دراهم ، ورطل السمن بأربعة دراهم ، ورطل السيرج بدرهمين ، ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيّد الذي ذرعه ثلاثون ذراعًا يباع بدينارين ، ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد ، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربي ، واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمّى عاشورة ، وكان لها جمال بارع ، واشترى بعض أصحابي غلامًا صغير السن حسنًا ، اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب .

وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوان (شيتا كونك جنوب شرق دكا في خليج البنغال) ، وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم (المحيط الهندي) ، ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحجّ إليه الهنود ونهر الجون (جومنا) ويصبّان في البحر ، ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد للكنوتي . وسلطان بنجالة هو السلطان فخر الدين الملقّب بفخره سلطان فاضل محبّ في الغرباء وخصوصًا الفقراء والمتصوّفة ، وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن ، وهو الذي وَلِي ولده معز الدين الملك بدهلي فتوجه لقتاله ، والتقيا بالنهر وسمِّي لقاؤهما لقاء السعدين . . . وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بنجالة ، فأقام بها إلى أن توفّي ، وولي ابنه شمس الدين إلى أن توفّي ، فولي ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره ، وأخذ بهادور بور أسيرًا ثم أطلقه ابنه محمد لـمّا ملك ، على أن يقاسمه ملكه ، فنكث عليه ، فقاتله حتى قتله ، وولى على هذه البلاد صهرًا له ، فقتله العسكر ، واستولى على ملكها علي شاه ، وهو ، إذ ذاك ، ببلاد اللكنوتي .

فلمّا رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم خالف بسد كاوان وبلاد بنجالة ، واستقل بالملك ، واشتدّت الفتنة بينه وبين علي شاه ، فإذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد

اللكنوتي في البحر لقوّته فيه ، وإذا عادت الأيام التي لا مطر فيها أغار علي شاه على بنجالة في البرّ لقوّته فيه . وانتهى حبّ الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى أن جعل أحدهم نائبًا عنه في الملك بسد كاوان ، وكان يسمّى شيدا ، وخرج إلى قتال عدو له فخالف عليه شيدا ، وأراد الاستبداد بالملك وقتل ولدًا للسلطان فخر الدين ، لم يكن له ولد غيره ، فعلم بذلك فكَرّ عائدًا إلى حضرته ، ففرّ شيدا ومن اتَّبعه إلى مدينة سنركاوان (جنوب دكّا) ، وهي منيعة ، فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره ، فخاف أهلها على أنفسهم ، فقبضوا على شيدا ، وبعثوه إلى عسكر السلطان ، فكتبوا إليه بأمره ، فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه ، وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء ، ولـمّا دخلتُ سدكاوان لم أرَ سلطانها ولا لقيته لأنه مخالف على ملك الهند ، فخفت عاقبة ذلك .

وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو (جزء من ولاية أسام الهندية) وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر ، وهي جبال مُتَّسعة مُتَّصلة بالصين ، وتتّصل - أيضًا- ببلاد التبت حيث غزلان المسك ، وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ، ولهم قوّة على الخدمة ، والغلام منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم ، وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشتغال به . وكان قصدي بالمسير إلى هذه الجبال لقاء وليّ من الأولياء بها ، وهو الشيخ جلال الدين التبريزي . وهذا الشيخ من كبار الأولياء وأفراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة ، وهو من المعمَّرين .

أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد ، وكان بها حين قَتْله . وأخبرني أصحابه بعد هذه المدّة أنه مات وهو ابن مئة وخمسين ، وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر إلاّ بعد مواصلة عشر ، وكانت له بقرة يفطر على حليبها ، ويقوم الليل كله . وكان نحيف الجسم طُوالاً خفيف العارضين ، وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ، ولذلك أقام بينهم . أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد ، وأوصاهم بتقوى الله ، وقال لهم : إني أسافر عنكم غدًا إن شاء الله ، وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلاّ هو ، فلمّا صلّى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ،

ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرًا محفورًا عليه الكفن والحنوط ، فغلسوه ، وكفّنوه ، وصلّوا عليه ، ودفنوه به ، رحمه الله تعالى .

ولـمّا قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه ، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم سائح من المغرب ، فاستقبلوه ، وأنهم أتوا لذلك بأمر الشيخ . ولم يكن عنده علم من أمري ، وإنما كوشف به . وسرت معهم إلى الشيخ ، فوصلت زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها ، وأهل تلك البلاد ، من مسلم وكافر ، يقصدون زيارته ، ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون ، وأمّا الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر ، كما قدمناه . ولـمّا دخلت عليه قام إليّ وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري ، فأخبرته . قال لي : أنت مسافر العرب ، قال له مَن حضر من أصحابه : والعجم ، يا سيدنا ، فقال : والعجم ، فأكرموه . فاحتملوني إلى الزاوية ، وأضافوني ثلاثة أيام .

ولـمّا كان يوم دخولي إلى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتني ، وقلت في نفسي : ليت الشيخ أعطانيها ، فلمّا دخلت عليه للوداع قام إلى جانب الغار ، وجرد الفرجية ، وألبسنيها مع طاقية من رأسه ، ولبس مرقعة ، فأخبرني الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية ، وإنما لبسها عند قدومي ، وأنه قال لهم ، هذه الفرجية يطلبها المغربي ، ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها لأخينا برهان الدين الصاغرجي ، وهي له ، وبرسمه كانت . فلمّا أخبرني الفقراء بذلك قلت لهم ، قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه ، وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم .

وانصرفت عن الشيخ ، فاتّفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين وانتهيت إلى مدينة الخنسا ، فافترق منّي أصحابي لكثرة الزحام ، وكانت الفرجية عليّ ، فبينما أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم ، فوقع بصره عليّ ، فاستدعاني ، وأخذ بيدي ، وسألني عن مقدمي ، ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه ، فأردت الانفصال ، فمنعني ، وأدخلني على

السلطان ، فسألني عن سلاطين الإسلام ، فأجبته ، ونظر إلى الفرجية فاستحسنها ، فقال لي الوزير : جرّدها ، فلم يمكنّي خلاف ذلك ، فأخذها ، وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهّز ونفقة ، وتغيّر خاطري لذلك ، ثم تذكّرت قول الشيخ إنه يأخذها سلطان كافر ، فطال عجبي من ذلك .

ولـمّا كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق ، فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي ، فوجدته يقرأ ، والفرجية عليه بعينها ، فعجبت من ذلك ، وقلّبتها بيديّ ، فقال لي : لِمَ تقلّبها ، وأنت تعرفها؟ فقلت له : نعم ، هي التي أخذها مني سلطان الخنسا ، فقال لي : هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي ، وكتب إليّ أن الفرجية تصلك على يد فلان ، ثم أخرج لي الكتاب فقرأته ، وعجبت من صدق يقين الشيخ ، وأعلمته بأول الحكاية ، فقال لي : أخي جلال الدين أكبر من ذلك كله ، هو يتصرف بالكون ، وقد انتقل إلى رحمة الله ، ثم قال لي : بلغني أنه كان يصلّي الصبح كل يوم بمكة ، وأنه يحجّ كلّ عام لأنه كان يغيب عن الناس يومَيْ عرفة والعيد ، فلا يُعرف أين ذهب .

ولـمّا وادعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حبنق ، وهي من أكبر المدن وأحسنها ، يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو ، ويسمّى النهر الأزرق ، ويسافر فيه إلى بنجالة ، وبلاد اللكنوتي وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنةً ويسرة ، كما هي على نيل مصر ، وأهلها كفّار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك . وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يومًا بين القرى والبساتين ، فكنّا نمشي في سوق من الأسواق وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة ، وفي كل مركب منها طبل ، فإذا التقى المركبان ضَرَب كل واحد طبله ، وسلّم بعضهم على بعض ، وأمر السلطان فخر الدين المذكور ألاّ يؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول (ضريبة مرور) ، وأن يعطي الزاد لمن لا زاد له منهم ، وإذا وصل الفقير إلى مدينة أُعطِي نصف دينار .

٦. رحلة ابن بطوطة إلى سومطرة وجاوة:

.. وبعد خمسة عشر يومًا من سفرنا في النهر، وصلنا إلى مدينة سنركاوان .. ولمّا وصلناها، وجدنا بها جنكًا، يريد السفر إلى بلاد الجاوة (يرجّح أن ابن بطوطة يقصد سومطرة، أمّا جاوة فسيذكرها باسم مُل جاوة)، وبينهما أربعون يومًا، فركبنا في الجنك، ووصلنا بعد خمسة عشر يومًا إلى بلاد البرهنكار (جزر أندامان في بورما) الذين أفواههم كأفواه الكلاب، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكناهم في بيوت قصب مسقَّفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر، وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير، ورجالهم على مثل صورتنا إلاّ أن أفواههم كأفواه الكلاب، وأمّا نساؤهم فلسن كذلك، ولهنّ جمال بارع، ورجالهم عرايا لا يستترون إلاّ أن الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعبة من القصب منقوشة معلَّقة من بطنه، ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر.

ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون في حارة على حدة، خبّرونا أنهم يتناكحون كالبهائم، لا يستترون بذلك، ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه، وأنهم لا يزنون، وإذا زنا رجل منهم فحدّ الرجل أن يُصلَب حتى يموت، أو يأتي صاحبه أو عبده، فيُصلَب عوضًا منه، ويُسرّح هو، وحدّ المرأة أن يأمر السلطان جميع خدّامه فينكحونها واحدًا بعد واحد بحضرته حتى تموت، ويرمون بها في البحر، ولأجل ذلك لا يتركون أحدًا من أهل المراكب ينزل إليهم إلاّ إن كان من المقيمين عندهم، وإنما يبايعون الناس، ويشارونهم على الساحل، ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل، ولا يتركونهم لاستقائه خوفًا على نسائهم لأنهن يطمحن إلى الرجال الحسان. والفيلة كثيرة عندهم ولا يسعها أحد غير سلطانهم ثم يشتري منهم بالأثواب، ولهم كلام غريب لا يفقهه إلاّ من ساكنهم، وأكثر التردّد إليهم.

ولـمّا وصلنا إلى ساحلهم أتَوا إلينا في قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة، وجاؤوا بالموز والأرزّ والتنبول والفوفل والسمك. وأتى إلينا

سلطانهم راكبًا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ، ولباس السلطان ثوب من جلود المعزى ، وقد جعل الوبر إلى خارج ، فوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات ، وفي يده حربة من القصب ، ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيَلة ، فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذيبه المهل ، وأثوابًا من بنجالة وهم لا يلبسونها إنما يكسونها الفيَلة في أيّام عيدهم ، ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلي ذهب تجعله زوجته في محزمها وأصابع رجليها ، ومَن لم يُعطِ هذه الوظيفة صنعوا له سحرًا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك .

واتّفق ، في ليلة من ليالي إقامتنا بمرساهم ، أن غلامًا لصاحب المركب ممّن تردد إلى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلاً ، وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل ، وعلم بذلك زوجها ، فجاء في جميع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به ، فحُملا إلى سلطانهم ، فأمر بالغلام فقُطِعت أنثياه وصُلب ، وأُمِر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت ، ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عمّا جرى ، وقال : إنّا لا نجد بدًا من إمضاء أحكامنا ، ووهب لصاحب المركب غلامًا عوض الغلام المصلوب .

ثم سافرنا عن هؤلاء ، وبعد خمسة وعشرين يومًا وصلنا إلى جزيرة الجاوة (في كانون الثاني/يناير١٣٤٦) وهي التي يُنسَب إليها اللبان الجاوي ، رأيناها على مسيرة نصف يوم ، وهي خضرة نضرة ، وأكثر أشجارها النارجيل ، والفوفل ، والقرنفل ، والعود الهندي ، والشكي ، والبركي ، والعنبة ، والجمون ، والنارنج الحلو ، وقصب الكافور ، وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك ، والكثير من أفاويه الطيب التي بها إنما هو ببلاد الكفّار منها ، وأمّا ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك . ولـمّا وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار ، ومعهم جوز النارجيل ، والموز ، والعنبة ، والسمك ، وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجّار فيكافئهم كل إنسان على قدره . وصعد إلينا أيضًا نائب صاحب البحر وشاهد مَن معنا من التجار ، وأذِن لنا في النزول إلى البر ، فنزلنا

إلى البندر ، وهي قرية كبيرة على ساحل البحر ، بها دور اسمها السرحي ، وبينها وبين البلد أربعة أميال . ثم كتب إلى بهروز نائب صحاب البحر إلى السلطان ، فعرّفه بقدومي ، فأمر الأمير دولسة بلقائي ، والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الأصبهاني وسواهم من الفقهاء ، فخرجوا لذلك ، وجاؤوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه ، فركبت ، وركب أصحابي .

ودخلنا إلى حضرة السلطان ، وهي مدينة سُمُطرة : مدينة حسنة كبيرة ، عليها سور خشب وأبراج خشب . وسلطان الجاوة هو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم شافعي المذهب محبّ في الفقهاء ، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة ، وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع ، يأتي إلى صلاة الجمعة ماشيًا على قدميه وأهل بلاده شافعية محبّون في الجهاد يخرجون معه تطوّعًا وهم غالبون على من يليهم من الكفّار ، والكفّار يعطونهم الجزية على الصلح .

ولـمّا قصدنا دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحًا مركوزة على جانبَي الطريق هي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبًا فنزلنا عندها ، ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان ، وهو يسمّى عمدة الملك ، فقام إلينا وسلم علينا ، وسلامهم بالمصافحة ، وقعدنا معه ، وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان ، فأتاه الجواب على ظهرها ، ثم جاء أحد ببقشة ، والبقشة هي السبنية ، فأخذها النائب بيده ، وأخذ بيدي وأدخلني إلى دويرة يسمّونها فردخانة ، وهي موضع راحته بالنهار فإن العادة أن يأتي نائب السلطان إلى المشور بعد الصبح ولا ينصرف إلاّ بعد العشاء الآخر ، وكذلك الوزراء والأمراء الكبار ، وأخرج من البقشة ثلاث فوط إحداها من خالص الحرير ، والأخرى حرير وقطن ، والأخرى حرير وكتان ، وأخرج ثلاثة أثواب يسمّونها التحتانيات من جنس الفوط ، وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس تسمّى الوسطانيات ، وأخرج ثلاثة أثواب من الأرمك أحدها أبيض ، وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوضًا عن السراويل على عادتهم ، وثوبًا من كلّ جنس ، وأخذ أصحابي ما بقي منها ، ثم جاؤوا بالطعام أكثره الأرزّ ثم

أتَوا بنوع من الفقاع ، ثم أتَوا بالتنبول ، وهو علامة الانصراف ، فأخذناه وقمنا ، وقام النائب لقيامنا .

وخرجنا عن المشور ، فركبنا وركب النائب معنا ، وأتوا بنا إلى بستان ، عليه حائط خشب ، وفي وسطه دار ، بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمّونها المخملات ، ومنها مصبوغ وغير مصبوغ ، وفي البيت أسرّة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت ، فجلسنا بالدار ومعنا النائب ، ثم جاء الأمير دولسة بجاريتين وخادمين ، وقال لي : يقول لك السلطان هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد ، ثم خرج النائب وبقي الأمير دولسة عندي ، وكانت بيني وبينه معرفة لأنه كان وَرَد رسولاً على السلطان بدهلي ، فقلت له : متى تكون رؤية السلطان؟ فقال لي : إن العادة عندنا ألاّ يسلّم القادم على السلطان إلاّ بعد ثلاث ، ليذهب عنه تعب السفر ، ويثوب إليه ذهنه ، فأقمنا ثلاثة أيام يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم ، وتأتينا الفواكه والطرف مساءً وصباحًا ، فلمّا كان اليوم الرابع ، وهو يوم الجمعة أتاني الأمير دولسة ، فقال لي : يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع ، بعد الصلاة .

فأتيت المسجد وصلّيت به الجمعة مع حاجبه قيران ، ثم دخلت إلى السلطان فوجدت القاضي أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله فصافحني ، وسلّمت عليه وأجلسني عن يساره ، وسألني عن السلطان محمد ، وعن أسفاري فأجبته ، وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي ، ولم يزل كذلك إلى العصر ، فلمّا صلاها دخل بيتًا هنالك ، فنزع الثياب التي كانت عليه ، وهي ثياب الفقهاء ، وبها يأتي الجامع يوم الجمعة ماشيًا ، ثم لبس ثياب الملك وهي الأقبية من الحرير والقطن ، ولـمّا خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل على بابه . والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل ، وإذا ركب الفرس ركبوا الفيَلة ، ويكون أهل العلم عن يمينه ، فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور ، فنزلنا حيث العادة ودخل

السلطان راكبًا ، وقد اصطفّ في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ، ووجوه العسكر صفوفًا ، فأول الصفوف صفّ الوزراء والكتّاب . ووزراؤه أربعة فسلّموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ثم صف الأمراء فسلّموا ومضَوا إلى مواقفهم ، وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صفّ وجوه العسكر ، ثم صفّ الفتيان والمماليك .

ووقف السلطان على فيله إزاء قبّة الجلوس ، ورُفع فوق رأسه شطر مرصّع ، وجُعل عن يمينه خمسون فيلاً مزينة وعن شماله مثلها ، وعن يمينه أيضًا مئة فرس ، وعن شماله مثلها ، وهي خيل النوبة ، ووقف بين يديه خواصّ الحجاب ، ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه ، وأتي بخيل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة ، فرقصت الخيل بين يديه ، فعجبتُ من شأنها ، وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند . ولـمّا كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره ، وانصرف الناس إلى منازلهم . وكان له ابن أخ متزوج ببنته فولاّه بعض البلاد ، وكان الفتى يتعشّق بنتًا لبعض الأمراء ، ويريد تزوُّجها ، والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس ، أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بدَّ أن يستأمر للسلطان في شأنها ، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها ، فإن أعجبته صفتها تزوّجها وإلا تركها يزوِّجها أولياؤها ممّن يشاؤون ، والناس هنالك يرغبون في تزوُّج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف .

ولـمّا استأمر والد البنت التي تعشّقها ابن أخي السلطان بعث السلطان من نظر إليها وتزوَّجها ، واشتدّ شغف الفتى بها ولم يجد سبيلاً إليها ، ثم إن السلطان خرج إلى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة شهر ، فخالفه ابن أخيه إلى سمطرة ، ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ ، وادّعى الـمُلك وبايعه بعض الناس ، وامتنع آخرون ، وعلم عمه بذلك ؛ فقفل عائدًا إليها ، فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر ، وأخذ الجارية التي تعشّقها ، وقصد بلاد الكفّار بمُل جاوة ، ولهذا بنى عمه السور على سمطرة . وكانت إقامتي عنده بسمطرة

خمسة عشر يومًا . ثم طلبت منه السفر إذا كان أوانه ، إذ لا يتهيّأ السفر إلى الصين في كلّ وقت ، فجهّز لنا جنكًا ، وزودنا ، وأحسن ، وأجمل ، جزاه الله خيرًا ، وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنك ، وسافرنا ، بطول بلاده ، إحدى وعشرين ليلة .

ثم وصلنا إلى مُل جاوة ، وهي بلاد الكفّار وطولها مسيرة شهرين وبها الأفاويه العطرة ، والعود الطيب القاقلي ، والقماري . وقاقلة ، وقمارة (كمبوديا) من بعض بلادها ، وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلاّ اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي ، وإنّما معظم ذلك بمُل جاوة . ولنذكر ما شاهدناه منها ، ووقفنا على أعيانه ، وحقّقناه . وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك ، وأغصانها كأغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق ، وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة ، واللبان صمغية تكون في أغصانها ، وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار ، وأمّا شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا إلاّ أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ، ويكون الكافور داخل الأنابيب فإذا كسرت القصبة وجد في داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور . والسرّ العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصب حتى يُذبَح ، عند أصولها شيء من الحيوان وإلا لم يتكوّن شيء منه ، والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمّى عندهم الحردالة هو الذي يُذبَح عند قصبة الآدمي ، ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار .

وأمّا العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلاّ أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعروقه طويلة ممتدة ، وفيها الرائحة العطرة ، وأمّا عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها ، وكل ما ببلاد الإسلام من شجره فهو متملَّك ، وأمّا الذي في بلاد الكفّار فأكثره غير متملك منه ما كان بقاقلة ، وهو أطيب العود ، وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ، ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب . ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع ، وأمّا العطاس فإنه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهرًا فتبقى فيه قوته ، وهو من

أعجب أنواعه . وأمّا أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة ، وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام ، وليست بمتملّكة ، لكثرتها ، والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان والذي يسمّيه أهل بلادنا نوار القرنفل هو الذي يسقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النارنج ، وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب ، والزهر المتكوّن فيها هو البساسة . رأيت ذلك كلّه ، وشاهدته .

ووصلنا إلى مرسى قاقلة ، فوجدنا به جملة من الجنوك مُعَدّ للسرقة ، ولمن يستعصي عليهم من الجنوك فإن لهم على كلّ جنك وظيفة ، ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقلة ، وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة ، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة . وأول ما رأيت ، بخارجها ، الفيلة عليها الأحمال من العود الهندي ، يوقدونه في بيوتهم ، وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنًا ، هذا إذا ابتاعوا فيما بينهم ، وأمّا التجار فيبيعونه الحمل منه بثوب من ثياب القطن ، وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير . والفيلة بها كثيرة جداً عليها يركبون ويحملون ، وكل إنسان يربط فيله على بابه ، وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده ، يركبه إلى داره ، وكذلك ، جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب .

وسلطان مُل جاوة كافر ، رأيته خارج قصره جالسًا على قبّة ، ليس بينه وبين الأرض بساط ، ومعه أرباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك إلاّ عند السلطان ، وإنّما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون ، فعرف شأني ، فاستدعاني ، فجئت ، وقلت : السلام على من اتَّبَع الهدى ، فلم يفقهوا إلاّ لفظ السلام ، فرحَّب بي وأمر أن يُفرَش لي ثوب أقعد عليه ، فقلت للترجمان : كيف أجلس على الثوب ، والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال : هكذا عادته ؛ يقعد على الأرض تواضعًا ، وأنت ضيف ، وجئت من عند سلطان كبير ، فيجب إكرامك ، فجلست ، وسألني عن السلطان ، فأوجز في سؤاله ، وقال لي : تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام ، وحينئذ يكون انصرافك .

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المِسعر قد

وضعه على رقبة نفسه ، وتكلّم بكلام كثير لم أفهمه ، ثم أمسك السكّين بيديه معًا ، وقطع عنق نفسه ، فوقع رأسه لحدّة السكّين وشدة إمساكه بالأرض ، فعجبتُ من شأنه . وقال لي السلطان : أيفعل أحد هذا عندكم؟ فقلت له : ما رأيت هذا قَطّ ، فضحك وقال : هؤلاء عبيدنا : يقتلون أنفسهم في محبّتنا ، وأمر به فرُفع ، وأُحرِق ، وخرج لإحراقه النوّاب ، وأرباب الدولة والعساكر والرعايا ، وأجرى الرزق الواسع على أولاده ، وأهله ، وإخوانه ، وعُظِّموا لأجل فعله . وأخبرني من كان حاضرًا في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلَّم به كان تقريرًا لمحبَّته في السلطان ، وأنه يقتل نفسه في حبّه كما قتل أبوه نفسه في حبّ أبيه ، وجدّه نفسه في حبّ جدّه ، ثم انصرفت عن المجلس ، وبعث إليّ بضيافة ثلاثة أيام .

الفصل الخامس

مزيج أسود وموروث إغريقي

١. سرّ جذّاب:

قَصَد الرحّالة والجغرافيون بالسودان ، أرضَ العِرق الأسود في إفريقية ، ولكنّهم فرّقوا ، في الدرجة ، بين الزنوج ، والسودانيين ، والأحباش ، والنوبيّين . وهو تفريق جغرافي تخطّى المكونات الثقافية ، ولم يعبأ بها إلاّ في حدود ضيقة جداً . وجرى تحديد مواقع استيطانهم في الأرض الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء بامتداد شبه مستقيم بدأ من الحبشة شرقًا ، وانتهى بضفاف المحيط الأطلسي غربًا . وكانت الأقوام المتساكنة حول خطّ الاستواء هي مثار عناية كثير من الرحّالة والجغرافيين . واستند التفريق بين السود إلى المناطق الموزّعين عليها أكثر ما استند إلى الخصائص المميّزة لكلّ جماعة بشرية من الجماعات التي تناثرت في العمق الإفريقي . وقد نُظر إلى العرق الأسود على أنه كتلة تفتقر إلى التمايز الطبيعي ، فكلّما عمَّ جهل بالآخر غابت التفاصيل الدقيقة ، وتحوّل الحديث إلى سلسلة من الأحكام المستندة إلى نسيج من المرويّات العجائبية .

وقصد الرحّالة والجغرافيون ، بالزنوج ، تلك الأقوام التي تعيش في الأجزاء الشرقية من إفريقية حول خطّ الاستواء وما خلفه ، وهي المناطق التي يُصطلَح عليها ، في الأدبيات الجغرافية ، بالزنج ، أو سُفالة ، وأحيانًا ، سفالة الزنج ، وفيها يقع بحر الزنج الذي يفصل بين البرّ الإفريقي وجزر القُمر . وكانوا يتصوّرون أن إفريقية تنتهي هناك . أمّا بلاد السودان ، فتمتدّ من غرب النيل إلى المحيط الأطلسي جوار خطّ الاستواء ، وشمال خليج غينيا ، فيما يشار إلى المناطق شرق النيل بالحبشة ، ويقصد بها النتوء الضخم من اليابسة المندفع شرقًا ، وهو القرن الإفريقي . ويجري الحديث عن النوبة الواقعة بين الحبشة ، وبلاد السودان ، وبلاد الزنج . وباستثناء مناطق شمال الصحراء ، فقدَ التمايز حدوده الواضحة ، فتداخلت المناطق بسبب غياب التخوم .

أظهرت المرويّات السرديّة التكرارية العرق الأسود مستوطنًا ممالك كثيرة ، وتوافرت معلومات جيدة عن تلك الواقعة في شرقي إفريقية وغربيها ، على أنه من الصعب الوثوق بالمعلومات حول الأقوام الساكنة في بلاد الزنج . ويؤكد «أندريه ميكيل» أن إفريقية بقيت سراً خفيًا طوال العصور القديمة ، إلاّ أنه كان سراً جذّابًا استمال ، في الحد الأدنى ، الذين أرادوا الاتّجار بالذهب ، أو العاج ، أو الرقيق ، أو الحيوانات المتوحشة . وعندما ترسّخت دار الإسلام ، ورثت شكوك التقليد القديم : المدوّن ، والمروي ، عن إفريقية ، فالمعلومات المتوارثة عنها زمنًا طويلاً ، أرضًا وبشرًا ، صاغها ، في الأصل ، بطليموس الذي رسم صورة ممتزجة بالخيال عن تلك البلاد ، ثم جالينوس الذي وصف سمات العرق الأسود ، على نحو يفتقر إلى الأصالة[١] .

دارت معظم التصوُّرات ، والتخيُّلات ، في أدب الرحلة ، حول إفريقية السوداء ، بالإطار الذي سنّه بطليموس ، وجالينوس ، وأبقراط ؛ فالأصول تمارس نفوذاً بالغًا في قوّتها إذا لم يقع تصحيح لركائزها ، ونقد لمسلّماتها . لقد ورث الجغرافيون والرحّالة العرب تركة من الصور النمطية ، فأعادوا بعثها في المظانّ الجغرافية ، ومدوّنات الارتحال ، وهي بالغة التشويه ، حجزت الجنس الأسود وراء حركة التاريخ ، وظلت توجّه مواقف بعض المفكِّرين إلى وقت قريب ، نجد ذلك بوضوح في الفكر الغربي الحديث الذي نظر إلى الجنس الأسود نظرة مشوبة باحتقار ودونيّة ، ومن ذلك هيغل الذي قدَّم تصورًا انتقاصيًا اتضحت فيه بصمات جالينوس فيما يخصّ حديثه عن الإفريقيين السود ، الذين وجدهم يرقدون وراء التاريخ ، ويلفّ بلادهم حجاب الليل الأسود[٢] . إذ أعاد هيغل ونخبة من المفكّرين ، في العصر الحديث بعث الصورة القديمة التي تركّبت في

---

(١) أندريه ميكيل ، جغرافية دار الإسلام البشرية ، ترجمة : إبراهيم خوري ، دمشق ، وزارة الثقافة ١٩٨٥ ، ج ، ص١٨٣ .

(٢) هيغل ، العقل في التاريخ ، ترجمة : إمام عبد الفتاح إمام ، القاهرة ، دار الثقافة ، ١٩٨٦ ، ص١٧٢ .

ضباب الجهل ، دون أية محاولة للتصحيح كجزء من نظرة الغرب إلى الآخر ، وكنّا قدّمنا نقدًا موسّعًا لتلك الصورة المعبرة عن رغبة أكثر من كونها معبّرة عن واقع مدعم بمعطيات حقيقية[1] .

ولم ينج معظم المؤرِّخين والرحّالة المسلمين من الطوق المحكم الذي قُيّدتْ به إفريقية السوداء من قبل . على أن الموجّه اليوناني القديم ، الكامن في الأدبيات الجغرافية ، الذي عرف وشاع فيها منذ وقت مبكر ، وبخاصة إثر الترجمات المتكررة لجهود بطليموس في هذا المجال ، لم يكن ليكتسب هذه الأهمّيّة التأصيلية في تثبيت صورة السود في مرويّات الرحلة العربية ، لو لم يجد قبولاً بدئيًا مرتبطًا بالموقف من الآخر ، فقد ركّب السرد لهم صورة ، أبعدتهم فيها عن الأفق العامّ لنسق القيم الإسلامية ، ذلك الأفق الذي يضفي على الإنسان قيمته ، بوصفه منتميًا إلى دار الحقّ والصواب والإيمان ، إلى ذلك فصورة السود كانت مثار تشويه بسبب وجودهم المهمّش في دار الإسلام ، وخضوعهم لمقايضة ، حالت دون معرفة بعدهم الإنساني الطبيعي .

ظهر التمايز القائم على المفاضلة بأفضل أشكاله في التصوُّر المشوَّش للسود ، ولم يجرِ تعديل ذلك ، فدعّم التصوُّر اليوناني برغبة ، مبعثها الجهل والاختلاف ، وهو اختلاف ، فُهِم على أنه تناقض لا يُحتَمَل ، لم يقتصر على اللون والسلوك والشكل ، إنما تعدّاه إلى نظام القيم ، والأخلاق ، والدين .

٢. البحث عن رحّالة مجهول:

تحدّث ابن سعيد المغربي عن «المعمور خلف خطّ الاستواء إلى الجنوب» قاصدًا بذلك بلاد الزنج . وفي كل ما كُتِب حلّ الحكم محلّ الوصف ، واستبدال حكم القيمة بالوصف ينتهي إمّا إلى الانتقاص ، أو إلى الاحتفاء ،

---

(١) المركزية الغربية ، بيروت ، ص٢٢٩-٢٧٥ .

فبلاد الزنج ، بالنسبة إليه ، هي بلاد «العراة المهملين كالبهائم»[1] . نقل ابن سعيد مشاهدات عيانية عن ابن فاطمة الذي عدّه المصدر الرئيس لمرويّاته . ولا تتوافر عنه معلومات محقّقة ، لكن مرويّاته شكّلت العمود الفقري لكتاب «الجغرافيا» عن معظم ما ورد فيه عن إفريقية .

ويمكن تتبُّع مسار هذا الرحّالة الذي ما زال مجهول الهوية في إفريقية من فصول كتاب ابن سعيد ، ويحتاج ابن فاطمة إلى تحقيق يكشف شخصيته ، ومدوَّناته ، فهو ينتسب لأمّه كما هو شأن ابن بطوطة ، سوى أن الأخير استخدم إحدى صيغ التحبُّب الشائعة في المغرب لاسم فاطمة ، على أنه عاش قبل نظيره الطنجي بأكثر من قرن من الزمان ، فقد توفي ابن سعيد قبل ابن بطوطة بنحو تسعين عامًا . والغالب أنه تجوّل في وسط إفريقية وفي غربيها ، بما في ذلك المناطق الساحلية المأهولة ، ومعلوماته ثمينة ، ويوثّق مشاهداته ، ولكنه حينما يكون راويًا من الدرجة الثانية -أي يروي عن مصدر آخر- فإنه ينسب مرويّاته إلى مصادر فيها شيء من العمومية ، بما يحول دون التحقّق من مصداقيتها ، وهذا أمر معروف في التمثيل السرديّ القائم على الرغبة ، والمعلومات الشفوية .

أفضى دمج مرويّات ابن فاطمة بأحكام ابن سعيد إلى نوع ظاهر من الخلط بين المعرفة والحكم ، ويصعب بيان الحدود الفاصلة بينهما ، فعيوب التأليف القديم ، ومنها حشر النصوص المتحدّرة من مصادر مختلفة في سياق جديد ، تحول دون معرفة الوثائق الأصلية من السياقات التي اصطنعها الجغرافيون والرحّالة ، وهو أمر لا تتفرّد به المصادر الخاصّة بإفريقية إنما هو ظاهرة عامّة . أمّا فيما يتعلّق بابن سعيد نفسه فقد مرّ القول بأنه كان يأخذ من مصادر يفتقر بعضها إلى الدقّة كما رأينا ذلك في وصفه لبلاد الشمال ، إلى ذلك فالمصادر الأولى غالبًا ما نظر إليها بكثير من التبجيل والأهمّيّة ، وهي تصبح بمرور الزمن ذخيرة للتصوُّرات المتأخّرة دون النظر إلى قيمتها العلمية ، وهو أمر شائع في

---

(١) الجغرافيا ، ص ٧٩ .

الأدب الجغرافي ، وفي غيره من المجالات ، ولم ينهض نقد جذري للمصادر القديمة إلاّ في حدود ضئيلة ، لم تنجح في تغيير التصوُّرات .

إذا اخترنا ابن سعيد مثالاً للحديث عن إفريقية ، فإنّ المصدر الأوّل له شبه مجهول ، ويصعب التحقق من وجود مدوّنة وصفية تُنسَب له . وعلى أية حال ليس هذا هو المهمّ بذاته ، إنما الأكثر أهمية هو أن الموروث الإغريقي حضر بقوّة ، لا تقل عن حضور مرويّات ابن فاطمة ، فالتصوُّرات اليونانية لعبت دورًا خطيرًا في حبس الإفريقيين السود ضمن إطار ضيّق يرشح بالانتقاص ، وهدر القيمة البشرية ، والتلاعب بالأوصاف ؛ بما أظهرهم كائنات ، ما زال اتّصالها بالرتبة الحيوانية أكثر قوّةً من الاتصال بالرتبة الإنسانية ، ولم ينجُ ابن سعيد من ذلك ، ولم ينجح الرحّالة في زحزحة تلك الصورة ، إن لم يكن معظمهم قد ارتحل في ضوئها .

أورد ابن سعيد ، على لسان ابن فاطمة ، وصفًا للمناطق الواقعة على مشارف خطّ الاستواء ، من الجانبين ، بالصورة الآتية : ولم أرَ مَنْ رأى جانبها ، وإنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناه بالجانب الشمالي ، ويحدق بها من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس ، ولا دين يذكّرهم بسكان الجانب الشمالي[١] . تحدث ابن فاطمة عن بلاد تقع في الوسط الغربي لإفريقية ، لكن صدى أخبار الزنج بلغها باعتبارهم عراة وثنيين كالبهائم ، ومن أكلة لحوم البشر ، وهي صورة شديدة الشبه بالصورة التي قدّمها هيغل عنهم بِحساب أن أكل لحوم البشر «يتّفق تمامًا مع المبادئ العامّة للجنس الإفريقي . فاللحم البشري عند الزنجي الشهواني ليس إلاّ موضوعًا حسّيًا ، إنه مجرّد لحم ، فحسب» . وسبب ذلك في رأيه ، أن «المشاعر الأخلاقية عند الزنوج ضعيفة للغاية أو هي معدومة ، إن شئنا الدقة»[٢] .

---

(١) الجغرافيا ، ص ٩٤ .

(٢) محاضرات في فلسفة التاريخ ، ج١ ، ص ١٧٨ .

تصلح مرويّات ابن فاطمة ومشاهداته ، فيما يخصّ الإفريقيين السود- وهي تعرض من خلال خطاب ابن سعيد- أن تكون مثالاً لنوع التحيّز الشائع في المرويّات الجغرافية والتاريخية ، فخطابه يتضمّن أدلّة على ذلك التحيّز ، فهو ، من جهة ، يؤكّد أن خط الاستواء يفصل بين كتلتين من الكائنات : كتلة أولى إلى الشمال منه ، زارها ووقف على أحوالها ، وهي ملحقة بدار الإسلام ، وربما ينطبق عليها مصطلح «دار الصلح» . ولم يهتم بشيء فيها سوى الحيوانات ، وهم الكانميون وما جاورهم . وكتلة أخرى تقع جنوبه ، لم يزرها ، وينطبق عليها مصطلح «دار الحرب» . واكتفى بمرويّات الكانميين عنها ، بوصفها مزيجًا هلاميًا من الكفرة الذين يأكلون الناس . كون السود جنوب خط الاستواء كفرة من أكلة لحوم البشر ، يعني أنهم كالوحوش الذين لم يرتقوا ، بعد ، إلى رتبة النوع الإنساني الذي يميزه عن غيره العَزوفِ عن أكل لحم أخيه في النوع ، إقرارًا بكرامته البشرية ، إلى ذلك فهُم بدونيّتهم تلك أقل من أن يستودعهم الله كلمته ، إنهم يتخبّطون في خضم فوضى النوع والجهل الوثني . الاتصال البدائي بالجنس والدين ينبغي أن يُشهر ، وألاّ يجري أيّ نوع من التواطؤ على إخفائه ، ولهذا يأتي تأكيد ابن فاطمة على أنهم كفرة يأكلون الناس .

٣. صور تكرارية:

ما دامت الصور الذهنية للآخر تتشكَّل في سياق متضامن من القيم الدينية والقيم الأخلاقية ، فلا يمكن تعديلها إلاّ بنقد نظام القيم نفسه . وفي جميع الأحوال ليست المعرفة وحدها هي التي تضفي تقديرًا على الآخر ، ولا الجهل بذاته هو الذي يحبسه في نمط دوني ، إنما الرغبة الواعية والرغبة غير الواعية في تحديد مكانة الآخر دون المكانة التي تكون عليه الذات ، وتمثّل هذه الرغبة ضربًا من القوة المتنامية داخل سياق ثقافي مشبع بالتمركز حول الذات ، وهي ليست رغبة فرد ، إنما تخيّل كلّي يوجّه مشاعر الجماعة ، فيشطر تصوُّراتها إلى شطرين ، ففيما يخصّ الذات يقع احتفاء بكل أفعالها ، وإغفال لكل ما يجرح نسقها

الثقافي العامّ ، فتتركّز مع الزمن ، للذات ، صورة نقية استعلائية ، شفافة . أمّا الآخر بفعل تلك القوّة ، فيصبح مرمى للرذائل ، والخصال الذميمة ، فصورته لا تغادر مستوى الدونيّة .

ذهب الدمشقي إلى أن الزنوج جنوب خط الاستواء ، في غالبيتهم ، متوحشون لا يدينون بدين ، ولا يكادون يفقهون قولاً ، وهم بالحيوان أشبه منهم بالناس[1] . وبذلك جارى ابن فاطمة ، فالعناصر المكوّنة للصورة مشتركة : غياب العقيدة ، والتوحُّش ، والجهل ، والبهيمية . وهذه العناصر التكرارية متلازمة لا انفكاك فيما بينها ؛ فالوحشية توضع في تعارض مع الدين ، وليس لنفس متوحِّشة أيّ استعداد لإدراك هذه القيمة الرفيعة . ومن يكن وحشيًا فهو بالضرورة في منأى عن أن تمسّ شغاف قلبه تلك القيمة الإلهية السامية ، وسيفضي ذلك إلى السقوط في هوّة المجهولية الأبدية ، حيث يحبس الزنجي في عالم البهائم المتوحّشة ، فلا يعرف الحقيقة المبهرة التي شعّت في دار الإسلام .

واستعار ابن خلدون ، في حديثه عن الشعوب الاستوائية ، العناصر الموروثة ذاتها ، فقال بأن ساكني الجزء الأول من الإقليم الأول ، كفار ، يكتوون في وجوههم ، وأصداغهم ، وليس وراءهم في الجنوب عُمران ، يرى الأناسي أقرب إلى الحيوان الأعجم من الناطق ، يسكنون الفيافي والكهوف ، ويأكلون العشب ، والحبوب غير مهيّأة ، وربما يأكل بعضهم بعضًا ، وليسوا في عداد البشر[2] . يُنتظر أن تندرج أحكام ابن خلدون في أفق أشمل ، تحدّدها ، فيما ينبغي ، فكرته عن العُمران البشري ، وهي فكرة أقامها في الأصل على نقد الموروث الذي تحدّر إليه من الأسلاف ، لكن من الواضح أنها افتقرت إلى كل ذلك ، ولم تستفد من محدّدات فكرته عن المسار الحضاري للإنسان ، بل هي خارجة عن ذلك النقد ، وجاءت خليطًا من آراء الإغريق ، ومرويّات تجّار الرقيق ، والرغبات القيمية

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بغداد ، ص٢٤١ .

(٢) المقدّمة ، ص٦٣ .

الدفينة ، ولا تحرص على أن تكون متّسقة الجوهر ، بل إنها تضرب الرؤية النقدية لابن خلدون في الصميم .

لا يتحدّث ابن خلدون عن أقوام مجهولة في عصره ، خلال القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، إنما تحدّث عن سكان الإقليم الأول في وقت متأخّر جدًا عن أسلافه . ومن المؤكّد أن سيلاً من المعلومات : الجغرافية ، والبشرية ، قد تراكم عنهم طوال القرون التي سبقته ، إذ تحدث الجغرافيون والرحّالة كثيرًا عن تلك البلاد من قبل ، ولكن كلّ ذلك لم يجرِ التنقيب فيه بدرجة تثير الاهتمام ، وتحقّق الهدف الذي يتسق مع منهج ابن خلدون حول تنقية المرويّات ، وفحصها ، ونقدها ، ناهيك عن تنقيتها من شوائب الرغبات ، وتصفيتها من التحيّزات العشوائية . وفي الوقت الذي يشير فيه ابن خلدون إلى وجود العُمران لديهم ، لأنه غير موجود عند من يليهم صوب الجنوب ، كما يرى ، فإنه ينكر ذلك عليهم ، ويراهم حيوانات ضالّة تهيم في الصحاري والكهوف ، وتعتاش على الأعشاب ، ولا تعرف الزراعة ، ويأكل بعضها بعضًا .

صدر ابن خلدون عن تصوُّر اجتماعي فسّرَ به التاريخ ، لكنه لم يستطع مقاومة ضغط التركة الثقيلة التي ورثها عن الآخرين ، ولا عن التصورات العامّة التي صاغت منظوره للآخر ، فضلاً عن استبداد المؤثّر اليوناني به وبغيره . لو دقّقنا النظر في وصف ابن خلدون لوجدناه أشدّ تعقيدًا من وصف الدمشقي ، فهو يكوّن متوالية يتضاعف فيها التبخيس كلّما انتقلنا من عنصر من عناصر الوصف إلى آخر . تكون البداية التأسيسية في تحديد المكان الذي هو الإقليم الأول . هذا التحديد بحَدّ ذاته يفرض تداعيًا للموروث الوصفي الخاصّ بأهل هذا الإقليم ، موروث يرجع إلى بطليموس ، وهو تصوّر ، دُعِّم طوال القرون التي سبقت ابن خلدون ، إلى درجة تحوّل فيها إلى كتلة صماء تبلورت فروضها عبر مشاهدات مختزلة ، وأفكار مسبّقة ، ومرويّات من الدرجة الثانية أو الثالثة .

هذا العنصر سيرسم ملامح حكم عقائدي بالغ الصعوبة : إنهم كفار لم يهتدوا إلى طريق الحقّ ، وهذا يضعهم في درجة الحيوانية ، والحيوان هو الذي لا

سكن له ، ولا غذاء سوى الأعشاب ، وهو الذي لم يرتقِ بعد ليكتشف أهمية الحبوب ، فهذه الأقوام لا تعرف الزراعة التي هي مثال الاستقرار والاستيطان . وما دام الأمر على هذه الدرجة من البدائية ، فإن الحسّ الإنساني لم يتأهّل ، بعد في هذه النفوس ، وما زال دون رُتبة الصوغ التي تدرجه ضمن النوع البشري ، ويظهر بعد ذلك موضوع التوقّع بكامله : إنهم يفترس بعضهم بعضًا ، فَما هُم في عداد البشر .

ينبغي ، الآن ، وضع ابن خلدون بإزاء هيغل ، وكلاهما يرى الظواهر البشرية في سياق فلسفة التاريخ العامّ ، وذلك سوف يفضح عمق سوء الفهم المُدعَّم بجهل ، لا يمكن السكوت عليه ؛ فهيغل المتأخر بحوالي خمسة قرون يؤكد أن أكل لحوم البشر يتّفق مع مبادئ الجنس الأسود ، فاللحم البشري ، بالنسبة إليه- مجرّد لحم تغيب عنه صفة الإنسانية التي خلعتها عليه قيمة النوع البشري ، لأن المشاعر الأخلاقية عند الزنجي معدومة ، وهو غير مدرك نوع الخطيئة التي يقترفها!

ابن خلدون وهيغل هما مجرّد لحظتين في مسار تاريخ حافل بالأحكام المناظرة . بدأ ذلك ببطليموس ، واستمرّ إلى الآن ، وهي أحكام تصلّبت أركانها في ظلّ ثقافات تمركزت على ذاتها ، ونبذت حضور الآخر ، ومسخت قيمته الإنسانية ، وبالغت في إسقاط الصفات الدونيّة عليه ، لكي تضفي على نفسها نقاءً مغايرًا ، وشفافية ملفّقة في كثير من عناصرها ، فليس ثمّة عرق ، ولا نسق ثقافي ، مطلق الشفافية . وصمُ الآخر بالسوء والوحشية والدونيّة له وظيفة رمزية بالغة الأهمية ، وهي تنقية الأنا ، وتطهيرها ، وصونها ، والحيلولة دون أن تكون موضوعًا للبحث والنقد . هناك صراع في أنواع التمثيل بين الثقافات ، يؤدّي وظائف متعدِّدة ، تمثيل يهدف إلى صيانة القيم الخاصّة ، والذود عنها ، وإبعادها عن حكم القيمة ، وتمثيل يهدف إلى تخريب قيم الآخر بتضخيم نواقصه وسلبيّاته .

هذا بالنسبة إلى الجزء الأول من الإقليم الأول ، أمّا الجزء الثاني منه ،

فيتكفّل الإدريسي بوصفه : فيه أمم كثيرة ، سودان ، عراة ، لا يستترون بشيء ، وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حقّ . وهم أكثر الناس نسلاً ، ولهم إبل ، ومعز ، يعيشون من ألبانها ، ويأكلون الحيتان المَصِيدة ، ولحوم الإبل المقدّدة[1] . يستعيد الإدريسي الأوصاف الشائعة عن الإقليم الأوّل : العري ، الإباحية ، والاعتماد على الحيوان ، وليس ثمّة إشارة إلى الجهد البشري الذي يقوم به العُمران . تعوم مرّةً أخرى صورة الحيوانات بديلاً عن حضور البشر . هذه التفاصيل المتناثرة ذات المصادر المختلفة يأتي ، بعد ذلك ، من يقوم بجمعها وتعميمها ، ويجعل منها حقيقة ثقافية ، يصعب تكذيبها .

ويدمج الدمشقي كل المعطيات فيرسم الصورة الكاملة للحالة الإثنوغرافية في المناطق المحاذية لخط الاستواء شمالاً وجنوبًا ، وفي كلّ ذلك يظهر ولاء لا يخفى لنظرية الكيوف الطبيعية التي صاغت وعي معظم الجغرافيّين العرب من قبل . تحدّث الدمشقي عن المجال الذي تستوطنه الجماعات الاستوائية : فيه من الأمم ، الزنج ، والسودان ، والحبشة ، والنوبة ، ومثلهم ، وكل هؤلاء سود ، سوادهم من قبل الشمس ، فإنه لـمّا كان حرّها شديدًا ، وطلوعها عليهم ، ومسامتة رؤوسهم لها في السنة مرتين ، ولا تزال قريبة منهم ، أسخنتهم إسخانًا محرقًا ، وصارت شعورهم التي هي بالقصد من الطبيعة سوداء حالكة جعدة مفلفلة ، وأشبه شيء بشعر أدنيَ من النار حتى يشيط ، وأدلّ دليل على أنه متشيّط ؛ أنه لا ينمو ولا يطول . جلودهم زعرة ناعمة ؛ لتنقية الشمس أوساخ أبدانهم وإجذابها إياها إلى خارج ، وأدمغتهم قليلة الرطوبة لمثل ذلك ؛ فلذلك كانت عقولهم خسيفة ، وأفكارهم قصيرة ، وأذهانهم جامدة ، ولا يوجد منهم الشيء وضده كالأمانة ، والخيانة ، والوفاء ، والغدر .

ولم يوجد فيهم النواميس ، ولم يُبعث فيهم رسول ؛ لأنهم غير قادرين على الجمع بين الضدّين . والشرعية إنما هي أمر ونهي ، ورغبة ورهبة . فالخُلق الذي

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص٢٢ .

يوجد في غرائزهم قريب مّما يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها بالطبع ، من غير تعلُّم ، أُخرج ذلك الأمر منها ، من القوّة إلى الفعل ، كما توجد الشجاعة في الأسد ، والحِيَل في الذئب ، والخبث في الثعلب ، والجَزَع في الأرنب ، والملَق في الكلب ، والخَيَل في الفرس ، وليس يوجد في هذه الحيوانات أضداد هذه الأفعال . وطاعتهم لملوكهم وأكابرهم إنما هي لإقامة الأحكام فيهم والسياسات ، كما ترى ذلك في الوحوش(١) .

صياغة كلية بارعة للأوصاف والأحكام ، تدعم بأدلة علمية مستعارة من نظرية الكيوف الطبيعية ، ومعزّزة بأدلّة تستند إلى ملاحظات مشتقة من طبائع الحيوانات ، ومن تاريخ الأديان الأولى . وللبرهنة على هذه الدعوى ، يستعين الدمشقي بجالينوس الذي يقول : إن في الأسود عشر خصال ، لا توجد في غيره من البيض : تفلفل الشعر ، ودقّة الحاجبين ، وانتشار المنخرين ، وغلظ الشفتين ، وتحدُّد الأسنان ، ونتن الجلد ، وسوء الخُلق ، وتشقّق الأطراف ، وطول الذكر ، وكثرة الطرب . والخصيّ متى خُصِي صَلُب عظمه ، وعظمت رجلاه ، وقصرت بشرته ، وطالت فخذاه ، واعوجّت أصابع كفيه ، وأمن من السلع ، وفي أي سنٍّ كان من أسنان عمره خُصي انحفظ عليه حال ذلك السنّ من الأفعال السياسية ، والحيوانية ، والطبيعية ، مع رقّة صوته ، وتأنيث شمائله ، وشدّة اغتلامه . وسواء في ذلك الأسود والأبيض . ولكن الأبيض يسوء خلقه أكثر ، ويظهر عليه التأنيث بسرعة(٢) .

بيّن الدمشقي الكيفية التي تترتّب فيها جملة من الفروض التي يبدو الاتّساق فيما بينها قائمًا ، لكنها لا تصمد أمام النقد لأنها مزيج من تصوُّرات موروثة ، وأحكام مبنيّة على أوهام ، لا على ملاحظات ، فهي تصدر عن مبدأ الثبات الأبدي للطبع ، فالجنس الأسود جُبِل من سجايا قَبْلية لا يمكن تغيُّرها ،

---

(١) نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص : ١٧٣-١٧٤ .

(٢) م . ن ، ص :١٧٣ و١٧٤ .

إنها غير مكتسبة ، بل هي خاصّية ثابتة متوارثة في هذا الجنس . وبعبارة الدمشقي : فالخُلق الذي يوجد في غرائزهم قريب ممّا يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها بالطبع ، من غير تعلُّم ، وذلك كما يكون الحيوان مميّزًا بطبعه كالشجاعة في الأسد ، والحيلة في الذئب ، والخبث في الثعلب ، والجَزَع في الأرنب ، والملُق في الكلب ، والخيَل في الفرس ، وهذا إمعان في الخفض والدونيّة يستعين ببراهين في غير المجال الذي يصحّ الاستشهاد به . يضاف إلى ذلك حضور نزعة سحرية في التقويم مستمَدّة من جالينوس ، نصفها بالنزعة السحرية لأنها تعيد تكييف جملة من المكوّنات المنظورة لتأكيد نظرة أخلاقية ، فهي قريبة الشبه بالنزعة العلمية التي ظهرت في الفكر الغربي الحديث ، والتي استعانت بوسائل العلم لتأكيد تفوّق الجنس الأبيض ، خلال القرنين : الثامن عشر ، والتاسع عشر ، وقد ثبت بطلانها بعد أن تركت بصمات عميقة في تصوُّرات الغربيّين عن الأمم الأخرى .

ما قدّمه الدمشقي هو نوعٍ من التلاعب في إعادة ترتيب عناصر متعارضة ، تُدرَج في سياق يبدو منطقيًا لأنه يتذرَّع بنزعة علمية ، لكنه يتغيّا هدفًا أخلاقيًا ، ويبدو لنا أن هذا التصوّر عن الآخر كان مستبداً بنظام التفكير فيما يتصل بالإفريقيين السود ، ومثاله الأكثر وضوحًا كلٌّ من ابن خلدون ، والدمشقي ، وابن سعيد المغربي . وأورد المسعودي الخصائص التي أسقطها جالينوس على الجنس الأسود ، الخصائص التي أوردناها ، قبل قليل على لسان الدمشقي ، لكنه أضاف ما يُعَدّ مسلّمة غير قابلة للنقاش ، خاصّة بالزنوج : قال جالينوس : وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه ، فضعف لذلك عقله . وقد ذكر غير جالينوس في طرب السودان ، وغلبة الفرح عليهم ، وما خصّ به الزنج من ذلك دون سائر السودان في الإكثار من الطرب[1] .

---

(١) مروج الذهب ، ج١ ، ص ٨٣ .

٤. فوضى مشاعية:

ووصف الحسن الوزّان الفوضى الزنجية في المناطق الغربية من إفريقية، بطريقة بالغة القسوة، فقال: يسكن هذه البلاد كلّها قوم يعيشون كالبهائم، لا ملوك لهم ولا أمراء، ولا جمهوريات، ولا حكومات ولا عادات، يكادون لا يعرفون زرع الحبوب، ويلبسون جلود الغنم، وليس لأحد منهم امرأة خاصّة به، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض، ثم يجتمعون في الليل عشرة إلى اثني عشر رجلاً وامرأة في كوخ، ويضاجع كلّ واحد من تعجبه أكثر من غيرها، مرتاحين نائمين على جلود النعاج[١].

يصعب تقدير خطر هذه الفوضى المشاعية إلاّ بالمقارنة مع مجتمعات تنتمي إلى نسق مختلف من العلاقات، وتمتثل لمنظومة قيم مغايرة، فالمفاضلة مستترة، وإن كانت فاعلة، ضمنًا، في توجيه الاهتمام صوب هدف محدَّد: دونيّة الأسود المستغرق في حيوانيته، ووثنيته، وبدائيّته. يُكشف نقص الآخر من خلال تضخيم عيوبه، ووضعها في مستوى يقابل فضائل الأنا، فالفضائل تعبث بالرذائل في المنظومات الأخلاقية المختلفة. والصورة التي قدّمها الحسن الوزّان، عن الجهة الغربية من إفريقية، لها صورة مناظرة عن الجهة الشرقية. يقول الدمشقي: ومن طوائف السودان، الحبوش المقاربة لزغاوة، ويقال إنهم الحبشة العليا، وهم كفّار، عراة، ودينهم المجوسية، يعبدون الأوثان، ويسمّونها الدكاكير، ومن سنّتهم التي ينقادون إليها، ويعتمدون في الحكومة عليها أنهم إذا مات أحد دفنوا معه أقرب الناس إليه، وأشدّ حبًا له، وثيابه، وسلاحه[٢].

هذه الصورة في ثباتها يلزمها تعليل يفسِّرها، ويتقدّم ابن خلدون بذلك: قد رأينا من خلق السودان على العموم: الخفّة، والطيش، وكثرة الطرب، فتجدهم

---

(١) الوزّان، وصف إفريقية، ترجمة: محمد حجّي ومحمد الأخضر، الرباط، الجمعية المغربية، ص١٥٠-١٦٠.

(٢) نخبة الدهر، ص٢٦٩.

مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح، والسرور، هي انتشار الروح الحيواني، وتفشّيه، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه، وتقرّر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له زائدة في كميته، ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه، فيتفشى الروح، وتجيء طبيعة الفرح. وكذلك نجد المتنعّمين بالحمّامات إذا تنفسوا في هوائها، واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم، فتسخّنت لذلك، حدث لهم فرح، و-ربّما- انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور. ولمّا كان السودان ساكنين في الإقليم الحار، واستولى الحر على أمزجتهم، وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم، وإقليمهم، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حراً، وتكون أكثر تفشيًا، وتكون أسرع فرحًا وسرورًا، وأكثر انبساطًا. ويجيء الطيش على أثر هذه[1].

لو أنعمنا النظر مليًا لوجدنا أن ابن خلدون يعرض تشخيصًا أخلاقيًا بالغ الأهمية للإفريقيين السود. إن موضوعه هو (خلق السودان) وتشخيصه لذلك يترتّب في أربعة مظاهر أساسية، فهو يقدم، أولا، وصفًا لذلك الخلق، فلا يرى فيه سوى الخفّة، والطيش، والطرب، وهي أعراض مرضيّة شديدة الخطورة، ينبغي الحذر منها. وهذه الأعراض- ثانيًا- تتأدّى عنها تجلّيات خاصّة، هي بمثابة مظاهر تدلّ على تلك الأعراض، منها: الحمق في السلوك والتصرف، والانفعال الجسدي الفوضوي الذي يعبر عنه بالحركات العنيفة الراقصة. وثالثًا، لا بدَّ أن يكون هناك سبب لذلك، وهذا السبب، بحسب رأي ابن خلدون، هو انتشار الروح الحيواني في هذا الجنس؛ بسبب الحرارة.

وأخيرًا يأتي التفسير، فالحرارة تزيد في تمدُّد الهواء والبخار، فتحدث فراغًا

(١) مقدّمة ابن خلدون، ص٦٣.

في الروح ، وهذا يحدث انتشاءً ساراً يحول دون أي تفكير جدّي ، فليس للمنتشي ما يعبّر عنه ، انتشاؤه بحد ذاته متعة تحول بينه وبين التفكير الجادّ في أيّ شيء ، فالمخمور ينزلق تائهًا إلى متعة حسّية ، فينفلت طبعه الحيواني غير المنضبط بصورة فرح عارم . ولتأكيد هذا التفسير ، يضرب ابن خلدون مثلاً بالمستحمّين الذين يغنون لسخونة أرواحهم بسبب الهواء الحارّ الذي يحرّرهم من رقابة الروح الإنساني الكثيف والمنقبض ، فيتزايد لديهم الروح الحيواني المنفلت ، فيغنّون لذلك .

هذا هو التشخيص الكامل للمرض الخلقي الزنجي الذي يتقدَّم به ابن خلدون في «المقدّمة» ، ولكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد ، فهذه مجرد مقدمة وصفية ليس لها قيمة إن لم تبرّز أمام الأنظار من خلال المقارنة ، والمقارنة هي التي تفسر وظيفة الوصف التي تقدّم بها ابن خلدون بكاملها ، فإذا قارنا السود - بحسب وصف ابن خلدون بأهل الإقليم الرابع ، وهو النطاق الجغرافي الذي يمرّ في قلب دار الإسلام ، لتبين لنا ما يأتي : إن أهل الإقليم الرابع يتّصفون بكلّ ما يعارض أوصاف السود ، فلا خفّة ، ولا طيش ، ولا طرب ، ومن ثم ، لا حمق ، ولا انفعال ، ولا فوضى .

وتعليل ذلك شيوع الروح الإنساني في أهل هذا الإقليم ، وهم ، لكلّ ذلك ، مشغولون أبدًا في شأن الحياة بشكلها الأسمى ، وهدفها الأعظم ؛ لأن أرواحهم معتدلة ، وهادئة ، وهم أهل تأمُّل ، وتفكير ، ولهذا فيهم الشرائع ، ومنهم تُستقى القيم الكبرى . وضعُ الأمر بهذه الصورة ، وحسب هذه العناصر التي يتم التلاعب بها لصالح قيمة بشرية على حساب أخرى ، سيرسِّخ تصوّرًا يضخّ أحكامًا تحقيرية بحقّ الآخر . وفي النهاية ، يغلق تفسير ابن خلدون الدائرة على هذا الجنس ، ويلتقي بمقدّمة جالينوس المهيمنة على تفكير الجميع : ضعف العقل الأسود بسبب فساد الدماغ .

٥. رغبات، واستيهامات:

يقوم خطاب الرحلة نفسه بنقض موازٍ لهذا التمثيل ، حينما يكون الموضوع هو النساء . فقد نُظر إلى المرأة بوصفها موضوعًا للمتعة ، واللذّة ، والاستمتاع الحسي ، واختفى كلّ حديث عن الخلق ، والقيمة ، والدين ، والعقيدة ، وكلّ ما جرى ذكره عند كلّ من ابن خلدون ، والدمشقي ، والمسعودي . وشغل الإدريسي بنساء النوبة : فهن ذوات جمال فائق ، مختتنات ، ولهنّ أعراق طيِّبة ليست من أعراق السودان في شيء ، فيهن كمال المحاسن ، شفاههنّ رقاق ، وأفواههنّ صغار ، ومباسمهن بيض ، وشعورهن سبطة ، ولا أحسن للجماع منهنّ ، وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاث مئة دينار ، وأقل من ذلك ، ولهذه الخِلال التي فيهنّ يرغب ملوك أرض مصر فيهن ويتنافسون في أثمانهنّ ، ويتّخذونهن أمّهات أولادم ، لطيب متعتهنّ ، ونفاسة حسنهنّ[١] .

فجأةً ، تنقلب الصورة ، وتصبح النوبيّات من جنس آخر ، جنس هو مثار لرغبة متحفزة تُستثار ، فلا تدّخر وصفًا شهوانيًا إلاّ وتورده . تستعيد المرأة ، بصفاتها الجنسية المرغوبة ، قيمة الرجل المهدورة ؛ ففي الصراع بين قيم ثقافية ودينية مجرَّدة ، ورغبات جسدية استيهامية مكبوتة ، تكون الغلبة للرغبة . ويسهم البكري في دعم هذه المعطيات ، فهو يتحدّث عن السود بإطلاق ، لكنه يقصد جنس النساء ، والنوبيات على وجه التحديد اللواتي أغرين الإدريسي بوصف ، شذّ عن اهتماماته الجغرافية ، فالزنج أطيب الأمم أفواهًا لرطوبة أفواههم ، وكثرة الريق فيها ، ومن دخل بلاد الزنج فلا بدّ له أن يجرِّب[٢] .

ولكي تصبح التجربة موضوعًا شائقًا ينبغي إسنادها بما يوثّق تلك المرويّات لتكتسب مصداقية خاصّة بالنوبيّات . قال مجاهد : ومن النوبة النساء المعروفات

---

(١) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص :٣٠ و٣١ .

(٢) المسالك والممالك ، ص٣٢١ .

بالمقوّرات ، لا يقدر أحد على افتضاض أبكارهنّ ، ولا مباشرتهنّ ، حتى تفتق القوابل عن قُبلهنّ ، بقدر ما يحتاج الوطء . وهن أطيب النساء خلوةً ، فإذا حملت المرأة منهنّ ، وقرب الوضع ، زادت القوابل (في شقّ) ذلك المكان ، فإذا وضعت عادت تلك الزيادة بالأدوية حتى تلتئم . أخبرني بذلك جماعة من الثقات ، عن جماعة من النساء المجاورات لمكّة ، أنهن رأين ذلك وشاهدنه[1] .

وما إن نترك المرأة السوداء حتى تعود الأوصاف التقليدية ، وتستعيد الصورة الموروثة موقعها بسبب المؤثر الثقافي الراسخ في اللاوعي ، ويظهر في الأفق الأقوام الذين يأكلون الكلاب ويفضّلونها على الغنم ، ويأكلون الفأر . وثمّة أمّة من السودان لا رؤوس لها[2] . وفي أقاصي بلاد الحبشة قوم يمشون على أربع كالدواب ، لا تطول أعمارهم[3] .

٦ـ مدارات مغلقة:

انحبس وصف إفريقية في مدارات مغلقة ؛ فالحسن الوزان الذي عدّ من أهمّ المصادر العالمية الوسيطة عن إفريقية ، رتّب انطباعاته عن بعض الممالك السوداء في غرب إفريقية ، بالصورة الآتية : «زنفري» مسكونة من عدّة شعوب حقيرة بدائية ، ويكثر في البلاد الحبّ ، والأرزّ ، والدخن ، والقطن ، وأهل زنفرى طوال القامة ، لكنهم سود البشرة لدرجة لا توصف ، وجوههم وحشية طويلة ، وهم إلى البهائم أقرب منهم إلى الإنسان[4] .

أمّا «بورنو» الواقعة في الأراضي النيجيرية ، فيسير أهلها عراة في الصيف

---

(١) المسالك والممالك ، ص٣٢٤ .

(٢) الغرناطي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق إسماعيل العربي ، بيروت ، دار الجيل ، ص٤١ و٤٢ .

(٣) المسالك والممالك ، ص٣٢٨ .

(٤) وصف إفريقية ، ص١٧٤ .

بمآزر من جلد ، ويتدثّرون في الشتاء بجلود الغنم ، ويفترشونها كذلك . وهم بشر لا ديانة لهم ، لا نصرانية ، ولا يهودية ، ولا إسلامية ، بل لا إيمان لهم ، كالبهائم ، يشتركون في النساء والأولاد . وحسب ما سمعته من أحد التجّار كان يعيش في هذه البلاد ويفهم لغتهم ، ليس لهم أسماء خاصّة كما لغيرهم . فإذا كان شخص طويل القامة دُعِي بالطويل ، وإذا كان قصير القامة دعي بالقصير ، وإذا كان منحرف البصر دُعِي بالأحول . . . وهكذا دواليك ، بحسب الأعراض والخاصّيات(١) .

وتنبغي الإشارة إلى أن كلّ وصف لا يعتمد على مشاهدات مباشرة يكون عرضة للمبالغة ، فالمرويّات تستعيد صورًا مختلفة عمّا هي عليه في الأصل ، وكثيرًا من الأوصاف إنما استندت إلى مرويّات غير موثوق بها . ولقد تعرّض هيرودتس من قبل لنقد قاسٍ فيما يخصّ وصفه للشرق لأن كثيرًا من أخباره الوصفية استندت إلى مرويّات مضخّمة بعيدة عن الحقيقة إلى درجة ، اعتُبِر فيها ملفّق أخبار(٢) .

لا تبتعد إفريقية الشرقية كثيرًا عن ديار العرب ، ولا عن دار الإسلام ، وطرف منها يقع ضمن دار الصلح ، وهي مرتبطة بتجارة نشطة بين الخليج ومقديشو نزولاً إلى سفالة الزنج ، ولم تُنصَف في الوصف الخاصّ بالأعراق والعقائد والثقافات ، فالدمشقي عرض بعض المعلومات حول سكّان هذه المناطق : ومن طوائف السودان الزنج ، وهم الزاغوان ، والزغو من ولد قفط بن مصر ابن حام ، وهم صنفان قبلية وكنجوية ، فقبلية اسم للنمل وكنجوية اسم للكلاب ، ومدينتهم العظمى مقدشوا ، يأتيها التجّار من سائر الأمصار ، ولها ساحل يسمّى الزنجبار ، ولهم ممالك ، وهم قبائل ، وأكثرهم عراة ، وهم سباع بني

---

(١) وصف إفريقية ، ص١٧٦ .

(٢) عبدالله إبراهيم ، الثقافة العربية والمرجعيّات المستعارة ، بيروت ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٩٩ ، ص٢٠٦ و٢٠٧ .

آدم . ويقال إن مسافة أرضهم في الطول والعرض سبعمئة فرسخ ، وهي أودية ، وجبال ، وديس ، ورمال ، وهي متّصلة ببلاد دغوطة ، وساحل بحر جزيرة القمر المسمى البحر الجامد ، وفيه قبّة «أرين» التي هي وسط الوسط من خطّ الاستواء ، والزنوج الواغلون منهم في هذه النواحي محدَّدو الأسنان ، يأكلون الناس لشدّة توحُّشهم ، وليس للكفار منهم مِلّة ولا نِحْلة ؛ وإنما لهم رسوم تصنعها لهم ملوكهم ، واسم ملكهم الكبير توقليم ، معنى الاسم ابن الربّ ، وهذه التسمية لملكهم في سائر الأمصار ، والزنج الشماليون منهم لهم في لسانهم فصاحة وبلاغة حتى إنهم يصنعون الخطب ، يضمنونها المواعظ المبكية يخطبون بها في المحافل أيّام أعيادهم ومشاهدهم[١] .

تتصاعد من تضاعيف القدح إشارة لافتة للنظر ، فهذه القبائل الطوطمية التي تتّصل أنسابها بالنمل والكلاب ، وهؤلاء الزنوج الذين هم سباع بني آدم ، ودونهم الواغلون في تلك الأصقاع ، الكفار ، أكَلَة لحوم البشر ، الذين لا مِلّة لهم ولا نحلة ، يظهر فجأة ما يتميزون به بوصفهم بشرًا ، لهم قوانين وأعراف ، وملكهم إنما هو ابن الربّ ، ولهم لغة فصيحة يخطبون بها ، ولهم ، شأن غيرهم ، الأعياد والاحتفالات .

ليس من الممكن التوفيق بين الحكم الأول عليهم ، والوصف الثاني لهم ، فالأول قرّر أنهم دون مرتبة الجماعة البشرية ، فهم كتلة فوضوية من المتوحِّشين غير المترابطين في عقيدة أو دين ، والثاني انتقل بنا إلى وصف جماعة متماسكة بأعراف ، وقوانين ، ترسمها ملوكهم ، والملك بذاته يتحدّر عن الربّ ، إنه ابنه . ثمة إقرار لا يقبل اللبس بوجود رب ، والملك شأنه شأن الملوك القدامى يقوم بدورين ديني ودنيوي ، وهو متصل بقوة عليا يستمدّ منها قوته ومكانته ، ولكنه يقوم بمهمته الدنيوية في تشريع الرسوم لرعيته ، ولهم لسان بلغت فصاحته تدبيج الخطب المثيرة للانفعال في الاحتفالات الخاصّة بهم التي يُرَجَّح أنها أعياد

---

(١) نخبة الدهر ، ص٢٦٩ .

دينيـة ؛ فكيف تكون هذه الجماعات كـذلك دون أن تنتظم في نسق ثقافي أو ديني مميز لها؟

كلّ هذا يحتاج إلى تأكيد يكتسب قيمته من كونه يتّصل بالثقافة التي بَلْوَرت هذه التصوُّرات، ونستعير التأكيد، هذه المرة، من المسعودي: فأمّا تفسير اسم ملك الزنج- الذي هو وقليمي- فمعنى ذلك ابن الربّ الكبير؛ لأنه اختاره لملكهم، والعدل فيهم، فمتى جار الملك عليهم في حكمه، وحادَ على الحقّ قتلوه، وحرّموا عقبه الملك، ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذي هو ملك السموات والأرض. ويسمّون الخالق عز وجل «ملكنجلو»، وتفسيره «الربّ الكبير». والزنج أولو فصاحة في ألسنتهم، وفيهم خطباء بلغتهم، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم، ويرغّبهم في القرب من بارئهم، ويبعثهم على طاعته، ويرهّبهم من عقابه وصولته، ويذكّرهم بمن مضى من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعة يرجعون إليها، بل رسوم لملوكهم، وأنواع من السياسات، يسوسون بها رعيّتهم[1].

٧. حواة وأشرار:

ويمتلئ فضاء السرد الجغرافي بالإشارات التي تنقض الاتّساق الدلالي العامّ له، كما مرّ بنا في استثناء النوبيّات من الحكم. يشير أبو حامد الغرناطي إلى قبائل تقع في الطرف الآخر من إفريقية. ويبدأ النصّ برسم الصورة النمطية الشائعة لأمم متناثرة في تلك الديار الواقعة على المحيط، غربي إفريقية: وأمّا قناوة، وقوقو، وملي، وتكرور، وغدامس، فقومٌ لهم بأس، وليس بأراضيهم بَركة، ولا خير في أرضهم، ولا دين لهم، ولا عقل. وأشرهم، قوقو، وهم قصار الأعناق، فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة. يرمون بنبل مسموم بدماء حيّات صفر لا تلبث ساعة

---

(١) مروج الذهب، ج١، ص ٨٥.

واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه ، ولو كان فيلاً أو غيره من الحيوانات والأفاعي ، وجميع أصناف الحيّات عندهم كالسمك ، يأكلونها ، لا يبالون بسموم الأفاعي ولا الثعابين إلاّ بالحية الصفراء التي في بلدهم ، فإنهم يتّقونها ، ويأخذون دمها لسهامهم . وقِسيّهم صغار قصار ، رأيتهم في بلاد المغرب ، ورأيت قِسيّهم ، وأوتارهم من لحاء الشجر الذي في بلادهم ، ونبلهم قصار ، كلّ سهم شبر ، ونصالهم شوك شجر كالحديد في القوّة ، قد شدّوه بلحاء شجرة ، ويصيبون الحدق .

وهم شرّ نوع في السودان ، يُنتفَع بهم في الخدمة والعمل إلاّ قوقو ، فلا خير فيهم إلاّ في الحرب ، ولهم ألواح صغار مثقّبة بثقب غير نافذة ، يصفرون في تلك الثقب ، فيصوّتون بأصوات عجيبة فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيّات والأفاعي والثعابين ، فيأخذونها ويأكلونها ، وفيهم من يشدّها على وسطه ، كما يشدّ الحزام ، ومنهم من يتعمّم بالثعبان الطويل ، ويدخل السوق على غفلة ، فيكشف ثوبه ، ويرمي على الناس أنواع الثعابين والحيّات ، فيعطونه شيئًا حتى يخرج ، وإن لم يعطوه ، ألقى في دكاكينهم من تلك الحيّات[١] .

كيف تتشكّل ملامح الصورة التي رسمها أبو حامد الغرناطي لأقوام متاخمين لدار الإسلام ، مثل أهل قناوة ، وقوقو ، وملي ، وتكرور ، وغدامس؟ في أول الأمر يجد المتلقّي نفسه أمام تعميم ، سرعان ما ينتهي بتخصيص ، ولكن صورة التخصيص هي التي تنطبع في الذاكرة دون سواها ، فهؤلاء ، في نهاية المطاف ،جملة من الحواة ، والأشرار غير المؤتمنين ، لكن ، إذا دققنا النظر فيما ظهر ، وفيما توارى ، نجد تلازمًا مترابطًا بين نقائض بُنِيَت على أسس مزدوجة ، فبعض تلك الأقوام اتّصَفت بالبسالة ، والشدّة ، والشجاعة الفائقة ، لكن ، تنقصها المثل ، والبصيرة ، فهي بلا دين ، ولا عقل ، وأخرى كريهة المنظر ، فطس الأنوف ، أقزام .

---

(١) تحفة الألباب ، ص : ٣٩ و٤٠ .

تأتي العجائب من قدرة تلك الأقوام على أكل الحيّات والثعابين كالأسماك ، لكنها نافعة للخدمة والعمل ، وأقوام أخرى هم محاربون أشدّاء ، لكنهم مجرّد حواة ، يثيرون الفزع بين المسالمين ، ويبتزّونهم . وهذه الاستراتيجية من تنضيد الصفات تحجب وتكشف ، تحجب قوة القوم وبأسهم ، وقدرتهم الحربية ، ومنفعتهم في العمل والخدمة ، وتكشف وثنيتهم ، وكفرهم ، وجنونهم ، وشعوذتهم . وحينما توضع هذه الصفات المتكافئة معًا ، ويُنظَر إليها بحسب تجاورها ، تظهر تلك الأقوام ، شأنها شأن غيرها ، فيها من الرذائل ما يوازي الفضائل ، لكن ، حينما يُنظَر إليها في سياق خطاب الغرناطي ، تتوارى الفضائل ، وتتضخم الرذائل .

٨. إشهار وإضمار:

استأثرت ممالك غرب إفريقية بدرجة كبيرة من الاهتمام ، إذ تمكّن كثير من الرحّالة المغاربة من الوصول إلى تلك البلاد . ويعدّ البكري من المصادر المهمّة عن تلك المناطق إلى جانب الحسن الوزّان ، وابن بطوطة . ويحسن متابعة البكري ، وهو يقف ، بالتتابع ، على كثير من الأقوام هناك . فهو يبدأ بـ«تالوين» ، وهم قبائل أقرب إلى بلاد السودان ، وبينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل ، وليس يعرفون حرثًا ، ولا يزرعون زرعًا ، ولا يعرفون خبزاً ، إنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم من اللحم واللبن ، ينفد عمر أحدهم ، ولا رأى خبزًا ولا أكله ، إلاّ أن يمرّ بهم التجّار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان ، فيطعمونهم الخبز ، ويتحفونهم بالدقيق . وهم على السنّة ، مجاهدون للسودان .

وهنالك الطوارق الذين يلتزمون النقاب ، وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منهم إلاّ محاجر الأعين ، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ، ولا يميّز رجل منهم وليّه ولا حميمه إلاّ إذا تنقّب ، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يُعلَم من هو حتى يُعاد عليه القناع . وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم ، وهم يسمّون مَنْ خالف زيّهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم .

وطعامهم صفيف اللحم الجافّ مطحونًا ، يُصَبّ عليه الشحم المذاب أو السمن ، وشرابهم اللبن ، قد غنوا به عن الماء ، يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماءً ، وقوّتهم مع ذلك مكينة ، وأبدانهم صحيحة[1] .

ثم زافقو ، وهم صنف من السودان ، يعبدون حّية كالثعبان العظيم ، ذا عرف ، وذنب ، رأسها كرأس البختي ، هي في مغارة بالمفازة ، وعلى فم المغارة عريش ، وأحجار ، وهي مسكن قوم منهم متعبدين معظمين لتلك الحية ، ويعلّقون نفيس الثياب ، وحُرّ المتاع على ذلك العريش ، ويضعون له جفان الطعام ، وعساس اللبن والشراب . وهم إذا أرادوا إخراجها إلى العريش تكلّموا كلامًا وصفروا صفيرًا معلومًا فيبرز إليهم . وإذا هلك والٍ من ولاتهم جمعوا كلّ من يصلح للمملكة ، وقربوهم إليها ، وتكلموا بكلام يعلمونه ، فتدنو الحية منهم ، فلا تزال تشمّهم رجلاً رجلاً حتى تنكز أحدهم بأنفها ، فإذا نكزته إلى المغارة ، فيتبعها ذلك المنكوز بأجدّ ما يقدر عليه من السير ، فيجذب من ذنبها أو من عرفها ، بأشد ما يقدر عليه من شعرات ، فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات ، لكلّ شعرة سنة ، لا يخطيهم ذلك ، بزعمهم[2] .

وتليهم بلاد الفروين ، وهي مملكة الفروين على حدتها ، ومن غريب ما فيها بِركة يجتمع فيها الماء ، ينبت فيها نبات أصوله أبلغ شيء في تقوية الباه ، والعون عليها ، والملك يَمنَع منها ولا يصل منها شيء إلى غيره ، وله من النساء عدد عظيم ، فإذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن قبل ذلك بيوم ، ثم استعمل ذلك الدواء فيطوف عليهنّ كلهنّ ، ولا يكاد ينكسر . وقد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هديّة نفيسة ، واستهداه شيئًا من هذا النبات ، فعارضه على هديتّه ، وكتب إليه يقول : إن المسلمين لا يحلّ لهم من النساء إلاّ قليل ، وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء أن لا تقدر على إمساك نفسك ، فتأتي

---

(١) المسالك والممالك ، ص٨٦٥ .

(٢) م . ن . ص ٨٦٩-٨٧٠ .

بما لا يحلّ لك في دينك ، ولكني قد بعثت إليك نباتًا ، يأكله الرجل العقيم فيولد له . وبلاد الفرويين يبدّل الملح فيها بالذهب[1] .

ومن أعمال غانة المنضافة إليها بلد يسمّى سامة ، ويعرف أهله بالبكم ، بينه وبين غانة مسيرة أربعة أيّام ، وهم يمشون عراة إلاّ أن المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها ، وهن يوفِّرن شعر العانة ، ويحلقن شعر الرأس . وحدَّث أبو عبدالله المكّي أنه رأى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية ، فتكلّمت بكلام لم يفهمه ، فسأل الترجمان عن مقالتها ، فذكر أنها تمنّت أن يكون شعر لحيته في عانتها . فامتلأ العربي غضبًا ، وأوسعها سبًا . والبكم لهم حذق بالرماية ، وهم يرمون بالسهام المسمومة . ويورّثون الابن الأكبر مال الأب كلّه[2] .

ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة تسمّى تورزي تنبت في الرمال ، ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض تصنع منه الثياب والأكسية ، ولا تؤثّر النار فيما صُنع من ذلك الصوف من الثياب لو أوقدت عليه الدهر كله لم يحترق . وأخبر الفقيه عبد الملك أن أهل اللامس بلد هناك ليس لهم لبس إلاّ من هذا الصنف . ومن هذا الجنس حجارة بوادي درغة تسمى بالبربرية تامطغست ، تُحَكّ باليد فتلين إلى أن تأتي في قوام الكتّان فتصنع منها الأمرة والقيود للدواب ، فلا تؤثر النار في شيء من ذلك . وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناته في سلجماسة ، وأخبرني الثقة أنه شهد تاجرًا قد جلب منه منديلاً إلى «فرد لند» صاحب الجلالقة ، وذكر أنه منديل لبعض الحواريين ، وأن النار لا تؤثر فيه ، وأراه ذلك عيانًا ، فعظم موقعه من «فرد لند» وبذل له فيه غناه ، وبعث به «فرد لند» إلى صاحب قسطنطينية ليوضع في كنيستهم العظمى ، فعند ذلك بعث إليه صاحب قسطنطينية التاج ، وأمره بالتتويج . وقد حدث جماعة أنهم رأوا منه هداب منديل عند أبي فضل البغدادي تُحمى عليه

---

(١) المسالك والممالك ، ص ٨٧٠ .

(٢) م . ن ، ص٨٧٦ .

النار فيزداد بياضًا ، ويكون له النار غسلاً ، وهو كثوب الكتّان[1] .

هذه الصور المتنوّعة التي يختار منها البكري ما يثير العجب ، يراد بها تركيز الاهتمام على الجانب الاستثنائي في سلوك شخصيّات معيَّنة ، أو الوقوف على ظواهر سحرية بعينها ، ولا يخلو مجتمع من ذلك ، فالغرائب ، وأعمال الشعوذة ، والمهارات السحرية شائعة ، ولكن صيغة الوصف هي التي تثير العجب ، وتؤدّي وظيفة غير عجائبية ، بالمعنى التخيُّلي ، فالبكري يعتمد على منهجية الانتقاء ، وهو يرصف جملة من المرويّات التي تتفاعل فيما بينها ، فتنتج صورًا غرائبية لأقوام تعيش في غرب إفريقية . وتركيزه على الاستثناء في طرز الحياة ، وإهمال القاعدة ، يعبّر عن تحيُّز من نوع ما في الوصف ، توجّهه ثقافة ، تحبس الآخر في نطاق خاصّ ، وتسقط عليه النقائص .

ومن أجل كشف هذه النزعة الخفيّة في خطاب البكري ، ينبغي علينا العودة ثانيةً إلى النصّ السابق ، مركزين على البؤر الأكثر أهمية فيه ، وكيف أنها تخفي أشياءَ كثيرة ، وتطمرها خلف حالة الإبهار التي يثيرها النصّ ، فالأمم الستّ التي يشير إليها البكري بالتعاقب ، هي : تالوين ، الطوارق ، زافقو ، الفرويون ، البكم ، أهل اللامس . والنبرة العجائبية تتصاعد شيئًا فشيئًا ، لتنتهي بنا ، ونحن بصحبة أقوام يقترفون المُحالات الخارجة على نواميس الطبيعة . تتراكم الصور بتتابع الأقوام التي ذكرناها : فأهل تالوين لا يعرفون حراثة ، ولا زراعة ، ولا خبزًا ، والطوارق منقّبون ، ملثّمون ، لا يعرفون الماء ، وأهل زافقو يعبدون الحيّات الكبيرة ، ويقدّمون لها الأطعمة والأشربة ، وهي التي تختار ملوكهم ، والفرويون يحتكرون نباتًا منشّطًا للقوى الجنسية ، والبكم عراة ، تطيل المرأة عندهم شعر العانة ، وتحلق الرأس ، وأهل اللامس يرتدون ملابس من ثمر أشجار التورزي ، وهو صوف أبيض لا تؤثّر فيه النار لو أوقدت عليه الدهر كلّه ، ولديهم حجارة تُحَكّ فَتَلين ، فتنتج الكتّان الذي يمتنع على النار ، وتُصنَع منه

---

(١) المسالك والممالك ، ص٨٧٨ .

مناديل ، أثارت عجب بابا القسطنطينية ، فتُوِّج بسببها ملك الجلالقة ، وهذه المناديل تُغسَل بالنار ، فتزداد بياضًا ونصاعة!

إن هذا التدرُّج في انتقاء الأوصاف يشوِّش ، تمامًا ، على تلك الأقوام ، فهو يستبعد كلّ القيم الإنسانية ، والطبيعية ، ويعوّم ما يناقضها ، فوصف أهل تالوين بأنهم مجاهدون على السنة ، والطوارق بأنهم محاربون أشدّاء ، وأبدانهم صحيحة ، وأهل زافقو بأنهم منتظمون في كيانات سياسية ، ولهم ملوك يحكمونهم ، ووصف الفرويين بأنهم يستقلّون بمملكة خاصّة بهم ، والبكم الحاذقون في الرماية ، لهم تقاليد خاصّة بالوراثة ، وأهل اللامس المهَرة بصناعة النسيج الذي يُصَدّر إلى ملوك زناتة وسلجماسة ، وتجارتهم به التي تصل الأندلس ، وتثير إعجاب «فردلند» ملك الجلالقة ، كلّ ذلك يتوارى خلف الأوصاف الأولى ، ويطمس أيّة فاعليّة في إضفاء قيمة إيجابية على تلك الأقوام .

٩. مركزية الأنوثة:

نصل أخيرًا إلى ابن بطوطة الذي يتبوّأ مكانة خاصّة في أدبيّات الرحلة . وعلى الرغم من أن رحلته إلى الأواسط الغربية من إفريقية كانت خاطفة ، إذا ما قورنت برحلته المشرقية ، فإنها على غرار رحلته إلى شرق إفريقية ، جاءت غنيّة بالملاحظات الثقافية التي جرى تمثيلها سرديًا بكثير من البراعة ، ولكنها لم تختلف ، في عمومها ، عن الخطاب العامّ للرحّالة ، والجغرافيين ، والمؤرّخين . شرع يصف أهل أيوالاتن : وشأن هؤلاء القوم عجيب ، وأمرهم غريب ؛ فأمّا رجالهم فلا غيرة لديهم ، ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه ، بل ينتسب إلى خاله ، ولا يرث الرجل إلاّ أبناء أخته دون بنيه ، وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلاّ عند كفّار بلاد المليبار من الهنود . وأمّا هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات ، وتعلُّم الفقه ، وحفظ القرآن ، وأمّا نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ، ولا يحتجبن مع مواظبتهنّ على الصلوات ، ومن أراد التزوُّج منهن تزوّج ، لكنهن لا

يسافرن مع الزوج ، ولو أرادت إحداهنّ ذلك لمنعها أهلها . والنساء هنالك يكون لهنّ الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات ، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك .

دخلت يومًا على القاضي بأيوالاتن ، بعد إذنه في الدخول ، فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن ؛ فلمّا رأيتها ارتبت ، وأردت الرجوع ، فضحكت مني ، ولم يدركها خجل ، وقال لي القاضي : لِمَ ترجع؟ إنها صاحبتي . فعجبت من شأنهما ؛ فإنه من الفقهاء الحُجّاج . وأُخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته ، لا أدري أهي هذه أم لا ، فلم يأذن له . دخلت يومًا على أبي محمد بن يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدًا على بساط وفي وسط داره سرير مظلَّل ، عليه امرأة معها رجل قاعد ، وهما يتحدّثان فقلت له : ما هذه المرأة؟ فقال : هي زوجتي ، فقلت : وما الرجل الذي معها؟ فقال : هو صاحبها ، فقلت له : أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا ، وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي : مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير ، وحسن طريقة ، لا تهمة فيها ، ولسن كنساء بلادكم . فعجبت من رعونته ، وانصرفت عنه ، فلم أعد إليه بعدها ، واستدعاني مرّات فلم أجبه[1] .

أظهر ابن بطوطة استغرابًا لا يخفى ، وهو يواجَه بعلاقات اجتماعية غير معهودة في دار الإسلام ، مع أنه عرف ما يناظرها خارج تلك الدار في رحلاته من قبل . وتوزّعت تحفظاته على أحاسيس ذكورية واضحة ، وأخرى عقائدية حالت دون أن يتقبّل نمط العلاقات السائد بين الرجل والمرأة ، ولم يكتفِ بالوصف ، إنما رفض تلك العلاقات ، وحَكَم عليها بالسوء ، وأثارت حريةُ المرأة

(١) رحلة ابن بطوطة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، ج٤ ، ص٢٤٥-٢٤٧ .

سخطَه ، واستغرب من نظام العلاقات الاجتماعية بشكل عامّ ، فأدان رجال أيولاتن ، بوصفهم فاقدين للغيرة الذكورية ، وهي العلامة المميِّزة للرجولة ، طبقًا لفهم ابن بطوطة ، فانفرط الرباط المقدَّس بين المرأة والرجل ؛ فالنساء لا يحتشمن ، ولا يحتجبن ، ويصاحبن من الرجال ما شاء لهن ، فلا يُنكَر ذلك عليهن .

يصاحب قاضي أيولاتن ، الذي يمثّل الضابط الأخلاقي للشريعة ، امرأة شابة ، دونما أيّ تعارض بين القيم التي يؤمن بها ، وهذا الضرب من العلاقات الحرّة يستدرج غضب ابن بطوطة . صديق له ، ورفيق سفر ، لا يمانع من اختلاء زوجته بصاحبها ، يقاطعهم ابن بطوطة محتجًا ، ويعدُّ ذلك رعونة . هذا الموقف سلوك عملي على رفضه نمط الأعراف الاجتماعية السائد في أيولاتن .

تثير المرأة اهتمام ابن بطوطة ، وتتركّز ملاحظاته عليها ، ولكن الخلاصة التي يريد الانتهاء إليها تَتّصل بالرجل ومركزيته ، إنه بحسب تصوره دون ما ينبغي أن يكون عليه ، مركزية الذكورة تعرّضت لتصدُّع كبير لا يُرتَق في هذه الأنحاء بسبب ضمور الرجولة ؛ فالنساء يعشن فوضى العلاقات ، والانتساب تحدده القرابة من الأم لا مِنْ الأب ، والورثة هم أبناء الأخت ، لا أبناء الرجل نفسه . وهذا يعني أن النظام العامّ لمركزية الذكورة مخروم في صلبه ، وهو مخالف للشريعة التي يؤمن ابن بطوطة بها ، ولا نظير له في العالم ، بالنسبة إليه – إلاّ عند كفّار المليبار في الهند ، (وفي قبائل الخرلخ في أقصى الشمال الشرقي ، كما ذكر أبو دُلَف) .

لكن ، ينبثق عجب أكبر من ثنايا كلّ هذا ، فأهل أيولاتن مسلمون محافظون على الشرائع ، ونساؤهم مصلّيات . فكيف تتآلف النقائض فيما بينها؟ يمثّل كلّ ذلك صدمة لابن بطوطة ، دونها الصدمات الثقافية التي مرّ بها في بلاد الشرق . لم يكن من المفهوم له التعايش والتفاعل بين القيم النصّية السماوية ، والقيم الاجتماعية الأرضية . أهل أيولاتن تقبّلوا ذلك ، ولكنه كان مثار استغراب ابن بطوطة ، ففرّ هاربًا عن البلاد .

هذه الملاحظات المباشرة يمكن عدّها وثيقة مهمة ، ليس على نمط العلاقات التي وصفها ابن بطوطة ، إنما على الفهم الخاصّ لها من قِبَله . وقد تبيَّنت درجة اشمئزازه منها ، ومقاطعته لأقرب الناس إليه بسببها ، لكن ، حينما يتعلّق الأمر بموضوع آخر أشدّ خطورة ، يغيِّر ابن بطوطة وسائله وأحكامه ، الموضوع ، هذه المرّة ، أكل لحوم البشر ، والوسيلة هي الأخبار والمرويّات . تظهر المرويّات حينما تصبح معرفة الحقائق مستحيلة .

١٠. لحوم نيئة، ولحوم ناضجة:

قال ابن بطوطة : أخبرني «فربامغا» أن منسى موسى كان معه قاضٍ من البيضان يكنّى بأبي العباس ، ويعرف بالدكالي ؛ فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته ، فلمّا وصلوا إلى ميمة شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سُرِقت له من داره ؛ فاستحضر السلطان أمير ميمة ، وتوعّده بالقتل إن لم يحضر مَن سرقها ، وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدًا ، ولا سارق يكون بتلك البلاد ، فدخل دار القاضي ، واشتدّ على خدّامه ، وهدّدهم ، فقالت له إحدى جواريه : ما ضاع له شيء ، وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع ، وأشارت له إلى الموضع ، فأخرجها الأمير ، وأتى بها السلطان ، وعرّفه الخبر ، فغضب على القاضي ، ونفاه إلى بلاد الكفّار الذين يأكلون بني آدم ، فأقام عندهم أربع سنين ، ثم ردّه إلى بلده ، وإنما لم يأكله الكفّار لبياضه ؛ لأنهم يقولون إن أكل الأبيض مضرّ لأنه لم ينضج ، والأسود هو النضج بزعمهم .

وقدمَتْ على السلطان منسى سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم ، معهم أمير لهم ، وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطًا كبارًا ، وتكون فتحة القرط نصف شبر ، ويلتحفون في ملاحف الحرير ، وفي بلادهم يكون معدن الذهب . فأكرمهم السلطان ، وأعطاهم في الضيافة خادمة ، فذبحوها ، وأكلوها ، ولطّخوا وجوههم وأيديهم بدمها ، وأتوا السلطان شاكرين . وأُخبرتُ أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك ، وذُكر لي عنهم أنهم

يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكفّ والثدي[1] .

أخبرني ، وأُخبرت ، وذُكر لي ، صيغ شائعة حينما يتّصل الأمر بقضية أكل لحوم البشر ، لكن ، ترتسم صورة ، تعمل خفية على إيقاظ الحذر في النفس ، فما وراء هذه المملكة قطيع من الكفّار أكَلة لحوم البشر ، لهم تقاليد خاصّة بذلك ، وأذواق متميزّة : الأبيض لا يؤكل فهو نيء ، وأفضل ما في لحم بني آدم من لحم الأنثى : الكفّ ، والثدي! هكذا ، تتلوّن صورة الإفريقيين في مرويّات الرحلة بأحكام خاصّة ، وقد تحكّمت في صوغها الموجّهات الثقافية والعقائدية ، وجرى تمثيل سرديّ معتم لصورة الإفريقي الأسود ، فاقترنت بها النواقص : العقلية ، والدينية ، والأخلاقية ، واللونية ، وقد مخر تلك البلاد جملة من الرحّالة ، لكن ، لم يتوغّل في الأقاصي النائية أحد منهم ، وحينما يتوقّف رحّالة في مكان ما فإنه قبل أن يعود القهقرى يحرص على تضمين خطابه صدى المرويّات المخيفة عن عالم آخر ، يرزح تحت وحشية منقطعة النظير : عالم وثني ، بهائمي ، آكل للحم البشر ، متخبّط في بيداء الحيرة والفوضى ، لم تمسّه قيم الحقّ المطلقة ، بعد .

---

(١) رحلة ابن بطوطة ، ج٤ ، ص ٢٦٨ .

النصوص الرديفة

١ـ رحلة سليّم الأسواني إلى بلاد النوبة، وأعالي النيل:

قال عبد الله بن أحمد بن سليّم الأسواني : أول بلد النوبة قرية تُعارف بالقصر ، من أسوان إليها خمسة أميال ، وآخر حصن للمسلمين جزيرة تُعَرف ببلاق ، بينها وبين قرية النوبة ميل ، وهو ساحل بلد النوبة ، ومن أسوان إلى هذا الموضع جنادل كثيرة الحجر ، لا تسلكها المراكب إلاّ بالحيلة ، ودلالة من يخبر بذلك في الصيادين الذين يصيدون هناك ؛ لأنّ هذه الجنادل متقطّعة ، وشعاب معترضة في النيل . ولانصِبابه فيها خرير عظيم ، ودوّي يُسمع من بُعد .

وبهذه القرية مَسْلَحة ، وباب إلى بلد النوبة ، ومنها إلى الجنادل الأولى ، من بلد النوبة ، عشر مراحل ، وهي الناحية التي يتصرف فيها المسلمون ، ولهم فيما قرب أملاك ، ويتّجرون في أعلاها . وفيها جماعة من المسلمين قاطنون ، لا يفصح أحدهم بالعربية ، وشجرها كثير ، وهي ناحية ضيقة ، شظفة (وعرة) ، كثيرة الجبال ، وما تخرج عن النيل وقراها متسطرة على شاطئه ، وشجرها النخل ، والمقل ، وأعلاها أوسع من أدناها . وفي أعلاها الكروم ، والنيل لا يروي مزارعها لارتفاع أرضها ، وزرعها الفدّان ، والفدّانان ، والثلاثة ، على أعناق البقر ، بالدواليب . والقمح عندهم قليل ، والشعير أكثر والسُّلت (شعير منزوع القشرة) . ويعتقّبون الأرض لضيقها ، فيزرعونها في الصيف بعد تطريتها بالزبل والتراب .

وبهذه الناحية نجراش مدينة المريس (قرب الأقصر حاليًا) ، وقلعة أبريم (بريميس ، تقع جنوب أسوان بحوالي٣٣٥كم) ، وقلعة أخرى دونها ، وبها مينى تعرف بأدواء يُنسب إليها لقمان الحكيم ، وذو النون ، وبها بربا (معبد) عجيب . ولهذه الناحية والٍ من قبل عظيم النوبة ، يعرف بصاحب الجبل من أجلّ ولاتهم

لقربه من أرض الإسلام ، ومن يخرج إلى بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه في تجارة أو هديّة إليه ، أو إلى مولاه . يقبل الجميع ، ويكافئ عليه بالرقيق ، ولا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه لمسلم ولا لغير مسلم .

وأوّل الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى ، هي ساحل ، وإليها تنتهي مراكب النوبة المصعدة من القصر ، أوّل بلدهم ، ولا تتجاوزها المراكب ، ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلاّ بإذن من صاحب جبلهم ، ومنها إلى المقس الأعلى ستّ مراحل ، وهي جنادل كلّها ، وشرّ ناحية رأيتُها لهم لصعوبتها ، وضيقها ، ومشقّة مسالكها . أمّا بحرها ، فجنادل ، وجبال معترضة فيه حتى أن النيل ينصبّ من شعاب ، ويضيق في مواضع حتى يكون سعة ما بين الجانبين خمسين ذراعًا ، وبرّها مجاوب ضيّقة ، وجبال شاهقة ، وطرقات ضيّقة ، حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها ، والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها ، ورمال في غربها وشرقها .

وهذه الجبال حصنهم ، وإليها يفزع أهل الناحية التي قبلها ، المتّصلة بأرض الإسلام ، وفي جزائرها نخل يسير ، وزرع حقير ، وأكثر أكلهم السمك ، ويدّهنون بشحمه ، وهي من أرض مريس ، وصاحب الجبل واليهم ، والمسْلَحة بالمقس الأعلى ، صاحبها من قبل كبيرهم ، شديد الضبط لها حتى أنّ عظيمهم إذا صار بها وقف به المسلحي ، وأوهم أنه يفتش عليه حتى يجد الطريق إلى ولده ووزيره ، فمن دونهما . ولا يجوزها دينار ولا درهم ، إذ كانوا لا يتبايعون بذلك إلاّ دون الجنادل مع المسلمين ، وما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء ، إنما هي معاوضة بالرقيق ، والمواشي ، والحبال ، والحديد ، والحبوب . ولا يطلق لأحد أن يجوزها إلاّ بإذن الملك . ومن خالف كان جزاؤه القتل ، كائنًا من كان ، وبهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم حتى أن العسكر منهم يهجم على البلد إلى البادية وغيرهم فلا يعلمون به ، والسنباد الذي يخرط به الجوهر يخرج من النيل في هذه المواضع يُغطس عليه ، فيوجد جسمه باردًا مخالفًا للحجارة ، فإذا أشكل عليه نفخ فيه بالفم ، فيعرف .

ومن هذه المسْلَحة إلى قرية تُعرَف بساي جنادل أيضًا ، وهي آخر كرسيِّهم . ولهم فيها أسقف ، وفيها بربا . ثم ناحية سقلودا ، وتفسيرها السبع ولاة ، وهي أشبه بالأرض المتاخمة لأرض الإسلام في السعة والضيق في مواضع ، والنخل والكرم والزرع وشجر المقل ، فيها شيء من شجر القطن ، ويعمل منه ثياب وخشة ، وبها شجر الزيتون ، وواليها من قبل كبيرهم ، وتحت يده ولاة يتصرّفون ، وفيها قلعة تعرف بأصطنون ، وهي أوّل الجنادل الثلاثة ، وهي أشدّ الجنادل صعوبة لأنّ فيها جبلاً معترضًا من الشرق إلى الغرب في النيل ، والماء ينصبّ من ثلاثة أبواب ، وربّما رجع . .عند انحساره شديد الخرير عجيب المنظر ، يتحدّر الماء عليه من علوّ الجبل ، وقبليه فُرش حجارة في النيل نحو ثلاثة بُرد إلى قرية تعرف بيستو ، وهي آخر قرى مريس ، وأوّل بلد مقرة .

ومن هذا الموضع إلى حدّ المسلمين لسانهم مريسي ، وهي آخر عمل متملّكهم ، ثم ناحية بقون ، وتفسيرها بالعجب ، وهي عند اسمها لحسنها ، وما رأيت على النيل أوسع منها ، وقدّرت أن سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل ، الجزائر تقطعه ، والأنهار منه تجري بينها على أرض منخفضة ، وقرى متّصلة ، وعمارة حسنة بأبرجة حمام ، ومواشٍ ، وأنعام ، وأكثر ميرة مدينتهم منها وطيورها النقيط ، والنوبي ، والببغا ، وغير ذلك من الطيور الحسان ، وأكثر نزهة كبيرهم في هذه الناحية . وكنت معه في بعض الأوقات ، فكان سيرنا في ظلّ شجر من الحافتين في الخلجان الضيقة ، وقيل إن التمساح لا يضرّ هناك ، ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة . ثم سفد بقل ، وهي ناحية ضيّقة شبيهة بأوّل بلادهم إلاّ أنّ فيها جزائرَ حسانًا ، وفيها دون المرحلتين نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان ، والكنائس ، والأديار ، والنخل الكثير ، والكروم والبساتين والزرع ، ومروج كبار فيها إبل وجِمال صهب مؤبلة للنتاج ، وكبيرهم يكثر الدخول إليها لأنّ طرفها القبليّ يحاذي دنقلة مدينتهم .

ومن مدينة دنقلة دار المملكة إلى أسوان خمسون مرحلة . إنهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط ، وبخشب الساج الذي يأتي به النيل في وقت الزيادة

سقالات منحوتة ، لا يُدرى من أين تأتي . ولقد رأيت على بعضها علامة غريبة ، ومسافة ما بين دنقلة إلى أوّل بلد علوة أكثر ممّا بينها وبين أسوان ، وفي ذلك من القرى ، والضياع ، والجزائر ، والمواشي ، والنخل ، والشجر ، والمقل ، والزرع ، والكرم ، أضعاف ما في الجانب الذي يلي أرض الإسلام . وفي هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة أيّام ، فيها الجبال ، والوحش ، والسباع ، ومَفاوز ، يُخاف فيها العطش .

والنيل يعطف من هذه النواحي إلى مطلع الشمس ، وإلى مغربها مسيرة أيام ، حتى يصير المصعد كالمنحدر ، وهي الناحية التي تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف الشلة ، وهو بلد يعرف بشنقير ، ومنه خرج العمري وتغلّب على هذه الناحية إلى أن كان من أمره ما كان ، وفرس البحر يكثر في هذه المواضع ، ومن هذه الموضع طرق إلى سواكن ، وباضع ، ودهلك ، وجزائر البحر ، ومنها عبر مَنْ نجا من بني أمية عند هربهم إلى النوبة ، وفيها خلق من البجة يُعرَفون بالرنافج ، انتقلوا إلى النوبة قديمًا ، وقطنوا هناك ، وهم على حدّتهم في الرعي واللغة ، لا يخالطون النوبة ، ولا يسكنون قراهم ، وعليهم والٍ من قبل النوبة .

اعلم أنّ النوبة والمقرة جنسان بلسانين ، كلاهما على النيل ، فالنوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام ، وبين أوّل بلدهم وبين أسوان خمسة أميال ، ويقال إنّ سلها جدّ النوبة ، ومقري جدّ المقرة من اليمن . والنوبة ومقري من حِميَر ، وأكثر أهل الأنساب على أنهم جميعًا من ولد حام بن نوح وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية ، وأوّل أرض المقرة قرية تعرف بنافة ، على مرحلة من أسوان ، ومدينة ملكهم يقال لها نجراش ، على أقل من عشر مراحل من أسوان . ويقال إن موسى صلوات الله عليه غزاهم قبل مبعثه في أيام فرعون ، فأخرب نافة ، وكانوا صابئة يعبدون الكواكب ، وينصبون التماثيل لهم ، ثم تنصّروا جميعًا .

ومدينة دنقلة هي دار مملكتهم ، وأوّل بلاد علوة قرى في الشرق على شاطئ النيل ، تُعرَف بالأبواب ، ولهذه الناحية والٍ من قِبَل صاحب علوة يُعرَف

بالرحراح . والنيل يتشعّب من هذه الناحية على سبعة أنهار ، فمنها نهر يأتي من ناحية المشرق كَدِر الماء ، يجفّ في الصيف حتى يسكن بطنه ، فإذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء ، وزادت البرَك التي فيه ، وأقبل المطر والسيول في سائر البلد ، فوقعت الزيادة في النيل ، وقيل إنّ آخر هذا النهر عين عظيمة تأتي من جبل .

وحدّثني سيمون صاحب عهد بلد علوة أنه يوجد في بطن هذا النهر حوت لا قشر له ، ليس هو من جنس ما في النيل ، يحفر عليه قامة وأكثر حتى يخرج ، وهو كبير ، وعليه جنس مولَّد بين العلوة والبجة ، يقال لهم الديجيون ، وجنس يقال لهم بازة ، يأتي من عندهم طير يعرف بحمام بازين ، وبعد هؤلاء أوّل بلاد الحبشة ثم النيل الأبيض ، وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن . وقد سألت مَنْ طَرَق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذي عندهم ، وعن لونه ، فذكر أنه يخرج من جبال الرمل أو جبل الرمل ، وأنه يجتمع في بلد السودان في بَرك عظام ، ثم ينصبّ إلى ما لا يعرف ، وأنه ليس بأبيض ، فإمّا أن يكون اكتسب ذلك اللون ممّا يمرّ عليه أو من نهر آخر ينصبّ إليه ، وعليه أجناس من جانبيه .

ثم النيل الأخضر ، وهو نهر يأتي من القِبلة ممّا يلي الشرق ، شديد الخضرة ، صافي اللون جداً ، يرى ما في قعره من السمك ، وطعمه مخالف لطعم النيل ، يعطش الشارب منه بسرعة ، وحيتان الجميع واحدة غير أنّ الطعم مختلف . ويأتي فيه وقت الزيادة خشب الساج ، والبقم ، والغثاء ، وخشب له رائحة كرائحة اللبان ، وخشب غليظ يُنحَت ويُعمَل منه مقدام ، وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضًا ، وقيل إنه وجد فيه عود البخور . وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التي تأتي فيه وقت الزيادة علامة غريبة ، ويجتمع هذان النهران : الأبيض ، والأخضر ، عند مدينة متملّك بلد علوة ، ويبقيان على ألوانهما قريبًا من مرحلة ، ثم يختلطان بعد ذلك ، وبينهما أمواج كبار عظيمة ، بتلاطمهما .

وأخبرني من نقل النيل الأبيض وصبه في النيل الأخضر فبقي فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا . وبين هذين النهرين جزيرة ، لا يُعرَف لها غاية ، وكذلك لا يُعرَف لهذين النهرين نهاية ، فأوّلهما يعرف عرضه ، ثم يتّسع ، فيصير مسافة شهر ، ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض ؛ لأنّ فيهما أجناسًا كثيرة وخلقًا عظيمًا . وبلغني أنّ بعض متملّكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأتِ عليه بعد سنين ، وأنّ في طرفها القبليّ جنسًا يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدة حرّ الشمس ، ويسرحون في الليل ، وفيهم قوم عراة . والأنهار الأربعة الباقية تأتي أيضًا من القِبلة ممّا يلي الشرق أيضًا في وقت واحد ، ولا يُعرَف لها نهاية أيضًا ، وهي دون النهرين الأبيض والأخضر في العرض ، وكثرة الخلجان ، والجزائر . وجميع الأنهار الأربعة تنصبّ في الأخضر ، وكذلك الأوّل الذي قدّمت ذكره ، ثم يجتمع مع الأبيض ، وكلّها مسكونة عامرة ، مسلوك فيها بالسفن وغيرها ، وأحد هذه الأربعة يأتي مرّة من بلاد الحبشة .

ولقد أكثرت السؤال عنها ، واستكشفتها من قوم عن قوم ، فما وجدت مخبرًا يقول إنه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار ، والذي انتهى إليه علم من عرّفني عن آخرين إلى خراب ، وأنه يأتي في وقت الزيادة في هذه الأنهار آلة مراكب ، وأبواب ، وغير ذلك ؛ فيدلّ على عمارة بعد الخراب ، فأمّا الزيادة فيجمعون أنها من الأمطار مع مادّة تأتي من ذاتها ، والدليل على ذلك النهر الذي يجف ، ويسكن بطنه ، ثم ينبع وقت الزيادة ، ومن عجائبه أنّ زيادته في أنهار مجتمعة ، وسائر النواحي والبلدان في مصر وما يليها ، والصعيد ، وأسوان ، وبلد النوبة ، وعلوة ، وما وراء ذلك في زمان واحد ، وأكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ، ربّما وجدت مثلاً بأسوان ، ولا توجد بقوص ، ثم تأتي بعد ، فإذا كثرت الأمطار عندهم ، واتّصلت السيول ، عُلِم أنها سنة ريّ ، وإذا قصرت الأمطار عُلم أنها سنة ظمأ .

وأمّا من طرق بلاد الزنج ، فإنهم أخبروني عن مسيرهم في بحر الصين إلى

بلاد الزنج بالريح الشمالي مُساحلين للجانب الشرقيّ من جزيرة مصر حتى ينتهوا إلى موضع يُعرَف برأس حفري ، وهو عندهم آخر جزيرة مصر ، فينظرون كوكبًا يهتدون به ، فيقصدون الغرب ، ثم يعودون إلى البحري ، ويصير الشمال في وجوههم حتى يأتوا إلى قبيلة من بلاد الزنج ، وهي مدينة متملّكهم ، وتصير قبلتهم للصلاة إلى جدّة . وبعض الأنهار الأربعة يأتي من بلاد الزنج ؛ لأنه يأتي فيه الخشب الزنجيّ . وسوبة مدينة العلوي شرقيّ الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الأبيض والأخضر في الطرف الشماليّ منها عند مجتمعهما وشرقيها النهر الذي يجفّ ، ويسكن بطنه ، وفيها أبنية حسان ، ودور واسعة ، وكنائس كثيرة الذهب ، وبساتين ، ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ، ومتملّك علوة أكثر مالاً من متملّك المقرة ، وأعظم جيشًا ، وعنده من الخيل ما ليس عند المقريّ ، وبلده أخصب ، وأوسع .

والنخل والكرم عندهم يسير ، وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الأرزّ ، منها خبزهم ، ومزرهم ، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي ، والمروج الواسعة العظيمة السعة حتى أنه لا يوصل إلى الجبل إلاّ في أيام ، وعندهم خيل عتاق ، وجمال صهب عِراب ، ودينهم النصرانية ، يَعَاقِبة ، وأساقفتهم من قِبَل صاحب الإسكندرية ، كالنوبة ، وكتبهم بالرومية ، يفسّرونها بلسانهم ، وهم أقلّ فهمًا من النوبة ، وملكهم يسترقّ من شاء من رعيته ، بجرم وبغير جرم ، ولا ينكرون ذلك عليه ، بل يسجدون له ، ولا يعصون أمره ، على المكروه الواقع بهم ، وينادون الملك يعيش ، فليكن أمره ، وهو يُتَوَّجّ بالذهب ، والذهب كثير في بلده .

وممّا في بلده من العجائب أنّ في الجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنسًا يُعرَف بالكرنينا . لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر ، فإذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر ، واختط على مقدار ما معه ، وزرع في أربعة أركان الخطة يسيرًا ، وجعل البذر في وسط الخطة ، وشيئًا من المزر ، وانصرف عنه ، فإذا أصبح وجد ما اختطّ قد زرع وشرب المزر ، فإذا كان وقت الحصاد حصد يسيرًا منه ، ووضعه في موضع أراده ، ومعه مزر ، وينصرف ، فيجد

الزرع قد حصد بأسره ، وجرّن ، فإذا أراد دِراسته ، وتفريته ، فعل به كذلك . وربّما أراد أحدهم أن ينقّي زرعه من الحشيش ، فيلفظ بقلع شيء من الزرع ، فيصبح وقد قلع جميع الزرع . وهذه الناحية التي فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين ، يُزرَع جميعها في وقت واحد ، وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية ، فيوجهون المراكب فتوسق ، وربّما ، وقع بينهم حرب .

وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة ، وكلّ من يطرق ذلك البلد من تجّار المسلمين لا يشكّون فيه ، ولا يرتابون به ، ولولا أنّ اشتهاره وانتشاره ممّا لا يجوز التواطؤ على مثله ، لما ذكرت شيئًا منه لشناعته ، فأمّا أهل الناحية ، فيزعمون أن الجنّ تفعل ذلك ، وأنها تظهر لبعضهم ، وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها ، وتعمل لهم عجائب ، وأنّ السحاب يطيعهم . ومن عجائب ما حدّثني به متملّك المقرة للنوبة أنهم يمطرون في الجبال ، ويلتقطون منه للوقت سمكًا على وجه الأرض ، وسألتهم عن جنسه ، فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر .

وقد رأيت جماعة وأجناسًا ممن تقدّم ذكرهم ، أكثرهم يعترفون بالباري ، سبحانه وتعالى ، ويتقرّبون إليه بالشمس والقمر والكواكب ، ومنهم من لا يعرف الباري ، ويعبد الشمس والنار ، ومنهم من يعبد كلّ ما استحسنه من شجرة أو بهيمة . ورأيت رجلاً في مجلس عظيم المقرة ، فسألته عن بلده ، فقال : مسافته إلى النيل ثلاثة أهِلّة ، وسألته عن دينه ، فقال : ربي وربّك الله ، وربُّ الملك ، وربُّ الناس كلّهم واحد ، فقلت له : فأين يكون ؟ قال : في السماء وحده ، وقال إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء ، أو وقع بدوابّهم آفة ، صعدوا الجبل ودعوا الله ، فيُجابون للوقت ، وتُقضى حاجتهم قبل أن ينزلوه . وسألته : هل أرسل فيكم رسول؟ قال : لا ، فذكرت له بعثة موسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلوات الله عليهم وسلامه ، وما أبدَوا به من المعجزات ، فقال : إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ، ثم قال : قد صدّقتهم إن كانوا فعلوا . وقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة ، وبُنِي بدنقلة جامع يأوي إليه الغرباء .

واعلم أن على ضفّة النيل أيضًا الكانم ، وملكها مسلم ، وبينه وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جداً ، وقاعدة ملكه بلدة اسمها حميمي ، وأوّل مملكته ، من جهة مصر ، بلدة اسمها زرلا ، وآخرها طولاً بلدة يقال لها كاكا ، وبينهما نحو ثلاثة أشهر ، وهم يتلثمون ، وملكهم متحجّب ، لا يُرى إلاّ يومي العيدين ، بكرة ، وعند العصر ، وطول السنة لا يكلّمه أحد إلاّ من وراء حجاب . وغالب عيشهم الأرزّ ، وهو ينبت من غير بذر ، وعندهم القمح ، والذرة ، والتين ، والليمون ، والباذنجان ، واللفت ، والرطب ، ويتعاملون بقماش يُنسَج عندهم اسمه دندي ، طول كل ثوب عشرة أذرع ، يشترون به من ربع ذراع فأكثر ، ويتعاملون أيضًا بالودع ، والخرز ، والنحاس المكسّر ، والورق ، وجميع ذلك بسعر ذلك القماش . وفي جنوبها شعارى وصحارى فيها أشخاص متوحِّشة كالفيول ، قريبة من شكل الآدميّ ، لا يلحقها الفارس ، تؤذي الناس ، ويظهر في الليل أيضًا شبه نار تضيء ، فإذا مشى أحد ليلحقها بَعُدت عنه ، ولو جرى إليها لا يصل إليها ، بل لا تزال أمامه ، فإذا رماها بحجر فأصابها ، تشظّى منها شرر . وتعظُم عندهم اليقطينة حتى تصنع منها مراكب يعبر فيها في النيل .

٢ . رحلة ابن بطوطة إلى السواحل الشرقية لإفريقية:

وسافرت من مدينة عَدَن في البحر أربعة أيام (في مطلع عام١٣٣١م) ، ووصلت إلى مدينة زيلع (ميناء في الصومال) ، وهي مدينة البرابرة ، وهم طائفة من السودان شافعية المذهب ، وبلادهم صحراء شهرين ، أولها زيلع وآخرها مقدشو ، ومواشيهم الجمال ، ولهم أغنام مشهورة السمن . وأهل زيلع سود الألوان ، وأكثرهم رافضة ، وهي مدينة كبيرة لها سوق عظيمة إلاّ أنها أقذر مدينة في المعمور ، وأوحشها ، وأكثرها نتنًا ، وسبب نتنها كثرة سمكها ، ودماء الإبل التي ينحرونها في الأزقّة .

ولّما وصلنا إليها اخترنا المبيت بالبحر على شدّة هوله ، ولم نَبِت بها لقذرها . ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ، ووصلنا مقدشو (العاصمة

الصومالية ، أُسّست في القرن العاشر الميلادي من المهاجرين العرب) وهي مدينة متناهية في الكبر ، وأهلها لهم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم ، ولهم أغنام كثيرة ، وأهلها تجّار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها ، ومنها تُحمَل إلى ديار مصر وغيرها . ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابيق ، وهي القوارب الصغار إليه ، ويكون في كل صنبوق جماعة من شبّان أهلها ، فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطّى ، فيه الطعام ، فيقدّمه لتاجر من تجّار المركب ويقول : هذا نزيلي ، وكذلك يفعل كلّ واحد منهم ، ولا ينزل التاجر من المركب إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان إلاّ من كان كثير التردُّد إلى البلد ، وحصلت له معرفة أهله ، فإنه ينزل حيث شاء ، فإذا أنزل عند نزيله باع له ما عنده ، واشترى له ، ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله ، فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك .

ولّما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه جاء إليّ بعضهم ، فقال له أصحابي : ليس هذا بتاجر ، وإنما هو فقيه ، فصاح بأصحابه ، وقال لهم : هذا نزيل القاضي ، وكان فيها أحد أصحاب القاضي ، فعرفه بذلك ، فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة ، وبعث إليّ أحدهم ، فنزلت أنا وأصحابي ، وسلّمت على القاضي وأصحابه ، وقال لي : بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ ، فقلت : ومَن الشيخ؟ فقال : السلطان ، وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ ، فقلت له : إذا نزلت توجّهت إليه ، فقال لي : إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح ، لا ينزل حتى يرى السلطان ، فذهبت معهم إليه كما طلبوا .

وسلطان مقدشو كما ذكرناه ، يقولون له الشيخ ، واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر ، وهو في الأصل من البرابرة ، وكلامه بالمقدشي ، ويعرف اللسان العربي ، ومن عوائده أنه متى وصل مركب يصعد إليه صنبوق السلطان ، فيسأل عن المركب من أين قدم؟ ومن صاحبه؟ ومن ربانه ، وهو الرئيس ، وما وسقه؟ ومن قدم فيه من التجار ، وغيرهم؟ فيعرف بذلك كله ويُعرَض على السلطان ، فمن استحقّ أن ينزل عنده أنزله . ولّما وصلت مع القاضي المذكور ، وهو يُعرَف بابن

البرهان المصري الأصل ، إلى دار السلطان ، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي ، فقال له : بلغ الأمانة ، وعرّف مولانا الشيخ أن هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز ، فبلغ ثم عاد .

وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل ، فأعطاني عشر أوراق مع قليل من الفوفل ، وأعطى للقاضي كذلك ، وأعطى لأصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق ، وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب عليّ وعلى القاضي ، وقال : إن مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة ، وهي دار مُعَدّة لضيافة الطلبة ، فأخذ القاضي بيدي ، وجئنا إلى تلك الدار ، وهي بمقربة من دار الشيخ ، مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه ، ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه ، وهو الموكَّل بالضيوف ، فقال : مولانا يسلِّم عليكم ، ويقول لكم قدمتم خير مقدم ، ثم وضع الطعام ، فأكلنا .

وطعامهم الأرزّ المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ، ويجعلون فوقه صحاف الكوشان ، وهو الأدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ، ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن والحليب ، ويجعلونه في صحفة ، ويجعلون اللبن المريب في صحفة ، ويجعلون عليه الليمون المصبَّر ، وعناقيد الفلفل المصبر المخلَّل والمملوح والزنجبيل الأخضر والعنبا ، وهي مثل التفاح ولكن لها نواة ، وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة ، وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبّرونها في الخل ، وهم إذا أكلوا لقمة من الأرزّ أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخلَّلات ، والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة ، وهم في نهاية من ضخامة الأجسام وسمنها ، ثم لمّا أُطعِمنا انصرف عنا القاضي .

وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى إلينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم وتلك عادتهم ، فلمّا كان اليوم الرابع ، وهو يوم الجمعة ، جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة ، وكسوتهم فوطة خزّ يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل فإنهم لايعرفونها ، ودرّاعة من المقطع المصري معلمة ، وفرجية من المقدسي مبطّنة ، وعمامة مصرية معلمة ، وأتوا لأصحابي بكُسى تناسبهم ،

وأتينا الجامع فصلّينا خلف المقصورة ، فلمّا خرج الشيخ من باب المقصورة ، سلمت عليه مع القاضي فرحَّب ، وتكلَّم بلسانه مع القاضي ، ثم قال باللسان العربي : قدمت خير مقدم ، وشرّفت بلادنا ، وآنستنا .

وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده ، وهو مدفون هناك ، فقرأ ودعا ، ثم جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلّموا ، وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن : يضع سبّابته في الأرض ثم يجعلها على رأسه ، ويقول : أدام الله عزّك . ثم خرج الشيخ من باب المسجد ، فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل ، وأمرني أن أنتعل ، وتوجّه إلى منزله ماشيًا ، وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلّهم حفاة ، ورُفِعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملوّن ، وعلى أعلى كلّ قبة صورة طائر من ذهب ، وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر ، وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان ، وهو متقلّد بفوطة حرير معتمّ بعمامة كبيرة ، وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار وأمراء الأجناد أمامه وخلفه ، والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ، ودخل إلى مشورة على تلك الهيئة ، وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك ، وفُرِش للقاضي بساط ، لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ، ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر فلمّا صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفًا على قدر مراتبهم ، ثم ضُرِبت الأطبال والأنفار والأبواق والصرنايات ، وعند ضربها لا يتحرّك أحد ولا يتزحزح من مقامه ، ومن كان ماشيًا وقف فلم يتحرّك إلى خلف ولا إلى أمام ، فإذا فرغ من ضرب الطلبلخانة سلّموا بأصابعهم كما ذكرناه ، وانصرفوا ، وتلك عادة لهم في كلّ يوم جمعة .

وإذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ ، فيقعدون في سقائف خارج الدار ، ويدخل القاضي ، والفقهاء ، والشرفاء ، والصالحون ، والمشايخ ، والحجّاج ، إلى المشور الثاني ، فيقعدون على دكاكين خشب مُعَدّة لذلك ، ويكون القاضي على دكّانة وحده ، وكل صنف على دكانة تخصّهم ، لا يشاركهم فيها سواهم ، ثم يجلس الشيخ بمجلسه ، ويبعث إلى القاضي ، فيجلس عن

يساره ، ثم يدخل الفقهاء ، فيقعد كبراؤهم بين يديه ، ويسلّم سائرهم ، وينصرفون ، وإن كانوا ضيوفًا جلسوا عن يمينه ، ثم يدخل المشايخ والحجاج ، فيجلس كبراؤهم ، ويسلّم سائرهم ، وينصرفون ، ثم يدخل الوزراء ، ثم الأمراء ، ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى ، فيسلّمون وينصرفون ، ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ، ومن كان قاعدًا بالمجلس ، ويأكل الشيخ معهم ، وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معهم ، ويأكل سائر الناس بدار الطعام ، وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ، ثم يدخل الشيخ إلى داره ، ويقصد القاضي والوزراء ، وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس ، وأهل الشكايات ، فما كان متعلّقًا بالأحكام الشرعية حَكَم فيه القاضي ، وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والأمراء ، وما كان مفتقرًا إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه ، فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم .

ثم ركبت من مدينة مقدشو متوجّهًا إلى بلاد السواحل قاصدًا مدينة كلوا (بلاد السواحل الشرقية جنوب الصومال) من بلاد الزنوج ، فوصلنا إلى جزيرة منبسى (جنوب خط الاستواء) ، وهي كبيرة ، بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ، ولا برّ لها ، وأشجارها الموز والليمون والأترجّ ، ولهم فاكهة يسمونها الجمون ، وهي شبه الزيتون ، ولها نواة كنواه إلاّ أنها شديدة الحلاوة ، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة إنما يجلب إليهم من السواحل ، وأكثر طعامهم الموز والسمك ، وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح ، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان ، وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان ، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان ، فيسقون منها الماء بقدح خشب قد غُرز فيه عود رقيق في طول الذراع ، والأرض حول البئر والمسجد مسطحة ، فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ، ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ، ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصبّ على يديه ، ويتوضّأ ، وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام ، وبتنا بهذه الجزيرة ليلة .

وركبنا البحر إلى مدينة كلوا (كيلوا كيزواني في تنزانيا) ، وهي مدينة عظيمة ساحلية ، أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ، ولهم شرطات في وجوههم ، كما هي في وجوه الليميين من جناوة (غينيا) . وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة (مدينة يشار إليها كثيرًا في المؤلفات الجغرافية ، تقع على الخط١٠° ٢٠ جنوبًا والخط٤٢° ٣٤ شرقًا) على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ، وأن بين سفالة ويوفي (مقر مملكة النوبة في إفريقية الغربية) ، من بلاد الليميين مسيرة شهر ، ومن يوفي يؤتى بالتبر إلى سفالة . ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة ، وكلّها خشب ، وسقف بيوتها الديس ، والأمطار بها كثيرة ، وهم أهل جهاد لأنهم في برّ واحد مع كفّار الزنوج ، والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب .

وكان سلطان كلوا ، في عهد دخولي إليها ، أبو المظفر حسن ، ويكنّى أيضًا بـ(أبو المواهب) لكثرة مواهبه ومكارمه . وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ، ويأخذ الغنائم ، فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى ، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة ، فإذا جاء الشرفاء دفعه إليهم . وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ، ومنصور بن لبيد بن أبي نمي ، ومحمد بن شميلة بن أبي نمي ، ولقيت بمقدشو أتيل بن كبش بن جماز ، وهو يريد القدوم عليه .

وهذا السلطان له تواضع شديد ، ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ، ويعظم أهل الدين والشرف . حضرته يوم جمعة وقد خرج إلى الصلاة قاصدًا إلى داره ، فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له : أبا المواهب ، فقال له : لبَيك يا فقير ، ما حاجتك؟ قال : أعطني هذه الثياب التي عليك ، فقال له : نعم أعطيكها ، فقال : الساعة ، قال : نعم الساعة ، فرجع إلى المسجد ، ودخل بيت الخطيب ، فلبس ثيابًا سواها ، وخلع تلك الثياب ، وقال للفقير : ادخل فخُذها ، فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل ، وجعلها فوق رأسه ، وانصرف ، فعَظُم شكر

الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه ، وأخذ ابنه ، وليّ عهده ، تلك الكسوة من الفقير ، وعوّضه عنا بعشرة من العبيد . وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك ، فأمر للفقير أيضًا بعشرة رؤوس من الرقيق ، وحملين من العاج ، ومعظم عطاياهم من العاج ، وقلّما يعطون الذهب ، ولمّا توفي هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ، ولي أخوه داود ، فكان على الضدّ : إذا أتاه سائل يقول له : مات الذي كان يعطي ، ولم يترك من بعده ما يُعطى ، ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة ، وحينئذ ، يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه .

الفصل السادس

القسطنطينية في أعين الرحّالة العرب

١. إطار تاريخي:

عرف الجغرافيون العرب مدينة القسطنطينية منذ وقت مبكّر، وذكروها، بأسمائها المتعدّدة، في مصادرهم الجغرافية: إسلامبول، وإسطنبول، والآستانة، وأشاروا إلى أسمائها القديمة أيضًا، مثل: بوزنطيا، وبوزنطيوم، بيزانطيون، والتسميات الأخيرة اشتقّت، في الأصل، من اسم المغامر اليوناني Byzas الذي جاء، في حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، من مدينة ميغارا، وهي من أوائل المدن الإغريقية، فأنشأ مستعمرة صغيرة أصبحت، فيما بعد، نواة مدينة القسطنطينية، وتلك التسميات كافّة تنسب إلى بيزاس بلواحق مختلفة، تتغيّر بين عصر وعصر بحسب النسبة، وطريقة النُطق. وكانت تلك المستعمرة تشرف على ممر مائي متشعّب، يحيط بها من جهات ثلاث، تقابلها مستعمرة أخرى، هي كالسيدون (خلقدونية) التي خطّها الهيلينيون، قبل ذلك بقليل، في الطرف الآخر عبر المضيق المائي.

وسرعان ما أصبحت المستعمرة الأولى مدينة مركزية تصارَع عليها، في القرون اللاحقة، الفرس والإغريق والرومان والعرب والعثمانيون، فحوصرت، وخرّبت أكثر من مرّة، وأُعيد بناؤها باسم «أغوسطا أنطونينا». لكن الإمبراطور قسطنطين هو الذي منحها هويّتها التاريخية المعروفة حينما جعلها عاصمة للإمبراطورية في عام ٣٣٠م وأطلق عليها تسمية «وفا روم» أي «روما الجديدة»، فلم تستجب للتسمية الجديدة، إنما عرفت بمدينة قسطنطين «Konstantinopolis». واحتفظت، طوال القرون الوسطى، باسمها «القسطنطينية». على أن كل تلك التغييرات لم تطمس مفعول الاسم القديم للمستعمرة الصغيرة بيزانطيون «Byzantion» إذ سُمّي الجزء الشرقي من الإمبراطورية المتفكّكة بذلك الاسم «الإمبراطورية البيزنطية» بعد انحلال الإمبراطورية الرومانية.

وعلى إثر الفتح العثماني للمدينة، في ٢٩ مايو/أيار ١٤٥٣م، جرى تسميتها بـ«إسطنبول»، ويرجّح أن اللفظ منحوت من العبارة اليونانية Eis ten Polin أو Is tin Polin، ومعناها: صوب المدينة، أو باتّجاه المدينة. وقد خرّج بعض الباحثين اسم «إسلامبول» على أنه «مدينة الإسلام»، حيث أراد العثمانيون أن يجعلوا منها الحاضرة الإسلامية ابتداءً من منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، فأصبحت كذلك لعدّة قرون.

أكثر الجغرافيون والرحّالة العرب الأوائل من استخدام اسم «القسطنطينية» فورد ذكرها عند كلّ من المسعودي، وابن خرداذبه، وابن رسته، وابن الفقيه، وابن الوردي، والبكري، والإدريسي، وذكرها المتأخرون باسم اسطنبول والآستانة، وتكلّموا عنها في كافّة المراحل: التاريخية والسياسية والدينية التي مرّت بها. ومن الصعب إحصاء عدد الرحّالة الذين زاروها في حقبتيها البيزنطية والعثمانية، ولكن تراثًا ضخمًا من المدوّنات الجغرافية، وأدب الرحلة، تراكم حول هذه المدينة المركزية التي ظلت مثار اهتمام سائر الإمبراطوريات الكبرى المتنافسة.

نريد الوقوف على صور القسطنطينية في أعين ثلاثة من الرحّالة الذين دفعتهم ظروف متباينة لزيارتها، أولهم هارون بن يحيى الذي أُسر، واقتيد إلى المدينة في حوالي العقد الأخير من القرن التاسع الميلادي، وربما يكون قد حدث ذلك في عام ٨٨٦ م أو بعده بسنوات قليلة، أي في عهد الخليفة العباسي المعتمد على الله الذي حكم بين الأعوام ٨٧٠ -٨٩٢ م، أو المعتضد بالله الذي حكم بين الأعوام ٨٩٣ - ٩٠٢ م. ويوافق ذلك تقريبا عهدي الإمبراطورين البيزنطيين باسيليوس الأول الذي حكم بين الأعوام ٨٦٧-٨٨٦ م. وليو السادس في الأعوام ٨٨٦-٩١٢ م، لكن بعض المحقّقين من أمثال «كراتشوفسكي» رجّح أن يكون ذلك قد وقع في عام ٩٠٠ م، واستبعد أن يكون أسر هارون قد وقع في عام ٩١٢، فذلك عنده «فرض بعيد الاحتمال»[١].

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج١، ص١٣٥.

أورد ابن رستـه ، المتوفّى نحو عـام ٩١٢م ، نصّ رحلة هارون في كتـابه «الأعلاق النفيسة» فروايته قريبة جدًا من الزمن الذي يفترض أنّ هارون بن يحيى قد أسر فيه . ويستبعد أن يكون التاريخ الأخير هو الصحيح ، ففيه توفي ابن رسته نفسه ، ولابدّ أن تكون رحلة هارون معروفة قبل ذلك بسنوات ، تتيح لذلك الجغرافي أن يدرجها في كتابه . وليس من المعروف كيفية حصول ابن رسته على الرواية التفصيلية التي جاءت على لسان هارون . وبالنظر إلى الجهل المصاحب لظروف الأسر ، ومصير الأسير نفسه ، لا يعرف على وجه التحديد كيف منحت الفرصة لهارون للتجوال في أنحاء المدينة ووصفها وصف عارف إلا على اعتبار أنه قد حُرِّر من الأسر ، ومكث فيها مدة أتاحت له كل ذلك ، ثم أُخذ إلى روما بعد ذلك ، إذ سرعان ما أصبحت روايته أصلاً معتمدًا لكثير من المظانّ الجغرافية التي أتت على ذكر المدينتين ، فيما بعد . ويرجّح أنه أول عربي زار القسطنطينية وقدّم عنها وصفًا شاملاً ، وقد تكشّفت معرفته الجغرافية والدينية والتاريخية بأحوال المدينة على نحو مثير للتقدير .

أما الرحّالة الثاني ، فهو ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٧٧م) ، الذي زار المدينة ، وهو في الثلاثين من عمره ، قادما من جهة القرم ، بقافلة كبيرة تخصّ السلطانة(=الخاتون) الرومية «بيلون» زوجة السلطان المغولي محمد أوزبك خان ، لزيارة أهلها ، ومكث في المدينة ستة وثلاثين يومًا ، وذلك في بداية خريف عام ١٣٣٤م ، وخلال هذه الفترة كان الإمبراطور هو أندرونيكوس الثالث الذي حكم بين الأعوام ١٣٢٨-١٣٤١م ، وقدّم ابن بطوطة وصفًا شائقًا عن المدينة في رحلته «تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» .

وثالث هؤلاء الرحّالة هو الإمام محمد رشيد رضا(١٨٦٥-١٩٣٥م) الذي زارها في عام ١٩٠٩ بعد سنة من إعادة العمل بالدستور العثماني المعطّل إذ بدأت الحقبة الدستورية ، وقد توجّه الإمام إلى المدينة ، للسعي في إنشاء معهد إسلامي ، والتوسّط لتحقيق التفاهم بين عنصري السلطنة الأكبرين العرب والترك ، فطاف في أرجاء عاصمة الخلافة ، وكتب عنها في مجلّته «المنار»

سلسلة انطباعات، ظهرت خلال عام١٩١٠م، ثم جُمعت، فيما بعد، ونُشرت في كتاب «رحلات الإمام محمد رشيد رضا».

ومن الجدير بالذكر أن الجغرافيين العرب قد اعتمدوا على ملاحظات الرحّالة في معظم ما أوردوه عن المدينة من أوصاف، فيما بعد، وأخصّ منهم الحميري في كتابه «الروض المعطار في خبر الأقطار»[1] الذي أعاد سبك ما تركه السابقون عليه، فكانت المدونة الكتابية حولها تنمو، ويعاد صقلها، بين عصر وآخر، دون ما يطرأ عليها تغيير كبير. وبالنظر إلى أهمّيّة نصوص الرحّالة العرب حول المدينة، وتعذّر الحصول عليها إلا بصعوبة، فقد حرصنا على إيرادها كاملة في تضاعيف هذا الفصل الذي يتطلّع إلى تقديم تحليل مقارن، يقوم على تباين رؤية الرحّالة العرب للقسطنطينية في ضوء مواقفهم الدينية والفكرية، آخذين في الحسبان أن الفارق الزمني بين الصورتين الأولى والثانية تقارب٤٥٠ عاما، وبين الثانية والثالثة نحو ٥٧٥ سنة، فخلال أكثر من ألف سنة تعاقب على حكم المدينة عدد كبير من الأباطرة، والملوك، والبابوات، والسلاطين، وعرفت لحظات صعود تاريخي كبير، ولحظات أفول وتراجع، ومع ذلك فقد حافظت على تنوّعها الديني والعرقي والثقافي، وعلى موقعها الرمزي كونها العروة التي ربطت الشرق بالغرب، والإسلام بالمسيحية. وكانت نقطة التماسّ بين المركزيتين الإسلامية والغربية، وموضوعًا للتنافس بينهما.

٢. هارون بن يحيى أسيراً في القسطنطينية:

أورد ابن رسته في مطلع القرن العاشر الميلادي رحلة هارون بن يحيى إلى القسطنطينية التي اقتيد إليها أسيرًا من بلاد الشام، وحُمل على طريق البحر في المراكب باتجاه العاصمة البيزنطية، فساروا ثلاثة أيام حتى بلغوا أنطالية، وهي

---

(١) محمد عبد المنعم الحِمْيَري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مؤسّسة ناصر للثقافة، ١٩٨٠، ص: ٤٨١ و٤٨٢.

على ساحل البحر ، ثم حملوا منها مسيرة ثلاثة أيام في الجبال والأودية والمزارع ، حتى انتهي بهم الارتحال إلى مدينة ، يقال لها نقية (=نيقية) وهي مدينة عظيمة ، بها ناس كثير ، ثم انتهوا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة يقال لها سنقرة ، (=الأرجح أنه يقصد أنقرة لا قرية سنقرة في شمال سورية) ، وهي صغيرة في صحراء ملساء . ويكتفي ابن رسته بهذا القدر الوجيز من التلخيص الواصف لمرور هارون بن يحيى في الأناضول ، ثم ينتقل مباشرةً إلى تضمين رحلته بضمير المتكلّم في ثنايا كتاب «الأعلاق النفيسة» ، وهي تمثل ملاحظات شاهد عيان من الدرجة الأولى لمدينة كبيرة أثارت الاهتمام في نفس هارون ، مثلما أثارت الدهشة والعجب .

قال هارون بن يحيى : «ثم خرجنا مشاة ، فمشينا في الصحراء ، ويمنتنا ويسرتنا قرى للروم ، حتى انتهينا إلى البحر في مقدار يومين ، ثم ركبنا البحر فسرنا مقدار يوم حتى انتهينا إلى مدينة قسطنطينية ، وهي مدينة عظيمة . اثنا عشر فرسخا في اثني عشر فرسخًا . وفرسخهم على ما ذكر ميل ونصف . ويحيط البحر مما يلي المشرق منها ، وغربيها صحراء يؤخذ منها إلى الرومية (=مدينة روما) وعليها حصن ، والباب الذي يؤخذ منه إلى الرومية من ذهب وإلى جانبه ناس من خدمه ، ويسمّى باب الذهب . وعلى الباب تماثيل خمسة على مثال الفيلة ، وتمثال على صورة رجل قائم ، قد أخذ بزمام تلك الفيلة . ولها باب مما يلي الجزيرة ، يقال له باب بيغاس ، موضع يتنزّه الملك إليه ، وهو باب من حديد .

وبقرب الكنيسة في وسط المدينة بلاط الملك ، وهو قصر وإلى جانبه موضع يقال له البذرون (= يرجّح أنه يقصد Hippodrome أي ساحة الألعاب العامة في قلب المدينة) وهو يشبه الميدان يجتمع فيه البطارقة فيشرف عليهم الملك من قصره في وسط المدينة . وقد صوّر في القصر أصنام مفرغة من صفر ، على مثال الخيل ، والناس ، والوحوش ، والسباع ، وغير ذلك . وعلى غربي الميدان مما يلي باب الذهب بابان يسوقان إلى هذين البابين ثمانية من الخيل ، وهناك عجلتان من ذهب يشدُّ كل عجلة على أربعة من الخيل ، ويركب فوق العجلة رجلان قد

أُلبِسا ثيابًا منسوجة بالذهب ، ويتركها تجري بما نيط إليها من العجل حتى تخرج من تلك الأبواب ، فتدور على تلك الأصنام ثلاث دورات ، فأيُّها سبق صاحبها أُلقي إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب ، وكلّ من في قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ، ويبصرون .

وعلى قصر الملك سور واحد يحيط بجميع القصر ، ودورانه فرسخ . أحد جنباته مما يلي المغرب ، متّصل بالبحر وله ثلاثة أبواب من حديد ، يقال لأحدها باب البيدرون ، والآخر باب المنكنا ، والثالث باب البحر ، وأمّا باب البيدرون فتدخل في دهليز مقدار مائة خطوة في عرض خمسين خطوة ، وعلى الجانبين من الدهليز أسرّة ، موضوعة عليها فرش من ديباج ومضربات ووسائد ، وعليها قوم من السودان متنصّرة ، بأيديهم أترسة ملّبسة ذهبا ، ورماح عليها ذهب .

وأمّا باب المنكنا فتدخل إلى دهليز طوله مقدار مائتي خطوة في عرض خمسين خطوة مفروش بالرخام وأسرّة موضوعة في جانبي الدهليز ، عليها قوم خَزر في أيديهم القسّى ، وفي الدهليز أربعة حبوس : حبس منها للمسلمين ، وحبس لاهل طرسوس ، وحبس للعامّة ، وحبس لصاحب الشرط . وباب البحر فإنّك تدخل في دهليز طوله ثلاثمئة خطوة في عرض خمسين خطوة ، وهو مفروش بآجر أحمر . وفي الدهليز أسرّة يمنة ويسرة عليها فرش متّخذة ، وعليها قوم أتراك ، بأيديهم القسيّ والأترسة ، فتمضي في الدهليز حتى تنتهي إلى فضاء مقدار ثلثمائة خطوة ثم تنتهي إلى الستر المعلّق على الباب الذي يفضي إلى الدار ، ويسرة الداخل كنيسة الملك (= يرجّح أنه يقصد بها آيا صوفيا) ولها عشرة أبواب أربعة منها ذهب وستة فضة ، وفي المقصورة التي يقف عليها الملك موضع أربع أذرع في أربع أذرع ، مرصّع ذلك الموضع بالدّر والياقوت ، وكذلك مسنده الذي يستند إليه مرصّع بالدرّ والياقوت .

وعلى باب المذبح أربعة أعمدة من رخام منقورة من قطعة واحدة ، وطول المذبح الذي يصلّي عليه القُسُّ ستة أشبار في عرض ستة أشبار ، وهو قطعة خشب عود قماريّ مرصّع بالدرّ والياقوت يقف عليه قُسّ الملك . وسائر سقوف

الكنيسة كلّها آزاج معمولة من الذهب والفضة . ولهذه الكنيسة أربعة صحون كل صحن منها مئتا خطوة في عرض مئة خطوة . وأمّا الصحن الشرقي ففيه جرن محفور من رخام ، طوله عشرة أذرع في عرض مثلها ، وقد نُصِب هذا الجرن على رأس عمود من رخام ارتفاعه من الأرض أربعة أذرع قد عقد عليه قبّة من رصاص ، وأعلى القبّة قبّة من فضة تحمل هذه القبّة اثنا عشر عموداً طول كل عمود أربعة أذرع أحد أعمدتها على رأسه صورة بازى ، وعلى الثاني صورة حمل ، وعلى الثالث صورة ثور ، وعلى الرابع تمثال ديك ، وعلى الخامس تمثال أسد ، وعلى السادس تمثال لبوة ، وعلى السابع تمثال ذئب ، وعلى الثامن تمثال قبج ، وعلى التاسع تمثال طاووس ، وعلى العاشر تمثال فرس ، وعلى الحادي عشر تمثال فيل ، وعلى الثاني عشر تمثال ملك .

وبالقرب من هذه القبّة في هذا الصحن على مئتي خطوة صهريج (= الأرجح يقصد صهريج البازيليك) قد أجرى منه الماء إلى تلك التماثيل على رؤوس الأساطين ، فإذا كان يوم عيدهم مُلِىء ذلك الصهريج بمقدار عشرة آلاف دورق نبيذ ، وألف دورق عسل أبيض يطرح على ذلك الشراب ، فيطيَّب بالسنبل والقرنفل والدار صيني مقدار حمل ، ويغطّى ذلك الصهريج إلاّ شيئا منه بشيء ، فإذا خرج الملك إلى خارج ، ودخل الكنيسة ، وقع عينه على تلك الصور وما ينبع من أفواهها وآذانها من ذلك الشراب ، فيجتمع في الجرن حتى يمتلئ ، فيسقى كلّ من خرج معه من حَشَمه إلى العيد كل واحد شربة . فإذا رفعت الستر ودخلت الدار فهو صحن عظيم طوله أربع مئة خطوة في مثلها مفروش بالرخام الأخضر مزوّق الحيطان بالفسيفساء وألوان التزاويق . وعلى اليمنى من داخل الدار بيت مال الملك ، وفي جوفه تمثال فرس قائم عليه فارس قد اتخذت عيناه من ياقوتتين حمراوين . وعلى شمال الداخل مجلس يكون طوله مئتي خطوة في عرض خمسين خطوة ، وفي المجلس مائدة من خلنج ومائدة من عاج .

وفي الصدر من المجلس مائدة من ذهب ، فإذا انقضى العيد وخرج من الكنيسة جاء الملك إلى هذا المجلس فقعد في الصدر على مائدة الذهب ، وهو يوم

الميلاد ، ويؤمر فيؤتى بأسارى المسلمين ، فيقعدوا على تلك الموائد ، وتحمل إليه عند قعوده في الصدر أربع موائد من ذهب ، تُحمَل كلّ مائدة على عجلة . يقال إن إحدى تلك الموائد كانت لسليمان بن داود عليه السلام مرصّعة بالدّر والياقوت ، والثانية لداود (عليه السلام) مرصّعة أيضا ، والثالثة مائدة قارون ، والرابعة مائدة قسطنطين الملك ، فتوضع بين يديه ولا يؤكل عليها إنما تترك ما دام الملك على مائدته ، فإذا قام رُفِعت ثم يؤتى بالمسلمين وعلى تلك الموائد من الحارّ والبارد أمر عظيم ، ثم ينادى منادى الملك فيقول : وحياة رأس الملك ، ما في هذه الأطعمة شيء من لحم خنزير ، وينقل إليهم تلك الأطعمة في صحاف الذهب والفضة ، ثم يؤتى بشيء يقال له الأرقنا ، وهو شيء متَّخذ من الخشب المربّع على صنعة معصرة ، وتغشى تلك المعصرة بأدم وثيق ، ثم يجعل فيه ستون أنبوبة من صفر رؤوسها إلى أنصافها إلى فوق قد غشيت تلك الأنابيب بالذهب فوق الأدم حتى لا يبين منها إلا اليسير على تقارب أقدارها واحدة أطول من الأخرى .

وإلى جانب هذا الشيء المربّع ثقب ، يُجعَل فيه منفخ ككور الحدادين ، ويؤتى بثلاثة صلبان فيجعل اثنان منها في طرفيه وواحد في الوسط ، ثم يؤتى برجلين ينفخان في ذلك المنفخ ، ويقوم الأستاذ فيحسب على تلك الأنابيب فيتكلّم كل أنبوبة بحالها ، على حسب ما يحسب عليه من الثناء على الملك ، والقوم كلهم جلوس على الموائد ، ويدخل عليه عشرون رجلاً بأيديهم الحلباقات والحلباق والصنج ، يضربون فيها ، ما داموا يأكلون ويطعمون على هذه الصفة اثني عشر يوما ، فإذا كان آخر هذه الأيام يعطى كل أسير من المسلمين دينارين وثلاثة دراهم ، ثم يقوم الملك ويخرج من باب البيدرون .

عند خروج الملك إلى الكنيسة العظمى التي للعامة(= يُرجّح أن المقصود بها دير إستديوس الذي بُنِي في نحو منتصف القرن الخامس الميلادي) يأمر بأن يُفرَش له في طريقه من باب القصر إلى الكنيسة التي للعامّة في وسط المدينة حصر ، ويطرح فوقها رياحين وخضرة ، ويزيّن الحائط يمنة ويسرة من ممره بالديباج ، ثم يخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر مسبلة

شعورهم إلى أكتافهم ليس عليهم برانس ، ثم يجيء خلفهم عشرة آلاف شابّ عليهم ديباج أبيض مشاة كلّهم ، ثم يجيء عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أخضر ، ثم يجيء عشرة آلاف خادم عليهم ديباج لون السماء ، في أيديهم الطبرزينات الملبسة ذهبًا ، ثم يجيء بعدهم خمسة آلاف خصيّ أواسط عليهم ملحم خراساني أبيض بأيديهم صلبان ذهب ، ثم يجيء بعدهم عشرة آلاف غلام أتراك وخزر ، عليهم صدر مسيّرة بأيديهم رماح وأترسة ملبّسة كلها ذهبا ، ثم يجيء مئة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملّون بأيديهم مجامر من ذهب يبخرون بالعود القمارى ، ثم يجيء اثنا عشر بطريقا من رؤساء البطارقة عليهم ثياب منسوجة بالذهب ، في يد كل واحد قضيب من ذهب ، ثم يجيء مئة غلام ، عليهم ثياب مشهّرة مرصّعة باللؤلؤ يحملون تابوتا من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته ، ثم يجيء رجل بين يديه ، يقال له الرحوم ، يسكّت الناس ، ويقول : اسكتوا .

ثم يجيء رجل شيخ ، وبيده طشت وإبريق من ذهب مرصّعان بالدرّ والياقوت ، ثم يقبِّل الملك وعليه ثياب الأكسيمون ، وهي ثياب من إبريسم منسوج بالجوهر ، وعلى رأسه تاج ، وعليه خفّان أحدهما أسود ، والآخر أحمر ، وخلفه الوزير . وبيد الملك حُقّ من ذهب فيه تراب ، وهو راجل كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانهم «من رمونت إبيابطرا» وتفسيره «أذكروا الموت» . فإذا قال له ذلك ، وقف الملك ، وفتح الحُقّ ، ونظر إلى التراب ، وقبّله ، وبكى . فيسير كذلك حتى ينتهي إلى باب الكنيسة ، فيقدّم الرجل الطشت والإبريق ، فيغسل الملك يده ، ويقول لوزيره «إنّي بريء من دماء الناس كلّهم ؛ لأن الله لا يسألني عن دمائهم ، وقد جعلتها في رقبتك» . ويخلع ثيابه التي عليه على وزيره ، ويأخذ دواة بلاطس ، وهي دواة الرجل الذي تبرّأ من دم المسيح عليه السلام ، ويجعلها في رقبة الوزير ، ويقول له «دِنّ بالحق كما دان بلاطس بالحق» . ويدور به على أسواق قسطنطينية ، فينادون به «دِنّ بالحقّ كما قلّدك الملك أمور الناس» .

ثم يأمر الملك بإدخال أسارى المسلمين الكنيسة ، فينظرون إلى تلك الزينة والملك ، فيصيحون «أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة» ثلاث مرات . ثم يؤمر فيخلع عليهم ، ويساق خلفه ثلاث جنائب شهب عليها سروج ذهب مرصّعة بالدرّ والياقوت ، وجلال ديباج مرصّعة أيضا بمثل ذلك لا يركبها فيدخلونها إلى الكنيسة ، ولها بها لجام معلّق ، يقولون إنه متى أخذت الدابّة اللّجام في فمها ظفرنا ببلاد الإسلام ، فتجيء الدابّة ، فتشم اللجام ، فتراجع إلى خلفها ، ولا تتقدّم إلى اللجام . ويقال إن هذه الدوابّ من نسل دابّة كانت لأوسطاط .

ثم ينصرف الملك من الكنيسة إلى قصره . وفي غربي الكنيسة ، على عشرة خطى ، عمود يكون طوله مقدار مئة ذراع ، وهو مركّب عمود على عمود قد شبّك العمود بسلاسل من فضّة ، على رأس العمود مائدة من رخام مربّعة ، أربعة أذرع في أربعة أذرع ، وفوقها قبر معمول من رخام ، فيه أسطليانس الذي بنى هذه الكنيسة ، وفوق القبر تمثال فرس من صفر ، وفوق الفرس صورة أسطليانس ، وعلى رأسه تاج من ذهب مرصّع بالدرّ والياقوت(= ربما قصد به تمثال الإمبراطور تيودوسيوس) . وذكر أنه تاج هذا الملك ، ويده اليمنى قائمة كأنه يدعو الناس إلى قسطنطينية . وعلى الباب الغربي من الكنيسة مجلس فيه أربعة وعشرون بابا صغارا ، كل باب شبر في شبر ، معمولة على ساعات الليل والنهار ؛ فكلّما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها ، وإذا انغلقت انغلقت من ذات نفسها . وذكروا أنه اتّخذ ذلك بلونيوس .

وذُكر أن خيلهم معلّمة لا تبرح من مكانها ، ولا يحتاج إلى من يمسكها إذا نزل عنها القُوّاد ، ولا تصيح ولا تجلب ، إنما يقال لها شطه فتقف كذلك إلى أن يخرج صاحبها من عند الملك . قال(=هارون بن يحيى) فسألت بعض الناس عن أمرها ، فذهبوا بي إلى ثلاثة تماثيل من صفر على هيئة الفرس منصوبة على باب الملك عملها بلونيوس الحكيم طلسما للدواب ألا تصهل ولا يشغب بعضها على بعض . وعلى باب الملك أيضا أربع حيات معمولة من صفر ، أذنابها في أفواهها طلسمًا للحيات ألاّ تضرّ . يقصد الصبيّ إلى حيّة فيأخذها فلا تضرّه .

وبما يلي باب الذهب من المدينة قبّة قنطرة معقودة في وسط سوق المدينة فيها صنمان واحد يشير كأنه يقول بيديه هاته ، والآخر يشير بيده كأنه يقول اصبر ساعة . وهما طلسمان ، فيؤتى بالأَسارَى فيوقفون بين هذين الصنمين ينتظر بهم الفرج ، ويذهب رسول يُعلِم الملك ذلك ، فإن رجع الرسول ، وهم وقوف ، ذهب بهم إلى الحبس ، وإن وافاهم الرسول ، وقد جوّز بهم الصنمين ، قُتِلوا ، ولم يبق منهم على أحد . ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال له بلغر ، يجري إليها هذا النهر من مسيرة عشرين يوما ، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاثة أثلاث ، فثلث يذهب إلى دار الملك ، وثلث يذهب إلى حبوس المسلمين ، والثلث الثالث يذهب إلى حمّامات البطارقة . وسائر أهل المدينة فإنهم يشربون الماء الذي بين العذب والمالح . وأهل بلغر يحاربون الروم ، والروم تحاربهم»[1] .

من الصعب التحقّق فيما إذا كان نص الرحلة منسوبا بكامله إلى هارون بن يحيى ، الذي يتضاءل ذكره بين رجال القرن التاسع ، ولكن ، بالمقارنة مع الأدبيات الجغرافية التي ظهرت في تلك الحقبة ، فلا يستبعد أن ابن رسته قد تدخّل في صوغ النص بما يجعله محافظًا على أسلوب الأدب الجغرافي الذي كان شائعا آنذاك ، وفيه تتكرّر لوازم أسلوبية ، ومعنوية . تظهر الأولى في الولع بالأطوال والمقاييس ، والنهل من ذخيرة لفظية وصفية تلامس مظاهر الأشياء ولا تغوص فيها ، فضلا عن التفاصيل الدقيقة التي تكشف مبالغة لا تخفى ، ولا يتاح لأحد وصفها بسهولة ، منها مثلا معرفة لغة الروم ، أو فهم محاوراتهم فيها . وتتجلّى المعنوية في إسقاط تصوُّرات إسلامية على كافة الأشكال ، والتماثيل ، والرسومات ، بوصفها أصنامًا وطلاسم ، فالسرد الوصفي يقدِّم مشهدًا شبه ثابت للقصور ، والكنائس ، والأسوار ، والبوابات ، والتماثيل ، وحينما يظهر الملك في المشهد تتحرّك العناصر الأخرى ، من حرس ، وقسوس ، ورهبان ، وأتباع ، وينتهي المشهد بطقس ديني كرنفالي .

---

(١) انظر نص الرحلة كاملا في كتاب «الأعلاق النفيسة» ، ليدن ، بريل ، ١٨٩٣ .

إذا أخذنا في الحسبان الدقّة في كل ذلك ، فيلزم أن تكون الفرصة قد مُنحت لهارون بن يحيى في أن يخوض التجارب التي ذكرها كاملة ، ومنها تجربة الأسر ، وزيارة الكنيسة الكبرى ، ومعرفة اللغة ، والتجوال في الطرقات ، والتأمُّل في التفاصيل الخاصة بالأبعاد والأطوال والارتفاعات ، وأعداد الحرس والرهبان ، ولا يتأتّى كل ذلك لأسير ، إلا إذا كان قد تحرّر من قيوده ، وتخطّى تلك التجربة ، فتمكّن من الاقتراب إلى عالم المدينة بكلّ ما فيه ، إذ بدأ بوصف أسوارها ، وبوّاباتها ، والتماثيل الرابضة في طرقاتها . ثم حدّد موقع البلاط الملكي ، فذكر بأنه جوار الكنيسة الكبرى ، وشُغِل بوصف بواباته ، وحرّاسه من أجناس مختلفة كالسودان والخزر والترك ، وهذا قاده إلى ذكر سجون الأسرى ، وكل منها يختصّ بجنس . ثم عرّج على ألعاب الفروسية ، وانتهى بوصف مسهب للكنيسة الكبرى ، فعرض للطقوس الدينية ، والمآدب الإمبراطورية ، وخروج الملك إلى كنيسة العامة لرعاية المراسيم الدينية ، والإشراف على الوعظ ، والدعوة إلى كبح الشهوات والملذّات ، والتصريح بالتبتُّل ، ونشر المحبّة .

أرست هذه الرحلة تقاليد الوصف اللاحقة للقسطنطينية عند معظم الجغرافيين العرب ، واتّضحت فيها رغبة معلَنة في إثارة العجب والدهشة ، وتنضيد المعلومات الجغرافية . وفيها ظهر انتماء رحّالتنا إلى عالم القرون الوسطى بكل معنى الكلمة ، إذ قدم من دار الإسلام حيث تتبوّأ كلمة الله المكانة الأسمى ، إلى دار الكفر حيث الوثنية والضلال ، فعجز عن فكّ الشفرات الدينية للأيقونات ، والتماثيل الخاصة بالقديسين ، والبابوات ، والأباطرة ، ناهيك عن الأشكال الفنية الجمالية المستلهمة من الحقبة الرومانية ، بما فيها من تماثيل تنطوي على دلالات رمزية ، أو وقائع تاريخية ، أو تعود لشخصيات مرموقة من فرسان ، وملوك ، وأباطرة ، وقديسين ، فهذه المنطقة مبهمة عند الرجل القادم من دار الإسلام ؛ لأنه كان يجهل المرجعية الثقافية لذلك العالم المتشابك برموزه ، فأجملَ القول بأنها أصنام وطلسمات . ولم يلبث أن كرّس هذا الأسلوب عند سائر الجغرافيين فيما بعد حيثما دار الحديث عن المدن الكبرى في دار الحرب .

٣. تجوال ابن بطوطة في أرجاء القسطنطينية:

صدق ابن جُزي حينما وصف ابن بطوطة بأنه «السائح الثقة الصدوق، جوّاب الأرض، ومخترق الأقاليم بالطول والعرض» وأنه «طاف الأرض معتبرًا، وطوى الأمصار مختبرًا، وباحث فرق الأمم، وسَبر سِيَر العرب والعجم». وهو الذي «طوى المشارق إلى مطلع بدرها بالمغرب». إنه ذلك الرّحول المسكون بهواجس التجوال، الذي سابق الشمس في إشراقها، وهي تزيح عن العالم غطاء الظلام، فلا غرابة أن يُسمّى «شمس الدين»، وهو يستكشف بإصراره العجيب بلادًا متعددة الأعراق والأديان والثقافات، ثم يستعيد كل ذلك في رحلة باهرة، ومدوّنة كبيرة تؤرِّخ للرغبة الدائمة في البحث والتعلُّم.

ومعلوم أن ابن جزي هو مدوّن رحلة ابن بطوطة، وفي ركن بأقصى غرب دار الإسلام جلس الرحّالة يعيد بناء العالم، بإسراف واضح في السرد، ليحقّق ذاته الأخرى التي لا شاهد على مغامرتها سواه، فبالسرد المتدافع، والغزير، أكّد هويته الشخصية وهويّته الثقافية، وهو يطوف في مشارق الأرض ومغاربها، ويمخر ديار الحرب واحدة إثر أخرى، إذ لم يرُق له أن يمكث في مكان بعينه، وما التمس العذر لنفسه في الاستيطان بأرض ما، ولطالما أثار الدهشة في إصراره على المضيّ في رحلاته أيًا كانت النتائج. وفي غمار كلّ ذلك شهد كثيرًا من الفروقات الثقافية والدينية عند الأمم. وتُعَدّ رحلته الأشمل بين الرحلات العربية، فقد غطّت كثيرا من أرجاء العالم القديم: برًا، وبحرا.

ينبغي أن يستأثر ابن بطوطة بالاهتمام الأول فيما يخص مرويّات الارتحال العربية، فقد اخترق العوالم الثلاثة المعروفة في القرون الوسطى من دون أن يحجم عن طقوسه الدينية والحياتية والفكرية والاجتماعية، وهي: دار الإسلام التي لمس تضاريسها كاملة من الغرب إلى الشرق، ومن الجنوب إلى الشمال، وتجوّل فيها ذهابًا وعودةً. ودار الحرب التي بلغ أبعد نقطة فيها، وهي الشرق الأقصى للصين، وبلاد الخطا، بما في ذلك الهند وكل البلاد المجاورة لها من الشرق، فضلا عن القسطنطينية حاضرة الإمبراطورية البيزنطية، وفي البحر عبر

سيلان ، وجنوب شرقي آسيا بكاملها . ثم دار الصلح أو دار العهد . وحيثما أقام كان يتوافق مع النسيج الثقافي العامّ ، ولا يمكن القول بأن التقاليد والأعراف الدينية قد منعته من الاندماج ، أو حالت دون ذلك ، فقد اتصف بقدرة واضحة على التكيُّف ، وتخطّي الحبسة الثقافية-العقائدية المهيمنة آنذاك .

وكانت رحلاته أوسع من رحلات سلفه «ماركو بولو» الذي سبقه إلى أصقاع الشرق بحوالي ستين سنة . وكما قال «بوكهارت» في وقت مبكر من القرن التاسع عشر فإن ابن بطوطة أعظم رحّالة دوّن ملاحظاته عن العصر الوسيط ، وفضّله «كراتشكوفسكي» على «ماركو بولو» حينما قرَّر أن إحساسه العميق بالبعد الحضاري للشرق كان أعمق بكثير ممّا لدى سلفه الطلياني . وفي وقت كان فيه «ماركو بولو» قد شُغل بالمتاجرة التي استأثرت على ما سواها باهتمامه ، فإن ابن بطوطة شغل بكل شيء ، وتعدّ رحلته ، طبقا للمعايير السائدة في ثقافة القرون الوسطى ، رحلة في طلب العلم بالمعنى الواسع للكلمة ، إذ تتبَّع الأولياء والفقهاء حيثما كانوا ، فما أن يطرق سمعه اسم أحدهم حتى يغيّر مساره إليه من أجل لقائه والتبرُّك به ، ومع أنه تزهّد ، ووزَّع ثروته الكبيرة على الفقراء ، لكنه بالإجمال عاش حياة متجدّدة وحيوية ، أنعشها بالزواج في كلّ بلد زاره تقريبا . وكان قادرا على التعايش والتفاعل بصورة ندر مثيلها في ذلك الوقت .

لم ينظر ابن بطوطة لكثير من الأمم بوصفها كتلا صمّاءَ لا تاريخ لها ، ولا هويات ، إنما كان الاختلاف ينعش مخيّلته وذاكرته على حدّ سواء باستثناء الطقوس الوثنية التي ظل يتحفّظ عليها . وكان حريصا على تتبع الأشياء حيثما كانت ، وكثيرا ما كان ذلك يكلفه جهدا ومشقّة ، ويعرّضه لأخطار حقيقية . وبسبب كل هذا جاءت رحلته نصًا ثقافيًا متعدد المستويات ، فهي مدوّنة شديدة الثراء في كشف العالم الوسيط . ويمكن عدُّها -دون تحفّظ- أحد المصادر الكبرى عن أحوال العالم في ذلك العصر ، لا لأنها السجل الذي ضم بين دفتيه صورة الأحداث ، والأفكار ، والصراعات ، وتقاليد الشعوب ، والعقائد الدينية والدنيوية ، فحسب ، بل لأنها لم تأخذ مسارًا واحدًا في الوصف والحكم ، فهي

تضع ، معًا الأمور في تناقضاتها وتعارضاتها ، وتقدح وتمدح ، لكن ، استنادًا إلى أدلّة تتصل برؤية ابن بطوطة ، ومعتقده ، والنسق الثقافي الذي يغذّي شخصيّته ، وأهم ما كان يثير سخطه الطقوس الوثنية التي يلاحظها ، بحنق معلن ، في دار الحرب .

انطلق ابن بطوطة باتّجاه القسطنطينية ، من جهة البحر الأسود في العاشر من شوال ٧٣٤هـ ، الموافق١٤حزيران١٣٣٤م ، في صحبة الخاتون بيلون ، وهي الزوجة الرومية للسلطان محمد أزوبك خان ، وهو ملك مغولي من القبيلة الذهبية توفي في عام ١٣٤٢م . كانت بيلون تروم زيارة أهلها لوضع مولودها بينهم ، وقد حافظت سرّاً على نصرانيتها ، وخطّطت للبقاء في القسطنطينية ، فلم تعد إلى زوجها عند انتهاء الزيارة .

رافق ابن بطوطة قافلة ضخمة تمثّل موكب السلطانة المتّجه إلى القسطنطينية «كان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدّامها من المماليك والروم نحو مئتين ، والباقون من الترك . وكان معها من الجواري نحو مئتين ، وأكثرهن روميات . وكان لها من العربات نحو أربعمئة عربة ، ونحو ألفي فرس لجرّها وللركوب ، ونحو ثلاثمئة من البقر ومئتين من الجمال لجرّها ، وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ، ومن الهنديين مثلهم . وقائدهم الأكبر يسمى سُنبل الهندي ، وقائد الروميين يسمى ميخائيل . ويقول له الأتراك لؤلؤ ، وهو من الشجعان الكبار ، وتركت جواريها وأثقالها بمحلة السلطان إذ كانت قد توجّهت برسم الزيارة ووضع الحمل» .

وبعد رحلة طويلة حرص ابن بطوطة على وصفها بالتفصيل ، وصلوا جميعا «سرداق» وهي مدينة «سولديا» الحالية في جزيرة القرم ، وكانت «على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها» . ثم توجّهوا إلى مدينة «بابا سلطوق» وكان «بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما في برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها ، يتزود لها الماء ويحمل في الروايا والقرب على العربات» . وفي الطريق كانت السلطانة تُكَرِّم ابن بطوطة «متى أتيتها تبعث إلي

بالفرسين والثلاثة وبالغنم ، فكنت أترك الخيل لا أذبحها ، وكان من معي من الغلمان والخدم يأكلون مع أصحابنا الأتراك ، فاجتمع لي نحو خمسين فرسًا ، وأمرت إليّ الخاتون بخمسة عشر فرسًا» .

ولم يلبث الركب أن دخل البريّة ، في منتصف ذي القعدة (٢٥ يوليو/ تموز ١٣٣٤) ، فـ«كان سيرنا ، من يوم فارقنا السلطان إلى أول البريّة ، تسعة وعشرين يوما ، وإقامتنا خمسة . ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يومًا مضحيً ومعشًى وما رأينا إلا خيرًا والحمد لله . ثم وصلنا بعد ذلك إلى حصن مهتولي ، وهو أول عمالة الروم . وبينه والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما إلى الخليج وستة منها إلى القسطنطينية» . وعاد بعض المرافقين في هذه المرحلة من الطريق ، وبقي مع السلطانة ناسها الخلّص ، فكان «يؤتى إليها بالخمور في الضيافة فتشربها ، وبالخنازير ، وأهملت الصلاة ، وتغيّرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر» .

ثم استُقبلت القافلة من قبل الروم استقبالاً حافلاً من عليّة القوم ، يتقدّمه أخوها وشقيقها في خمسة آلاف فارس شاكّين السلاح . وبتقدّم القافلة كان يتضاعف عدد المستقبلين «وصل أخو الخاتون وليّ العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرّع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم ، وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء إلاّ أن الحفل أعظم والجمع أكثر ، وتلاقت معه أخته في مثل زيها الأول وترجّلا جميعا ، وأوتي بخباء حرير فدخلت فيه ولا أعلم كيفيّة سلامها» .

وتوقّف الركب يرتاح على مسافة عشرة أميال من القسطنطينية «فلما كان الغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانًا ومشاةً في أحسن زي وأجمل لباس ، وضربت عند الصبح الأطبال والأبواق والأنفار وركبت العساكر . وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب هذه الدولة والخواصّ ، وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بأيديهم عِصيّ طوال في أعلى كل عصا شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق ، وفي وسط الرواق مثل القبّة يرفعها

الفرسان بالعصى ، ولـمّا أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج» .

ويمضي ابن بطوطة في وصفه الاستقصائي ، وقد لاحت المدينة أمامه «كان دخولنا عند الزوال أو بعده إلى القسطنطينية العظمى (=الأسبوع الثاني من سبتمبر/أيلول ١٣٣٤م) ، وقد ضربوا نواقيصها حتى ارتجّت الآفاق لاختلاف أصواتها ، ولـمّا وصلنا الباب الأول من أبواب قصر الملك وجدنا به مئة رجل معهم قائد لهم فوق دكانة ، وسمعتهم يقولون «سراكنوا سراكنوا» ومعناها المسلمون(=وتطلق على العرب أيضا ، والروم تسمي العرب سارقنوس أي عبيد سارة زوجة إبراهيم) ، ومنعونا من الدخول . فقال لهم أصحاب الخاتون «إنهم من جهتنا» ، فقالوا «لا يدخلون إلا بإذن» ، فأقمنا بالباب . وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك ، وهي بين يدي والدها ، فذكرت له شأننا فأمر بدخولنا ، وعيّن لنا دارا بمقربة من دار الخاتون ، وكتب لنا أمرًا بأن لا نُعتَرَض حيث نذهب من المدينة ، ونودِيَ بذلك في الأسواق ، وأقمنا بالدار ثلاثًا ، فبعث إلينا الضيافة من الدقيق والخبز والغلّة والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش .

وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان ، واسمه تكفور بن السلطان(= كان الحكم خلال هذه الفترة لأندرونيكوس الثالث باليولوج الذي حكم بين الأعوام ١٣٢٨-١٣٤١م ، والوصف «تكفور» أطلقه المسلمون على ملوك الروم وسواهم ، ويقصدون به الطاغية الكافر) وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة (=لا يعرف إمبراطور بهذا الاسم طوال الفترة التي حكمت فيها أسرة باليولوج ، من عام ١٢٦١ لغاية عام ١٤٥٣م ، حيث سقطت القسطنطينية بيد العثمانيين) ، لكنه تزهّد وترهّب وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده .

وفي اليوم الرابع من وصولنا إلى القسطنطينية بعثت إليّ الخاتون الفتى سنبل الهندي ، فأخذ بيدي وأدخلني إلى القصر ، فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة ، فلمّا وصلنا إلى الباب الخامس تركني الفتى سنبل ، ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان

الروميين ، ففتشوني لئلا يكون معي سكّين ، وقال لي القائد : تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك ، من خاصّ أو عامّ ، غريب أو بلدي ، وكذلك الفعل بأرض الهند ، ثم لـمّا فتشوني قام الموكل بالباب ، فأخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمّي ، واثنان من ورائي ، فدخلوا بي إلى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد في وسطه ماء ، ومن جهتها الأشجار ، والناس واقفون يمينًا ويسارًا سكوتًا لا يتكلم أحد منهم . وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف ، أسلمني أولئك الأربعة إليهم ، فأمسكوا بثيابي كما فعل الآخرون ، وأشار إليهم رجل ، فتقدموا بي ، وكان أحدهم يهوديًا فقال لي بالعربي : «لا تخف ، فهكذا عادتهم أن يفعلوا بالوارد ، وأنا الترجمان ، وأصلي من بلاد الشام» . فسألته كيف أسلّم؟ فقال «قل السلام عليكم» .

ثم وصلت إلى قبّة عظيمة ، والسلطان على سريره ، وزوجته أمّ هذه الخاتون (=يقصد بيلون) بين يديه ، وأسفل السرير الخاتون وإخوتها ، وعن يمينه ستة رجال ، وعن يساره أربعة ، وكلّهم بالسلاح فأشار إليّ ، قبل السلام والوصول إليه بالجلوس هنيهة ، ليسكن روعي ، ففعلت ذلك ثم وصلت إليه فسلّمت عليه ، وأشار أن أجلس فلم أفعل ، وسألني عن بيت المقدس والصخرة المقدّسة ، وعن القيامة (=كنيسة القيامة في القدس) ، وعن مهد عيسى ، وعن بيت لحم ، وعن مدينة الخليل ، عليه السلام ، ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم ، فأجبته عن ذلك كله ، واليهودي يترجم بيني وبينه . فأعجبه كلامي ، وقال لأولاده : أكرموا هذا الرجل وأمّنوه . ثم خلع عليّ خلعة ، وأمر لي بفرس ملجم ، ومظلّة من التي يجعل ما الملك فوق رأسه وهي علامة الأمان ، وطلبت منه أن يعيّن مَنْ يركب معي بالمدينة ، في كل يوم ، حتى أشاهد عجائبها وغرائبها ، وأذكرها في بلادي ، فعيّن لي ذلك .

ومن العوائد عندهم أن الذي يلبس خلعة الملك ويركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالأبواق والأنفار والأطبال ليراه الناس ، وأكثر ما يُفعَل ذلك

بالأتراك الذين يأتون من بلاد السلطان أوزبك لئـلاّ يؤذُّون ، فطافوا بي في الأسواق . والمدينة هي متناهية في الكبر ، منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المدّ والجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب ، وكانت عليه ، فيما تقدّم قنطرة مبنيّة فخُرّبت ، وهو الآن يُعبَر في القوارب ، واسم هذا النهر أَبْسُمي (=المقصود هنا خليج القرن الذهبي) وأحد القسمين من المدينة يسمّى اصطنبول ، وهو بالعدوة الشرقية من النهر ، وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متّسعة ، وأهل كل صناعة على حدة ، لا يشاركهم سواهم ، وعلى كل سوق أبواب تُسَدّ عليه بالليل ، وأكثر الصنّاع والباعة بها نساء .

والمدينة في سفح جبل ، داخل في البحر نحو تسعة أميال ، وعرضه مثل ذلك أو أكثر ، وفي أعلاه قلعة صغيرة . وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل ، وهو مانع ، لا سبيل لأحد إليه من جهة البحر ، وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة . والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة ، وأمّا القسم الثاني منها فيسمّى الغَلَطَه ، وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قربة من النهر . وهذا القسم خاص بنصارى الإفرنج يسكنونه ، وهم أصناف : فمنهم الجَنويّون ، والبنادقة ، وأهل رومية (=روما) ، وأهل إفرانسا ، وحكمهم إلى ملك القسطنطينية ، يقدم عليه منهم مَنْ يرتضونه ، ويسمّونه القُمص . وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية . وربّما استعصوا عليه فيحاربهم حتى يصلح بينهم البابا ، وجميعهم أهل تجارة . ومرساهم من أعظم المراسي . رأيت به نحو مئة جفن من القراقر وسواها من الكبار ، وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وأسواق هذا القسم حسنة إلا أن الأقذار غالبة عليها ، ويشقّها نهر صغير قذر نجس . وكنائسهم لا خير فيها .

والكنيسة العظمى إنّما نذكر خارجها وأمّا داخلها فلم أشاهده ، وهي تسمّى عندهم أيا صوفيا (= Hagia Sophia وهي كنيسة كبيرة اكتمل بناؤها في عهد الإمبراطور جستنيان في عام ٥٣٧ م ، وأقيمت على أنقاض كنيسة احترقت ،

بناها الإمبراطور قسطنطين) ، ويُذكَر أنها من بناء آصف بن برخياء ، وهو ابن خالة سليمان ، عليه السلام . وهي من أعظم كنائس الروم ، وعليها سور يطيف بها ، فكأنها مدينة ، وأبوابها ثلاثة عشر بابًا ، ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبيرة ، ولا يُمنَع أحد من دخوله ، وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره ، وهو شبه مشهور مسطّح بالرخام وتشقّه ساقية تخرج من الكنيسة ، لها حائطان مرتفعان نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزَّع المنقوش بأحسن صنعة ، والأشجار منظّمة عن جهتي الساقية .

ومن باب الكنيسة إلى باب هذا المشور معرش من الخشب ، مرتفع عليه دوالي العنب ، وفي أسفله الياسمين والرياحين ، وخارج باب هذا المشور قبّة خشب كبيرة ، فيها طبلات خشب يجلس عليها خدّام ذلك الباب . وعن يمين القبّة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم ، وكتّاب دواوينهم . وفي وسط تلك الحوانيت قبّة خشب يصعد إليها على درج خشب ، وفيها كرسي كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم . .وعن يسار القبة التي على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التي ذكرناها تنقسم قسمين : أحدهما يمرّ بسوق العطارين ، والآخر يمرّ بالسوق حيث القضاة والكتّاب .

وعلى باب الكنيسة سقائف ، يجلس بها خُدّامها الذين يقيمون طرقها ، ويوقدون سرجها ، ويغلقون أبوابها ، ولا يدعون أحدًا بداخلها حتى يسجد للصليب الأعظم عندهم الذي يزعمون أنه بقيّة من الخشبة التي صُلب عليها شبيه عيسى ، عليه السلام ، وهو على باب الكنيسة مجعول في جعبة ذهب ، طولها نحو عشرة أذرع ، وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبًا ، وهذا الباب مصفّح بصفائح الفضة والذهب ، وحلقتاه من الذهب الخالص . وذُكر لي أن عدد مَنْ بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي إلى آلاف ، وأن بعضهم من ذرّية الحواريّين ، وأن بداخلها كنيسة مختصّة بالنساء ، فيها من الأبكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف ، وأما القواعد من النساء فأكثر من ذلك كلّه .

ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس أن يأتوا كل يوم صباحًا إلى زيارة هذه الكنيسة ، ويأتي إليها البابا مرة في السنة . وإذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك إلى لقائه ويترجّل له ، وعند دخول المدينة يمشي بين يديه على قدميه ، ويأتيه صباحًا ومساءً للسلام طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف ، والمانستار (=الدير)على مثل لفظ المارستان إلا أن نونه متقدمة وراءه متأخِّرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين . وهذه المانستارات بها كثيرة ، فمنها المانستار الذي عمّره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية . . . وهو بخارج اصطنبول مقابل الغَلَطَه ، ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل إليها ، وهما في داخل بستان يشقّهما نهر ماء ، وأحدهما للرجال ، والآخر للنساء ، وفي كل واحد منها كنيسة ، وتدور بهما البيوت للمتعبّدين والمتعبّدات ، وقد حبس على كلّ واحد منهما أحباس لكسوة المتعبّدين ونفقتهم ، بناهما أحد الملوك ، ومنها مانستاران عن يسار الداخل إلى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ، ويطيف بها بيوت ، وأحدهما يسكنه العميان ، والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممّن بلغ الستين أو نحوها ، ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معيَّنة لذلك . وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبُّد الملك الذي بناه ، وأكثر هؤلاء الملوك إذا بلغ الستين أو السبعين بنى مانستار ، ولبس المسوح وهي ثياب الشعر ، وقلّد ولده المُلك ، واشتغل بالعبادة حتى يموت ، وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ، ويعملونها بالرخام والفسيفساء ، وهي كثيرة بهذه المدينة .

ودخلت مع الرومي الذي عيّنه الملك للركوب معي إلى مانستار يشقّه نهر ، وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر(=راهبة) عليهن المسوح ورؤوسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد ، ولهن جمال فائق ، وعليهن أثر العبادة ، وقد قعد صبي على منبر يقرأ لهن الإنجيل بصوت لم أسمع قطُّ أحسن منه ، وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم ، فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبيٌّ آخر . وقال لي الرومي «إن هؤلاء البنات من بنات الملوك ، وهبن أنفسهن لخدمة هذه

الكنيسة ، وكذلك الصبيان القرّاء ، ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة» .

ودخلت أيضا إلى كنيسة في بستان ، فوجدنا بها نحو خمسمئة بكر أو أزيد وصبيّ يقرأ لهنّ على منبر ، وجماعة صبيان معه على منابر مثل الأولين ، فقال لي الرومي «هؤلاء بنات الوزراء والأمراء يتعبّدن بهذه الكنيسة» . ودخلت إلى كنائس فيها أبكار من وجوه أهل البلد ، وإلى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء ، وإلى كنائس فيها الرهبان ، يكون في الكنيسة منها مئة رجل أو أكثر أو أقلّ . وأكثر هذه المدينة رهبان ومتعبّدون وقسّيسون ، وكنائسها لا تحصى كثرة ، وأهل المدينة ، من جندي وغيره ، صغير وكبير يجعلون على رؤوسهم المظلات الكبار شتاءً وصيفًا ، والنساء لهنّ عمائم كبار .

والملك المترهب جرجيس ولّى المُلك لابنه ، وانقطع للعبادة ، وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها . وكنت يوما مع الرومي المُعيّن للركوب معي ، فإذا بهذا الملك ماشٍ على قدميه ، وعليه المسوح ، وعلى رأسه قلنسوة لبد ، وله لحية بيضاء طويلة ، ووجهه حسن ، عليه أثر العبادة ، وخلفه وأمامه جماعة من الرهبان ، وبيده عكاّز ، وفي عنقه سبحة ، فلما رآه الرومي نزل ، وقال لي «انزِل فهذا والد الملك» ، فلما سلّم عليه الرومي سأله عنّي ، ثم وقف ، وبعث لي ، فجئت إليه ، فأخذ بيدي ، وقال لذلك الرومي ، وكان يعرف اللسان العربي : «قل لهذا السراكنوا ، يعني المسلم : أنا أصافح اليد التي دخلتْ بيت المقدس ، والرِجل التي مشتْ داخل الصخرة ، والكنيسة العظمى التي تُسمّى قيامة ، وبيت لحم» .

وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه ، فعجبتُ من اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير مِلّتهم ، ثم أخذ بيدي ومشيت معه ، فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى ، وأطال السؤال . ودخلت معه إلى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفا ، ولـمّا قارب الباب الأعظم خرجتْ جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه ، وهو من كبارهم في الرهبانية ، ولـمّا رآهم أرسل يدي ، فقلت له «أريد الدخول معك إلى الكنيسة» . فقال للترجمان : قل

له : «لا بدّ لداخلها من السجود للصليب الأعظم ، فإن هذا مما سنّته الأوائل ، ولا يمكن خلافه» . فتركته ، ودخل وحده ، ولم أره بعدها .

ولـمّا فارقت الملك المترهِّب المذكور دخلت سوق الكتّاب ، فرآني القاضي ، فبعث إليّ أحد أعوانه ، فسأل الرومي الذي معي ، فقال له : إنه من طلبة المسلمين ، فلما عاد إليه أخبره بذلك ، فبعث إليّ أحد أعوانه ، وهم يسمّون القاضي : النجشي كفالي ، فقال لي : «النجشي كفالي يدعوك» فصعدتُ إلى القبة التي تقدّم ذكرها ، فرأيت شيخًا حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان ، وهو الملفّ الأسود ، وبين يديه نحو عشرة من الكتّاب يكتبون ، فقام إليّ ، وقام أصحابه ، وقال «أنت ضيف الملك ، ويجب علينا إكرامك» ، وسألني عن بيت المقدس ، والشام ، ومصر . وأطال الكلام ، وكثر عليه الازدحام ، وقال لي «لا بدّ لك أن تأتي إلى داري فأضيّفك» ، فانصرفت عنه ، ولم ألقه بعد .

ولّما ظهر لمن كان في صحبة الخاتون من الأتراك أنها على دين أبيها ، وراغبة في المقام معه ، طلبوا منها الإذن في العودة إلى بلادهم ، فأذنتْ لهم ، وأعطتهم عطاءً جزيلاً ، وبعثتْ معهم من يوصلهم إلى بلادهم أمير يسمى ساروجة الصغير في خمسمائة فارس ، وبعثتْ إليّ فأعطتني ثلاثمئة دينار من ذهبهم يسمّونه البربرة ، وليس بالطيب ، وألفي درهم بندقية ، وشقة ملف من عمل البنات ، وهو أجود أنواعه ، وعشرة أثواب من حرير وكتّان وصوف وفرسين ، وذلك من عطاء أبيها ، وأوصتْ بي ساروجة . وودّعتُها ، وانصرفتُ . وكانت مدّة مقامي عندهم شهرا وستة أيام»[1] .

تبدو انطباعات ابن بطوطة ، وأوصافه الدقيقة ، معهودة إذا ما قورنت بحديثه المسهب عن الحواضر التي زارها في شتّى أرجاء العالم القديم ، فهو بارع في رصد المظاهر الدينية والاجتماعية ، وكشف الخلفيات التاريخية للأحداث ،

---

(١)انظر النصّ كاملاً في كتاب رحلة ابن بطوطة «تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» ، تحقيق : عبد الهادي التازي ، المغرب ، ١٩٩٧ .

ولكن رحلته إلى القسطنطينية تتنزّل في المركز من الرحلات العربية إلى هذه المدينة ، فما من رحّالة آخر ألمّ بتفاصيل الحياة فيها كما ألمّ ابن بطوطة . من الصحيح أنه يلتقي مع هارون بن يحيى في الأطر العامة لجغرافية المدينة ، وتقسيماتها العامّة ، كالقصر الملكي والكنيسة والخليج ، لكن ابن بطوطة تابع ، بعين ثاقبة التفاصيل المثيرة ، وهي قدرة اكتسبها وهو يقطع البلدان مدفوعا بفضول المعرفة ، ولم يلبث أن تطوّر ذلك الذكاء ، ودقّة الملاحظة ، فجاءت رحلاته أنموذجًا رفيعًا لكل ما يصبو إليه الرحّالة فيما بعد .

لم تمض سوى أيام أربعة عليه في القسطنطينية حتى ونجح ابن بطوطة في مقابلة الملك ، بتوجيه من الخاتون بيلون التي رافقها ، ولم يتشكّ ، حينما جرى تفتيشه قبل الدخول إلى الملك ، فتلك تقاليد يُشمل بها كلّ مَنْ يروم مقابلة الملك ، فقبلها بلا تذمّر . وكانت المفاجأة أن يكون الترجمان يهوديًا . وهذه الوساطة اليهودية بين مسلم ونصراني لها أكثر من دلالة ، فقد كان اليهودي عارفا بتراث الاثنين ، وتمكّن من أداء المهمّة بأفضل وجه ، لكن المفاجأة الأخرى أن اللقاء تمّ في وسط حميمي عائلي ، فقد قابله الملك وهو بين أفراد أسرته ، ودار الحديث حول بيت المقدس ، وقبّة الصخرة ، ثم كنيسة القيامة ، واستفسر الملك عن مهد المسيح في بيت لحم ، وتطوّرَ الحديث فشمل دمشق ، ومصر ، والعراق ، وتجاوز ذلك إلى بلاد الروم . وقد أعجب الملك بنباهة محدّثه ، وسعة معجمه المعرفي ، وتمكّنه من علوم عصره .

لم يكن ملك القسطنطينية استثناءً ؛ فحيثما حلّ ابن بطوطة كان مثار إعجاب الملوك والأمراء . وسرعان ما ظهر أثر ذلك ، فقد أكرمه الملك ، وأمر بتأمين حاجاته ، وبسط حمايته عليه . ولم يتردّد الرحالة الضليع في استثمار الفرصة ، فقد التمس من الملك أن يخصّص له دليلا يطوف به الحاضرة البيزنطية ليتعرّفها جيّدًا ، ويحدّث بها قومه حينما يعود إلى بلاد العرب . ولم يكن كرم الملك بأقل ما طلب الرحّالة إذ خلع عليه لباسه ، وأركبه فرسه ، وراح ابن بطوطة يطوف في أسواق القسطنطينية بالأبواق والأطبال ليَعرف الناسُ أنه

ضيف الملك، فطاف في المدينة بحماية ملكها.

لم تتوافر هذه الفرصة لهارون بن يحيى، ومع ذلك، فما أن ينتهي ابن بطوطة من وصف هذه السلسلة من الصدف الرائعة حتى يوازي نصه نص سلفه، فيتطرّق إلى قسْمَي المدينة الرئيسين «وبينهما نهم عظيم المدّ والجزر على شكل وادي سلا في بلاد المغرب» يقصد بذلك الخليج الذي يكاد يشطر المدينة إلى شطرين، وهو الذي سوف يُعرَف بـ«القرن الذهبي». وسوف يطابق ما قاله هارون قبله بنحو خمسة قرون من أن القسم الأول من المدينة، واسمه» اصطنبول» يسكنه الملك وحاشيته، وفيه أسواق مُعلّمة بحسب المهن والحِرف، ومحميّة بأبواب، وأغلب العاملين فيها من النساء. وفي هذا القسم توجد الكنيسة الكبرى، وسمّاها بالاسم: «آيا صوفيا». أما القسم الآخر، ويُعرَف بـ«غَلَطَه» فهو في العدوة الغربية، يكاد يقتصر على نصارى الإفرنج القادمين من جَنوه، والبندقية، وروما، وفرنسا، ويتولّى أمرهم رجل دين، بأمر من الملك، وحينما يحدث أن يتمرّدوا على سلطة الملك، فإنه يعاجلهم بالحرب، فيتدخل «البابا» فيصلح بينهم، وهم في عمومهم تجّار، ولديهم مرسى لم ير ابن بطوطة أكبر منه.

واستأثرت منه الكنيسة الكبرى «آيا صوفيا» باهتمام واضح، كما استأثرت باهتمام هارون قبل نحو خمسة قرون، ولكنه لم يكن بحظّ سلفه، فقد حُظر عليه التجوال فيها، فذلك مقصور على من يسجد للصليب، فيما ظل ابن بطوطة متمسّكًا بعقيدته حيثما حلّ، وحينما ارتحل، لكنه تجوّل في فنائها الخارجي، وصرّح بأنها أعظم الكنائس، وفيها الصليب الخشبي الذي صُلِب عليه السيد المسيح، وفيها، كما روي له، يتعبّد آلاف الرهبان بعضهم من ذريّة الحواريين، وفيها، إلى ذلك، كنيسة خاصّة بالراهبات الأبكار اللواتي يزيد عددهنّ على ألف.

وكانت هذه مقدمة للتمييز بين الإمبراطور والبابا، فالأخير هو صاحب المقام الرفيع، وهو لا يزور «آيا صوفيا» إلا مرة واحدة في السنة، أمّا الإمبراطور فيمرّ

بها كل صباح محاطًا بحاشيته ، ولكن لأهل المدينة أديرة أخرى كثيرة ، يمارسون العبادة فيها ، وقد تقصّاها ابن بطوطة ، ولم يُظهِر تسفيهًا للطقوس الدينية النصرانية ، إنما نظر إليها بتقدير واضح ، مشيدا بانقطاع العبّاد إلى عبادتهم بخشوع ورهبة . ثم لفت انتباهه دير خاصّ بالراهبات حليقات الشعر «لهنّ جمال فائق وعليهن أثر العبادة» وجميعهن من بنات الملوك ، وقد وهبن أنفسهنّ لخدمة الله ، يقرأ عليهن الإنجيل صبي حسن الصوت ، ولاحظ أيضًا أن لبنات الوزراء ، والأمراء ، ووجوه البلد ، أديرة مماثلة .

وقادته خطواته في طرقات المدينة إلى لقاء الملك الأب المترهّب «جرجيس» ماشيًا على قدميه ، وقد رآه بهيئة الفقير المتعبّد ، وحينما عرف أصل ابن بطوطة شرع الملك يصافحه ، ويتبرّك به ؛ كونه قد زار بيت المقدس ، بل إنه رافقه في تطوافه في المدينة ، لكنه امتنع عن إدخاله الكنيسة الكبرى معه ، فهو ليس من عبّاد الصليب . وتأتي المفاجأة في نهاية الرحلة ، إذ بلغه ارتداد السلطانة بيلون عن الإسلام ، وعودتها إلى ديانتها النصرانية ، وقرارها البقاء في مسقط رأسها وترك زوجها السلطان المغولي ؛ ولهذا استأذن منها أتباعها العودة إلى بلادهم ، فأذنتْ لهم ، وأكرمتهم ، وشمل هذا الكرم ابن بطوطة الذي غادر المدينة معهم بعد أن أمضى في القسطنطينية شهرًا وستّة أيّام .

٤. محمد رشيد رضا: احتضار عاصمة دار الإسلام:

رحل الإمام محمد رشيد رضا إلى القسطنطينية ، كما يقول «للسعي في أمرين عظيمين : إنشاء معهد علمي إسلامي ، وحُسن التفاهم بين عنصري الدولة الأكبرين العرب والترك»[(١)] . وأفاض في شرح الملابسات حول هذين الأمرين بعد أن بدأت الحقبة الدستورية في نهاية عهد السلطان عبد الحميد ،

---

(١) رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، جمع وتحقيق : يوسف إيبش ، بيروت ، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧١ ، ص٦١ .

ومنها اجتماعاته مع عليّة القوم في عاصمة الخلافة ، وخلال وجوده انتهز الفرصة فتجوّل في المدينة ، وقدّم عنها وصفًا يقوم على سلسلة من الأحكام القيمية التي يتميّز بها ، بوصفه رجل دين . وذكرها بأسمائها الثلاثة : القسطنطينية ، واستانبول ، والآستانة .

بدأ محمد رشيد رضا بوصف موقع المدينة ، وحالها العمرانية التي أثارت سخطه الواضح «موقع هذه المدينة مشهور في جماله ومحاسنه الطبيعية ، ولو كانت هذه الدولة التي استولت عليها من عدّة قرون دولةَ عمران ومدنية لجعلتها زينة الأرض ومثابة الأمم ، ولكان لأهلها من السائحين مورد من أغزر موارد الثروة ، ولكنك لا تجد فيها أثرا من آثار العمران الحديث إلا المعسكرات من الثكنات والمدارس ، فصوفيا عاصمة البلغار ، وأثينا عاصمة اليونان ، والقاهرة عاصمة مصر ، كلّ أولئك أرقى من عاصمة الدولة عمرانًا ، فالآستانة موقع جميل ، ومعسكر كبير ، لا تغيب الجنود عن عينيك فيها دقيقة من الزمان ، فعسى الله أن يسخّر لها الرجال الذين يعمرونها بعمران المملكة ، لا بالاستقراض من الأجانب بالرِّبا الذي يجعلها تحت سيطرتهم ، وعرضة عند الحوادث لمداخلتهم» .

وبعد هذا الاستهلال مضى قائلا «أما العمران المعنوي وهو العلم والأدب فلها حظ منه تفضل به مصر وسورية وهو أن التعليم فيها أعمّ وأشمل ، وتربية النساء أسمى وأنبل ، وذلك بأن أموال المملكة كانت تجبى إليها حتى لا يبقى في كل ولاية إلا الضروري الذي لا يمكن الاستغناء عنه مع إباحة الرشوة والسلب والنهب فكثرت فيها المدارس للذكور والإناث ، على أن الآداب الإسلامية الموروثة لا تزال أقوى في بيوت هذه المدينة منها في بيوت مصر فلا ترى امرأة في نافذة ولا على سطح إلا أن تكون مستورة البدن والرأس كما تكون في السوق ولا تسمع من البيوت ولا في الأسواق والشوارع صخبًا ولا هجرًا من القول كما تسمع في أسواق القاهرة وشوارعها ، ولا يتبرّجن بمصر إلا في بعض المواسم كأصال أيام رمضان في جهة الشاه زاده ، وإلا في بعض الضواحي حيث

يسرحن ويمرحن متنزِّهات مظهرات لزينتهنّ ، على أن الكثيرات منهن يسفرن عن وجوههنّ في الأسواق والشوارع ولكنهن مع ذلك يغضضن من أبصارهن كما أمر الله تعالى . وإذا خرجن في الليل من دار إلى دار يخرجن بالجبة أو العباءة العربية المعروفة وبالقناع الأبيض ، وذلك يكون زيّهنّ الغالب في المتنزهات . فجملة القول أن آدابهن حسنة في خروجهن في الأسواق والشوارع ، وبيوتهنّ نظيفة مرتَّبة ، ولأولادهن حظّ عظيم من النظافة والآداب .

ويقول المختبرون من أهل البلد ومن الغرباء المقيمين فيه أن آداب غير المتعلّمات أو المتعلّمات على الطريقة الحديثة الإفرنجية ، وهنّ أشدّ عناية بالنظافة ، أيضًا ، فالتفرنج في البيوت هو الخطر الأكبر الذي ينذر البيوت الإسلامية بالفساد ، في هذا البلد وغيره من البلاد ، ويقال إن أحمد رضا بك رئيس مجلس المبعوثين يريد أن يربّي بنات المسلمين في المدرة التي يسعى في إنشائها مع بنات الإفرنج والروم والأرمن تربيةً ، ليس لها من صبغة الدين شيء ، فإذا تمّ هذا المقصد ، فبشّر بيوت هذا البلد بالخراب المعنوي والفساد الذي لا يفوقه فساد .

إن علم النساء المسلمات في الآستانة دون علم الأوربيّات ، لكنّ تربيتهنّ الدينية والأدبية أعلى من تربية الأوربيّات ، كما شهد بذلك غير واحدة من هؤلاء بعد الاختبار التامّ ، ومنهنّ من صرّحت بأن التفرنج آفة مفسدة لنساء الترك . نعم إنه يمكن أن تترقّى معارفهنّ وآدابهنّ ، لكن يجب أن يكون الدين هو أساس التربية ، وأن تكون العناية به فوق العناية بالعلم ، وليس في أوروبا شعب يربّي البنات على الإلحاد أو ترك الدين ؛ إنّ أثبت الشعوب الأوربية مدنية هو أشدّها عناية بتربية النساء والأطفال تربية دينية . إن بين استانبول ، وقسم غَلَطَه ، وبك أوغلي ، تباينًا عظيمًا في العادات ونظام المعيشة وحالة العمران ، على أن المسافة بينها تقطع بدقيقتين ، إذ الفاصل بينها هو الخليج المشهور ، وعليه جسران للمشاة والركبان ، ومنهم من يقطعه بالزوارق .

تشبه استانبول في عاداتها بلاد المشرق الإسلامية القديمة كطرابلس الشام ،

فأزياء النساء فيها كأزياء النساء في مدن سورية إلاّ ما امتزن به . وأزياء الرجال فيها كأزياء الرجال في مدن سورية : الطربوش ، والعمامة البيضاء ، والعمامة المطرّزة ، والعمامة الخضراء ، والمناديل الملوّنة . كلّ ذلك من أزياء الرؤوس ، وكلّه كثير . وأما سكّان قسم غلطه فتكثر فيه مزاحمة الكمم والقلانس للطرابيش المجردة ، ويقلّ فيه غير ذلك .

يتعشّى أهل استانبول بُعَيْد المغرب كأهل سورية ، وتُقفَل أكثر المطاعم بعد العشاء بقليل على حين يبتدئ أهل القسم الآخر بالطعام ، وتظل مطاعمهم مفتوحة إلى قرب منتصف الليل ، ويسهرون كثيراً ولا يسهر أولئك إلا قليلا . ويكثر الفسق العلني والسري في قسم غَلَطه ، والفسق العلني ممنوع في استانبول . وآداب الرجال العمومية حسنة كآداب النساء فلا تكاد تنكر على رفيع ولا وضيع قولا خشنًا ، ولا كِبْرًا وترفُّعًا ، ولكنك كثيرًا ما تنكر عليهم إخلاف الوعد ، وما في معنى الخلاف حتى يقلّ أن يثق المختبر بقول يسمعه ، وسبب ذلك تأثير الاستبداد الشديد وما كان من الضغط والمراقبة على عهد عبد الحميد ، فذلك هو السبب الطبيعي لفشو الكذب والإخلاف والتقلّب في كل الأمم ، ولهذه العلّة كثر الكذب والإخلاف والتقلّب وعدم الثبات في جميع البلاد العثمانية ، كما كثر ذلك من قبل في مصر على عهد إسماعيل باشا[1] .

ينبغي الأخذ في الحسبان بأن الإمام كان متحيّزًا للفكرة التقليدية القائمة على مفهوم الخلافة الإسلامية لكنه لم يغفل مظاهر الاستبداد في السلطنة ، وهذا الموقف جعله يقف موقفا سلبيا من الإصلاحات الدستورية التي حدّت من سلطان الخليفة ، وشرّعت الأفق أمام الخصوصيات العرقية واللغوية والدينية . وفي ذروة هذه الأزمة التي أدّت إلى تفكُّك الإمبراطورية بعد سنوات قليلة ، وصل الإمام إلى المدينة ، وقد أفاض بالحديث عن مهمّته لإصلاح شأن اللغة العربية ، ورتق العلاقة المتأزّمة بين القوميتين التركية والعربية في تلك الفترة

---

(١) انظر نصّ الرحلة كاملاً في كتاب «رحلات الإمام محمد رشيد رضا» .

جرّاء التعصُّبات التي بَثَّتها الجمعيات والأحزاب ، وقد ارتسمت رؤية مأساوية للإمام بإزاء التحولات الهادفة إلى تحديث البنية التقليدية لمجتمع الإمبراطورية المحتَضَرة ، فكلّ ذلك ترك بصماته على الانطباعات التي كتبها عن المدينة ، ومع أنه شارك أسلافه من الرحالة في الإشادة بموقع المدينة ، ومحاسنها الطبيعية ، لكنه أبدى انزعاجًا واضحًا من الخراب المخيم عليها «لو كانت هذه الدولة التي استولت عليها ، من عدّة قرون ، دولة عمران ومدنيّة لجعلتها زينة الأرض ومثابة الأمم» .

لم يقع بصر الإمام ، وهو يطوف في أرجاء القسطنطينية ، إلا على «المعسكرات من الثكنات والمدارس» ، وإذا ما قورنت بصوفيا ، وأثينا ، والقاهرة ، فهي دون تلك العواصم ، فقد كانت ثكنة كبيرة ينخرها الجند ، وتمنّى على ولاة الأمر إعمارها بموارد الإمبراطورية ، لا «بالاستقراض من الأجانب بالرِّبا الذي يجعلها تحت سيطرتهم» . وواضح أنه مفجوع بما آلت إليه المدينة التي كانت قِبلة الدنيا في الماضي ، فالصورة التي ارتسمت لها في عينيه تختلف تماما عن الصورتين اللتين رأيناهما في عيون هارون بن يحيى وابن بطوطة ، وكان الزمن كفيلاً بتحسين وضع القسطنطينية إلى أحسن ما كانت عليه من حسن سابق ، لكنّ الواقع جعلها تتراجع إلى الخلف ، فقد كانت قلبا مكلوما لإمبراطورية آفلة ، وأول ما ظهرت عليها مظاهر الخراب .

ثم انتقل الإمام إلى وصف «العمران المعنوي» قاصدًا بذلك «العلم والأدب» فوجدهما فيها أفضل ممّا في مصر وسوريا ، لأن «التعليم فيها أعمّ وأشمل ، وتربية النساء أسمى وأنبل» ولاحظ أن «الآداب الإسلامية» مازالت نافذة ، فمعظم النساء محتجبات في بيوتهن ، أو ساترات لأجسادهن ، ولا يكاد يظهر منهن ما يخدش الحياء العام إلا ما ندر . وجملة القول أن «آدابهن حسنة» . وهذا حديث يشمل فقط أولئك النسوة الآخذات بالنهج الإسلامي طريقًا للتربية ، لكن هنالك فئة أخرى من المتفرنجات اللواتي أخذن بالتربية الغربية ، وقد استأثرت هذه الفئة بكل ضروب الذمّ والانتقاص منه ؛ لأن الحداثة

الإفرنجية ، هي «الخطر الأكبر الذي ينذر البيوت الإسلامية بالفساد ، في هذا البلد وفي غيره من البلاد» .

وكان هذا مدخلا للتذمّر ممّا كان يقع من صراع ثقافي وآخر سياسي ، في أوساط المجتمع بين مناصري الخلافة التقليدية ، ومناصري الجمعيات الجديدة الداعية للتحديث ، كالاتّحاد والترقّي ، وجمعية تركيا الفتاة ، وجميعها كانت تدعو إلى الخصوصيات : العرقية ، واللغوية ، والدينية ، ومحاكاة الأنموذج الغربي ، وقد اختار مثالا لذلك شخص «أحمد رضا بك» رئيس مجلس المبعوثان(=مجلس النواب) فقد سعى إلى الأخذ بالحداثة الغربية ، وبخاصة مفاهيم الثورة الفرنسية ، وحاول تطبيقها في المجتمع العثماني التقليدي ، فنال كثيرًا من النقد ، ومن ذلك محاولته نقل التجربة الغربية في مجال حرية المرأة ، فذلك من المحظور عند الإمام ، وإذا ما فشت تلك الحرية «فبشّر بيوت هذا البلد بالخراب المعنوي والفساد الذي لا يفوقه فساد» ذلك «أن الدين أساس التربية» ، وينبغي أن تكون «العناية به فوق العناية بالعلم» .

وقد لفت انتباه الإمام التباينُ : الطبقي ، والثقافي ، والعمراني ، بين أحياء المدينة ، ولاحظ الاختلاف في «العادات ونظام المعيشة وحالة العمران» ، مع أنه لا يفصل بين أطرافها سوى القرن الذهبي ، وخلاصة ما يرتسم في عيني الإمام أن المدينة تتهدّدها القيم الغربية من جهة ، وهذا هو الخراب المعنوي ، وتعاني من إهمال وتراجع في البناء ، وهذا هو الخراب العمراني ، ولم يهمل أثر الاستبداد في ثلم الأخلاقيات العامة ، من كذب ورياء ، وتقلّب المواقف ، وعدم التزام بالمواعيد .

٥. صور متحوِّلة.

ارتسمت ثلاث صور للقسطنطينية في أعين الرحالة العرب خلال ألف سنة . أسّستْ الصورة الأولى لمعظم التخيُّلات الجغرافية عنها في القرون الوسطى ، وفيها رسّخ هارون بن يحيى نزوعًا يحتفي بالدهشة ، ويغرق في

التفاصيل العجيبة ، فهو يتحدّث عن حاضرة دار الحرب حيث لا مثيل لها في دار الإسلام ، ومع أن عيني هارون كانتا ذكيّتين وحسّاستين فإنهما مرّتا على الطبقة الخارجية للمدينة البيزنطية ، ولم تتوغّلا في أسرارها الدينية وأسرارها الثقافية . من الصحيح أنه وصف المظاهر الدينية لكنه عجز عن تفسيرها ، وتأويلها .

وجاءت الصورة التي رسمها ابن بطوطة لتعمّق الصورة الأولى ، لكنها نجحت في فك بعض الشيفرات الدينية ، والثقافية ، فقدّمت صورة بانورامية لما يدور في قلب المدينة ، وبخاصة القصر الإمبراطوري ، والكنيسة الكبرى ، والأديرة المرتبطة بها ، ثم الأسواق ، ولم يهمل الرحالة التقاليد ، والعلاقات الاجتماعية ، والتراتبات : السياسية ، والدينية ، للبابا والإمبراطور ، وبكل ذلك تحرّكت الصورة القديمة ، واكتست بالحياة ، وفي قلبها تحرّك ابن بطوطة مَحْميًا من الإمبراطور ، فلم تعد المدينة مشهدًا جامدًا ، يصفه الرحالة إنما أصبحت مكانًا يتجوّل فيه ، ويلامس بثقافته الإسلامية معالمه كافة .

ثم ظهرت الصورة الأخيرة التي رسمها رجل دين مشدود إلى تفسير ديني للتاريخ ، فلم يرَ ، في حاضرة السلطنة العثمانية ، سوى طلل آيل للخراب بفعل إهمال ولاة الأمر لها ، وتسلُّل مظاهر الحداثة الغربية إلى أهلها ، فرآها في أفولها العمراني وأفولها الثقافي . صحيح أنها كانت قلب دار الإسلام ، لكن دار الإسلام نفسها بدأت بالتصدُّع ، وقد طال التصدّع قلبها . ومن المفارقة أن تكون المدينة مثار إعجاب هارون بن يحيى وابن بطوطة ، وهي عاصمة لدار الحرب ، فيما لم تكن ، وهي حاضرة دار الإسلام ، غير موضوع للحزن والرثاء ، من طرف الإمام محمد رشيد رضا .

الفصل السابع

أمّة الكتب الأولى

١. هياكل عريقة وعبادات غامضة:

تألّف الأدب الجغرافي في الثقافة العربية-الإسلامية من مشاهدات الرحّالة ومروياتهم ، ومن الملاحظات الاستقصائية التي كتبها الجغرافيون عن دار الإسلام ودار الحرب ، وورد معظمها في كتب المسالك والممالك ، وقد طاف الرحّالة والجغرافيون في أمكنة كثيرة ، وعادوا بأخبار الأمم الأخرى ، ولكن أدب الارتحال قد يجمع في طيّاته شذرات من الأخبار عن الجماعات المختلفة دينيًا ، في داخل دار الإسلام ، وقد غالب الرحّالةَ والجغرافيين شعورٌ بالاستياء في كل ما أوردوه من مرويّات عن الجماعات غير الإسلامية التي كانت تعيش في كنف المسلمين ، فآثروا مقارنتها بالجماعة الإسلامية ، وساورهم شكٌ في أهليّة أيّة عقيدة سوى عقيدة الإسلام ، فأنكروا ذلك ، ولم يعتدّوا به ؛ إذ كان سعيهم في العالم قد استند إلى مرجعيّة إسلامية ، وحسبوا ما سواها فسادًا ، فلم يكتموا غيظهم ، وتوسّعوا في القدح ؛ وبسبب ذلك ترسّبت في قاع الأدب الجغرافي مادّة سرديّة كبيرة حول تلك الجماعات التي لاذت بالمسلمين ، وساكنتهم في دار الإسلام ، لكن بونًا عقائديًا ظلّ يفصلها عنهم ، وسرعان ما أصبحت موضوعًا لجدل بين الجغرافيين ، والمؤرّخين ، والفقهاء ، وظهرت مرويّات ، اندمجت فيها الأخبار بالأحكام الفقهية .

تشكّل أخبار الصابئة مثالاً مناسبًا يحيل ، من جهة أولى ، على نظرة الرحّالة ، والجغرافيين ، والمؤرّخين ، والفقهاء المسلمين ، إلى الجماعات غير الإسلامية ، ويحيل ، من جهة ثانية ، على تشتُّت جماعة دينية كبيرة ، نجد ما يشير إلى وجودها بين اليونان ، والصين ، ومصر القديمة ، فضلاً عن الشام والعراق ، قبل أن تتناثر إلى جماعات صغرى تستوطن مختلف الأقاليم . وترميم صورة الصابئة من الأخبار المتناثرة في المظانّ القديمة ، يبيّن أنهم ترحّلوا في أرجاء

الأرض ، قبل أن تتفكّك عقيدتهم ، وتصبح موارد مغذّية للرسالات الدينية التي ظهرت بعدهم . وسنلاحظ أن الارتحال لم يقتصر هذه المرة على المكان ، فحسب ، إنما تخطّاه إلى الزمان ، فأصبح التوغُّل في التاريخ القديم مشروعًا ، فهو ارتحال مزدوج ، يستدعي متابعة تتقصّى دلالته الثقافية . وكثير من الرحّالة ، والجغرافيين ، والمؤرِّخين تعثروا بأخبار الصابئة التي كانت شائعة في التاريخ الوسيط ، فكانت تظهر أمامهم حيثما مرّوا ، في أيّ مكان ارتحلوا إليه .

في سياق حديثه عن «الهياكل المقدسة عند الأمم» نقل ابن فضل الله العمري (٧٤٩هـ=١٣٤٨م) في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» عن أبي عبيد البكري (٤٨٧=١٠٩٤) خبرًا عن الصابئة . وما أورده البكري ، كان المسعودي (٣٤٦=٩٧٥) قد ذكره في كتاب «مروج الذهب» ، وذكره آخرون ؛ وبذلك جرى تداول الخبر طوال أكثر من أربعة قرون بين الجغرافيين والرحّالة ، آخذين بالحسبان أن المسعودي ، فيما نعلم ، أول من دوّن روايته ، فتداولُه الشفوي يعود إلى زمن أسبق بكثير ، وبخاصة الجزء الأخير منه ، وهو عن وجود مخزن الكتب الأولى في الصين . وسندرج خبر الصابئة بعد تهذيبه من شروحات جانبية لا تؤثّر في تماسكه البنيوي وتماسكه الدلالي ، لنتمكن من تحليله بصورة وافية في سياق ثقافة القرون الوسطى . قاصدين بذلك الوقوف على موقع الآخر ، وصورته ، في دار الإسلام ، هذه المرة ، بعد أن فصّلنا القول فيما يتصل بالآخر خارج دار الإسلام ، في الفصول الفائتة .

«وأمّا ما كان للصابئة ، فكان لهم هياكل تسمّى بأسماء ، وهي : هيكل العلّة الأولى ، وهيكل العقل ، وهيكل الصورة ، وهيكل النفس . مستديرات الأشكال . وهياكل الكواكب والنيّرَين على أشكال مختلفة من التسديس والتثليث والتربيع . وكانت لهم فيها دُخَن وقرابين . .والذي بقي من هياكلهم ، بيت بحرّان ، في باب الرقّة ، يُعرف بمعلميشا (مغليتيا ، عند المسعودي) وهو هيكل آزر أبي إبراهيم (الخليل) . .ولهم في هياكلهم مخاريق قد وصلت : تقف السَّدَنَة من وراء الجُدُر ، وتتكلّم بأنواع الكلام ، فتجري الأصوات في تلك

المنافخ والمخاريق إلى تلك الصور المجوّفة فيظهر لها نطق على حسب ما دُبِّر على هيئة هندسية . . . والصابئة حشويّة اليونان ، وإنما يضافون إلى الفلسفة ، إضافة نسب لا إضافة كلمة ، لأنهم يونانيون ، وليس كلّ يونانيّ بحكيم . . . والصابئة تُقرِّب في بعض الأوقات ثورًا أسودً ، تُشَدّ عيناه ، ويُضرَب وجهه بالملح ، ثم يُذبح ويُنظر في أعضائه ، وما يظهر منه في الجراحات والاختلاج ، فيُستدلّ به على أحوال السنة . ولهم في قرابينهم أسرار ومُخبّآت ، وهيكل في أقاصي الصين ، وهو بيت مدوّر له ستور وأبواب . في داخله قبة مسبَّعة عظيمة البنيان . وبه بئر مسبّعة الرأس ، متى أكبّ إنسان على رأسها تهوَّر على رأسه فيها ، وعلى رأس البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم ، قلم السند هند (قلم المسند ، عند المسعودي) . «هذه البئر تؤدّي إلى مخزن الكتب الأولى ، وتاريخ الدنيا ، وعلوم السماء لما كان ويكون ، وتؤدّي إلى خزائن رغائب هذا العالم ، لا يصل إلى الدخول إليها والاقتباس ممّا فيها إلاّ مَنْ وازت قدرته قدرتنا ، وعلمه علمنا»[1]

تكشف بنية الخبر مجمل عيوب التأليف الإخباري القائم على إدراج شتات من المرويّات المتضاربة عن الآخر المختلف في معتقداته ، وعباداته ، وطقوسه ، ثم النقل دونما تثبُّت ، والتغيير ، والتكرار ، وعدم مراعاة التناسب ، فلكي نتعرّف الصابئة ينبغي أن نذكر «مخاريقهم» ونتهمهم بأنهم من «حشوية اليونان» ، ثم نبعدهم عن أيّ احتمال تتسرَّب منه رائحة الحكمة «فليس كل يوناني بحكيم» لئلا يتوهّم أحد بأن فيهم حكماء ، وأن نذهب بهم إلى أقصى مشارق الأرض ، إلى الصين ، لنجد لهم هيكلاً كتب عليه باللغة الهندية ، ثم نلوذ بالتاريخ البعيد لنعرف أن لهم هيكلاً آخر في حرّان خصّ بآزر أبي النبي إبراهيم ، ونقف على أضاحيهم العجيبة ، إذ ينحرون الثيران السود يستدلّون بخلجات أشلائها على صروف الحياة ، وتقلُّبات الأحوال ، ناهيك عن المخبّآت والأسرار التي ترافق ذلك . فماذا يرتسم في مخيّلتنا ونحن ننتقل من الصين إلى اليونان ، ومن

(١) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ص٧١ .

الكتب إلى الثيران، ومن الهياكل إلى المخاريق؟

يتوهّم كثيرون أن هذا التمزيق الدلالي، والمكاني، والزماني، لمحمول الخبر وصيغته السرديّة سيفضي إلى تصدّع الفكرة القابعة تحته، فيتناثر كلّ ما له صلة بالصابئة، فيما نرى أن تلك النبذ المتناثرة تمثّل القيمة الغنية لمحمول الخبر، إذا جرى ترميمه في ضوء المظانّ الأصلية التي حملت إلينا أخبار الصابئة. فما يُعَدّ تشتيتًا نراه تأكيدًا على عالمية عقيدة الصابئة، فلا بدّ أن تكون ديانة كبيرة شملت العالم قبل اليهودية، والنصرانية، والإسلام لتغطّي هذه المساحة من الأرض، فقد أخذت عن اليونان حكمتها، وخلّدت في الشرق الأدنى هياكلها، ثم استعارت لغة الهند، وانتهت بأن عبّرت عن نفسها في أقاصي الصين، بوصفها ضامنة للمعرفة الأولى.

بدل الانتقاص يُفَضَّل الحديث عن عقيدة فنيت في العقائد الأخرى، وتلاشت فيها، وكانت جذورًا لها ومنابع، وذابت كثير من عناصرها في تلك العقائد التي ورثتها، كما ترث الأديان بعضها بعضًا في كلّ زمان وكلّ مكان، فلم تكن عقيدة مغلقة تنتهي صلاحيتها بانقضاء عصرها، إنّما أعادت تشكيل نفسها في قلب العقائد الكبرى التي ظهرت في إثرها، ووجدت لها تجلّيات في سائر تلك العقائد التي تسعى جاهدة للتخلُّص من أصول مزعجة. واستنطاق النص سيُظهر التنوُّعات الخفيّة للصابئة التي أراد العمري أن يدفع بها إلى منطقة النسيان. يضع خبر الصابئة بين أيدينا الطريقة المشوبة بالاحتقار للعقائد القديمة التي جبّها الإسلام، فكل ما لا نرغب فيه يجب طمره إلى الأبد، أو إبعاده عن المكان الذي تخيّم فيه العقيدة الخالدة. إلى ذلك، فما وصلنا عن الصابئية جاء بـ«مخاريق».

٢. مخاريق محشوّة:

يلزمنا الوقوف على الوسيلة التي بلغتنا بها المعتقدات الصابئية، لنحكم على قيمتها وأهمّيّتها: لقد وصلت بـ«المخاريق». تقطر كلمة «المخاريق» بدلالات

الذم والانتقاص ، ففي المعجم العربي تقترن بالكذب ، والاختلاق ، والتزييف ، فالمَخرق هو الممَوَّه ، والخرق هو الكذب ، والحمق ، والجهل ، والتخريق هو المبالغة في الكذب ، والتخرّق خلق الكذب واشتقاقه . والمخاريق خرقٌ مفتولة يلهو الصبيان بها ، ولا قيمة لها .

وإذا غادرنا المعجم إلى بعض المصادر وجدنا دعمًا للمعنى المذكور ، فالمرزوقي يرى أن المخراق خشبة ، في رأسها سنان عريض كان القوم إذا انصرفوا من حرب ظافرين قدّموا بشيرًا ، معه مخراق ليعلم الحال ، فيلوح به لاجتماع ولدان الحيّ[1] . وفي كتاب «الأغاني» ترد مرادفة للريبة والشكّ «إن مخاريق الأمور تُريبُ»[2] . لكن الجاحظ ، في إحدى رسائله ، دفع بالمعنى إلى مستوى أكثر دقّة ، فالمخاريق هي أكاذيب العرّافين ، وهي أشبه بتزاويق الكهّان ، وتهويلات الحواة[3] .

أمّا الثعالبي فربط التخريق بالشعوذة ، وهي تصوير الباطل في صورة الحقّ[4] . ولهذا سنفهم ، بصورة لا تقبل اللبس ، لماذا ذهب القاضي التنوخي إلى وصف الحلاّج ، بأنه «صاحب مخاريق ، يظهرها كالمعجزات ، ويستغوي بها جهلة الناس»[5] . ينتهي بنا الأمر إلى أن العمري- ومن قبْله البكري ، والمسعودي ، وطبقة كاملة من الجغرافيين- يريدوننا أن نقرّ بأن كل ما للصابئة محمول بمخاريق ، وأن طقوسهم الدينية ، في هياكلهم المقدّسة ، هي سلوك أخرق فيه من الطيش ، واستغواء الجهلة ، والحمق ، والخداع ، الشيء الكثير .

لا يُكتفى بالمخاريق ، إنما الصابئة من «حشوية اليونان» . تتّهم بالحشوية كل

(١) المرزوقي ، الأزمنة والأمكنة ، ص٩٠٥ .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، ص١٣٧٧٧ .

(٣) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، ص٣٠٤ .

(٤) الثعالبي ، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، ص٥١٧ .

(٥) أبو المحسن التنوخي ، نشور المحاضرة وأخبار المذاكرة ، ص١٩٠ .

الفرق المخالفة التي عُدَّت ضالّة ، وتسبّبت في إحداث بدع غريبة في الإسلام ، وترتبط في أصلها بفكرة «الحشو» . فحشوة الإنسان : أمعاؤه . وكلّ ما في البطن هو حشوة . وحشو الكلام هو الفضل الذي لا يُعتَمَد عليه ، وحشوة الناس هم رذّالهم ، فما تؤمن به الحشوية يتّصل بالأحشاء وما تحتويه ، وبعيدة كلَيّةً عن الأفكار السامية التي منبتها الأذهان والعقول . تقبع أفكار الحشوية في الأسافل العفنة . إنها حشو كروش ، وكلّ الأفكار العليا بَراء منهم ، فلا تحصيل لهم غير ما يكون من فساد الأحشاء ، لا من صفاء العقول .

عقد ابن النديم ، عن الصابئة ، فصلاً في «الفهرست» ، فوصمهم بـ«الجهالة»[1] . يتّصل الجهل بالتسافُه ، وإضاعة الحقّ ، والإفساد ، وباعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه . أمّا صاحب «طبقات الشافعية الكبرى» فألحَقهم بالمشبّهة ، أي من القائلين بالتشبيه ، والتجسيم ، وعدّهم أصحاب عقيدة سرّية لا يُجهر بها ، بل تُدسّ إلى جهلة العوامّ ، وانتهى إلى أنه «مِن أنكر المنكرات التجسيم والتشبيه ، ومن أفضل المعروف التوحيد والتنزيه»[2] . وبالإجمال ، فصورة الحشوية شائنة في المخيال الإسلامي ، فهم مشبّهة ، ومجسّمة ، ومن الأراذل ذوي الاعتقادات الفاسدة التي تلحق ضررًا بالعقيدة الصحيحة ، إنهم من أخطر أصحاب البدع!

لننظر الآن في قيمة عقيدة دينية تحملها لنا «مخاريق محشوّة» . فإذا كان العمري وسواه من الجغرافيين ، والمؤرّخين ، ومؤلّفي كتب «المِلَل والنِّحَل» يريدون تعريفنا بالفرق المختلفة ، فإنما يضعون بيننا وبينها كدسًا من «المخاريق المحشوّة» التي ستحول دون أن نطمئنّ إلى أهميتها ، وذلك لا يلزمنا معرفتها ، بل التخلُّص منها كما تتخلّص الأجساد السليمة من حشوها الفاسد . ولا يقتصر الأمر على العمري ، فمهما أجّلنا النظر في المرويّات القديمة التي انتدبت نفسها

---

(١) انظر كتاب «الفهرست» .

(٢) ابن قاضي شهبة ، طبقات الشافعية ، ج٨ ، ص ٢٢٧ و٢٢٣ .

للتعريف بالجماعات والعقائد غير الإسلامية خارج دار الإسلام وداخلها ، فسوف نواجَه بستار سميك من التجهيل يحول دون ملامستنا المباشرة لحقيقة تلك الجماعات والأديان ، إذ تراكم تراث من الانتقاص والنظرة الدونيّة لكل ما يغايرنا ، ولا يمتثل لنظام القيم السائد لدينا ، ولا يستقيم الأمر بدون نظرة نقدية تفكّك ركائز ثقافة الكراهية ليقع قبول الآخر .

أوضح المسعودي طبيعة مخاريق الصابئة التي تستخدم لإصدار أصوات توهم بأنها خاصّة بالآلهة ، وذلك في سياق تلخيصه قصيدة طويلة لمعاصره القاضي الحرّاني ابن عيشون ذكر فيها مذاهب الصابئة ، وتطرّق إلى بيت عبادتهم في حرّان ، وما فيه «من السراديب الأربعة المختلفة لأنواع صور الأصنام التي جعلت مثالاً للأجسام السماوية ، وما ارتفع من ذلك من الأشخاص العلوية ، وأسرار هذه الأصنام ، وكيفية إيرادهم لأطفالهم إلى هذه السراديب ، وعرضهم لهم على هذه الأصنام ، وما يُحْدِث ذلك في ألوان صبيانهم من الاستحالة إلى الصُّفْرة وغيرها ؛ لما يسمعون من ظهور أنواع الأصوات ، وفنون اللغات من تلك الأصنام والأشخاص ، بِحِيل قد اتُّخذتْ ، ومنافيخ قد عُملتْ : تقف السدَنةُ من وراء جُمُر فتتكلّم بأنواع من الكلام ، فتجري الأصوات في تلك المنافيخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور المجوّفة والأصنام المشخّصة ، فيظهر منها نطق على حسب ما قد عُمِل في قديم الزمان ، فيصطادون به العقول ، وتسترَقُّ بها الرقاب ، ويقام بها الملك والممالك»[1] .

خلص المسعودي إلى أن ذلك سلوك مروّع ينتهك الطفولة البريئة ، ويُخدَع به الجميع ، فتقام بذلك الممالك على أسس باطلة . وقرّر الشهرستاني أن ذلك ممّا يختصّ به الصابئة دون سواهم ، فقد «استخرجوا من عجائب الحِيَل المرتَّبة على عمل الكواكب ما كان يقضي منهم العجب . وهذه الطلسمات المذكورة في

---

(١) مروج الذهب ، ص٢٦٧ .

الكتب ؛ والسحر ، والكهانة ، والتنجيم ، والتعزيم ، والخواتيم ، والصور . . كلّها من علومهم .»[1] .

تتواتر أخبار تشبك الطقوس الدينية للصابئة بأعمال السحر والشعوذة ، وكلّ ذلك لا يستند إلى دليل ؛ فالكتاب المقدَّس للصابئة «الكنز ربا» حذّر صراحة من ذلك «لا تستشيروا العرّافين ، والمنجّمين ، والساحرين ، والكاذبين ، في أموركم ؛ مخافة أن يُرمى بكم ، أسوة بهؤلاء ، إلى الظلمات» . ولو خيّل لرواة الأخبار المذكورة أن ذلك ربّما يكون من عمل الشيطان ، فكتاب الصابئة يحذّر من إبليس كما تحذّر منه سائر الكتب السماوية «احذروا أن يستحوذ على قلوبكم الشيطان المملوء بأحابيل السحر والخداع والغواية» .

ربطت اللغة العربية الصابئة بالفعل «صبأ» على نحو يُراد به الذمّ ، فدلالة الفعل تذهب إلى معنى الظهور ، والطلوع ، والخروج ، واختصّ في سياق التداول بكل مَنْ «خرج من دين إلى دين» . وكانت العرب تسمّي الرسول بـ«الصابئ» لأنه «خرج من دين قريش إلى الإسلام» . فالمعنى يحيل على الاهتداء إلى الحق ، ونبذ الباطل ، لكن حينما يتّصل الأمر بـ«الصابئة» فينبغي تحريف المعنى ليوافق المواقف المسبقة تجاههم ، إذ يُفهم من السياق كأنهم خرجوا عن دين ، وانحاشوا عنه ، وارتدّوا عنه ، وزعموا أنهم على دين نوح كذبًا . إسقاط دلالة فعل عربي مستحدث للتعبير عن عقيدة قديمة جداً ، يؤدّي ، لا محالة ، إلى تزييف القصد ، فالصابئة لا علاقة لها بمعنى الفعل العربي ، إنما التسمية مستوحاة من فعل بالآرامية ، يدلّ على التعميد والغطس بالماء الحيّ ، والانغمار فيه ، قاصدين بذلك تنقية الروح من الدنس ، والحفاظ على طهارتها في الدنيا ، فما تلبث أن تلتحق بربها إثر فناء الجسد ؛ فالصابئة في سياق الثقافة الآرامية هم «المتعمّدون» بالماء ، والتطهُّر بالجاري منه جزء أساسي في طقوسهم الدينية ، ولهذا سكنوا ضفاف الأنهار ، والبطائح .

---

(١) الشهرستاني ، المِلَل والنِحَل ، ص١٠٤ .

ينبغي أن نتجنّب هذه العثرات التي ترمَى أمامنا ، كيلا نصل إلى الصابئة بسلام ، وإذا امتثلنا لذلك فسوف نُحجَز وراء رغبة كلٍّ من العمري ، والبكري ، والمسعودي ، والشهرستاني ، وسواهم ، ولا نبلغ هدفنا أبدًا ؛ فالأدب الجغرافي شتّت شمل الصابئة ، ولم يَرُق له أن يمكثوا جماعة متلازمة في دار الإسلام . ولكي نقترب إلى محمول الخبر ، ونلمّ عناصره ، ونكتشف حبكته الخاصّة بخزائن الكتب الأولى في العالم ، فلا بدّ أن نزيح من أمامنا هذه الشِّباك ، لنرى تدفُّق مجرى الحقائق ، بطريقة مختلفة تمامًا .

٣. إقرار بدون اعتراف:

تقبع تحت خبر الصابئة الذي أورده الجغرافيون إحدى أكثر القضايا إثارةً للجدل ، في علاقة المسلمين بغيرهم من أصحاب العقائد ، داخل دار الإسلام ، وكما أن الخبر ذكر كتب العالم الأولى ، ولم يعرّف بها ، فالثقافة الإسلامية أقرّت بوجود الصابئة ، لكنّها تعترف بهم ، وما برحت قضيتهم معلّقة في الفضاء اللاهوتي الإسلامي ، بطريقة لا تبتعد كثيرًا عمّا يستبطن من نصّ العمري وغيره من الجغرافيين الذين أوردوا أخبار المِلَل الأخرى . لنتمعّن ، بادئ ذي بدء ، في المفارقة الآتية : المسلمون لم يقرّوا بعقيدة الصابئة على أنها من عقائد أهل الكتاب ، بدلالة عدم فرض الجزية عليهم كما فرضت على أولئك ، وفي الوقت نفسه لم يفتكوا بهم عندما لم ينخرطوا في الإسلام إذ ظلوا على عقائدهم القديمة . وهذا أمر يثير العجب ، والدهشة ، والحيرة ، طبقًا للمعايير اللاهوتية السائدة في القرون الوسطى .

حينما نطوف في المظانّ القديمة نجد تضاربًا منقطع النظير حول الصابئة ، لكن آية الجزية خصّت أهل الكتاب دونهم ؛ أي أولئك الذين اعتُرف بأن لهم كتبًا سماوية : **﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾** التوبة-٢٩ . وغير أهل الكتاب من الكفّار الذين

ينبغي سفك دمائهم إن لم يدخلوا الإسلام، أو يدفعوا الجزية، فينطبق عليهم حكم الآيتين: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ..﴾ محمد-٤، و﴿فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ..﴾ التوبة-٥.

تتنزّل قضيّة الصائبة بين حكمين واضحين: فمن جهة أولى لم تؤخذ منهم الجزية، وهذا ما ينبغي على أهل الكتاب القيام به في دار الإسلام، وقد خُصّ بذلك اليهود والنصارى، ومن جهة ثانية، لم يقع الاعتراف لهم بدين سماوي، فينطبق عليهم حكم ضرب الرقاب، لكن، لم يفتك بهم بسبب ذلك. ومع كلّ مظاهر النبذ والإقصاء التي تعرّضوا إليها بدا الموقف الديني غامضًا تجاههم، ولم يُتّفق بشأنهم، إذ لم يُشمَلوا بأحكام غير المسلمين، ولم يقبلهم المسلمون جزءاً منهم، فعاشوا عالقين في منطقة غامضة، بين أهل الكتاب، والمسلمين.

كيف وقع التعارض بين الوجود الفعلي للصابئة في دار الإسلام دون أن يدفعوا جزية، ودون أن يُعترف لهم بدين؟ أي: كيف مرّوا بين حكم ديني يقول بقتلهم، وحكم دنيوي يقول بحمايتهم؟ عند هذه النقطة يجب القول إن القرآن أشار إلى الصابئة في ثلاث سور: قال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة-٦٢. لقد أدرجتهم هذه الآية مع أهل الكتاب، وفيهم، كما في أولئك، مَنْ آمن بالله واليوم والآخر، ومَنْ لم يؤمن بذلك. ثم جاء قوله تعالى في سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ الحج-١٧.» وفي هذه الآية إقرار بأن الله سيفصل يوم القيامة بين ثلاث مِلل، هي: المسلمون، ثم اليهود والصابئة والنصارى والمجوس، ثم المشركون الذين يعبدون الأصنام. ثم جاء قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ

وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ المائدة-٦٩ .

وفي جميع الآيات القرآنية وقع التذكير بالصابئة في سياق المؤمنين ، وقد بدأت الآيات ، بمنحاها التكراري ، بتعميم مبدأ الإيمان عليهم وعلى سواهم . وبحسب التقسيم القرآني جاء الصابئة ضمن ما عرف بـ«أهل الكتاب» ويستدعي ذلك اعترافًا بأن لهم كتابًا سماويًا يحثّهم على الإيمان بالآخرة ، ممّا يوجب أن عقائدهم إيمانية . فإذا كان جرى اعتراف صريح باليهود والنصارى بوصفهم أهل كتب ، فلمَ لم ينسحب ذلك على الصابئة؟ ثم إن إدراجهم في فئة أهل الكتاب يوجب عليهم الجزية تبعًا لما وقع على أقرانهم من اليهود والنصارى والمجوس . ولم يثبت أنها فُرضت عليهم ، أو أنهم دفعوها بمقتضى حكم الجزية ، ولا تُذكَر إلاّ حالة افتداء بالمال في عهد الخليفة العباسي القاهر بالله .

أكثر من جمعَ حشد الآراء حول الصابئة هم المفسِّرون في سياق تفسيرهم للآية التي ذكرتهم في سورة «البقرة» مع المؤمنين من اليهود والنصارى بالله واليوم الآخر ، إذ أورد الطبري اختلاف المتأوّلين في المِلَل التي تقع تحت تسمية «الصابئة» ، وعرض للمرويّات الشائعة عنهم ، وفيها نجد ضروبًا من الاتفاق والاختلاف ، فالصابئ هو «مَنْ خرج من دين إلى دين» ، وينصرف اللفظ إلى «قوم لا دين لهم» . وهم «ليسوا بيهود ولا نصارى ولا دين لهم» ، إنما «بين المجوس واليهود ، لا تؤكل ذبائحهم ، ولا تُنكح نساؤهم» . وليس لهم «لا كتاب ولا نبيّ إلاّ قول لا إله إلاّ الله» ، وقيل إنهم : «يعبدون الملائكة ، ويصلّون إلى القبلة ، ويقرؤون الزبور» . وطبقًا لقول ابن عباس فإن الله وعد مَنْ عمل صالحًا من اليهود والنصارى والصابئين بالجنّة ، ثم نسخ ذلك بقوله : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ آل عمران-٨٥ . وإلى هذا يضيف ابن كثير أنهم قوم «يؤمنون بالنبيّين كلّهم» . وهم «موحّدون» ، وباقون على فطرتهم ، «ولا دين مقررًا لهم يتبعونه ، ويقتفونه» .

وذهب وهب بن منبّه إلى أن «الصابئ» هو الذي «يعرف الله وحده ،

وليست له شريعة يعمل بها ، ولم يُحدث كفرًا» . وأورد القرطبي أنهم «فرقة خرجوا من دين أهل الكتاب» ، ثم عاد ووافق بعض المفسِّرين على أنهم «من أهل الكتاب» ، وانتهى إلى القول إنهم «موحّدون معتقدون بتأثير النجوم ، وأنّها فعّالة» . ويلاحظ أن ثلاثة من كبار المفسّرين اكتفوا ببعض المواقف الشائعة عن الصابئة . وبالنظر إلى عدم الاتفاق في التعريف ، فمن الصعب ادّعاء الاعتراف . وحالة عدم الاعتراف الشرعي بالصابئة أفضت إلى الحديث عن موقعهم في دار الإسلام ، وكيفية التعامل معهم ، والمرويّات الغزيرة بشأنهم تفوح منها ضروب لا تحصى من الكراهية .

عقد ابن القيّم الجوزية في كتابه «أحكام أهل الذمة» فصلاً بعنوان «حكم الصابئة بالنسبة إلى الجزية» قال فيه : «اختلف الناس فيهم اختلافًا كثيرًا ، وأشكل أمرهم على الأئمّة لعدم الإحاطة بمذهبهم ودينهم ، فقال الشافعي : هم صنف من النصارى . وقال في موضع : ينظر في أمرهم ، فإن كانوا يوافقون النصارى في أصل الدين ، ولكنهم يخالفونهم في الفروع ، فتؤخذ منهم الجزية ، وإن كانوا يخالفونهم في أصل الدين لم يُقرّوا على دينهم ببذل الجزية . واختلف أصحابه ، فقال أبو سعيد الإصطخري : ليسوا من النصارى ، ولا يجوز إقرارهم على دينهم . قال : لأنهم يقولون : إن الفلك حيّ ناطق ، وإن الكواكب السبعة آلهة ، فهم في حكم عَبَدة الأوثان . واستفتى القاهر بالله العباسي الفقهاء فيهم ، فأفتاه أبو سعيد أنهم لا يُقرون ، فأمر بقتلهم ، فبذلوا مالاً عظيمًا فتركهم . . . وعن مجاهد ، قال : هم قوم بين اليهود والمجوس ليس لهم دين . . . وعن قتادة ، قال : الصابئة قوم يعبدون الملائكة . . . وقال ابن زيد : الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون : لا إله إلاّ الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلاّ قول : لا إله إلاّ اللّه . قال : ولم يؤمنوا برسولٍ لله ، عَزّ وجَلّ . . وعن قتادة : هم يعبدون الملائكة ، ويصلّون ناحية القِبلة ، ويقرؤون الزبور . . وعن السدّي : هم طائفة من أهل الكتاب . وقال ابن جرير : الصابئ المستَحدثُ سوى دينه ديناً ، كالمرتدّ من أهل الإسلام عن دينه ، وكلّ خارج من

دين كان عليه إلى آخَر غيره تسمّيه العرب صابئًا . .»

ثم يتقدّم ابن القيّم الجوزية برأيه ، من أجل زحزحة هذا الالتباس «الصابئة أمة كبيرة ، فيهم السعيد والشقي ، وهي إحدى الأمم المنقسمة إلى مؤمن وكافر ، فإن الأمم قبل مبعث النبي . .نوعان : نوع كفّار أشقياء كلهم ، ليس فيهم سعيد ، كعبدة الأوثان والمجوس ؛ ونوع منقسمون إلى سعيد وشقيّ ، وهم اليهود والنصارى والصابئة» . ثم يستطرد مفصلاً أمر الصابئة «هذه أمّة قديمة قبل اليهود والنصارى ، وهم أنواع : صابئة حنفاء ، وصابئة مشركون . قالوا : وطريقنا في التوسّل إلى حضرة القدس ظاهر ، وشرعنا معقول ، فإن قُدَمانا مِن الزمان الأول لمّا أرادوا الوسيلة عملوا أشخاصًا في مقابلة الهياكل العلوية ، على نسب وإضافات وأحوال وأوقات مخصوصة ، وأوجبوا على من يتقرّب بها إلى ما يقابلها من العلويّات لباسًا وبخورًا وأدعية مخصوصة ، وعزائم يقرّبونها إلى ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب . . . فهذا بعض ما نقله أرباب المقالات عن دين الصابئة ، وهو بحسب ما وصل إليهم ، وإلا فهذه الأمّة ، فيهم المؤمن باللّه وأسمائه وصفاته وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وفيهم الكافر ، وفيهم الآخذ من دين الرسل بما وافق عقولهم واستحسنوه فدانوا به لما رضوه لأنفسهم . وعقد أمرهم أنهم يأخذون بمحاسن ما عند أهل الشرائع بزعمهم ، ولا يُوالونَ أهل ملّة ، ويعادون أخرى ، ولا يتعصّبون لِملّة على مِلّة .

والمِلَلُ عندهم نواميس لمصالح العالم ، فلا معنى لمحاربة بعضها بعضًا ، بل يؤخذ بمحاسنها وَما تكمل به النفوس وتتهذّب به الأخلاق ، ولذلك سموا صابئين ، كأنهم صبؤوا عن التعبد بكل ملة من المِلَل والانتساب إليها . .وبالجملة : فالصابئة أحسن حالاً من المجوس ، فأخذ الجزية من المجوس تنبيه على أخذها من الصابئة بطريق الأوْلى ، فإن المجوس من أخبث الأمم دينًا ومذهبًا ، ولا يتمسّكون بكتاب ، ولا ينتمون إلى ملّة ، ولا يثبت لهم كتاب ، ولا شبهة كتاب أصلا . وكل ما عليه المجوس من الشرك ، فشرك الصابئة إن لم يكن أخفّ منه ، فليس بأعظم منه» . وبعد هذه التوطئة التفصيلية ، ينتهي ابن القيّم

الجوزية إلى القول : «فإن قيل : فهل للإمام أن يستسلف منهم الجزية؟ قلنا : ليس له ذلك إلاّ برضاهم ، كما ليس له أن يستسلف الزكاة إلاّ برضا ربّ المال ؛ بل الجزية أولى بالمنع ، فإنها تسقط بالإسلام وبالموت»(١) .

وجدت هذه المساجلة لها مكانة خاصّة في الممارسة اليومية لحياة الصابئة في دار الإسلام . قال ابن الفوطي : «الصابئة قوم من عَبَدة الكواكب يسكنون في البلاد الواسطية (منطقة واسط ، في العراق) لا ذمّة لهم ، وكان في قديم الزمان لهم ذمّة ، فاستفتى القاهر بالله أبا سعيد الإصطخري ، من أصحاب الشافعي ، في حقّهم ، فأفتاه بإراقة دمائهم ، وألاّ تقبل منهم الجزية ، فلمّا سمعوا بذلوا له خمسين ألف دينار ، فأمسك عنهم . وهم اليوم لا جزية عليهم ، ولا يؤخذ منهم شيء ، وهم في حُكم المسلمين»(٢) . لقد جعلتْهم دنانيرهم مسلمين حُكمًا .

إشارة ابن الجوزية إلى أن الصابئة أفضل من المجوس تعيد نقاشنا إلى الوراء ، فإذا كانوا أفضل منهم فلِمَ لم تؤخذ الجزية منهم؟ ولِمَ لم ينطبق عليهم ما وقع على المجوس؟ تفتح قضيّة المجوس أفقًا آخر للاحتمالات ، فقد حسب عامّة المسلمين المجوس أصحاب ديانات ثنوية مشركة ، ومع ذلك ، فُرضت عليهم الجزية ، وعوملوا معاملة أهل الكتاب استنادًا إلى حديث منسوب إلى الرسول يقع تضعيفه جاء فيه : إن الرسول كتب إلى مشركي مكة : «أسلموا وإلا نابذتكم بحرب» . فكتبوا إليه ، وهو في المدينة : «أن خذ منا الجزية ، ودعنا على عبادة الأوثان» . فكان ردّه عليهم : «إني لست آخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب» . فكتبوا إليه : «زعمت أنك لا تأخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب ، ثم أخذت الجزية من مجوس هجر» . فردّهم قائلاً : «إن المجوس كان لهم نبي فقتلوه ، وكتاب أحرقوه ، أتاهم نبيهم بكتابهم في اثني عشر ألف جلد ثور» . وبذلك شمل

---

(١) ابن القيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ص٣٢-٣٣ .

(٢) ابن الفوطي ، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ، ص ١٩ .

المجوس ، فيما يخصّ الجزية ، بحكم أهل الكتاب ، فقد كان لهم كتاب أتلف ، ورسول لا يُعرَف عنه شيء ، فقد طمست النوائبُ الرسولَ وكتابه الكبير الذي جاء باثني عشر ألف جلد ثور . وعرف لاحقًا بأنه «زرادشت» . ولكن لم يرد نصّ بخصوص الصابئة في أحاديث الرسول ، وهم أقدم من المجوس ، و-ربّما- يعود إلى أنه توفّي وهم بعد خارج دار الإسلام ، فلم يحدّث في أمرهم .

٤. يا يحيى خذ الكتاب بقوة:

تضع سورة الحج الصابئة ضمن أصحاب الديانات ، وتأويلها -بوصفهم أصحاب كتاب- سيدرجهم ضمن أهل الجزية ، والإبقاء عليهم أحياء بدون دخول الإسلام يُفَسَّر على أنهم مشركون ، وهذا يعني عدم الأخذ بحكم ضرب الرقاب في الآية القائلة بقتل المشركين ممن ضلوا السبيل ، وأبَوا دخول الإسلام . ومع ذلك ، لا بدّ أن نمضي في التأويل بناءً على تغليب الظن بقرائن ، تضعها الآية المذكورة بين أيدينا ، فقد رأينا كيف أن الآية فصلت بين فئات ثلاث ، وجاء الصابئون ضمن فئة أهل الكتاب ، وعدم الإقرار بوجود كتاب لهم ليس دليلاً على عدم وجوده بإطلاق ، فربما كان لديهم كتاب يجهله المسلمون ، وربّما كان شأنهم شأن المجوس في ذلك ، فلِمَ لم يعامَلوا معاملة «مَنْ له شبهة كتاب»؟ (وقد نفى ذلك عنهم ابن الجوزية) .

ثمّة أية في سورة «مريم» ربما تضيء لنا جانبًا من هذه العتمة التي جعلها الفقهاء تخيّم على الصابئة ، فقد ورد قوله تعالى : ﴿**يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا**﴾ مريم-١٢ . فما هو الكتاب الذي قيل للنبيّ يحيى بن زكريا أن يأخذه بقوّة؟ (هو يوحنّا المعمدان الذي قام بتعميد المسيح في نهر الأردن ، فقد جاء في الإصحاح الثالث من إنجيل متى : ثم جاء يسوع من منطقة الجليل إلى نهر الأردن ، وقصد إلى يوحنا ليتعمّد على يديه . لكن يوحنا أخذ يمانعه قائلا «أنا المحتاج أن اتعمّد على يديك ، وأنت تأتي إليّ!» ولكن يسوع أجابه : «اسمح الآن بذلك! فهكذا يليق بنا أن نتمّ كلّ برّ» عندئذ سمح له) .

في تفاسير القرآن يشار إلى أن ذلك الكتاب هو التوراة ، ولكن من المعروف أن التوراة ، والإنجيل ، قد خُصّا بنبيّين آخرين ، لهما رسالتان معروفتان ، أفلا يرجّح أن يكون المقصود كتابًا خَصّ به الله يحيى ، كما خص أنبياءه الآخرين؟

ورد ذكر يحيى خمس مرات في أربع سور ؛ ففي «آل عُمران» اعترف بأنه جاء «مُصدِّقا بكلمة من الله» . وكان «نبيًا من الصالحين» . وطبقًا لتفسير الطبري ، فالمقصود أنه كان «رسولاً لربّه إلى قومه ، ينبئهم عنه بأمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، ويبلغهم عنه ما أرسله به إليهم» ، وفي سورة «الأنبياء» عُدّ يحيى «هبة الله» . وأدرج في سورة «الأنعام» ضمن «الأنبياء الصالحين» . ويعرف عن يحيى بأنه «نبي متألّه» . وهو عند الصابئة الرباني الأكبر بين جميع الأنبياء والرسل ، ولهم كتاب مقدس بعنوان «تراتيل يحيى» . وقد ذكرته الأناجيل في سياق التعظيم والتبجيل ؛ ففي «مرقس» ورد أنه «نبيّ أو كأحد الأنبياء» . وفي «متّى» أنه «كان عندهم مثلَ نبيٍ» . وفي «لوقا» تختلط صورته بصورة المسيح «كان الشعبُ ينتظرُ والجميعُ يفكّرون في قلوبهم عن يوحنّا لعله المسيحُ» ، وفي «يوحنا» يُشدّد على أنه ليس المسيح ، إنما نبيّ آخر مرسَل ، فقال لتلاميذه : «لستُ أنا المسيحَ بل إني مُرسَلٌ» . لقد اعترف القرآن والإنجيل بأنه نبيّ مرسَل . فأين كتابه الذي أرسل لتبليغه؟

لم يُحدَّد كتاب يحيى إلاّ على سبيل الترجيح الذي يفرضه سياق تفسير الآية ، إذ لم يُسمَّ الكتاب بنص قرآني كما وقع للتوراة والإنجيل والزبور ، ومعلوم أنه باستثناءات قليلة تنكر كثير من العقائد وجود كتب صحيحة لغيرها ، وإن اعترفت بها فتلحّ على تحريفها ، أو عدّها نوعًا من الهرطقة ، فكل عقيدة تعرض خلاصًا مقيدًا بها يقوم على أنقاض خلاص سابق جرى تخطّيه وإهماله ، ولهذا فالأفضل البحث عن أمر وجود الكتب السماوية من داخل العقيدة نفسها ، وقد آن لنا أن نقترب إلى كتب الصابئة التي ألمح إليها القرآن إلماحًا ، ولم يُصَرِّح بها ، فللصابئة كتاب «كنزا ربّا» (ويكتب أحيانًا كنزه ربّه) وهو «مصحف يحيى» الذي يُحتَمَل أن يكون القرآن قد قصده . وبعض فرق الصابئة تنسب الكتاب

لـ«شيت» أو «إدريس» ، بل ينسب أحيانًا إلى «آدم» ، ويسمّى «سدرا- آدم» ؛ أي «سِفر آدم» . وحتى لو نُسِب الكتاب لإدريس ، فالأخبار تورد أنه أول من بُعث من بني آدم ، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة .

سُمّي كتاب الصابئة المقدّس بـ «الكنز العظيم» أو «الكنز الكبير» أو «كنز الله» أو «كتاب آدم» . وتعدُّد التسميات جاء بسبب تضارب الترجمة من الآرامية ، والاختلاف بين رواية وأخرى نجد له نظيرًا في تسمية الأناجيل المتعدِّدة ، والاختلافات فيما بينها ؛ فالروايات الشفوية المختلفة للأصول تفرض اختلافًا في المتون ، ومعلوم أن جمع القرآن وتدوينه في مصحف موحَّد قد أوقف تعدُّد رواياته في الأمصار . يماثل كتاب «الكنزا ربّا» الكتب السماوية المعروفة ، ففيه الرواية الكونية عن الخلق منذ آدم ، حيث توالى نزول الصحف على الأنبياء من ذرّيته بعده ، وتتخلَّل تلك الرواية شذرات من مواعظ اعتبارية ، وتضرُّعات ، وأدعية ، وترغيب ، وترهيب ، ويتألَّف الكتاب من قسمين الأوّل ينحو منحًى تاريخيًا يتعقّب مسار الأحداث منذ المبتدأ ، والثاني عن خلود النفس وسعادتها ، وكيفية تدبُّر أمرها .

يقرّ مذهب الصابئة بأن «الكنزا ربّا» أوّل كتاب سماوي عرفته الخليقة ، ففيه صحف آدم ، ولا سابق له في التاريخ ، وهذا يتوافق مع مذهب بعض الباحثين في تاريخ الديانات الذين يرون بأن الصابئية أول ديانة توحيدية عرفتها البشرية . وللصابئة ، فضلاً عن كتاب «الكنزا ربّا» كتاب «تراتيل يحيى» . وهو مواعظ تنسب إلى يحيى ، ثم كتاب «الديوان» . وكتاب «سفر البروج» ، وهو في الفلك والتنجيم ، وهم يعظّمون الكواكب ، ويرَونها مواطن الملائكة . وعند مؤرخي المِلَل القدماء لا تقترن الصابئة بعدم وجود كتاب سماوي لهم إنما بتعدد الآلهة ، الأمر الذي يفسِّر انتشارهم بين مشارق الأرض ومغاربها ، من الصين إلى اليونان ، مع الأخذ بالحسبان أن أولئك المؤرِّخين يخلطون كثيرًا في المعلومات ، منطلقين من كونها فرقًا ضالّة ، فلا يدخروا وسعًا في انتقاصها ؛ وذلك تسبَّبَ في تشويش المعلومات عن كلّ تلك الفرق ، بما فيها الصابئة .

تعرّضَ الصابئة للقدح والذم . قال المسعودي بأنهم من «عوّام اليونانيين ، وحَشْوِية الفلاسفة المتقدمين»[(١)] ، وفرّق ابن القيم الجوزية بين مؤمني الصابئة وكفّارهم ، فقال عن الأخيرين بأنهم زنادقة ، وملاحدة ، وبأنهم «لا يؤمنون بالله ، ولا ملائكته ، ولا كتبه ، ولا رسله ، ولا لقائه ، ولا يؤمنون بمبدأ ولا مَعاد ، وليس للعالم عندهم ربّ فعّال بالاختيار لما يريد ، قادر على كلّ شيء ، عالم بكلّ شيء ، آمرٌ ، ناه ، مرسل الرسل ، ومنزّل الكتب ، ومثيب المحسن ، ومعاقب المسيء»[(٢)] . وقال المقريزي بأنهم «القائلون بالهياكل ، والأرباب السماوية ، والأصنام الأرضية ، وإنكار النبوّات»[(٣)] ، لكن ابن حزم ، في سياق ذكره للأمم المؤمنة ، رأى الأمور من منظار مختلف ، فقال إن اليهود والنصارى أقرّوا بالتوحيد ، ثم بالنبوّة ، وبآيات الأنبياء ، وكذلك ، أقرّ «الصابئة والمجوس . . . ببعض الأنبياء»[(٤)] .

على أن خير من فصّل في ذلك الشهرستاني في استطراد لا تنقصه الدقّة «وكانت الفرق في زمان إبراهيم الخليل راجعة إلى صنفين اثنين : أحدهما الصابئة ، والثاني : الحنفاء . فالصابئة كانت تقول : إنا نحتاج : في معرفة الله تعالى ، ومعرفة طاعته ، وأوامره ، وأحكامه : إلى متوسّط ؛ لكن ذلك المتوسّط يجب أن يكون روحانيًا لا جسمانيًا ؛ وذلك : لزكاء الروحانيات ؛ وطهارتها ؛ وقربها من ربّ الأرباب ، والجسماني بشر مثلنا : يأكل ممّا نأكل ، ويشرب ممّا نشرب ؛ يماثلنا في المادّة والصورة . . . وإنما مدار مذهبهم على التعصُّب للروحانيين ، كما أن مدار مذهب الحنفاء هو التعصُّب للبشر الجسمانيين . والصابئة تدعي : أن مذهبها هو الاكتساب ، والحنفاء تدعي : أن مذهبها هو

---

(١) مروج الذهب ، ص٣٥ .

(٢) ابن القيم الجوزية ، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، ص ٦ .

(٣) المقريزي ، المواعظ والاعتبار ، ص١٠٨٥ .

(٤) ابن حزم ، الفصل في المِلَل والأهواء والنِحَل ، ص٥٩ .

الفطرة . فدعوة الصابئة إلى الاكتساب ، ودعوة الحنفاء إلى الفطرة»[1] . فالحنفية والصابئية ديانة واحدة تختلف رموزها ، ويتماثل محتواها ، وقد أقرّ الإسلام رموز الأحناف ، ولم يقرّ رموز الصابئة ، ويفهم من ذلك ضمنًا أنه أقر بالمحتوى الواحد لهما ، ومعلوم أنّ الحنفية تمثّل المشترك الأعلى للديانات السماوية الكبرى .

ثم قدّم ابن تيمية مسردًا بالأمم الكافرة غير المنكرة لله «فالكفار المشركون مقرون بأن الله خالق السموات والأرض وليس في جميع الكفّار مَنْ جعل لله شريكًا مساويًا له في ذاته وصفاته وأفعاله ، هذا لم يقله أحد قط ، لا من المجوس الثنوية ، ولا من أهل التثليث ، ولا من الصابئة المشركين الذين يعبدون الكواكب والملائكة ، ولا من عباد الأنبياء والصالحين ، ولا من عباد التماثيل والقبور ، وغيرهم ، فإن جميع هؤلاء ، وإن كانوا كفارًا مشركين متنوعين في الشرك ، فهم يقرّون بالربّ الحقّ الذي ليس له مثل في ذاته وصفاته وجميع أفعاله ، ولكنهم ، مع هذا ، مشركون به في ألوهيته ، بأن يعبدوا معه آلهة أخرى يتّخذونها شركاء أو شفعاء ، أو في ربوبيّته بأن يجعلوا غيره ربّ الكائنات دونه مع اعترافهم بأنه ربّ ذلك الربّ ، وخالق ذلك الخالق»[2] . وأضاف بأن الصابئة «يقرّون بواجد الوجود الذي صدرت عنه العقول ، والنفوس ، والأفلاك ، والأرض»[3] .

وقرّر صاحب «أبجد العلوم» أنّ الصابئة «يقولون بحدود وأحكام عقلية ، ربما أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيّد بالوحي»[4] . وفي «التعاريف» أن الصابئة «قوم يزعمون أنهم على دين نوح عليه»[5] . وإلى ذلك تذهب معظم المعاجم العربية .

---

(١) المِلَل والنحل ، ص : ٧٢ و٨٥ .

(٢) جامع الرسائل ، ص١٧ .

(٣) م . ن ، ص ٢٤٨ .

(٤) أبجد العلوم ، ج١ ، ص ٦٦ .

(٥) التعاريف ، ج١ ، ص ٤٤٥ .

وهذا التضارب مفهوم في سياق ثقافة شفوية ، تقوم على تجميع نبذ الأخبار دون التحقُّق من أمرها ، وكما رأينا في خبر ابن فضل الله العمري ، فسياقه الشفوي يجمع أخبارًا وأقاويل ، وليس من شأنه التدقيق ، وتكاد المؤلَّفات القديمة تتشارك في هذه الصفات . دعونا نعُد إلى نقطة البدء ، بدء العقائد ، فالحديث عن العقيدة الصابئية يقودنا إلى أقدم الديانات ؛ أي إلى أصلها جميعًا . وأكد القلقشندي ذلك القِدَم ، بقوله : «والسريان أقدم الأمم في الخليقة ، وكانوا يدينون بدين الصابئة ، وينتسبون إلى صابئ بن إدريس . . . ، وقال ابن حزم : ودينهم أقدم الأديان على وجه الأرض . . . وكانت منازلهم أرض بابل من العراق ، وقال المسعودي : وهم أوّل ملوك الأرض بعد الطوفان»[١] .

أشار السيوطي إلى القِدَم التاريخي للصابئة ، ولكنه جعل من مصر القديمة موطنهم قبل أن تعم الأرض «تنبّأ إدريس وهو ابن أربعين سنة ، وأراده الملك محويل بن أخنوخ بن قابيل بسوء فعصمه الله ، وأنزل عليه ثلاثين صحيفة ، ودفع إليه أبوه وصيّة جدّه ، والعلوم التي عنده ، ووِلده بمصر ، وخرج منها ، وطاف الأرض كلّها ، وكانت ملّته الصابئة ، وهي توحيد الله والطهارة والصلاة والصوم ، وغير ذلك من رسوم التعبُّدات . وكان في رحلته إلى المشرق أطاعه جميع ملوكها ، وابتنى مئة وأربعين مدينة ، أصغرها الرها ، ثم عاد إلى مصر فأطاعه ملكها ، وآمن به ، فنظر في تدبير أمرها ، وكان النيل يأتيهم سيحًا ، فينحازون من مساله إلى أعلى الجبل والأرض العالية حتى ينقص ، فينزلون فيزرعون حيثما وجدوا الأرض ندية ، وكان يأتي في وقت الزراعة وفي غير وقتها ، فلمّا عاد إدريس جمع أهل مصر ، وصعد بهم إلى أول مسيل النيل ، ودبّر وزن الأرض ووزن الماء على الأرض ، وأمرهم بإصلاح ما أرادوا ، من خفض المرتفع ورفع المنخفض وغير ذلك ممّا رآه في علم النجوم والهندسة والهيئة»[٢] .

---

(١) صبح الأعشى ، ص٩٢٠ .

(٢) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ص٩ .

طاف إدريس الأرض، وأطاعته ممالك الشرق، ووصل إلى عمق إفريقية حيث منابع النيل، وقرّر ابن العماد الحنبلي الآتي: «مات إدريس بمصر، والصابئة تزعم أن هرمَيْ مصر، أحدهما قبر شيث، والآخر قبر إدريس»[1]. وذكر ياقوت الحموي، بخصوص الهرمين، أنه «إليهما تحج الصابئة، وكانا -أولاً- مكسوين بالديباج، وعليهما مكتوب «وقد كسوناهما بالديباج فمن استطاع بعدنا فليكسهما بالحصير»[2]. وبحسب قول المقريزي، فـ«قد كان يُحَجّ إليهما، ويهدى إليهما من أقطار البلاد»، كما أن الصابئة كانت تعظّم أبا الهول[3] الرابض بجوارهما كأنه يحرسهما، فإذا صحَّت كلّ هذه المعطيات، وأُخِذ بالحسبان قِدَم الصابئية، يكون حجّ الصابئة للأهرام أول حج عرفه أبناء آدم، وتلك هي القِبلة الأولى، وعن ذلك تناسلت سائر ضروب الحجّ في الديانات الأخرى، بما فيها تعظيم الهياكل وبيوت الله في أكثر من مكان، فالحجّ إليها هو التقرّب إلى الخالق بالوصول إلى المكان الذي يعتقد أنه فيه، فتلك بيوت الله، مهما تعدَّدت أشكالها، ومواقعها، وطقوس العبادة فيها. ذلك ما يمكن الخلوص إليه في كلّ قراءة تتحرّى الدقّة والموضوعية للمصادر القديمة التي حملت إلينا أخبارًا متناثرة عن الصابئة.

٥. ترميم النصّ وترميم الجماعة:

عرضنا جانبًا من ذخيرة المعلومات التي أمكن الوصول إليها، وترميمها، في المظانّ الجغرافية والمظانّ الفقهية، وانتهت إلى أن الصابئية ديانة يحيى أو إدريس (تختلف طوائف الصابئة في الأنبياء من آدم إلى يحيى) وهي أول الديانات، وتقول بتوحيد الله، والطهارة، والصلاة، والصوم، وغير ذلك من العبادات،

---

(١) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج٢، ص ١٠٨.

(٢) معجم البلدان، ص١٨١٥.

(٣) المواعظ والاعتبار، ص١٥٤.

وذلك يتعارض مع شتات المعلومات التي نثرها العمري الذي يزعجه التجسيم والتشبيه . وتذهب الثقافة المتعالمة إلى أن غالبية المسلمين لا يقولون بوجود وسيط بين الإنسان والله ، فالعلاقة مباشرة ، وشفافة ، وتجريدية ، وسندها الإيمان الصادق ، وكل محاولة للعثور على وسيط تعني- بمعنى من المعاني- الهروب من الارتباط المباشر بالخالق ، والانشغال بسواه ، فالله حالة أثيرية متعالية على التجسيد ، وتشخيصها يدفع إلى الشرك ، وبما أن الصابئة يجعلون لله هيكلا (علمًا أن للمسلمين هيكلاً لله هو الكعبة ، وكذلك الأمر في سائر الأديان) فينبغي إدراجهم في خانة المشركين .

هذا أول ما نلاحظه في نصّ العمري ، وأوّل ما نواجهه ؛ إذ يبلبلنا الخبر ، فهم يبنون هياكل لأشياء مختلفة في المكانة والقداسة ؛ فَهياكل الله ، والعقل ، والصورة ، والنفس ، جاءت مستديرات الأشكال . أمّا هياكل الكواكب والنيّرَين فجاءت على أشكال مختلفة من التسديس ، والتثليث ، والتربيع . فكرة الدائرة وفكرة الأشكال الأخرى المختلفة عنها مهمة ، فالدائرة تضعنا في مسار لانهائي ، فيما الأشكال الأخرى تحجزنا في نطاق حركة محدودة ومنتهية ، بعبارة أخرى إن الله وتجلّياته المترشّحة عنه تقودنا إلى الحركة المطلقة ؛ أي إلى التجريد التامّ ، أمّا الكواكب فتنتهي بنا إلى طريق مغلق . فإذا ما أخذنا بهياكل الله وتجلياته ، وقد أخذت شكلاً مستديرًا ، فهذا سينتهي بنا إلى ما يقرّه الإسلام حيث الدوران حول الكعبة (المكعبة) ، ولكن العمري لا يريد ذلك ، فيدفع بنا إلى الأشكال المغلقة ، ويربطها بالكواكب التي يراها موضوع عبادة الصابئة . وهم لا يقدسونها إنما يجلونها اعتقادًا منهم بأنها مساكن الملائكة ، وقد حذّرت الصابئية من عبادة الكواكب ؛ جاء في «الكنزا ربّا» ما نصّه : «لا تسبّحوا للشمس والقمر» . وللكواكب والنجوم والأفلاك مكانة كبرى في الأديان السماوية ، وتُقسم كثير من الديانات بالكواكب ، وهذا ليس دليل عبادة ، إنما دليل توقير ، يتّصل بالتصوُّر «الكوسمولوجي» للكون ، وللمؤمنين بكلّ ديانة طقوس في التعبير عن ديانتهم .

أدرج العمري وسواه من الجغرافيين قضية «المخاريق» في سياق الذم ، والانتقاص ، وهو يعلم أنّ عامّة المؤمنين في كلّ العقائد ، تقريبًا ، يريدون تجسيدًا يقرب إليهم فكرة الله ، ويكتفي خاصّتهم بالتجريد ، كما فعل الصابئة في زمن إبراهيم بين قائلين بالتجسيم وقائلين وبالتنزيه ، ففكرة الله رفيعة لمن يدركها عقليًا ، وليس من اللائق تجسيدها ، ولهذا يلجأ سدنة الصابئة إلى دغدغة العامّة بأصوات بشرية ، تمرّ عبر «مخاريق» ، يتوهّمها العامّة أنها صوت الله ، فيخيَّل لمن يصغي بأن الآلهة هي التي تتكلم ، وبما أن العامّة يرَونها مجسَّدة لحقيقية المعاني المعبّرة عنها ، فيتوهمون أن الله ، أو سائر القوى الأخرى ، هي التي تخاطبهم . فينغمر العامّة في مزيد من العبادة . وهذا عند العمري أسلوب شنيع في الشرك والخداع .

ينبغي ، الآن ، معرفة ما يحتويه مخزن «الكتب الأولى ، وتاريخ الدنيا ، وعلوم السماء لما كان ، ويكون» إذ أهمل العمري ذكرها لأنه انشغل بالقدح . هذه الكتب ، طبقًا للصابئة ، هي الكتب الأولى ، كنوز الله ؛ ففيها تاريخ الدنيا ، وكيفية تكوينها ، وفيها علوم السماء من فلك وتنجيم ، وقد طُمِرت كلّها في بئر تبتلع من ينكبّ عليها ، فيندقّ رأسه هاويًا في قعرها ، لأنها تتضمن علومًا سرّية ، يضَنّ بها على غير أهلها ، ومن يفكّ شيفراتها له أن يبلغ «خزائن رغائب هذا العالم» ؛ وعليه «لا يصل إلى الدخول إليها ، والاقتباس ممّا فيها إلاّ من وازت قدرته قدرتنا ، وعلمه علمنا» . إنها معرفة محظورة ، جرى التكتُّم عليها ، وحجبها عن غير أهلها ، والصابئية ليست عقيدة تبشير ، وهي تكتفي بأتباعها الذين تناقصوا عبر العصور ، وليس من أهدافها الدعوة والانتشار ، وطقوسها سرّية ، وغامضة على غير أهلها .

تحدّث العمري باسم الجماعة الإسلامية عن عقيدة مجهولة بالنسبة إليه ، فلفّها بالمخاريق المحشوّة ، وطمرها في قعر بئر في أقصى شرق الصين . ومن يتجرأ على كشف مستور تلك الكتب فسيُدَقّ عنقه في القعر العميق للبئر المسبعة . وقبل أن يجازف عليه أن يقرأ التحذير المكتوب بقلم السند هند (أو المسند) .

وعلينا تصوُّر السبب الذي يدعو فضوليًا لأن يرتحل إلى الصين بحثًا عن كتب مكتوبة بلغة الهند ، وقد طمرت في بئر ، وهو يعرف أنه سيتهوّر على رأسه ، إن انكبّ في محاولته للنزول إليها .

أراد العمري تخريب عقيدة ، فعرضها بتركيب خبر مهلهل ، قصد فيه أن يمرِّر موقفًا من الآخر ، إذ لا سبيل ، بل لا أهمّيّة ، لمعرفة عقيدة وسيلتها المخاريق ، وهدفها التجسيم ، وغايتها الإشراك بالله ، وكتبها مجهولة ، بل مدفونة في بئر تتعالى منه نذر الموت ، في أقصى الأرض . اختزل هذا الضرب من التعريف الصابئةَ إلى ضالّين ، كأن القرآن لم يشر إليهم في آيات ثلاث ، وكأنهم لم يكونوا أهل طهارة يتعمّدون بالماء الحيّ ، ويعدّونه ركنًا حيويًا في تطهُّرهم ليكونوا مستعدّين أمام الله ، وكأنهم ليسوا من أوائل الموحّدين . كلّ هذا يسكت عنه خبر العمري ، وبه يستبدل معلومات مفككة وغير منسجمة توافق المرويّات التي خُصَّت بها الملل الأخرى . ومهما اعترضتنا من عوائق تسعى إلى طمس الفكرة الأصلية المحتدمة تحت نصّ العمري ، فلا تُضِل العين البصيرة تدفُّق الحقائق من ثقوب النصّ .

كان المسعودي قد تعرّض لموضوع الصابئة قبل العمري بقرون عدة ، وبتفصيل أشمل «وقد ذكر جماعة- ممّن له تأمُّل بشأن أمور هذا العالم ، والبحث عن أخباره- أن بأقصى بلاد الصين هيكلاً مدوّرًا له سبعة أبواب ، في داخله قبة مسبّعة عظيمة الشأن عالية السمك ، في أعالي القبّة شبه الجوهرة يزيد على رأس العجل تضيء منه جميع أقطار ذلك الهيكل ، وأن جماعة من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فلم يَدْنُ أحد منها على مقدار عشرة أذرع إلاّ خَرَّ ميتًا وإن حاول أحد منهم أخذ هذه الجوهرة بشيء من الآلات الطوال كالرماح وغيرها ، وانتهت إلى هذا المقدار من الذّرْع ، انعكست ، وعُطِّلت ، وإن رُمِيت بشيء كان كذلك ، فليس شيء من الحيل يؤدي إلى تناولها بوجه ولا بسبب ، وإن تُعُرِّض لشيء من هَدْم هذا الهيكل مات مَنْ يروم ذلك . وهذا عند جماعة من أهل الخبرة لقوة دافعة منفردة قد عملت من أنواع الأحجار المغناطيسية .

وفي هذا الهيكل بئر مُسَبَّعة الرأس متى أكَبَّ الإنسان على رأس البئر إكبابًا متمكّنًا تهوّر في البئر ، فصار في أسفلها على أمّ رأسه ، وعلى رأس هذه البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم ، أراه بقلم المسند «هذه بئر تؤدّي إلى مخزن الكتب ، وتاريخ الدنيا ، وعلوم السماء ، وما كان فيما مضى من الدهر ، وما يكون فيما يأتي منه ، وتؤدّي هذه البئر أيضًا إلى خزائن رغائب هذا العالم ، لا يعمل إلى الوصول إليها والاقتباس منها إلاّ من وازت قدرته قدرتنا ، واتَصل علمه بعلمنا ، وصارت حكمته كحكمتنا ، فمن قدر على الوصول إلى هذا المخزن ، فليعلم أنه قد وازانا ، ومن عجز عن الوصول إلى ما وصفنا ، فليعلم أنّا أشدّ منه بأسًا ، وأقوى حكمةً ، وأكثر علمًا ، وأثقب رايةً ، وأتمّ عناية» . والأرض التي عليها هذا الهيكل والقبّة ، وفيها البئر أرض حجرية صلبة عالية من الأرض كالجبل الشامخ لا تُرَام قلعته ، ولا يتأتى نقب ما تحته ، فإذا أدرك البصر ذلك الهيكل والقبّة والبئر وقع للرائي عند رؤيته ذلك جَزَع ، وحزن ، واجتذاب للقلب إليه ، وحنين على إفساده ، وتأسُّف على إفساد شيء منه أو هدمه»[1] .

يمتنع الهيكل الصابئي عن الطمس ، ويمتنع عن الاكتشاف ، فهو يربض في سامق من الأرض ، في أقصى شرق العالم ، بسبعة أبواب ، وعليه منارة تعلوها جوهرة مشعّة تنير جوانبه ، تمتنع عن أن تسرق ، مهما احتيل لذلك . وكل من رام تخريب الهيكل مات وهلك ، وهنالك بئر عميقة تفضي فتحتها إلى مخزن الكتب الأولى ، كتب آدم ، وإدريس ، ويحيى . ولا سبيل للهبوط إليها إذ يندق رأس كل من يحاول ذلك ، والتحذير الذي وضع على فوهتها كفيل بمنع أية محاولة ، وهنالك لا توجد كتب الحقائق الأولى فحسب إنما «خزائن رغائب العالم» . ولبلوغ ذلك المقام المهيب ينبغي الصعود إلى أعلى والهبوط إلى أسفل في حركة متعارضة ، فالهيكل على قمة جبل لا تُرام قلعته ، وكل من يراه يخالجه أغرب شعور «جَزَع ، وحزن ، واجتذاب للقلب إليه ، وحنين على

---

(١) مروج الذهب ، ص ٢٦٧ .

إفساده ، وتأسَّف على إفساد شيء منه أو هدمه» .

في معظم ما رُوِي عن الجماعات المغايرة ، في دار الإسلام ، وفي خارجها ، لا نعثر على نصوص متماسكة اختصّت بها ، واقتصرت عليها ، وأفاضت في تمثيلها ، إنما هي أخبار متناثرة في بطون المظانّ القديمة ، ومنها ما أدرج في سرود الارتحال . وقع تمزيق للموضوع ، ولتمثيلاته السرديّة ، واتُفِق على مبدأ الانتقاص على خلفية سجال ، دار حول مواقع المِلَل والنِّحَل الأخرى من منظورات فقهية وتاريخية . والحال هذه ، ففكرة الملل والنحَل تكشف بذاتها منظورًا يبعد عنها أمر التماسك الذي اقتصر على الجماعة الإسلامية . وقد رسم صورتها خصوم عقائديون صدروا في مواقفهم عن مرجعيّات معيارية ثابتة رسَّخها الرحّالة بصور مجتزأة ، انتُقيت لتسوّغ مواقف أولئك الخصوم ، فلا يلوح منها إلاّ التفرُّق ، والتشتُّت ، فتلك الجماعات لا تعتصم بشيء ، ولا تترابط بعُرى فيما بينها .

يقصد بمفهوم المِلَل والنِحَل شرائع وعقائد ، شاعت بين أمم لم تطوّر تماسكًا بنيويًا يصونها ، وكثير منها انتحل لنفسه ما كان لسواه ، وعدّ كلٌّ ذلك انتقاصًا في تأهيلها . لكن القراءة الاستنطاقية لن تتعثَّر بمثل هذه الصعاب ، فعملية إعادة تشكيل الصور اعتمادًا على الشذرات ، والقطع السرديّة المتناثرة ، تتخطّى ذلك ، إذ يمكن لها أن تركّب سياقًا أشمل تُلمُّ أطرافه من شتات المرويّات والمدوّنات ، وهو سياق يعيد تحديد موقع تلك الجماعات ، بوصفها الكابح الذي يمثِّله الآخر ، فيما يريد التمثيل السرديّ إقراره من تمزيق مقصود .

(*) استقيت النصوص الأصلية لمادّة هذا الفصل من مكتبة الورّاق الإلكترونية .

الفهـــارس

كشاف المصطلحات

كشّاف المواقع والبلدان

كشّاف الأمم والقبائل والجماعات

كشّاف أسماء الكتب الواردة في المتن

البيت	الشاعر	الصفحة
شرّقَ حتى ليس للشرق مشرق وغرّبَ حتى ليس للغرب مغربُ	المتنبي	٧٨
عربيٌّ لسانه ، فلسفيٌّ رأيه ، فارسية أعيادهْ	المتنبي	٧٨
فغرّبتُ حتى لم أجدْ ذكرَ مشرقٍ وشرّقتُ حتى قد نسيتُ المغاربا	أبو تمام	٧٧

المصادر والمراجع

١. المصادر

الإدريسي ، محمد بن محمد الصقلّي(٥٦٠هـ=١١٦٥م)

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بيروت ، ١٩٨٩

الإصطخري ، أبو إسحاق إبراهيم الكرخي(٣٤٦=٩٥٧)

- المسالك والممالك ، ليدن ، مطبعة بريل ، ١٩٣٧

الأصفهاني ، أبو الفرج(٣٥٦=٩٦٧)

- الأغاني(موقع الورّاق)

ابن بطوطة ، أبو عبدالله محمد(٧٧٩=١٣٧٧)

- رحلة ابن بطوطة ، تحقيق عبدالهادي التازي ، المغرب ،١٩٩٧

- رحلة ابن بطوطة ، تحقيق طلال حرب ، بيروت ، دار الكتب العلمية

البكري ، أبو عبيد عبدالله(٤٨٧=١٠٩٤)

- المسالك والممالك ، تحقيق فان ليوفن ، أندري فيري ، تونس ،١٩٩٢

البلاذري ، أبو جعفر أحمد بن يحيى(٢٧٩=٨٩٢)

- فتوح البلدان ، القاهرة ، ١٩٥٩

البلخي ، أبو زيد أحمد بن سهل(٣٢٢=٩٣٢)

- المسالك والممالك ، ليدن ، بريل ، ١٩٣٧(ملحق بكتاب الإصطخري)

البيروني ، أبو الريحان محمد بن أحمد(٤٤٠=١٠٤٨)

- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ،حيدر آباد ، ١٩٥٨

التنوخي ، أبو المحسّن(٣٤٨=٩٥٩)

- نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة(موقع الوراق)

ابن تيمية ، أحمد تقي الدين أبو العباس(٧٢٨=١٣٢٧)

- جامع الرسائل(موقع الوراق)

الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك(٤٤٩=١٠٣٨)

- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب(موقع الوراق)

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر(٢٥٥=٨٦٩)
- رسائل الجاحظ(موقع الوراق)
ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني(٦١٤=١٢١٧)
- رحلة ابن جبير ، بيروت ، دار صادر
أبو حامد الغرناطي ، محمد بن عبد الرحيم الأندلسي(٥٦٥=١١٧٠)
- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق إسماعيل العربي ، بيروت- المغرب .
ابن حزم ، أبو محمد علي(٤٥٦=١٠٦٤)
- الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل(موقع الوراق)
أبو حكيمة ، راشد بن إسحاق(٢٤٠=٨٥٣)
- ديوان أبي حكيمة ، تحقيق محمد حسين الأعرجي ، ألمانيا ، كولونيا ١٩٩٧
الحميري ، أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم(٩٠٠=١٤٩٥)
- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ،١٩٨٠
ابن حوقل ، أبو القاسم محمد (توفي بعد ٣٦٧ =بعد ٩٧٧)
- صورة الأرض ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٣٩
ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبد الله(توفي بين ٢٨٠و٣٠٠=حوالي ٨٩٢-٩١٣)
- المسالك والممالك ، بعناية م . ج . دي خويه ، ليدن ، بريل ، ١٨٨٩
ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد(٨٠٨=١٤٠٦)
- مقدمة ابن خلدون ، بيروت ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات .
الدمشقي (شيخ الربوة) محمد بن أبي طالب الأنصاري(٧٢٧=١٣٢٧)
- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، بغداد ، مكتبة المثنى .
الرام هرمزي ، بزرك بن شهريار (توفي بعد ٣٤٠=بعد ٩٥٠)
- كتاب عجائب الهند ، تحقيق فان دي ليث ، ليدن ، بريل ، ١٨٨٣-١٨٨٦

ابن رسته ، أبو علي أحمد بن عمر(توفي حوالي٣٠٠=حوالي٩١٢)

- كتاب الأعلاق النفيسة ، ليدن ، بريل ، ١٨٩٣

رضا ، الإمام محمد رشيد(١٣٥٤= ١٩٣٥)

- رحلات الإمام محمد رشيد رضا ، تحقيق يوسف إيبش ، بيروت ، ١٩٧١

ابن سعيد المغربي ، علي بن موسى الأندلسي(٦٨٥=١٢٨٦)

- كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، بيروت .

السيرافي ، أبو زيد (القرن ٤ الهجري =العاشر الميلادي)

- رحلة السيرافي ، تحقيق عبدالله الحبشي ، أبو ظبي ، ١٩٩٩

السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن(٩١١=١٥٠٥)

- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة(موقع الوراق)

الشهرستاني ، أبو الفتح عبد الكريم(٥٤٨=١١٥٣)

- الملل والنحل ، القاهرة ، ١٩٦٨

ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي(١٠٨٩=١٦٧٨)

- شذرات الذهب (موقع الوراق)

أبو الفداء ، إسماعيل بن علي(٧٣٢=١٣٣١)

- تقويم البلدان ، اعتنى به رينود وديسلان ، باريس ،١٨٤٠

ابن فضل الله العمري ، شهاب الدين أحمد(٧٤٩=١٣٤٨)

- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، القاهرة

ابن فضلان ، أحمد بن العباس بن راشد بن حمّاد(ق٤هـ=ق١٠م)

- رسالة ابن فضلان ، جمع وتقديم حيدر محمد غيبة ، بيروت ،١٩٩٤

ابن الفوطي ، عبد الرزّاق بن أحمد(٧٢٣=١٣٢٣)

الحوادث الجامعة والتجارب النافعة(موقع الوراق)

ابن قاضي شهبة ، أبو بكر بن أحمد بن محمد(٨٥١=١٤٤٧)

- طبقات الشافعية(موقع الوراق)

قدامة بن جعفر ، أبو الفرج(٣٣٧=٩٤٩)

- نبذ من كتاب الخراج ، وصنعة الكتابة(ملحق بكتاب ابن خرداذبه)

القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود الأنصاري(٦٨٢=١٢٨٣)

- آثار البلاد وأخبار البلاد ، بيروت ، ١٩٦٩

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، بيروت ، ١٩٨١

القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي(٨٢١=١٤١٨)

- صبح الأعشى (موقع الوراق)

القنوجي ، صدّيق بن حسن(١٣٠٧=١٨٩٠)

- أبجد العلوم (موقع الوراق)

ابن القيِّم الجوزية ، أبو عبدالله شمس الدين(٧٥١=١٣٥٠)

- أحكام أهل الذمة(موقع الوراق)

- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى(موقع الوراق)

المسعودي ، علي بن الحسين بن علي(٣٤٦=٩٥٧)

- أخبار الزمان ، بيروت ، ١٩٧٨

- التنبيه والإشراف ، بيروت ، ١٩٦٥

- التنبيه والإشراف ، تحقيق دي خويه ، ليدن ، ١٨٩٤

- مروج الذهب ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ،١٩٦٤

المقدسي ، شمس الدين أبو عبدالله(حوالي ٣٨٠= حوالي٩٩٠)

-أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غويه ، ليدن

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي(٨٤٥=١٤٤٢)

-المواعظ والاعتبار(موقع الوراق)

المناوي ، محمد عبد الرؤوف(١٠٣١=١٦٢٢)

- التوقيف على مهمّات التعاريف(موقع الوراق)

المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن(٤٢١=١٠٣٠)

- الأزمنة والأمكنة(موقع الوراق)

ابن النديم ، أبو الفرج محمد(٣٨٠=٩٩٠)
- الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، ١٩٧١
الهمداني ، أبو محمد الحسن بن يعقوب(٣٣٤=٩٤٥)
- صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن الأكوع ، صنعاء ،١٩٩٠
ابن الوردي ، أبو حفص عمر بن مظفر(٧٤٩=١٣٤٨)
- خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة
الوزّان ، الحسن بن محمد الفاسي(٩٥٦=١٥٤٨)
- وصف إفريقية ، ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر ، الرباط ،١٩٨٠
ياقوت الحموي ، أبو عبدالله شهاب الدين(٦٢٦=١٢٢٩)
- معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر
اليعقوبي ، أحمد بن إسحاق بن جعفر(بعد ٢٩٢=بعد ٩٠٥)
- كتاب البلدان ، بريل ، ليدن
- تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر

٢. المراجع

إبراهيم (عبدالله)
- الثقافة العربية المرجعيّات المستعارة ، بيروت ، ١٩٩٩
- المركزية الغربية ، بيروت ، ١٩٩٧
أرسطو
- السياسة ، ترجمة أحمد لطفي السيد ، القاهرة ، ١٩٧٩
أركون(محمد)
- نزعة الأنسنة في الفكر العربي ، ترجمة هاشم صالح ، لندن ، ١٩٩٧
أفاية(محمد نور الدين)
- الغرب والمتخيَّل ، بيروت ، المركز الثقافي العربية ، ٢٠٠٠

بارتولد(فاسيلي)
- تركستان ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، الكويت ، ١٩٨١

بلاشير(ريجيس)
- أبو الطيب المتنبي ، ترجمة إبراهيم الكيلاني ، دمشق ، ١٩٨٥

بولو(ماركو)
- رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد ،القاهرة ،١٩٩٥

بيرك(جاك)
- حينما كنت أعيد قراءة القرآن ، ترجمة وائل غالي ، مجلة القاهرة ع ١٥٤

تودروف(تزفتيان)
- نحن والآخرون ، ترجمة ربى حمود ، دمشق ، دار المدى ، ١٩٩٨

خدوري(مجيد)
- القانون الإسلامي ، بيروت الدار المتحدة للنشر ، ١٩٧٥

خصباك(شاكر)
- في الجغرافية العربية ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٨

خصباك(شاكر) وآخرون
- موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ، بيروت ، ١٩٩٥

شاخت(جوزيف)
- تراث الإسلام ، شاخت وبوزوت ، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي ، الكويت ، ١٩٧٨

الطهطاوي(رفاعة رافع)
- الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، بيروت ، ١٩٧٣-١٩٧٤

العظمة(عزيز)
- العرب والبرابرة ، لندن ، ١٩٩١

علوي(س . م . ضياء الدين)
- الجغرافيا العربية ، تعريب عبدالله الغنيم وطه جاد ، جامعة الكويت ، ١٩٨٠
الفندي(محمد ثابت ، مترجم) وآخرون
- دائرة المعارف الإسلامية ، القاهرة ، دار الشعب
كراتشكوفسكي (أغناطيوس)
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، القاهرة
كيليطو(عبد الفتّاح)
- لسان آدم ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، الدار البيضاء ،١٩٩٥
لومبار(موريس)
- الإسلام في مجده الأول ، ترجمة إسماعيل العربي ، المغرب ، ١٩٩٠
لويس(برنارد)
- اكتشاف المسلمين لأوربا ، ترجمة ماهر عبد القادر محمد ، القاهرة ، ١٩٩٦
معلوف(أمين)
- الهويات القاتلة ، ترجمة نهلة بيضون ، دمشق ، ١٩٩٩
ميكيل(أندريه)
- الإسلام وحضارته ، ترجمة زينب عبد العزيز ، بيروت ، ١٩٨١
- جغرافية دار الإسلام البشرية ، ترجمة إبراهيم الخوري ، دمشق ، ١٩٨٥
هيغل(فريدريك)
- العقل في التاريخ ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، القاهرة ، ١٩٨٦

المحتويات

المحتويات



الدكتور عبد الله إبراهيم

- ناقد وأستاذ جامعيّ من العراق
- ولد في كركوك عام 1957
- نال درجة الدكتوراه من جامعة بغداد، عام 1991
- عمل أستاذًا للدراسات الأدبيّة والنقديّة في عدد من الجامعات العراقيّة والعربيّة.
- حصل على جائزة الملك فيصل العالميّة في الآداب، عام 2014
- حصل على جائزة الشيخ زايد في الدراسات النقديّة، عام 2013
- حصل على جائزة «عبد الحميد شومان» للعلماء العرب، لعام 1997
- باحث مشارك في الموسوعة العالميّة (Cambridge History of Arabic Literature)
- أصدر أكثر من عشرين كتابًا في مجال الدراسات السرديّة والثقافيّة.



من مؤلّفات الدكتور عبد الله إبراهيم

- عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 2007
- المطابقة والاختلاف، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 2005
- المركزيّة الإسلاميّة، بيروت، المركز الثقافيّ العربيّ، 2001
- المركزيّة الغربيّة، بيروت، المركز الثقافيّ العربيّ، 1997
- الثقافة العربيّة والمرجعيّات المستعارة، بيروت، المركز الثقافيّ العربيّ، 1999
- السرديّة العربيّة، بيروت، المركز الثقافيّ العربيّ، 1992
- المتخيَّل السرديّ، بيروت، المركز الثقافيّ العربيّ، 1990
- التفكيك: الأصول والمقولات، الدار البيضاء، 1990
- النثر العربيّ القديم، الدوحة، المجلس الوطنيّ للثقافة، 2002
- المحاورات السرديّة، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر، 2012
- التلقّي والسياقات الثقافيّة، بيروت، دار الكتاب الجديد، 2000
- السرد والترجمة، بيروت، دار الانتشار العربيّ، 2012

A B D U L L A H   I B R A H I M

E N C Y C L O P E D I A   O F   A R A B I C   N A R R A T I V E

موسوعة السرد العربيّ

احتلّ أدب الارتحال، وهو موضوع هذا الجزء من الموسوعة، موقعًا أساسيًا في السرد العربيّ، واقترن بـ «مغامرةٍ» خاضها الرحّالة في عوالم مختلفة عن عوالمهم، فخلّف ذلك سردًا ثقافيًا عُني بوصف تجارب التطواف مشتبكةً مع أحوال تلك العوالم؛ وقد نزع التمثيل السرديّ إلى التقريريّة، فلم تعد اللغة وسيلة إيحاء، بل أداة بحثٍ في القضايا الدينيّة والتاريخيّة والاجتماعيّة، فتجربة الارتحال تورّث الشغف والإثارة والفضول، لأنّها تشبع نزوعًا راسخًا، هو الأكثر شيوعًا عند بني البشر، تمثّله الرغبة في معرفة الأحداث الطريفة، ثمّ متعة التوغل في عوالم مجهولة، والسير في هدي الاحتمالات، وخوض مغامرة من دون اكتراث بالعواقب.

وبعد أن يتحقّق ميثاق السرد ـ ومضمونه الاكتشاف والدهشة ـ تعود الشخصيّة إلى عالمها الأوّل مؤثرةً الاستقرار، فتَشرَع في رواية ما وقع لها، وما شاهدت من أحوال الأمم الأخرى، ثمّ تستخلص القيم الاعتباريّة للتجارب التي تعرّفتها، وتجري غزارة السرد تعديلا على مغامرتها، فتعيّن مسارها منذ البداية إلى النهاية، وتُفصح عن مضمون التأكيدات والتأويلات حول العالم الذي طافت في أرجائه.



لوحة الغلاف: للخطاط ابراهيم أبو طوق


ISBN 978-9948-02-419-4

www.mbrf.ae

